

1571



315

OLIN

PJ

7561

D21

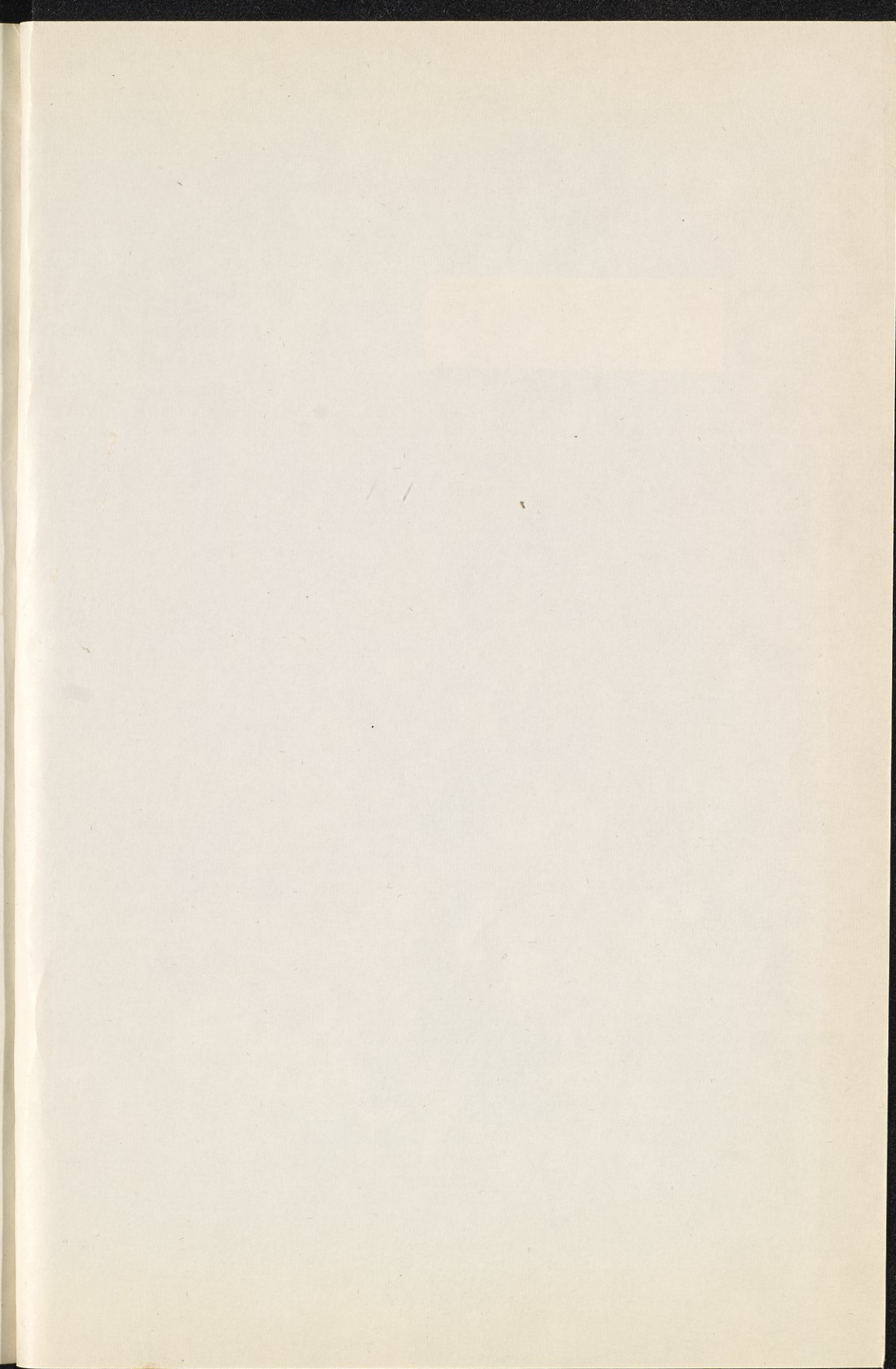
1963



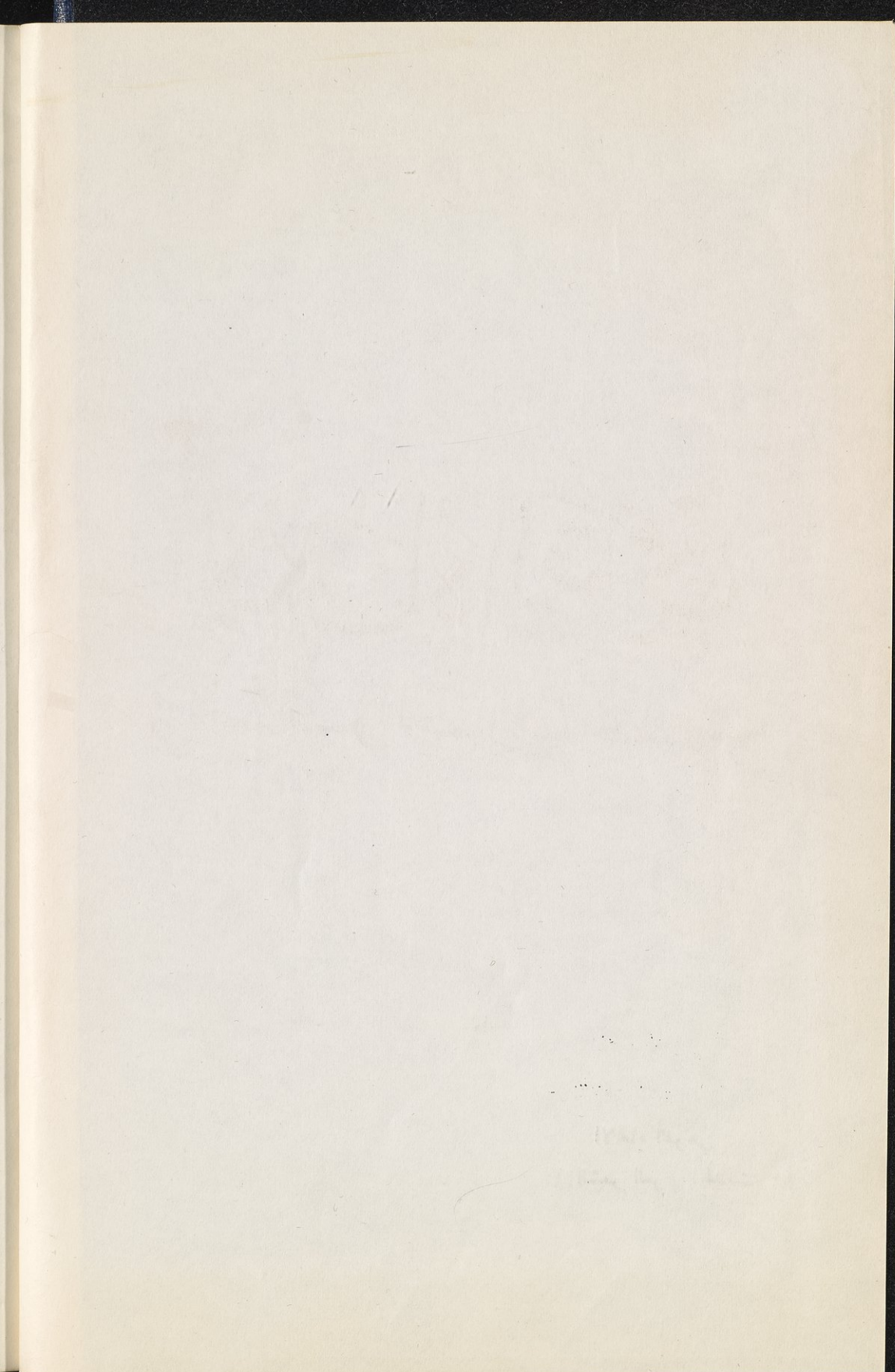
CORNELL UNIVERSITY LIBRARY



3 1924 068 907 033



الاتجاه القومي  
في الشعر العربي الحديث



Daggāg, 'Umar.  
"

al-Iḥtijāh al-qaumī fī al-shi'r al-mu'āṣir.

عُمَرَدَقَّاق

ماجستير في الآداب  
مفتش اللغة العربية وآدابها

# الاجتهاد القومي في الشعر العربي الحديث

دراسة تحليلية ترصد تيار القومية العربية وروافده  
في الشعر العربي بن الحريين للماليتين .

الطبعة الثانية

لشؤون توزيع  
مكتبة الشرق بجلب  
عبد السميع عفيفي



حازت هذه الدراسة درجة الماجستير  
بتقدير « ممتاز » من معهد  
الدراسات العربية العالية التابع  
لجامعة الدول العربية بالقاهرة

مكتبة جامعة القاهرة  
شيداء ليل سجال سجال

الطبعة الاولى : معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦١  
الطبعة الثانية : مكتبة دار الشرق ، حلب ١٩٦٣

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



## تقديم

الشعر من أعرق الموضوعات اتصالاً بوجودان الأمة التي تبده ، ومن الصق الأمور يلامح شخصيتها ومنازعا في حياتها .

ومنذ القدم امتاز العرب من سائر الأمم بشغف بالأدب لاحدله حتى كانت معجزة الاسلام فيهم أدبية . فقد خالط الشعر حياتهم وكان دور الشاعر فيها بالاجمال كبيراً وطيئناً! وقد روى عن الرسول انه قال « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين » وبحق مقاله ابن خلدون من أن « الشعر ديوان العرب » .

لقد عاش العرب على أديمهم القديم أثناء عصور الظلام فكان خير زاد لهم في محبتهم ، وأثمن دخر قومي صان كيانهم وعصمهم من اليأس .

ولسنا نعرف أمة تغفل الشعر في حياتها تغلغل في العرب . ونظرة واحدة إلى تراثنا الأدبي تجعلنا نحال ان جميع العرب شعراء ، فمن لم يمتلك موهبة نظم الشعر لا بد أن يتذوقه ويطرب له . وهكذا غدا الشعر ضمير الأمة العربية ، وسفر تاريخها ، ومجلى تفكيرها ومنازعها .

ثم ورث المحدثون عن أجدادهم شغفهم بالشعر وجنوحهم لأن يجعلوا منه عامل خير ورسالة تحرر في مجتمعهم الناهض . ولم يعد مفهوم الشعر لديهم في هذا العصر نزوعاً الى تجميل الاللوب والتأنق في التعبير والعناية بصروب البديع ، بل غدا ملازمة بين الجمال الفني الخالد الذي لا يختلف جوهره بين الشعر القديم والحديث وبين ذوق العصر التابع من واقع حياة الأمة وتفكيرها ومزاجها .

وتعد الفترة التي عاشها العالم جميعه والعالم العربي بوجه خاص بين الحربين العالميتين من أحفل الحقب وأثقلها بالأحداث . ففي خلالها انهارت نظم ودالات دول وقامت انتفاضات ونشبت ثورات . وكان أثر ذلك كبيراً في المجتمع العربي اهتزت له أعمق اهتزازاً سياسياً واجتماعياً وثقافياً كبيراً .

ولم يعد المجتمع الحديث بحيله الثائر يرضى للشعر أن يكون كالآية المرصعة تسر الناظرين برونقها وتفسير إعجابهم بعجيب صنعها . فالعربي اليوم بما اتسم به ذوقه وتفكيره من معالم الأصالة والوعي يطمح إلى أن يجد في الأدب صدق وجدانه وحياته وواقعه ، ويأمل أن يقع في الفن على ما يغذي روحه ويتجاوب مع أفكاره ومنازعه ، وهو آلامه وآماله باعتباره إنساناً قبل كل شيء ومواطناً ينتسب إلى شعب هو منه كالتخلية من الجسم . كالم يعد بوسع الأدب العربي أن يستمر في عزلته المديدة عن المجتمع وما يضطرب فيه دون أن يساير الحياة وأن يؤثر فيها ويتأثر بها .

وهكذا استجاب الأدب العربي الحديث على اختلاف فنونه لهذا التطور الخلاق في النفس العربية النزاعة إلى الواقسع ، فكان شعر اجتماعي وقومي يشكل أبرز ظاهرة فنية في تناجنا الأدبي الحديث .

وبذلك غداً الزاماً على كل من يؤرخ الحقبة الحديثة من تاريخ العرب الحافل ويتصدى لرصد وجدانهم الجماعي أن يلجأ إلى الأدب . فالفنون ، والشعر بوجه خاص ، مرآة صافية تنعكس على وجهها الصقيل صور نابضة من حياة الأمة وكفاحها وآلامها . وإن ما قاضت به قرائح الشعراء وما دبحته أقلام الكتاب ليس في جوهره إلا روح الأمة وسفر نضالها .

وبوحي من ذلك كله نشطت البحوث والدراسات الحديثة توالي المنازع الأدبية والفكرية والاجتماعية في حياة العرب اهتمامها . وكان معهد الدراسات العربية العالية في طليعة المؤسسات الثقافية التي نسدت نفسها لهذه الغاية ، ويعد إنشاؤه من أجل ما قامت به جامعة الدول العربية .

وما ففكرة هذه الرسالة في الأصل الا من وحي رسالة هذا العهد العتيد الذي يستمد نفع الحياة من المنازع الحية المتطورة في المجتمع العربي المعاصر ويشق طريقه قدما في ارساء دعائم الدراسات القومية الحديثة على أساس من التجرد العلمي والبحث المنزه بعد ان خالطها العاطفة وافسدها الهوى . ونحن احوج ما نكون في دراساتنا القومية والفنية الى نور العقل نكشف به عن الحقيقة لتجعل من ذلك منطلقا ركينا لحياتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية .

وهذا بحث عرضت فيه لمعالجة غرض بارز من اغراض شعرنا الحديث وهو الشعر القومي . وقد حرصت خلاله على تتبع مضمون هذا اللون من الشعر ورصد اتجاهه وما علق به من افكار وما اختلط به من مفاهيم وما رافده من روافد

وقد رأيت ان يشمل بحثي هذا ظاهرة الاتجاه القومي في الشعر الذي صدر عن شعراء الشرق العربي وبخاصة في مصر والشام والعراق . فقد وجدت ان هذه الاقطار ارض النضال وبعث الحركة الفكرية والادبية ، وموئل الشعر القومي . ولم اشأ ان يتد بحثي الى انحاء الشرق العربي كالسودان وريوع الجزيرة العربية املا في لمة اطراف البحث من جهة ، ولان مادة المصادر فيها ما تزال غير متوافرة ، عدا ان النتاج الادبي في هذه البلاد لا يكاد يختلف في جملته - كما بدا لي - عما ذكرنا من ادب الاقطار الاخرى . كما اني رأيت ان الشطر الآخر من العالم العربي المعروف بالشمال الافريقي او المغرب العربي يحتاج الى دراسات جدية كاملة تكشف عما كان لظروفه ومعضلاته من اثر في منازعه الفكرية والادبية التي بقيت امدأ طويلاً معزولة عن سائر العالم العربي .

ولم اجد بدأ من جهة اخرى من ربط ما قاله الشعراء العرب في مهجرهم بما صدر عن اخوانهم في الوطن بعد ان تبين ان شعرهم في هذا المجال كان امتداداً لشعر المشاركة يعالج قضاياهم ويتحسس بمشاعرهم ويتجاوب مع آلامهم وآمالهم ويؤلف معهم وحدة ثقافية وفكرية .

وقد بدا لي اول الامر ان الرقعة المكانية التي آثرتها بالدراسة شديدة الاتساع وانه من الخير ان اقتصر على دراسة الشعر القومي في سورية او مصر

او الشام لا كون اقدر على تعمق البحث ورصد دقائق الاتجاهات والنزاع ، إلا ان الاستاذ الكبير ساظف الحصري اشار علي بحق بأن هذا الاجتراء ليس محمودا في الدراسات القومية التي تعد الوحدة الثقافية والفكرية والاجتماعية من مقوماتها .

اما حدود الفترة الزمانية التي رأيت ان يبقى بحثي ضمنها فهي بين الحربين العالميتين ، ولم اجد من العالم والاعداث ما يضارع هذين الحدين اهمية وشمولا ، عدا ان الفترة بينها تعد مرحلة متميزة من المراحل الحاسمة في حياة العرب اتفقت في ابتدائها وانتهائها مع حدثين قوميين شاملين هما قيام الثورة العربية الكبرى إبان الحرب الاولي وانبثاق جامعة الدول العربية في اواخر الحرب الثانية . فضلا عن انها الفترة الحاسمة من حياة العرب الحديثة التي شهدت مد الاحتلال والمجسرة .

ومن جهة اخرى رأيت ان اقف في بحثي عند هذا الحد من الزمن دون ان أعدوه الى فترة ما بعد الحرب الثانية التي نعيشها اليوم . فقد تبين لي ان هذه الحقبة المعاصرة مرحلة جديدة اتسمت فيها الحياة الادبية والسياسية بطابع انقلابي ثار، وهي لذلك جديرة بأن تفرد في بحث مستقل ، بالإضافة الى ما بدالي من ان دراسة هذه الفترة ستكون ناقصة من وجوه كثيرة مادام لهيب النضال مستمرا وغياب الجهاد ثارا ولا بد قبل كل شيء من ان تهتأ الخواطر وتتضح الملامح وتقر المنازع .

ولما كان من المسير حصر الاتجاهات الفكرية والتيارات الادبية حصراً تاما في حدود زمانية معينة لما لها من جذور سابقة وذيول لاحقة رأيتني في بعض الاحيان مضطرا الى تخطي هذا الحد كأن اعود الى ما لا بد من التعميد به في سبيل رصد الاتجاه وتتبّع تطوره .

وليس يخاف ما يتعرض له كل من يتصدى للدراسات المعاصرة من صعاب ومزالق نظراً لعدم استقرار الرأي حولها ، ولا اتصال الدراسة ببعض الاحياء من الشعراء او الحكماء مما قد يؤخذ مأخذ الحماة او التحامل او التجاهل ، إلا أن

رائدي كان في ذلك الحق والتجرد. وقد حرصت على ان اكون خلال بحثي موضوعياً بعيداً عن الهوى والماطفة والتمصب ولو كان ذلك في المجال القومي. وما جدوى ايمان اعمى كأيمان العجايز قد ينطوي على مفسدة للبحث وتمجن على الحقيقة.

اما المنهج الذي آثرته في هذه الدراسة فهو اني عدت تيار القومية العربية اصلاً فجعلته في باب، كما وجدت له من الروافد والمنازع الهامة التي صحبته وأثرت في سيره وتكوينه مما يستقل بباب آخر، وكان الباب الثالث ينطوي اخيراً على الموضوعات البارزة التي كانت محور المضمون القومي في الشعر الحديث.

وكان طبيعياً ان اتخذ من الطريقة التاويخية الى جانب الطريقة التحليلية منهجاً لي في البحث، وان اجعل من الاهدات التي أنطقت الشعراء وأثرت في الأدب او تأثرت به إطاراً لمرحلة دراستي، اذ لا سبيل الى رصد الاتجاه القومي وتقييم تطوره خلال سيره مواكبا التيارات الاجتماعية والسياسية والنفسية دون الاهتداء بمعلم التاريخ واحداثه. والشعر القومي وثيق الصلة بالمجتمع بل مظهر رفيع من مظاهر نشاطه الحيوي. والامر كما يراه «لسنج» في ان للمصور لحظة في المكان وللشاعر لحظات تتوالى في الزمان، اي ان الشاعر يصور الحركة والحدث في الكون والحياة وفي الطبيعة والمجتمع. ودراسة التطور اي رصد انتقال الأفكار والتيارات والاتجاهات من طور الى طور انما يعني تتبعها عبر الزمان وهذا هو مجال التاريخ الأدبي.

وقد انهمكت اول الامر شهوراً مديدة في جمع النصوص واستقصائها، ثم تنسيقها وترتيب الاشباه والنظائر منها، واستقراء محتواها، وملاحظة اثر البيئة والاهدات فيها، ثم الموازنة بينها، واخيراً الانتهاء الى استجلاء التيار الغالب والاتجاه السائد من خلالها.

ولم أغفل في الوقت نفسه الكشف عن النواحي الفنية الوثيقة الصلة بالموضوع. إذ لم يغب عن خاطري لحظة ان ما كتبت بصدد دراسته

شعر قبل كل شيء .

وبوحي من هذه الطريقة اوليت اهتمامي التيار الشامل قبل الشاعر ،  
والتزعة السائدة قبل الحادث العارض . ولم اعرض لشعر او شاعر الا من حيث  
إفصاحه عن اتجاه او إباتته عن منزع ، وحرصت على وضع كل شاعر في الاطار  
الذي عاش فيه ، ولم انظر الى ما يصدر عنه من شعر منتبهاً عما حوله من الظروف  
والملاسات . ولهذا جعلت رائدي في الحكم له او عليه ملاحظة ما كان فيه هو  
ومجتمعه لا ما نحن فيه اليوم .

كذلك لم انصب من نفسي ترجمانا لحياة الشعراء وإنما كانت غايي متابعة  
التطور القومي في الشعر الحديث بوصفه اداة معبرة عن حياة امة ، وتتبع اتجاهه  
وهو يسير ويبدأ ومتعثراً وغامضاً ، او يهب جلياً ناشطاً . او ثاراً  
جارفاً كالأعصار .

اما الشعر السياسي المحض الذي يدور في فلك الحياة اليومية العابرة  
والمجالات المحدودة الضيقة فقد استعدته من دائرة اهتمامي لأن رائحة النضال لا  
تبعق منه ، إلا ما بدالي ضرورياً في مقارنته بالشعر القومي وايضاحه حقيقة  
المنازع الفكرية والفنية .

وقد يبدو غريباً ان يصلح الأدب مادة اساسية يوثق بها ويعتمد عليها في  
تأريخ الاتجاه القومي لدى جيل من الأجيال في حين يملك التاريخ من الوثائق  
والمستندات ما لا يملكه الشعر الذي يقيم للعاطفة الشخصية والمشاعر  
الذاتية شأناً كبيراً !!

والواقع انه علينا ان ندرله قبل كل شيء ان الفن ليس انفعالا جارفا لا  
علاقة للارادة فيه ، ولكنه انفعال منظم يتم وفقاً لارادة صاحبه ويألف مع  
تفكيره . والقصيد الفني خلق جديد يبدعه الشاعر نتيجة عملية شعورية يشارك  
العقل في اخراجها الى النور . والفكر ردف للفن يغذيه ويلونه  
ويوسع امامه الآفاق ، وإن بين جنبي كل شاعر كبير عقلا كبيراً يحمل  
موهبته وعبقريته .

فالانفعال يختلط بالذهن في العمل الأدبي ولا يمكن فصل احدهما عن الآخر سواء في الانسان نفسه ام في الاثر الفني ، فيها متداخلان يؤثر كل منهما في الآخر . وعند ذلك تغدو الفكرة نفسها مزجاة بعاطفة الشاعر بعد ان تلعجها حرارة انفاسه .

والواقع ان الشعر والفن بصورة عامة اصدق تعبيراً عن طبيعة الانسان وتصويراً لثقافته . ومن هنا ايضاً كان الشعر القومي ادل على حقيقة الوجدان الجماعي وتصوير اتجاهات الشعوب العربية ومنازعاتها برغم انه قد لا يجاري التاريخ في مدى احاطته ، ودقة تسجيله ورصده لأحداث المجتمع ، ومبلغ تقيدته بالواقع المحسوس . الا ان الفن وحده هو القادر بأدائه المعبرة عن التجربة الانسانية الداخلية ان يسبر غور النفس وينقل انطباعاتها وتأثراتها بالعالم الخارجي بعد ان تتفاعل معه . ومن هنا كنت حريصاً على رصد الوجدان القومي في نفوس العرب من خلال أشعار تلك الصفوة الممتازة التي كانت الطليعة الواعية للأمة ولسانها الناطق وقلبها الخافق .

وهذا هو ايضا من اسباب عدم اكتفاء الناقد بما تنقله قصيدة واحيدة تصدر عن مؤثر خارجي في نفس الشاعر ، لان الخبر المنقول وحده ليس عمدة في ذلك ، فضلاً عن انه في التاريخ أكثر ضبطاً ودقة . والشأن هو في الانفعال وتلون الشاعر واختلاف الانطباعات برغم كون المؤثر واحداً .

وهذه الخاصة هي من سمات الفن الذي يبين العلم ، لأن للعنصر الذاتي شأناً كبيراً في تكوينه . وهذا ما دعانا بالتالي الى ايراد نماذج متعددة لجملة من الشعراء خلال بحثنا ، في سبيل تبين حقيقة الانطباعات التي كانت ترسم في وجدان زمرة من الائمة او في ضمير صفوة منها وهم الشعراء نتيجة لحدث معين ضمن نطاق محدد من الزمان والمكان . لآن مدي التأثير ونوعه تجاه مشهد او حادث او قطعة موسيقية او لوحة او قصيدة قد يختلف بين النفوس الانسانية ، كما ان طريقة التعبير عن هذا الاثر او الانفعال تختلف باختلاف معالم الوجه ولون العيون ونبرات

الصوت وبصات الاصابع . وان التفرد والتميز والذاتية من سمات الأدب ومقومات الفن ، والتشابه التام بين عمليين ادبيين اصليين لا وجود له .



ولا بد لي هنا من إيضاح بعض المصطلحات التي يتردد ذكرها في ثنايا هذه الرسالة مثل لفظ الشعب والامة والوطنية والقومية (١)

فالشعب جزء من الأمة وفي اساس البلاغة « العرب شعوب » كأن تقول شعب العراق وشعب فلسطين او شعب بيروت او شعب القاهرة وهذا ما يقابل كلمة *Peuple* فالأمة العربية جماع الشعوب العربية ، وقد تستعمل لفظة الشعب بمعنى الأمة كأن تقول : الشعب العربي او الشعب الفرنسي .

« والأمة ، وتقابل كلمة *Nation* جماعة من الناس يقطنون بقعة من الأرض معلومة ، ولهم لغة واحدة في الأعم واخلاق متشابهة وماض مشترك في الامجاد والآلام ، وحاضر مشترك في التفكير والمصالح .

والوطن *Patrie* في الاصطلاح الحديث « البلد او القطر الذي ينسب اليه المرء من حيث جنسيته او تابعيته خلافا لما جاء في المعجمات ، والوطنية حب الوطن والعمل في خيره ، وهي لغوياً مصدر صناعي مشتق حديثاً بزيادة ياء النسب والتاء على كلمة الوطن مثل قول القدماء عروية وجاهلية وكيفية وكمية ، ومن قرارات مجمع اللغة العربية اعتبار هذا الاشتقاق قياسياً . وكلمة الوطن تعني القطر الذي ينتسب المرء اليه ويقطنه شعب من الشعوب . وقد يستعمل ببدلول اوسع فيراد به الوطن الكبير الذي تعيش الأمة فوق ربوعه .

والقوم في اللغة الجماعة من الرجال والنساء جميعاً . ويذكر ويؤنث مثل رهط ونفر وكل ما كان للآدميين من اسماء الجموع التي لا واحد لها ، ونحن في الاصطلاح الحديث نستعمل لفظة القوم بمعنى الأمة .

---

( ١ ) اعتمدنا في تعريف هذه الإصطلاحات على ما أورده الأمير مصطفى الشهابي في كتابه « محاضرات في القومية العربية » ص ٣-٥ .



وقد اشتققنا من القوم مصدراً صناعياً هو القومية Nationalité وكان  
من الواجب ان نشق من الامة مصدراً كهذا المصدر وهو (الأمية) ولكن  
لهذه الكلمة في اللغة معنى آخر مشهوراً ، غوف الالتباس حملنا على  
المدول عنه .

فالشعر الوطني ما تعلق بقضية الوطن او الشعب الذي يقطن قطراً معيناً  
وهو اضيق من مدلول الشعر القومي الذي يتسع ليشمل الامة اي مجموعة  
الشعوب الشقيقة .

واذا كان الوطن في معجمنا المنزل الذي يقيم فيه المرء فان الوطني تبدأ  
بحب المنزل ومسقط الرأس ، وان كان القوم هم الأسرة والاقارب فان القومية  
تبدأ بحب الاهل .



ويجدر بي القول الآن اني في سبيل استكمال عناصر هذه الرسالة كان لا  
بد لي من ان اعتمد على مقدار كبير من الدواوين والمجموعات الشعرية اربت على  
المائة عدداً ، خلا كثير مما تصفحته ولم اجد فيه ما نشدته ، وان اطالع قدراً  
محدوداً من الصحف والمجلات استمد النصوص الملائمة للموضوع ، وكان جل  
اعتمادي على المطبوع من هذه النصوص الا فيما ندر . وقد وجدت ضالتي في  
مكتبات حلب ودمشق وبيروت والقاهرة وبخاصة ما كانت تحتويه مكتبة معهد  
الدراسات العربية العالية من مصادر شعر الاقطار العربية . ولولاها لما جاء البحث  
على هذا الشكل من الاحاطة والشمول . ومن هنا ايضا انطوت هذه الدراسة على  
مجموعة مختارة وافية من الشعر القومي الحديث قل ان اجتمع مثلها  
في كتاب .

كما اني وقفت على عدد من الدراسات القيمة التي كان لها فضل السبق وشق  
الطريق ، في مقدمتها كتاب الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر للدكتور محمد  
حسين ، والاتجاهات الاعدية الحديثة للاستاذ انيس المقدسي ، وكلاهما اتخذ من  
الشعر والنثر مادة له ، ثم كتاب شعر الحماسة والعروبة للدكتور امجد الطرابلسي

وقد أقصر على بحث هذا الموضوع في بلاد الشام . ولقد أفدت من جهود هؤلاء  
الأجلاء ، كما أفدت من جهود الكثيرين سواءم فيما دبحته أقلامهم من بحوث وما  
الفره من كتب ، وكان الى جانب ذلك جهدي واجتهادي .

وانني ارجو ان يكون في رسالتي هذه وما لقيت في اعدادها على هذا  
الشكل من عناء مرصاة للحقيقة ولضميري ولائمي ، وانا اول من يعترف بما قد  
يكون فيها من نقائص وعيوب ، كما اقر مع المهاد الاصفهاني رحمه الله بأنه « لا  
يكتب انسان كتابا في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان احسن ، ولو زيد  
كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان افضل ، ولو ترك هذا لكان اجمل .  
وهذا من اعظم المعبر وهو دليل على استيلاء النقص على البشر »



وبعد ، لقد انقضى زهاء عامين على نشر الطبعة الاولى من هذه الدراسة  
التي صدرت في القاهرة سنة ١٩٦١ في سلسلة منشورات معهد الدراسات العربية  
العالية بقرار كريم من مجلس القسم فيه وبتوصية كريمة من لجنة المناقشة التي  
اولتي شرف المشول امام اعضائها : الدكتورة سبير القلماوي والدكتور اسحق  
موسى الحسيني والاعستاذ محمد خلف الله احمد ، ويسعدني اليوم ان تجدد هذه  
الدراسة شبابها في طبعها الثانية المنقحة لتطلع مرة اخرى على قومي العرب الذين  
سيكون من مفاخر جيلهم - فيما يقول التاريخ - ان ينتهي الاستعمار على ايديهم ،  
فقد كان تجاوبهم مع الكتاب في طبعته الاولى الحافز الاول على المضي قدماً في هذا  
المضمار من الدراسات النهجية . وعزمي بعون الله بات وطيداً في ان أتبع هذا  
الكتاب كتاباً آخر اضع فيه هذا « الشعر القومي في الميزان » ميزان النقد  
والتحليل ، وأعرض فيه بالدراسة والمقارنة لاساليه وتياراته ومدى علاقته بمناحي  
الفن ودواهي السياسة ، وذلك في حلقة اخرى جديدة ارجو بها ان تكامل  
مراحل دراسة هذا الجانب الانساني من حياتنا الادبية والقومية والله الموفق .

حلب : ايلول ١٩٦٢

عُمر دَقَّاق

# المدخل بواكير الشعر القومي

كان القرن الثامن عشر آخر حلقة من سلسلة عصور الركود والجهل والفساد في الشرق العربي ، فقد كانت هذه البلاد في حوزة الدولة العثمانية ، وطال أمد خضوعها لاستبداد المماليك والترک .

ومع هذا التأخر الذي ساد اقطار العرب خلال تلك العهود فان بصيصاً من نور أخذ يلوح ضئيلاً في بعض مدن الشام في القرن السابع عشر (١) ففي حلب ترجم الانجيل عن السريانية ، وعرفت اول مطبعة في الشرق وتأسس اول مجمع علمي ، كما ظهر في بلاد اخرى وخاصة في لبنان بعض رجال الأدب والعلم واكثرهم من الاكليروس حيث أخذت تنشأ المدارس الدينية والمؤسسات الثقافية بتأثير البعثات التبشيرية التي كانت تفد الى البلاد .

وكان كل ذلك من بوادر اليقظة المرتقبة وايداناً بانبثاق عهد جديد . وما إن أهل القرن التاسع عشر ، واشتد الاحتكاك بالغرب وتنبه النيام على اصوات مدافع نابليون تفرع أذن أبي الهول حتى أخذ شعاع النهضة يبدد سريعاً ظلمات العهود السابقة بفضل تلك الشعلة المباركة التي طلعت من الشام ومصر وامتدت منها الى سائر اطراف العالم العربي .

لقد كانت التركة فادحة صنعتها عهود مديدة من الذل والانحطاط والجهل والتأخر ، خرج منها العرب كمن يتخلص من كابوس وينفض عنه غبار السنين ..

(١) انظر جرجي زيدان : التاريخ آداب اللغة العربية ٤ : ٧

ولولا أصالة جعلها الله في نفوس العرب مكنتهم من الاحتفاظ بقوماتهم في لغتهم وقوميتهم وعقيدتهم التي صانها رجال الازهر والزيتونة والنجف وسواهم في القرون الماضية المظلمة لما قبيض لهذه الامة ان تقف على قدمها من جديد .

ان آفات الفقر والجهل والمرض التي قابت العرب لم تبق في مصر حتى فجر النهضة سوى ثلاثة ملايين من الناس (١) . وقد قدم الاتراك ارض الكنانة المكتوبة هدية باردة لطموح نابليون الذي لا يجد ... بينا تمكنوا الى حين من الاحتفاظ بسائر الشرق العربي بسبب من ضعفه لا من قوتهم .

وتغيرت حال مصر منذ ذلك الحين ، بعد ان تسلّم محمد علي زمام الامور وأخذ يمد يده الى اوروبا بروم الاستفادة من خبرتها وتقدمها . على ان الحركة الادبية لم تنشط في بادئ الامر نظراً لان اهتمام محمد علي اقتصر على تشجيع العلوم وتقوية الجيش ، ولم تكن المطابع قد قذفت بعد بالكتب .

أما السنوات الثلاث التي قضاها جيش نابليون في مصر فقد « كانت جميعها جهاداً عنيفاً وصراعاً مريراً قاسياً بين الشعب المصري والمعتدين ... وكان لهذه المقاومة الباسلة وهذا الكفاح المرير أثرهما في نشأة الشعور القومي عند المصريين ، واحساسهم العميق بحقوقهم الشرعية في حكم بلادهم (٢) .

ولعل من أقدم مظاهر هذا الشعور ما بدا « من سياسة ابراهيم باشا التي كانت ترمي الى فصل بعض الاقطار العربية عن جسم السلطنة العثمانية وتأسيس مملكة عربية كبيرة » (٣) ، وكان يعد نفسه عربياً ويجب أن يعده الناس كذلك (٤) .

( ١ ) المصدر السابق : ٤ : ٧

( ٢ ) الدكتور شوقي ضيف : الادب العربي المعاصر ٣

( ٣ ) أنيس المقدسي : الاتجاهات الادبية ١ : ١١

( ٤ ) جورج انطونيوس : يقظة العرب ١٨

ومن مظاهر ذلك الشعور العربي الذي تملكه ما تفوه به في قوله المشهورة: « ما أنا بتركي ، بل أنا ابن مصر ، ان شمسها قد غيرت دمي فجعلتني عربياً قحاً » . ومع إقرارنا باحتمال وجود دوافع توسعية في نفس ابراهيم باشا كانت تشوب نزغته العربية ، فاننا نجد في عبارته تلك ما يؤكد عروبة مصر وأبنائها ويشير الى عزم ذلك القائد على إقامة دولة حديثة على أسس جديدة قومية وليست دينية . « ان ابراهيم لم يخف ما كان يرمي اليه من العمل على بعث الوعي القومي في العرب واعادة بناء القومية العربية ، واجهاد شعور بالوطنية صحيح عند العرب واشرا كهم في حكم امبراطورية المستقبل اشرا كاتاما ، كما انه يصرح بانه يعد أفكار أسيه ضيقة ولا تعدوا ان تكون أفكاراً استعمارية (١)

ويمكن ان نعتبر التفاف الشاميين وبخاصة النصارى حول ابراهيم باشا حين فتح سوريا ، تأكيداً لهذه الروح القومية الجديدة التي اخذت تطهر في الشرق العربي منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر .

ولا ريب في ان تراجع الجيش المصري بعد ذلك الى ما وراء حدوده قد جمد الفكرة القومية في النفوس وعاق انطلاقها الى حين ، وهي بعد وليدة لا تعدوا ان تكون مفهوماً غائماً عن العروبة في أذهان الناس . ومنذ ذلك الوقت باعدت الظروف بين مصر وبين أقطار الشرق العربي وبخاصة في أعقاب ثورة عرابي والاحتلال الانجليزي .

وهذا الشعور القومي المبكر الذي ظهرت بوادره في مصر قبل ان تظهر في سائر الشرق العربي أخذ يجد صداه في الأدب ويشير النزعة الوطنية في نفوس الشعراء والخطباء والكتاب . ويقرن عبدالرحمن الرافعي ظهور الروح الوطنية في الشعر المصري بظهور الحركة الوطنية نفسها في أوائل القرن التاسع عشر ، ويرى ان أول رائد لهذه النهضة هو رفاعة رافع الطهطاوي (٢) أما عباس محمود العقاد فيرى ان طلائع النهضة الشعرية أخذت تظهر في مصر بظهور طلائع الثورة التي

(١) المرجع السابق ٨ - ١٩

(٢) شعراء الوطنية ٦

عرفت بعد باسم الثورة العراقية إذ « دبت في نفوس المصريين أريحية الشهور الوطني وثقة العارف بحقه ، المنكر لما هو فيه من نجس وإهال (١) .

وفي الشام أخذت طلائع اليقظة القومية بالظهور خلال هذه الفترة نفسها أو بعدها بسنوات وبخاصة في أثناء حكم الوالي مدحت باشا في ولاية الشام عام ١٨٧٧ . أما في العراق فكانت النهضة الأدبية تسير ببطء الى الامام لان احتكاك هذا القطر بالغرب كاد يكون منعزلاً نظراً لوضعه الجغرافي الداخلي ، ولندرة المطابع وضالة المدارس ، ومع ذلك ظهر في العراق عدد من الادباء الشعراء أمثال ابن الصباغ والشهاب الألوسي ثم محمود شكري الألوسي وعبد الغفار الاخرس وسواهم ، في حين كان في الشام من أمثال هؤلاء الشيخ ناصيف اليازجي وابنه إبراهيم والشيخ أمين الجندي ثم فرنسيس المراس وإبراهيم الأهدب ، والشيخ نجيب الحداد وجبرائيل دلال . وأما في مصر فقد برز أعلام في الادب بعضهم مارس الشعر وبعضهم اقتصر عليه وكان منهم محمود صفتوت الساعاتي وصالح مجدي ، وعبدالله فكري وعلي الليثي ومحمود سامي البارودي .

ولم يكن الشعر القومي أو الوطني غرضاً مألوفاً لدى الشعراء حتى القرن التاسع عشر ، إذ أن مفهوم الشعر لم يكن يعدو في ذهنهم ما توارثوه من الاغراض التقليدية ، التي يشوبها غير قليل من آثار الضعف الفني المتبقي من عهود الانحطاط إلا ان عدداً من هؤلاء الشعراء في مصر والشام والعراق كان يمارس نطقاً من الشعر القومي أشبه شيء بالشعر الحماسي الذي عرفه العرب في عصورهم الغابرة .

وواقع ان الظروف السياسية التي كانت تحياها مصر في ظل الاحتلال الانكليزي كانت تختلف عنها في الشام والعراق الداخلين في نطاق الدولة العثمانية . فقد كان وجود الأجنبي فوق أرض الوطن حافزاً قوياً للمشاعر القومية لم يكن في الشام والعراق ما يضارعه قوة وتأثيراً ، بينما لم ينظر إلى الحكم التركي بهذا المنظار تبعاً لاشتراك الترك وغالبية العرب في الشهور الديني . ومن هنا كان

« ١ » المقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ٨ - ١٢

الانتفاض على العثمانيين يقتضي طرح العامل الديني جانباً والاعتماد على المنصر القومي وحده وهذا لم يتيسر للعرب إلا في فترة متأخرة نسبياً حين ثاروا على الترك ابان الحرب العالمية الاولى وبعد ان نضجت مشاعرهم القومية ووعيمهم السياسي الى حد كبير ، في حين استدعى الامر في مصر الاعتماد على العامل الديني باعتباره عنصراً فعالاً في مقاومة الاحتلال الانكليزي .. وقد تجلّى كل ذلك في الشعر الحديث فكان شعراء مصر اكثر تمسكاً بالجامعة الاسلامية ، يضاف الى هذا السبب اخرى منها عطف المصريين على الترك وعلى نظام الخلافة بسبب انحسار الحكم العثماني عنهم في وقت مبكر وبالتالي عدم شعورهم بالنقمة التي كان يشعر بها الشاميون والعراقيون تجاه مظالم الترك .

وعلى هذا فان بواكير الشعر القومي بنزعته العربية الصافية لا نجد لها الا في الشام والعراق والمهجر وبخاصة لدى عدد من الشعراء العرب المسيحيين الذين لم يستشعروا بحكم عقيدتهم اية صلة - دينية او قومية - تربطهم بالترك وتجعلهم يستمرون في الخضوع لهم . ولذلك كانت طائفة منهم اسبق من سائر المواطنين العرب الي التحسس بالمشاعر القومية العربية .

« ومن اقدم ما نجد من الشعر في هذا الاتجاه الايات التالية للشيخ امين بن خالد الجندي الشاعر المحصي المعروف المتوفى سنة ١٨٤١ م ، الذي عاصر حملة ابراهيم باشا ، وهي تمثل صرخة من اقدم الصرخات التي اطلقها شعراء الشام تدمراً من جور الاتراك ومظالمهم (١) وقد صادق ابراهيم باشا وحجبه في غزواته وبعد ذلك قبض عليه الاتراك وسجنوه في الاصطبل عام ١٨٣٠ (٢) ومما قاله (٣) :

سلبوا البلاد من العباد فلا ترى في حكمهم ذا نعمة متمولا  
والملك ملك الله يؤتیه لمن قد شاء لا هو بالوراثة والولا  
من يخبر الاتراك ان جيوشهم هزمت وان ( حسينهم ) ولي الى

«١» الدكتور امجد الطرابسي : شعر الحماة والعروبة في بلاد الشام ١١

«٢» جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ٤ : ٢١١

«٣» ادهم الجندي : اعلام الادب والفن ٢٧

فالشاعر لا يستطيع ان يخفي فرحته بانتصار جيش مصر العربي  
على جيش الترك .

كما نجد ابياتا اخرى في المناسبة نفسها للمعلم بطرس كرامة يهنيء فيها ابراهيم  
باشا بفتح عكا

ومن العجيب ان يكون ابراهيم اليازجي ذلك اللغوي المحقق والعالم  
الباحث قد نظم اروع الشعر القومي آنذاك ومنذ عام ١٨٦٨ حين كان في  
العشرين من عمره يتأجج حماسة (١) . وقد غدا « عضو الجمعية العلمية الوطنية التي  
تشكلت سنة ١٨٧٥ وكان تأسيسها اول ظاهرة من ظواهر الوعي القومي » (٢)  
وقصائده الثلاث ، الميمية والبائية والسينية اشهر من ان نذكرها في هذه المجالة  
ولكننا نختزىء بعض ابياتها ، فالميمية مطلعها (٣) :

سلام ايها العرب الكرام وجد ربوع قطركم الغمام  
وفيها يقول :

وما العرب الكرام سوى نصال لها في اجفن العليا مقام  
ونحن اولو المآثر من قديم وان جحدت مآثرنا اللثام  
اما البائية وقد طارت شهرتها فمطلعها (٤) :

تبهوا واستفيقوا ايها العرب فقد طمى السيل حتى غاصت الركب  
وفيها يقول :

فيم التعلل بالآمال تحددكم وانتم بين راحت القنا سلب  
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

«١» انظر انيس المقدسي : الاتجاهات الادبية ١ ، ٨٠ .

«٢» جورج الطولونوس ، بقظة العرب ٤٨ .

«٣» لويس شيخو ، الآداب العربية في القرن التاسع عشر ٢ ، ٤٠ .

«٤» نشرث القصيدة في جريدة لمشير بالعدد ٨٠ ، ٢٥ ابريل ١٨٩٦ ص ٦٧١

وتبلغ ٤٨ بيتا مهد لها الشاعر بكلمة نثرية ولم يفصح عن اسمه والمشهور أنها له وقد  
نشرت كاملة في ديوان « العقد » لابراهيم اليازجي ص ٥٦ وهو يشير الي ان سنة  
نظمها كانت عام ١٨٨٣



لا دولة لكم يشند أزركم      بها ولا ناصر للخطب يتدب  
أقداركم في عيون الترك نازلة      وحقكم بين أيدي الترك مقتصب

وأما السينية فهي تضارع سابقتها في شهرتها ومنها قوله (١):

دع مجلس الغيـد الأوانس      وهوى لواظها النواعس  
أي النعيم لمن بيت —      على بساط الذل جالس  
ولن تباع حقوقه      ودماؤه يبيع الخسائس  
الترك قوم لا يفوز      لديهم إلا المشاكس

« إن عدداً من هذه الأشعار ألقاها ابراهيم اليازجي بصوت هامس أمام ثمانية من الأعضاء الذين وحدتهم الفكرة المشتركة » (٢) لقد كانت هذه القصائد وأمثالها صيحات مدوية جلجلت أصدائها في أرجاء الشام وسارت في الآفاق حتى غدت على كل لسان . « وان السبب لانتشارها يعود الى انها رددت صدى الشعور الذي كان كامناً في نفوس من وجهت اليهم الخطاب فايقت فيهم صادق العواطف » (٣) وكانت من اسباب نقمة السلطان على مدحت باشا والي الشام ، اذ ان اقدم النشرات السرية التي كانت تلتصق على جدران بيروت عام ١٨٨٠ اختتمت بمقطعات من تلك الاشعار (٤) واهمية هذه الايات تبدو في كونها اقدم شعر قومي عربي المنزع في النهضة الحديثة ، فقد تجلت من خلالها الفكرة القومية المشبعة بروح الثورة على الاستبداد والتمرد على الحكم الاجني ، واستمدت عناصرها من ماضي العرب المجيد وواقعهم الاليم . والحق ان ما اوردناه ليازجي من قصائد ، على قلته ، استطاع ان يجعل منه بحق شاعراً قومياً بل رائداً من رواد الشعر القومي في ادبنا العربي الحديث .

(١) القصيدة كاملة في ، المقدم ، ص ٥٩ ونظمت ايضا عام ١٨٨٣ وتقع في ٦٠ بيتا

(٢) جورج انطونيو ، يقظة العرب ٤٩

(٣) المرجع السابق

(٤) المرجع السابق ٨٥

كما إن بوادر التمرد على الحكم العثماني ظهرت قوية ايضاً لدى رزق الله  
حسون الحلبي رائد الصحافة ، فهو في آياته التالية التي تعتبر في طليعة بواكير  
الشعر القومي لم يستطع كتمان فرحته بانكسار الترك في الحرب الروسية  
العثمانية ١٨٧٨ حيث يقول (١) :

كم حروب للروس دارت على الترك رحاها ففادرتها طحيننا  
هكذا هكذا تدور على الباغي الليالي ويهلك المجرمونا

وفي ديوانه ( النشآت ) غمط جديد من الشعر القومي يشير إلى تأثر عدد  
من مثقفي تلك الفترة بالآداب الأجنبية كالقصص الروسي وسواه « ويظهر ان الأدب  
الرمزي الذي اعتمده بعض ادياء الروس في نقد أساليب الحكم القيصري قد صادف  
هوى في نفس رزق الله حسون، فنقل تلك القصص ليشير إلى فساد الحكم في العهد  
العثماني، فالقصائد العربية تصور لنا فساد الحكم على السنة الحيوانات وتشير إلى صلف  
الحكام وقسوتهم ، وترينا تحمك الأقوياء في الضعفاء » (٢) ، وهذا النمط من  
الشعر الرمزي يعتمد على التاميح حين يتعذر التصريح .

ومن الشعراء المتطرفين الذين لم يجدوا حلاً ناجماً لدولة الرجل المريض  
سوى هدم كيانه ، قول سليم سر كيس صاحب جريدة المشير (٣) :

يا أهل سوريا القساور من كل مفخور وفاخر  
أفترتضون صفارة لم يرضها في الناس صاغر

ومن مشهور آياته (٤) :

زجو صلاح الترك قد خابت أمانينا الكواذب

(١) نشرت الايات في جريدة المشير العدد ٢١ ، انظر ايضا المقدسي ١ - ٢٣

(٢) سامي الكيال - الحركة الادبية في حلب ٤٤

(٣) المشير ١١ مايو ١٨٩٥

(٤) المشير ٢١ أبريل ١٨٩٧ المقدسي ١ - ١٧

هي دولة ظلمت وليس - العدل عن ظلم بذهب  
ليس العجيبة فقدما بل عيشها إحدى العجائب  
وفي هذه الآيات نفحة من روح اليازجي وثورته .

ومن هذا الاتجاه العنيف الثائر قصيدة (العرش والهيكل) لجبرائيل دلال  
الخليعي وهي تمتاز بجرأتها وصراحتها، وكان الشاعر قد نظمها في باريس حيث عبر  
بحرية عن آرائه في جور السلطان وشموذة الكهنوت، ومما قاله فيها منذراً  
بالاستبداد الحميدي (١) .

فلم الخضوع لذي البغاة وما لها  
هل انها إلا أناس مثلنا  
فالجيش من أولادنا لقتالها  
عجباً تتيه بتاجها وقضيتها  
وبنا ومنا العزم في تقيتها  
والبذخ من أموالنا لمعيتها  
ثم يحض الدلال قومه العرب على الثورة بقوله :

يا غافلين تنهبوا من رقدة  
هيا نهضوا وبطردوها اجتهدوا فقد  
حتى يرى كل الوري فوق الثرى  
بالأمن يرعى شاتها مع ذبيها  
طالت لسعد الوحش في تأديها  
ساد الدمار وعم من تخريبها  
على ان ثمن هذه المرأة كان غالياً ، إذ غيب صاحبها في أعماق السجن حيث  
قضى لوعة وأسى (٢) :

وكان الشيخ نجيب الحداد من رواد الشعر القومي الحديث الذين تحلوا  
بفضج الوعي القومي ، ومن أقدم ما قيل في تصوير أمل العرب في التحرر  
والوحدة قوله (٣) :

إنما نحن هيكل واختلاف - الاسم وهم فكنا أعضاء

١ سامي الكيال - الحركة الأدبية في حلب ٧٨ - ٨٥

٢ المرجع السابق ٧٣

٣ ديوانه تذكارات الصبا ٥ - ٧

وكان مما قاله أيضاً وتجلت فيه الروح القومية الثورية (١) :

آن الأوان لأن أخطر بالدم      من لم يخاطر بالدم لم يسلم  
أجزيرة العرب التي أحيتها      كم من أ ك ف قد رمتك بأسهم  
لعبت أ ك ف الترك فيك وغادروا      في كل قطر منك نهراً من دم

ولا ريب في أن هاتين المقطوعتين نط جديد من أنماط الشعر القومي عبر  
الشاعر فيهما عن تجاوب العربي مع إخوانه في الأقطار الأخرى وعن النزوع المبكر  
نحو الوحدة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر .

وكان أديب إسحق من كبار رجال الفكر والأدب ، وقد سار البيتان  
الرائعان اللذان ينسبان إليه على كل لسان (٢) :

قتل امرئ في غابة      جريمة لا تغتفر  
وقتل شعب آمن      مسألة فيها نظر

وقد تجلت خلال هذه الفترة نفسها ومضات رائعة لدى عدد من الشعراء  
المصريين وفي مقدمتهم محمود سامي البارودي الذي جعل من نفسه ومن شعره على  
السواء وقوداً للحركة الوطنية . فقد أخذ الشعور بالسخط على الحكام وفساد  
الأحوال يتلور في أذهان الشعراء ومنهم صالح مجدي الذي توفي قبيل الثورة العراقية ،  
وبدأت تظهر في شعرهم المطالبة بالحقوق السلبية ، والحد من تسط الترك . والتنديد  
بالظلم والاستبداد . ومن أبرز ما قيل في هذا الصدد أبيات البارودي نظمها في منفاه  
حيث قال (٣) :

أبي الدهر إلا ان يسود وضعيه      ويملك أعناق المطالب وغده  
إذا المرء لم يدفع بيد الجور إن سبط      عليه ، فلا بأسف إذا ضاع مجده  
وأقتل داء رؤية العين ظالماً      يسيء ويتلى في المحافل حمده

(١) المقدسي - ١ - ٨٥ ولم ترد الابيات في ديوانه

(٢) عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ١ - ٨٢

(٣) ديوانه ١ - ١٢

علام يعيش المرء في الدهر خاملاً      أيفرح في الدنيا بيوم يعده  
يرى الضيم يفشاه فيلتذ وقعه      كذى جرب يلتذ بالحك جلده

لقد كان البارودي شاعر الثورة العراقية كما كان عبدالله نديم خطيبها، وهما مثال حي لاشتراك الاديب العربي في النضال القومي، وفي طليعة رواد الادباء المجاهدين في فجر النهضة.

ثم بدأ الشعراء ينظمون القصائد تترى في الشعر القومي، ولم تكد شمس القرن التاسع عشر تؤذن بالمنيب حتى اخذت جذور الوعي القومي تعمق في النفوس وكانت طبقة اخرى من الشعراء قد تسلمت راية الشعر القومي واخذت تبشر دون هواده بالتحجر والاستقلال. ومنذ ذلك الحين يتبوأ الشعراء العراقيون وفي مقدمتهم معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي وعبدالمحسن الكاظمي مكانة مرموقة في الشعر الحديث بصورة عامة وفي الشعر القومي بصورة خاصة. وتلتقي هذه القصائد البثارة مع صحبات الاحرار في مصر والشام وتغدو حرباً على الاستبداد الحميدي. ومما يقره الزهاوي في ذلك مندداً بالحكومة العثمانية (١):

وما هي الا دولة مستبدة	تسوس بما يقضي هواها ويعمل
تترفع بالاغزاز من كان جاهلاً	وتخفض بالاذلال من كان يعقل
وقد عبثت بالشعب اطماع ظالم	يحمله من جوره ما يحمل
فتعساً لقوم فوضوا امر نفوسهم	الى ملك عن فعله ليس يسأل
فيا ملسكا في ظلمه ظل مسرفا	فلا الامن موفور ولا هو يعدل
تمهل قليلا لا تغظ أمة إذا	تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وأيديك إن طالت فلا تغمتر بها	فان يد الايام منهن اطول

بهذه الجراءة انذر الزهاوي الطغاة فكان مصيره السجن والابعاد.

وكما سمي الزهاوي قصيدته هذه « حتام تغفل » اطلق الرصافي على ابياته التالية « تنبيه النيام » وعلى ابيات اخرى « ايقاظ الرقود » وهذه عناوين شاعت في

دواوين الشعراء خلال تلك المرحلة من نضال العرب القومي، إذ إن أولى مراحل الثورة على الظلم الشعوري به، ومما يقوله الرصافي في هذه القصيدة (١) :

أما آن أن يغشي البلاد سعودها      ويذهب عن هذى النيام وجودها  
أما أسد يحمي البلاد غضنفر      وقد عاث فيها بالمظالم سيدها  
عجبت لقوم يخضعون للدولة      يسوسهم بالموبقات عميدها  
واعجب من ذا أنهم يرهبونها      وأموالها منهم ومنهم جنودها

وعلى هذا المنوال نسج ولي الدين يكن قوله وكان من أبرز من ندد بالاستبداد من الشعراء (٢) :

صحا كل شعب فاسترد حقوقه      فيا ليت يصحو شعبك المتناوم  
هو الشعب أفنى دهره وهو خادم      وليس له فيمن تولوه خادم  
يقلب من عهد لعهد على الأذى      إذا زال عنه غاشم جد غاشم

ودأبت هذه الاصوات الحرة على حمل رسالة الحق والحرية حتى اضطرت عبد الحميد إلى نشر دستور البلاد بعد طيه أكثر من ثلاثين عاماً. وكان هذا الحدث كبيراً اشاع الفرح في قلوب المواطنين جميعاً على اختلاف دياناتهم وقومياتهم. وملاء نفوسهم أملاً واستبشاراً، ومن العسير أن نجد في ذلك الحين شاعراً أو ناثراً أو خطيباً لم يستخفه الطرب، «إلا أن الحماس التحرري الداعي إلى تمرد العرب على الترك والانفصال عنهم قد فتر في فورة هذه الفرحة الدستورية لأن الانفصال لم يعد له في الظاهر ما يصوغه بعد أن جاء الدستور اليطمئن المواطنين على حرياتهم ويعلن المساواة التامة بينهم على اختلاف مذاهبهم واجناسهم ولغاتهم (٣)»

وقد بدا للجميع أن الأمان قد تحققت وأنه ما بعد الدستور زيادة لمستزيد ولا مطلب لمطالب، إذ عم التسامح واحت الضغائن وتآخى الترك والعرب ورفرفت

(١) ديوانه ١٠٢

(٢) ديوانه ١٩

(٣) الدكتور محمد الطرابلسي، شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ٢٠

الوية المساواة والعدالة والحرية ، وإذا الدستور رمز نسجت حوله هالة كبري من الآمال . ومع ان هذا الدستور لم يحقق شيئاً للعرب الا ان اعلانه احدث هزة في النفوس قفرت بالوعي الى الامام ، كما ادى الي انطلاق اغاريد الشعراء لاهجة بالحرية التي طال احتباسها . ومع ان جميع شعراء العرب في شتى اقطارهم ومهاجرهم هلسوا لاعلان الدستور الجديد فان هذا التهليل لم يبلغ لدي شعراء مصر المدى الذي بلغه في سائر البلاد ، وما ذلك الا لان مصر كانت غير خاضعة للحكم العثماني المباشر ، ويبدو هذا الفارق بشكل اوضح فيما نظم من قصائد إثر سقوط عبدالحمد . وإذا استثنينا ولي الدين يكن الذي عانى احوال الاستبداد فان أكثر شعراء مصر ومنهم اسماعيل صبري وحافظ ابراهيم واحمد شوقي ومحمد عبدالمطلب واحمد محرم اظهروا عطفاً بالغاً على السلطان الخلوع . وهم في ذلك إنما كانوا يتجاوبون مع مشاعر المصريين الذين مازالوا حتى ذلك الحين يرجون خيراً في نظام الخلافة والجامعة الاسلامية ، ومن ناحية اخرى فان المصريين لم يكونوا يعانون شيئاً من مظالم العثمانيين بعد انحسار نفوذهم عن مصر ، وإنما كانوا يرحون تحت وطأة المحتلين الانكليز ، ولهذا لم يشعروا بشيء من النقمة التي كان يشعر بها أهل الشام والعراق في المهجر تجاه تسلط الترك على العرب وطفيلانهم على قوميتهم .

على ان شعور العطف على السلطان اخذ يتضاءل عند اولئك الشعراء حتى كاد يتقلب احيانا الى تشف وعداء ، ونلس ذلك التحول بوضوح فيما نظمه حافظ وشوقي فيما بعد من قصائد .

وبرغم من سخط شعوب الدولة العثمانية وقومياتها على عبدالحمد واستبداده بما فيهم الترك انفسهم فان مشاعر العرب بصورة عامة ، باستثناء المتطرفين منهم ، ظلت على ولائها للدولة العثمانية بدافع العاطفة الدينية المشتركة ، فآكتفت بما كانت تلح على المطالبة به من تحقيق العدالة بينهم وبين الترك في الوظائف والتمثيل الثيابي ، ومن الاحتفاظ بشخصيتهم العربية ولغتهم وحقوقهم المشروعة ، والأخذ بنظام الحكم اللامر كزري ضمن نطاق الدولة العثمانية . وبرغم شعور التذمر الذي ساد العرب من جراء معاملة الترك لهم فقد كانوا اول الأمر ابعدا ما يكونون عن القيام بآية ثورة

ضدهم . وما يؤكد ذلك ان الشيخ فؤاد الخطيب الذي غدا بعد ذلك شاعر الثورة العربية الكبرى التي قلمت ضد حكم الآستانة هو نفسه الذي كان يخاطب الترك بقوله (١) :

أخواننا الأتراك مدوا لنا يدا      من الود إنا قد مددنا لكم يدا  
وما تتقاضى ثورة دموية      فلسنا عطاشا نطلب الدم موردا  
ولكننا نرجو إخاء موطدا      يعز علينا أن يكون مهيدا

ولكن النكسة سرعان ما حلت ، والناس مازالوا في عرس فيست الزعاريد في الحلق وجحدت الابتسامات على الثغور ، فلقد تبين العرب ان الدستور لم يكن الا سرايا من حيث ظنوه ماء زلالا ، اذ كان من المؤمل ان تهاك القوميات المتعددة في جبهة عثمانية واحدة تثبت امام الخطوب الخارجية لولا استئثار جماعة من غلاة الترك بالحكم وتنكرهم للعرب . فبؤلاء - وقد عرفوا بالاتحاديين - اتخذوا من القومية التركية الضيقة مبدأ لها ، وبدت سياستهم (الطورانية) العنصرية في اشع مظاهرها تجاه القوميات الأخرى المحكومة . وقد عبر الشعراء عن خيبة الأمل المريرة التي اصاب العرب نتيجة غدر الترك وتنكرهم للدستور . ولكن انى لعجلة الزمان ان تعود الى الوراء ، وكيف يرضى العرب بان تهدر حقوقهم بعد ان نعموا بالحرية وتنشعروا بجلء رثاتهم نساتها .

وكان لا بد من صراع قومي خفي حيناً وسافر احياناً بين قوتين رئيسيتين في الدولة العثمانية هما القومية العربية والقومية التركية ، ودخل نضال العرب في مرحلة جديدة ضد التبعية التركية كان من مظاهره تلك الجمعيات العديدة السرية والعلمية التي اخذت على عاتقها عبء العمل ونشر الوعي وتعبئة الشعور القومي

وقد حافظ العرب على الأناة وتذرعوا بالصبر في علاقاتهم مع حكومة الاتحاديين التركية وغدا الأمل في تقويم الاعوجاج كبيرا ، ولا سيما ان فريقا من الترك وقف الى جانب مطالب العرب .



وحين وقعت حروب البلقان عام ١٩١٣، انفجرت الرأي العام العربي حول الدولة العثمانية شأنه في جميع الحروب التي خاضتها من قبل، كحربها مع الروس ومع اليونان ثم مع الطليان واخيراً مع شعوب البلقان. وقد تجلّى ذلك في مواقف الشعراء العرب الذين انتصروا بقصائد حارة للعثمانيين وللشرق والاسلام .

غير ان شيئاً مذهلاً قد وقع آنذاك، اذ شبت فجأة نيران حرب عالمية كبرى. عزم الاتحاديون على خوض غمارها بما يشبه مغامرة اليأس فمدوا السنة القتال الضاري الى الشرق العربي وجعلوا الدولة العثمانية طرفاً في النزاع بين كتلتين جبارتين متناطحين .

اما العرب فقد اصبحوا يواجهون حرباً ضروساً لا جدوى لهم فيها، ووجد احرارهم والمتطرفون منهم ان هذه الحرب مجازفة كبرى ستطيح بالدولة نفسها وسيتحمل العرب انفسهم نتائج غرور الترك. ومع ذلك بدا لغاليتهم ان عليهم واجب الدفاع عن دولتهم وتناسي خلافاتهم مع الاتحاديين وما كانوا فيه من اخذ ورد، حتى ان عدداً من اشد شعراء العرب عداوة للترك وتسلطهم واستبداد سلاطينهم، دعوا الى حمل السلاح الى جانب القوات التركية دفاعاً عن كيان الدولة نذكر منهم الرصافي إذ قال يومئذ (١):

يا قوم إن العدا قد هاجموا الوطننا

فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا

كما ان الشهيد محمداً الحمصاني احد احرار العرب ومن اركان ( الجمعية العربية الفتاة ) اسرع بالعودة الى بلده من مصر إثر سماعه بقيام الحرب ليكون جندياً في صفوف الجيش العثماني (١) و

(١) - ديوانه ٤٩١

وبقيام الحرب العالمية الأولى وما رافقها من أحداث بطش وإرهاب ومجاعة في بلاد الشام والعراق واعلان الحماية الانكليزية والادارة العرفية في مصر .. يدحل نضال العرب مرحلة جديدة حاسمة ، والحرب ولود للثورات

هكذا كان حال الشرق العربي منذ نهضته في القرن التاسع عشر . فالشعور القومي كان يذكو حيناً ويخبو أحياناً ، وما زال كذلك حتى أخذت شملته في التوذج وقد انعكس كل ذلك على الشعر العربي الحديث فكانت فئة من الشعراء ممن ذكرنا تسم شعورها القومي بالقوة والصفاء والجرأة ووضعت في بواكيرها تلك ، أساساً وطيداً للشعر القومي . وكانت فئة أخرى معتدلة في شعورها هذا تحاول التوفيق بين الطرفين وتتخذ موقفاً وسطاً ، ومن هؤلاء شبلي الملائط وعبد الحميد الرافعي و خليل مطران وجميل صدقي الزهاوي وسواهم .. وكانت فئة ثالثة موالية للدولة العثمانية ومتجاهلة في الوقت نفسه شعور القوميين العرب مع اختلاف في الدافع ، فهو إما شعور ديني صادق وغيره على الدولة الاسلامية من أن تعصف بها مظالم العرب وإما رياء ونفاق تلجب منافع وتحقق مآرب ، وإما خوف ورهبة من بطش حاكم واستبداد ظالم .

وهذا الشعر الموالي للدولة يمكن أن نطلق عليه اسم الشعر الرسمي كما أسماه أجمد الطرابلسي ، ومن أصحابه أحمد منوقي ومحمد عبدالمطلب وأحمد محرم وأمين ناصر الدين وشكيب أرسلان ويدر الدين النمساوي .  
وسنرصد خلال الفصول التالية هذه المشاعر القومية في الشعر الحديث وتتبعها في قوتها وضمفها ، واندفاعها وجودها ، وازدهارها واتكاسها .

ومن اليسير على الناقد أن يتبين فيما بين يديه من بواكير الشعر القومي شيئاً من الضعف الفني ، إذ لم يقبض للأدب العربي الحديث في تلك الفترة ظهور شعراء كبار ملكوا ناصية فنهم ومن أوتى ذلك كالبارودي لم يكن مضمونه الشعري في كثير من قصائده يبلغ مستوى أدائه . فالمعشول على ما أوردنا من شواهد كان على المضمون قبل الشكل ، والمعنى قبل اللفظ ، والشعور قبل الشعر .

ومما تجدر ملاحظته أن أكثر ما قيل من هذا الشعر لم يجرؤ أصحابه على  
الجهر به إلا بعيداً عن سلطة الدولة العثمانية في مصر أو في باريس أو في غيرها . وما  
قيل منه في ربوع الوطن أوزي صاحبه أو خالفه الحظ فأقلت ونجا .

وجملة القول إن أصحاب البواكير الذين أشرنا إليهم هم رواد الشعر القومي  
الائوائل في القرن التاسع عشر ، وكان لهم فضل السبق وميزة البدء ، وهم الفجر  
الصادق الذي لاح في دنيا العرب حاملاً رسالة التحرر ومبشراً بيوم أفر . ولم تكن  
أشعارهم تلك على قلة ما نظموه في هذا الموضوع سوى القطر الذي يسبق انهار الغيث  
والصيحة المدوية تجاوزت مع تعاليم جمال الدين الأفغاني وعبدالرحمن الكواكبي وأديب  
اسحق ، وكانت أشبه بنفحات الصور نهبت العرب من غفلتهم بعد ان ران عليهم  
الجمود قرونا .

Faint, illegible handwriting at the top of the page, possibly a header or title.

## الباب الاول

# رَوَافِدُ التَّيَّارِ الْقَوْمِيِّ

- الفصل الأول : الجامعة الاسلامية  
الفصل الثاني : الرابطة الشرقية  
الفصل الثالث : النزعات الاقليمية  
الفصل الرابع : العاطفة الانسانية

11

Handwritten text, possibly a name or title.

Large, stylized handwritten text, possibly a signature or decorative header.

Four lines of faint handwritten text, possibly a list or notes.

## الفصل الأول

١

### الجماعة الإسلامية

إن البحث في أصل الشعور القومي عند العرب المعاصرين ، يرجع بنا إلى جذور له عميقة تمتد في الماضي ما يقرب من أربعة عشر قرناً حين شعر العرب بكيانهم الموحد وشخصيتهم المتميزة لأول مرة على أثر ظهور الاسلام . وهكذا عرف الشعور القومي الكامن في نفوس قبائل العرب طريقه إلى التبلور بسرعة منذ ذلك الحين ، وارتبط المفهوم القومي بالاسلام طيلة عصور مديدة ، وما يزال كذلك حتى اليوم في أذهان الكثيرين من العرب . ومما ساعد على هذا الالتصاق الشديد بين المفهومين كون الرسول صاحب الدين الجديد عربياً ، وأن الذين نشر وارسالة الاسلام في الأرض كانوا عرباً ، وأن التراث الاسلامي لا يمكن فصله إطلاقاً عن تاريخ العرب والثقافة العربية .

ومع هذا كله « لا يمكن تحديد العرب على وجه الضبط بالاسلام وذلك لاسباب ثلاثة : أولها أن امتداد الاسلام تجاوز العالم العربي بكثير ، وثانيها أن الشعوب العربية فيها عدد كبير من المسيحيين وسواهم من العرب غير المسلمين ، وثالثها أن المسلمين اليوم يضعون لأنفسهم قواعد جديدة لتوفيق بين روح العصر ومعضلات التقيد بمناهج السلف . إلا أن انتشار الاسلام ذلك الانتشار الساحق هو الذي أوجد الدولة العربية التاريخية وطبعها كلها الى يومنا هذا بطابعه وروح حضارته (١) » .

(١) إرنست هو كنج في مقدمته لكتاب العالم العربي تأليف نجلاء عز الدين

وتبعاً لذلك ونظراً لأن المقام الأول في القرون الوسطى كان للعامل الديني، لم يكن ثمة فارق كبير وحدود واضحة بين مفهوم الوطنية ومفهوم الدين، وإن قصائد الشعراء في العصر الأموي ثم العباسي تعبر عن هذه الظاهرة بوضوح، من ذلك مثلاً بائية أبي تمام في المعتصم وقصائد المتنبي في سيف الدولة؛ فهي تصور الممارك التي خاضها الأجداد على أنها صراع بين العرب والروم وبين الإسلام والمسيحية في الوقت نفسه. وقد أحكم هذا الربط بين الدين والقومية إلى حد كبير خلال الحروب الصليبية التي خاضها العرب على أنها حروب قومية وجهاد مقدس معاً.

ثم قام الحكم العثماني أيضاً على هذا الأساس من عدم التمييز؛ فكانت سلطتا الدين والدولة متداخلتين في نظام الخلافة. بل إن ادعاء سلاطين الترك أنهم ورثة الخلافة العباسية مكنتهم برغم كونهم ليسوا من العرب من أن يحكموا هذه البلاد قروناً طويلة متخذين من الدين درعاً واقية.

والحق أن افتتان الحكم العثماني بالإسلام ثم عدم تمييز غالبية المساهمين بين خليفة مسلم عادل يحكم على أساس من الشورى وبين سلطان تركي متربع على عرش في الآستانة، قد أساء إلى حركة العرب التحررية. فالإسلام الموروث لدى الترك مزيج من رواسب مختلف العصور انقلبت فيه القيم وتغيرت النسب وتشوهت المعالم.. وهو مختلف اختلافاً كبيراً عن الإسلام الأصيل الذي خرج به إلى العالم حيوية متدفقة، وإنسانية سامية، وروحانية إيجابية، وعدالة مناضلة، وإيماناً فعالاً، وأخوة إنسانية بين البشر والديانات.. إن الإسلام الموروث المشوه كان مقترناً مع كيان الدولة العثمانية معاصراً لها منسجماً معها» (١)

وقد اضطرت المسلمون العرب - عن وعي أو عن غير وعي - تحت وطأة الأحداث السياسية وتكالب الغرب على بلادهم إلى أن يحكموا الأوصار بين العثمانية والإسلام كيلا يتحواله فرصة النفاذ إلى وطنهم. ومن هنا كانت الصفة الغالبة على الشعر العربي الحديث حتى أوائل القرن العشرين هي المزج بين الدين والقومية واعتبار السلطان التركي خليفة للمساهمين، والدولة العثمانية دولة الإسلام.

(١) محمد المبارك - الأمة العربية في معركة تحقيق الذات ٦٠



ومند أخفاق ثورة عرابي يشير البارودي الى هذا المفهوم المزروح بقوله (١):  
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني      ذنب أدان به ظلما واغترب

وقد كان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي يفهمون الوطنية على أساس ديني. ومثل هذا الشعور دفع بالامام محمد عبده إلى أن يقول « إن المحافظة على الدولة العلية العثمانية قائمة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله فانها وحدها المحافظة لسلطان الدين » (٢) كما كان عبدالله نديم وتوفيق البكري ومصطفى كامل الذين أيقظوا الروح الوطنية في مصر من ذوي الاتجاه العثماني أيضاً يرون العثمانية والمصرية من معدن واحد هو الاسلام ولا تنفصم الواحدة عن الأخرى .

وبقي الشعراء في مصر بصورة خاصة ينهلون من معين تلك المبادئ التي صدر عنها هؤلاء الاعلام والتي بقي صداها ماثلا في الأذهان إلى ما بعد الحرب الكبرى ، وكان شعراء الجامعة الاسلامية حريصين على دوام الصلة الدينية والسياسية مع العثمانيين وفي مقدمتهم أحمد محرم الذي يقول (٣) :

يا آل عثمان من ترك ومن عرب      وأي شعب يساوي الترك والعربا  
صونوا الهلال وزيدوا مجده علماً      لا مجد من بعده إن ضاع أو ذهباً

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً حافظ إبراهيم الذي يترفق في مخاطبة العثمانيين ولا يبدو في أبياته التي يشير فيها إلى تغاضبهم عن احتلال الانكليز لمصر حد العتاب (٤) :

يا آل عثمان ما هذا الجفاء لنا      ونحن في الله اخوان وفي الكتب  
تركتمونا لأقوام تخالفنا      في الدين والفضل والأخلاق والأدب

(١) ديوانه ١ - ٣٧

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ١ - ٩٠٩ .

(٣) ديوانه ٢ - ٤ .

(٤) ديوانه ٢ - ١٨ .

ولقد اثار خلع السلطان عبدالحميد نقمة بعض الشعراء فراحوا يـكـونـه  
ويترحمون على عهده وبخاصة في مصر التي كانت في منجاة من ظلمه واستبداده، وذلك  
واضح في قصائد احمد شوقي ومحمد عبدالمطلب وسواهما، ممن اعتقدوا في هذا الامر  
مساساً بالاسلام وقدسيتها الاخلافة، وتقويضاً لأبرز اركان الجامعة الاسلامية

وبدافع من ذلك الشعور المشترك بالرابطة الدينية والحذر من الغرب المسيحي  
وقف الرأي العام العربي الى جانب الذولة العثمانية في صراعها مع الدول الاجنبية  
الاخري، وقد تجلج ذلك على السنة الشعراء العرب بوضوح كما تشيـر قصائد كثيرة  
لشوقي وحافظ والرصافي ومحرم وعبدالمطلب والكاشف والزهاوي والكاظمي  
وعبدالحميد الرافعي وشكيب ارسلان وفؤاد الخطيب.. وغيرهم ممن كان شعرهم صريحاً  
في مواجهة اعداء العثمانيين في اثناء حروبهم مع الروس واليونان ودول البلقان، وحين  
ثار الصرب واليونان والبلغار على الدولة العثمانية ينشدون التحرر وخلع الرقبة  
التركية من اعناقهم بلغ الرصافي في حقه وغبه عليهم حد الشتم المقذع إذ  
خاطبهم بقوله (١) :

### يا علوج الصرب والبلغار اولاد الزواني

وهذا يشير الى عدم تميز الفكرة القومية في اذهان الشعراء حتى ذلك الحين  
فالدولة التي كان يعيش الرصافي في كنفها عثمانية اسلامية وهو يرى في انتفاض شعوب  
البلقان عليها إضعافاً لكيانها، وان هذه الشعوب يجب ان تظل محكومة، ولم يكن  
الكثيرون يدر كون يومذاك ان هذه الشعوب لا تربطها اية رابطة قومية او سواها  
بالترك. ومما يؤكـد اثر العقيدة الدينية في موقف الرصافي وسواه من هذه الحركات  
القومية ان بعض الشعراء من غير المسلمين نظروا الى هذه الحركات بمنظار آخر  
مضاد على نحو ما وجدنا عند إيليا ابي ماضي الذي دعا العرب - كما سيمر بنا - إلى ان  
يأخذوا مثالهم عن البلقان وان يتشبهوا بالصرب واليونان وانكر عليهم  
خضوعهم لآبناء جنسكـر خان (٢)

(١) ديوانه ٤٩٦

(٢) انظر زهير ميرزا؛ أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ص ١٣٥، ١٨٧

لقد كان كل تقلص لظل الامبراطورية العثمانية يعتبره انصار الجامعة  
الاسلامية تقلصا لظل الاسلام ويذكر الشعراء بماضيهم في الاندلس . كما كان كل  
نصر او تقدم يحرزه العثمانيون يعتبره هؤلاء الشعراء نصراً للاسلام سواء في المجال  
العسكري او في المجالات الاخرى . وقد همل الشعراء قبيل الحرب الاولى وبخاصة  
في مصر لأول طيار عثماني ورأوا في نجاحه ذاك نجاحا للمسلمين قاطبة ، وما  
قاله حافظ يومئذ (١) :

أهلاً بأول مسلم في المشرقين علا وطار  
النيل والبسفور فيك تجاذبا ذيل الفخار

وبالرغم من ان هذه الرابطة الدينية اخذت تتضاءل في نفوس العرب قبيل  
الحرب الكبرى لتفسح المجال امام الشعاع القومية والمطالب الوطنية فقد وقف كثير  
من شعراء العرب ايضاً مع الدولة العثمانية في قتالها ضد الحلفاء عندما نشبت تلك الحرب  
مدفوعين بعاطفتهم الدينية قبل كل شيء سواها ، وقد انعكست هذه المؤازرة في  
القصائد الكثيرة التي نظمت آنئذ ، من ذلك ما قاله معروف الرصافي الذي يمكن  
اعتباره من شعراء الجامعة الاسلامية برغم حملته الشعواء على عبدالمجيد  
وامتداداه (٢)

يا قوم إن العدا قد هاجموا الوطننا  
فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا  
واستهضوا يا بني الاسلام قاطبة  
من يسكن البدو والأرياف والمدنا  
عار على المسلمين اليوم أنهم  
لم يتقدوا مصر او لم يتقدوا عدنا  
لا زلت يا وطن الاسلام منتصرا  
بالجيش يزحف من أبنائك الأمانا  
ومما كان يدعو الكثيرين من الشعراء والكتاب والزعماء الى التمسك  
بفكرة الجامعة الاسلامية ، ما لمسوه لدى عدد من مفكري الغرب وصحفه وساسته  
من تنديد بالاسلام وتحفز للاجهاز على اقطاره ، ولعل آيات الرصافي

(١) ديوانه : ٧٦

(٣) ديوانه : ٤٩٢

الأخرى التي نظمها خلال تلك الحرب الأولى خير ما يصور أهمية الرابطة الدينية آنذاك (١):

ويك ان الاسلام أوجد فينا وحدة مثل وحدة الرحمن  
فاعتصمنا منها بجبل وثيق هو جبل الاخاء والايان  
ليس معنى توحيدنا الله في الملة - إلا اتحادنا في الكيان  
وحدة جاءنا من الله فيها مرسل بالكتاب والفرقان  
ما نرى سلطة علينا خلق غير سلطان خالق الأكوان

ولكن فظائع جمال باشا في دمشق وبيروت إبان الحرب العالمية الأولى وبعثته باحرار العرب جعلت الكثيرين من الشعراء يتحولون عن شعور الولاء للدولة العثمانية وبالتالي للجامعة الاسلامية ، ويفكرون جدياً بالاستقلال ، ومنهم عبد الحميد الرافعي وفؤاد الخطيب . اما الشعراء الشبان في ذلك الحين فقد كانوا بصورة عامة اشد شعوراً بوطأة الحكم التركي واكثر تمييزاً بين شؤون السياسة والدين ، وقد عبر خليل مردم إثر انتهاء الحرب الأولى عن هذا الشعور بقصيدة مطولة تشيع فيها روح الاحتياط بطرد الترك من بلاد الشام ، ومما قاله يومذاك متحدثاً عن قومه العرب (٢) :

أحلت ذراهم واستبيح حمامهم وسيموا هواناً سادة ومواليا  
يساقون باسم الدين للموت عنوة وهل كان إلا منهم الموت ناشيا  
لوت منهم الأسباب أسباب صلهم رؤوساً من العلياء كانت دوانيا

ولا ريب ان يقظة الشعور القومي كانت الدافع الأول إلى نظم مثل هذه الآراء وذيوها . فقد غدا العرب منذ ذلك الحين يابون ان يسخروا لمآرب الترك ويساقون كقطعان الى مذبح تلك الحرب الضروس باسم الاسلام وتحت راية

(١) ديوانه ٤٧٦

(٢) ديوانه ٢٨٧

الدين ، ثم يعلق احرارهم على اعواد المشانق ، ولبسانهم نزل الوحي ومهمهم  
كان الرسول وبهم انتشر الاسلام .

ومع ذلك ظل بعض الشعراء مثل شكيب ارسلان وبدرالدين النعساني  
واحمد محرم واحمد الكاشف وسواهم .. على ولائهم لحكام الترك واشفقوا على هذه  
الرابطة الدينية ان تنفصم عراها ، وقد وقف شكيب ارسلان ضد بني قومه من  
احرار العرب في استانبول حين دعوا الى الانسلاخ عن العثمانيين واعترف انه سيكون  
في الصف المقاوم للحسين بن علي ، وانه ينتقد سياسة الخروج على دولة الخلافة (١)  
وكان من مظاهر ولائه للعثمانيين اندفاعه في إطارهم والتسبيح بحمدهم ، ودماء  
الاحرار الذين علقهم جمال باشا على الاعواد لم تطل ، فما قاله يومذاك  
مخاطبا الأتراك العثمانيين (٢) :

احبكم حب من يدري موافقكم	في خدمة الدين والاسلام والحسب
مهما يكن من هنات بيننا فلنا	معكم على الدهر عهد غير منقضب
كفى الشهادة فيما بيننا نسبا	إن لم تكن جمعتنا وحدة النسب
مجدي بعثان حامي ملتي وأنا	لم أنس قحطان أصلي في الوري وابي

فالشاعر في ابياته هذه يعتذر كل إساءة مها تكن بالغة إذا صدرت عن  
الترك ولا يرى فيها سوى هنات ، وان العهد القديم لا يمكن ان ينقضب ، وانه إذا لم  
تجمع بين العرب والترك وحدة النسب والاصل فكفاهم الدين الواحد والعقيدة  
المشتركة ، بل ذهب عبدالحليم المصري إلى ابعد من ذلك حين قال :

إن قيل في مصر إن الترك قد ظلموا	فمر ظلمهم أحلى من الضرب
ما أعذب القتل من سيف الصديق وما	امرء إن يكن من غير مصطحب

ولكن سائر العرب في بلاد الشام والعراق كانوا يعانون الوان الظلم من  
قبل الترك ، لا كما يسمع به الشاعر المصري فيظنه - وبعض الظن إثم - أحلى من

(١) الدكتور سامي الدهان ، محاضرات عن الامير شكيب ارسلان ص ١٥-١٦

(٢) ديوانه ١٢٩

العسل ، بل على العكس من ذلك كأن لسان حالهم يردد بمرارة مع  
الشاعر الجاهلي :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

وإذا كان الترك مساهمين ، فانهم في نظر الكثيرين قد انحرفوا عن الاسلام  
حين استحلوا دماء إخوانهم في الدين ، وكان لا بد للعرب ان يثوروا اخيراً ، وكأنهم  
دفعوا الي الثورة دفعاً بعد ما بلغ السبل الزبي .

وبرغم اننا اليوم قد لا نستطيع كثيراً هذا الولاء المفرط للعثمانيين في شعر  
شكيب ارسلان واحمد شوقي وعبدالحليم المصري وسواهم إلا اننا يجب ان ننظر  
الى الموضوع من خلال الظروف والملابسات التي كانت تسم العالم العربي آنذاك وتجعل  
هذا الاتجاه العثماني الاسلامي وجهة نظر منطقية ومقبولة في ذلك الحين لدى الكثيرين  
من العرب الذين فهموا الوطنية على اساس من الدين ، فقد رأوا المستعمر الغربي  
المسيحي يحدد نحوهم انياباً صليبية ، ولم يكن امامهم بد من تكتلهم وتدعيم وحدتهم  
الكبرى في سبيل مقاومته ، ولكن الواقع ان هذا التكتل بين القوميتين الكبيرتين  
في الدولة العثمانية لم يكن يشهد امره ويتجلى قوياً في الشعر إلا تجاه الحن والأزمات  
فكان العرب والترك يتحدون مؤقتاً حين يهاجمهم أقوام آخرون من ديانات وقوميات  
أخرى ، وعلى هذا الضوء نستطيع ان نفسر مؤازرة عدد من شعراء العرب للدولة  
العثمانية عندما كانت تواجهها الحن ، وتغدو مهددة من قبل الغرب . في حين ان  
هؤلاء الشعراء أنفسهم كانوا من أشد المعادين لسلوك الحكام الترك في  
داخل البلاد .

ومع ان كثيراً من الشعراء كانوا يدركون مدى الضعف الذي بلغته الدولة  
وآلت اليه الخلافة ، فانهم تمسكوا بالوضع الراهن آنذاك وحاولوا دعمه بكل قوتهم  
وقنعوا من الخليفة ان يكون رمزاً يلتفون حوله ويكيلون له الثناء لأنه كان في  
نظرهم البقية الباقية من مظاهر السلف

ولا ريب ان الترك الذين احسنوا استغلال هذه العاطفة الدينية لدى العرب

طيلة قرون مديدة لضمان استمرار حكمهم لبلادهم ساروا في هذه السياسة نفسها ايضاً عندما خاضوا غمار الحرب العالمية الأولى واستطاعوا ان يكونوا لأنفسهم بطانة من الشعراء والكتاب تسبح بحمدهم وتعتبرهم حماة الاسلام . وفي كتاب ( البعثة الاسلامية إلى دار الخلافة العثمانية ) الذي الفه محمد كرد علي ونفر من صحبه بايعاز من جمال باشا عام ١٩١٦ قصائد كثيرة تنطق بهذا الاتجاه الرسمي . ومنها ما هو صادر عن رجال الدين كالشيخ بدر الدين النعساني المغالي في عثمانيته وفي مديحه لجمال باشا ، عدا ما في هذا الكتاب من شعر طافح بالاستخذاء الممجوج .

وقد حاول الترك أن يضيفوا على خصومتهم مع الحلفاء صفة الحرب المقدسة فراحوا يستنفرون العرب للجهاد برغم أنهم كانوا متحالفين مع الألمان . وبهذا السلاح المعنوي حاربوا الثورة العربية ووصموا رجالها بالكفر والمروق من الدين ، بل إن الكثيرين من العرب وبخاصة في مصر التي لم تطلها مظالم العثمانيين الترك ، استنكروا من تلقاء أنفسهم ما قام به اخوانهم في الشام والحجاز ضد الخلافة وتحالفهم مع الغرب المسيحي في سبيل تقويض أركان الجامعة الاسلامية . ونتيجة هذه الدوافع انبرى أحمد محرم يندد بزعيم الثورة العربية الشريف حسين لثورته على الخليفة وكان مما قاله (١) :

نبئت ما زعم الشريف وقومه      فسمعت ما لم تسمع الأذنان  
ياذا الجلالة لا سعدت بتاجه      ملكا سواك به السعيد الهاني  
الترك جند الله لولا بأسهم      لم يبق في الدنيا مقيم أذان

وكان محرم في بيته الأخير يعلق بقاء الاسلام على بقاء الدولة العثمانية ويخشى أن يكون في زوالها زواله .

وكان إلى جانب أحمد محرم وعدد من شعراء مصر ، طائفة أخرى من شعراء الشام والعراق لم يرق لهم ما قام به العرب بزعامة الحسين . وقد اشار معروف

(١) الدكتور محمد حسين - الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ج ٢ - ١٩٦٠ ع ن ديوانه المخطوط .

الرصافي فيما بعد الى تلك الثورة فقال يمن على الخلفاء بالنصر (١) :

لقد قادت الأعراب نحو عدوكم      خيولاً لها في حومة الحرب تجوال  
وقامت لهم منكم بمكة راية      لكم فتحت فيهما من القدس أقفال  
لقد أغضبوا البيت الحرام ورببه      وهم بمقام البيت لا شك جهال  
ولو أن عهد المسالين كعهدهم      قديماً لحالت دون ذا النصر أهوال  
ولكنهم باعوا الديانة بالدني      فحالت لعمرى منهم اليوم أهوال

ولكن هذا العامل الديني الذي كان يؤلف بين العرب والترك في الدولة العثمانية هو الذي أخذ يباعد بينها ، فمن الواضح أن شريف مكة الحسين بن علي قائد الثورة العربية نفسه كان يفهم القومية فيها دينياً كما يبدو من منشور الثورة ، (٢) إذ وجهه « إلى جميع إخوانه المسالين » وأحل فيه خلع الطاعة عن حكام الدولة لانحرافهم عن فهم الدين القويم ، كما دعا إلى استخلاص الخلافة من الترك وإعادتها إلى العرب . وفي بعض فقراته إشارات إلى تصرفات الاتحاديين الطائشة التي مست الاسلام وكان لها صدى بالغ لدى مسلمي العرب مما أدى إلى نفورهم من الترك وإعراضهم عن شعور الولاء نحوهم والعطف عليهم ، وبخاصة بعد لجوئهم الى سياسة التتريك ومحاوله محو اللغة العربية لغة القرآن والرسول ، وتتكبر بعض صحف الترك للاسلام ، ورفع أسماء الخلفاء الراشدين من الجوامع ، واستبدال أسماء جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك بها . وقد أثار كل ذلك بالاضافة الى اضطهاد الترك للعرب وتنكيلهم بأحرارهم حفيظة عدد من الشعراء الذين يحلون الدين في المقام الأول ، وإن الدوافع الدينية التي أثارت مشاعر عبدالمطلب ضد الحسين هي نفسها التي أثارت مشاعر شعراء الشام وحوالهم عن مناصرة الترك بعد أن طفح الكيل ، فالشاعر عبدالمجيد

(١) ديوانه ١٣٤٠ .

(٢) أنظر نص المنشور في ثورة العرب طبعة المقطم - ٢٣١ : والثورة العربية الكبرى

لامين سعيد ١ - ١٤٩٠ .



الرافعي الطرابلسي الذي كان من أنصار الجامعة العثمانية والعاثفين على الترك انقلب  
ثأراً على الاتحاديين غيرة على دينه وعروته معا وشرع يقول :

طلبتم الاصلاح من عصبة      توتر بالافساد أقواسها  
تزعّم حب الدين لكن كما      يروج السلعة دلاسها  
لو تألف القرآن ما حاربت      لسانه حتى التوى فاسها

وقد عبر محمد الهاشمي أحد شعراء العراق عن هذا الاتجاه الديني المترج  
بالروح القومية حين قال في أواخر الحرب الكبرى إثر اندلاع الثورة العربية  
من الحجاز (١) :

بني جنكيز إن الظلم عار      وأمر لا يقرب به قرار  
ألا من غار منكم يغار      على قوم بنوا للدين سداً  
هم نشروه في شرق وغرب      وفي فرس وفي روم وعرب  
وفازوا من نبيهم بقرب

بني جنكيز إن الدين يشقى      بحكمكم وإن الشرق يبقى  
ويعلو في بلادكم ويرقى

لقد قامت على الدين القيامة      وبدلت الخلافة وإمامة  
فما للدين عندكم كرامة

ألم تكن الخلافة في قریش      تولوها باصلاح وریش  
وأتم قد توليتم بطيش

توليتم بلاد المسلمينا      فعثم في البلاد مخربينا  
قيام الحاكمين الظالمينا

أرى لغة النبوة والكتاب      تضاع فيا لذلك من عقاب  
لدين محمد وأبي تراب

---

(١) ديوانه ، عبرات الغريب ٧٠

ولهذه الايات أهمية خاصة لانها تصور لنا بوضوح حقيقة المشاعر الدينية والقومية التي دفعت العرب الى ثورتهم على الترك ، وهي تعبر بجلاء عن شعورهم بان الخلافة كانت فيهم وانها ينبغي ان تعود اليهم .

والمعروف ان عبدالرحمن الكواكبي كان اول من نادى بجعل الخلافة في العرب في كتابه المشهور « أم القرى » وهذه الفكرة في الواقع فكرة ثورية تجاوزت مع نفوس العرب الى حد كبير وكانت تقض مضاجع السلطان عبدالحميد الذي كان شديد الحرص على ان يستبقى في الآستانة بعض افراد الاسرة الهاشمية من أنجال الحسين كرهائن لديه حيلة منه تجاه كل حركة قد يقوم بها العرب في الحجاز او غيرها لاسترجاع الخلافة منه ..

ولقد كان الشعراء بالأجمال يعبرون عن حنينهم الى ماضي الخلافة العربية ويتوقون الى استعادة عهودها الزاهرة ومنهم ابو الفضل الوليد الذي يقول (١) :

بغداد يا ثكلى الخلافة رجعي نوحا له تنفتت الأكباد  
أتعود فيك خلافة قرشية كانت يابضاً والشعار سواد

## ٢

ثم تفاقمت الأمور وقطع العرب ذلك الخيط المشترك الذي كان يشدهم إلى الترك طيلة عهود مديدة حين قاموا بثورتهم الكبرى التي تعد انتفاضة فكرية واجتماعية وقومية قبل ان تكون ثورة سياسية مسلحة .

وبتأثير هذا العامل الديني ايضا ازداد الشعور القومي انطلاقاً وأخذ العرب المسلمون يقابلون عنجبية الترك وتشدق صحفهم المتطرفة بان راحوا يعتزون بعنصرهم العربي الذي كرمه الله حين جعل الرسالة الحنيفة فيه ، واختار منه محمداً

(١) نفعات الصور ٦٨

نبياً للمسلمين وأنزل القرآن بلسانه المبين ، وقد اشار الحوماني الى ذلك إذ قال (١) :

كفى العرب فخراً أن منهم محمداً وان له الشأو الذي ليس يلحق

وإذا كان هذا شعور المسلمين الجديد الذي اخذ يتعاظم بتأثير مظالم الترك إبان الحرب الأولى ، فكيف حال شعور المسيحيين من العرب الذين كانوا يلاقون الويلات من التعصب الديني آنذاك ، واية رابطة كان يوسعها أن تشدهم الى الترك وتشعرهم بالولاء نحوهم سواء أكانت هذه الرابطة دينية ام قومية . حتى ان عددًا من الأدباء المسيحيين كانوا يلقون على الترك تبعات تأخر المسلمين وهدم امجادهم على نحو ما نجد في عبارة جبران خليل جبران (٢) « أو لم تته المدنية الاسلامية بيده الفتوحات العثمانية ، او لم يتفقر امراء العرب بظهور سلاطين المغول ؟ » ونحن نقع على هذه الفكرة ايضاً في شعر ايليا ابي ماضي إذ قال (٣) :

جريت بالهلل الى محاق ولولا جهلكم بلغ التمام  
والشاعر نفسه يحمل الترك وفساد حكمهم تبعه ما آل اليه  
العرب من ضعف :

أثرتم بيننا الأحقاد حتى ليقتل بعضنا بعضا خصاما

ثم يشير الى اتحاد المسلمين والمسيحيين بعد ان صبرتهم نيران التعصب والارهاب  
فاذا هم يدينون بقومية واحدة :

و شاء الله كيدهم فبتنا  
وقالوا نحن للاسلام سور  
فهل في دين أحمد ان يجوروا  
الى كم يحصرون الحكم فيهم  
كمثل الماء والحجر التمام  
وأن بنا الخلافة والاماما  
وهل في دين احمد أن نضاما  
وكم ذا يبتغون بنا احتكاما

(١) ديوانه ٢٠٠

(٢) مجلة الفنون سنة ١٩١٣ عدد ٨ ص ٣٧

(٣) أنظر زهير ميرزا : ايليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١

ولا ريب ان شعور النعمة عند ابي ماضي نسج من خيوط البواعث الدينية والقومية معاً . فقد ادى فقدان التسامح في سياسة العثمانيين وما سببه من مجازر ومآس الى ازدياد نفور المسيحيين الذين كانوا يهتمون عبء الضحايا في اغلب الأحيان فراحوا يرقبون يوم الخلاص بلهفة . وكان هذا الأمر شديد البروز في لبنان حتى انه دفع بعضهم الى التعصب والتطرف كرد فعل مضاد في نفوسهم عندما اخذوا يسعون الى الارتقاء في احضان الدول المستعمرة لاشتراكهم معها في العقيدة الدينية ايضاً ، املا في حمايتها لهم وعيشهم برعايتها في ظل الأمن والسلام . والسبب نفسه كانت دعوة الشعراء الى قيام نظام حكم اسلامي في بلاد العرب تبعث في تلك الظروف على الحذر والريب .

وحين سقطت الآستانة في يد الحلفاء واصبح الخليفة سجيناً او كالسجين، وجم الكثيرون ممن يؤيدون الجامعة الاسلامية حزناً على معقل الخلافة ودولة الاسلام وكان هذا الشعور اشد وضوحاً لدى الشعراء في مصر بصورة عامة عبر عنه حافظ ابراهيم الذي لم يرف في ذلك الاحتلال سوى جانبه الديني (١)

ايا صوفيا حان التفرد	فاذكري	عهد كرام فيك صلوا وسلموا
إذا عدت يوماً للصلب	وأهله	وحلى نواصيك المسيح ومريم
ودقت نواقيس وقام	مزممر	من الروم في محرابه يترنم
فلا تنكري عهد المآذن	انه	على الله من عهد النواقيس اكرم

ونجد ما يماثل هذه العاطفة الدينية الحادة عند شاعر آخر عرف بقوة عقيدته الاسلامية وتحمسه لنظام الخلافة وهو شاعر المهجر أبو الفضل الوليد الذي كان قد اعتنق الاسلام (٢) . فقد أثار انتصار الغرب على العثمانيين واحتلالهم ببلاد العرب حميته الدينية فراح يستنهض قومه لاستعادة مجد الخلافة وطرد المستعمرين وذلك في قوله (٣) :

(١) ديوانه ٢ ، ٨٨٠

(٢) انظر جورج صيدح ، أدبنا وادبنا في المهاجر ٤٠٧

(٣) نفحات الصور ٣٢

أغبروا كلكم عربا وغاروا  
 أمور المسلمين إلي ضياع  
 على الدين الحنيف الأحدي  
 بحكم المستبد العيسوي  
 لقاهرهم له بأس السمي  
 فيغدو الشرق حراً مستقلاً  
 فتجمعه الخلافة من حري

وواضح ان لهفته على زعيم يمثّل صلاح الدين ، ويرد كيد الاستعمار ،  
 عن وطنه ، تتضمن نظراته إلى ان جيوش الغرب الزاحفة الى بلاد العرب لا تختلف في  
 شيء عن الجيوش الصليبية التي اجتاحت الشرق العربي قبل بضعة قرون .

إلا ان أبا الفضل الوليد لم يقتصر على هذه النظرة الدينية البحتة بل نظر إلى  
 جوهر الموضوع في علاقة الخلافة بالعرب والوضع الجديد الذي آلوا إليه  
 بنتيجة زول قوات الاحتلال في وطنهم وكان مما قاله آنذاك إثر  
 انتهاء الحرب (١) :

الشام يقهر والعراق يضام  
 أين العروبة والخلافة منها  
 فاليوم لا عرب ولا إسلام  
 والمسلمون بلادهم أقسام  
 لبني أمية أو بني العباس في  
 تلك الربوع امانة وذمام  
 هل بعد غزوتها ونكبة اهلبا  
 للمسلمين سلامة وسلام  
 او هل تصح خلافة وامامة  
 حيث الفرنجة واليهود قيام

هذه هي حقيقة شعور الفئة النيرة من المسلمين التي كانت تجذب مبدأ الخلافة  
 ونظامها في الحكم ولكنها لم تعد تفهم معنى لهذا الوضع الشاذ الذي تجلّى في وجود  
 خليفة ليس له من الأمر إلا اللقب في حين غدا المسلمون في الشرق العربي  
 يخضعون بالفعل لسلطة الاستعمار الأجنبية .

ثم كانت انتفاضة اتاتورك ضد الحلفاء وجنود اليونان في أعقاب الحرب الأولى  
 بلما لجراح المسلمين الذين أحزتهم سقوط عاصمة الخلافة ، وكانهم وجدوا في

(١) نفحات الصور ١٠٩

انتصاراته على دول الغرب ادراكاً لثأر المسلمين ، واستعادة لهيبة الخلافة المتداعية .  
وقد هلك الشعراء للبطل الجديد وراحوا يعلقون عليه أوسع الآمال ، وهذا هو  
الرصافي يشيد به ويتفاءل باسمه (١) :

سمي المصطفى لازالت تعلقو إلى أوج يطاول كل أوج  
وكانت فرحة عبدالمطلب وهو من أبرز شعراء الجامعة الإسلامية كبيرة  
إذ انتشى بهذا الظفر ووجد فيه نصراً أميناً للمسلمين (٢) :

هذا مقامك شاعر الاسلام	قفق القريض على أجل مقام
عادت صوارمنا إلى أغمادها	من بعد ما ظفرت بخير مرام
هذا الخنيف يسير تحت ظلها	فخم الجلالة سامي الأعلام
ضحك الهلال لها الغداة وربما	أجرى مدامعه شؤون غمام

ولعل قصيدة شوقي أشهر ما قيل في ذلك الحدث وفيها يقول (٣) :

الله أكبر كم في الفتح من عجب	يا خالد الترك جدد خالد العرب
ولا أزيدك بالاسلام معرفة	كل المروءة في الاسلام والحسب
للترك ساعات صبر يوم نكبتهم	كتبن في صحف الأخلاق بالذهب
خيل الرسول من الفولاذ معدنها	وسائر الخيل من لحم ومن عصب
يوم كبدر فخيّل الحق راقصة	على الصعيد وخیل الله في السحب
هزت دمشق بني أيوب فانتبهوا	يهنتون بني حمدان في حلب
ومسامو الهند والمهندوس في جدل	ومسامو مصر والأقباط في طرب

ان افتتاح شوقي قصيدته بعبارة الله أكبر ، وتشبيهه أتاتورك بخالد بن  
الوليد ، وقرنه معركته بمعركة بدر ، ثم تعبيره عن فرحة مسلمي الأرض بذلك  
النصر ، كل ذلك يتم بوضوح عن ذلك الشعور الديني نحو الترك الذي كان امتداداً  
لشعور شوقي نحو العثمانيين من قبل ومظهراً جليلاً لايمان الشاعر في كلا الحالين  
بالجامعة الإسلامية .

(١) - ديوانه ٢٤٠ (٢) - ديوانه ١٥٣ (٣) - الشوقيات ١ - ٦١ .

ولقد غاب عن هؤلاء الشعراء في الواقع جوهر حركة أتاتورك القومية فلم ينظروا إليها إلا بذلك المنظار الديني الذي كان أتاتورك أبعده الناس عنه ، وكان مما يغرز هذا الاتجاه في نفس شوقي اتصال نسبه بالترك . فقد لاحظ محمد حسين هيكل حين قدم لديوان شوقي الأول أن ما قاله أمير الشعراء في ذلك الجزء عن العرب وما يتصل بهم يشتمل ثلاث قصائد ، وما قاله عن الخلافة وعن الترك يشتمل ثماني عشرة قصيدة . إذ كان أمير الشعراء على حد تعبير هيكل (١) « المعبر عن الميول والآمال الكينية في نفوس المسلمين جميعاً لا في نفوس المصريين وحدهم ، وحرصهم على وحدتهم ، وعلى كيانهم بزاء الأمم الغربية التي كانت تنظر إليهم بعين صليبية مجتة » .

وينبغي ان نلاحظ أن ما نظمه الشعراء من شعر موال للعثمانيين لم يصدر جميعه بدافع الايمان بالجامعة الاسلامية ، فقد كان منه شعر رسمي ينطق بلسان الحكام ويسبح بحمدهم ، طمعاً في بلوغ مآرب وأملا في تحقيق مكاسب ، وكان بعضه يقال عن تقيّة إشاراً للسلامة وتجنباً للارهاب وبخاصة في الشام إبان العهد التركي .

على أن ما حدث بعد ذلك خيب آمال أنصار الجامعة الاسلامية إذ لم يلبث أتاتورك حتى أطاح بالخليفة العثماني وقضى على نظام الخلافة الاسلامي . وكانت هذه الحالة من أخطر ما واجهه المسلمون في تاريخهم الحديث ، فللمرة الأولى في حياتهم سقطت الخلافة بعد أن اتصلت حلقاتها خلال ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، تنقل مركز الخلافة فيها بين عواصم البلاد الاسلامية المختلفة ولكنه ظل في كل الأحوال رمزاً للرابطة التي تجمع بين المسلمين في شتى بقاع الأرض (٢) وكانت الصدمة كبيرة في نفوس شعراء الجامعة الاسلامية إذ شعروا بفراغ لا يجد تجاه ذلك الحدث . وقد عبر شوقي عن شعور الخيبة المرير بعد ما علقه من آمال على أتاتورك في بعث الخلافة ، وإعادة أمجادها حين رثاها بقوله (٣) :

(١) أنظر مقدمة الجزء الاول ص ١٣ .

(٢) الدكتور محمد حسين - الاتجاهات الوطنية انظر صفحة ٢٨ فما يلي .

(٣) الشوقيات - ١ - ١١٤ .

عادت أغاني العرس رجع فواح  
 كفتت في ليل الزفاف بثوبه  
 ضجت عليك مآذن ومنابر  
 الهند والهبة ومصر حزينة  
 والشام تسأل والعراق وفارس  
 وعلاقة فصمت عرا أسبابها  
 نظمت صفوف السلهين وخطوم  
 بالرجال لحريرة موءودة  
 ونعيت بين معالم الأفراح  
 ودفنت عند تبليج الاصباح  
 وبكت عليك ممالك ونواح  
 تبكي عليك بمدمع سحاح  
 أحما من الارض الخلافة ماح  
 كانت أبر علائق الأرواح  
 في كل غدوة جيئة ورواح  
 قتلت بغير جريرة وجناح

« ولم يكن أحمد محرم أقل من شوقي حزناً وصدق عاطفة في القصيدة التي كتبها بهذه المناسبة والتي يقول فيها » (١) :

أعن خطاب الخلافة تسألينا  
 لقد فجع المروءة فيك دهر  
 أجبي يا فروق فتى حزيننا  
 أصابك في ذوبك الأولينا

ثم استعرت معركة الخلافة على الصعيد الفكري وانقسم الناس بين محبذ لها  
 وراغب عنها ، ولكن الكثيرين اخذوا يتبنون ما آل اليه امر المسلمين آخر الأمر في  
 ظلها ، وجعلوا ينفضون أيديهم من نظامها بعد ما صارت الي شبح هزيل ، ووجد  
 عدد ممن عرفوا بقوة عقائدهم الدينية في خطوة اتاؤرك خيراً للمسلمين ، ورأوا في  
 الحكم الجمهوري عوداً الى نظام الشورى في الاسلام (٢) ، ومن هؤلاء الشاعر  
 محرم نفسه الذي يتعزى بزوال الخلافة للتداعية على الرغم من حزنه  
 لسقوطها ويقول (٢) :

وما نفع الخلافة حين تسمى  
 ثوت تتجرع الآلام شتى  
 حديث خرافة للهازلينا  
 على أيدي الدهاة الماكرينا

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٣٠ والايات اختارها  
 المؤلف من ديوان مخطوط للشاعر  
 (٢) أنظر محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٢٤ - ٤٥



وقد ظل بعض دعاة الجامعة الاسلامية يبنون أنفسهم بعودة نظام الخلافة ويأملون في توحيد شمل مسلمي الارض ، فاخذوا يتنادون لعقد مؤتمر اسلامي عام يهدف الى بحث الأمور والتداول في امر ترشيح خليفة آخر للمسلمين ، إذ لا يصح ان يكون هذا المنصب الأكبر شاغراً ، وقد كانت مصر مركزاً لهذا النشاط ، وقام الأزهريون بدور فعال في سبيل عقده .

وحين أتت الوفود من اقطار المساهمين تبين ان أكثرها كان يبيت امر استخلاص الخلافة لبلده ، وان السياسة سخرت المؤتمرين لمآربها ، فكان أمان الله خان ملك الافغان طامعاً في الخلافة ، وكان الملك فؤاد يعمل في الخفاء لهذا الهدف ، عدا تطلع الشريف حسين المبكر اليها منذ اعلن ثورته ، ولم يسفر المؤتمر عن شيء بسبب تعارض الأهواء (١) . اما الحسين فقد اعلن نفسه خليفة على العرب في هذا الجو من الانقسام وبايعه عدد من مسلمي الشام وبخاصة في شرق الأردن وفلسطين ، وقد نظم عدد من الشعراء في الشام قصائد حول هذه البيعة التي تمت عام ١٩٢٩ من ذلك من قاله بدر الدين الحامد احد شعراء سوريا (٢) :

تاج مجد الخلافة انتظما فوق رأس الخليفة العربي  
يا بني هاشم خلافتكم زتموها بالحق والقضب  
يا ربوع الحجاز طبت ثرى فيك مجدي وفيك خير نبي

وفي ذلك يقول ايضاً محمد كامل شعيب العمالي من ربوع لبنان مبشراً الحسين بالخلافة (٣) :

اليك مليك العرب مني بيعة مباركة عن أهل صيدا وعامل  
أجل بايعتك اليوم فبر وهاشم وجارها آساد حرب ووائل  
أبت ان ترى إلاك للعرب ملجأ وأعظم حام للخلافة كافل  
غير ان معظم هذه القصائد التي قيلت حول موضوع بيعة الحسين كانت

(١) انظر تفصيل هذه الأمور في محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٣٩-٤٥

(٢) ديوانه ١٤٧

(٣) الحماسيات في النهضة العربية ١٨

تفتقر الى الحماسة ، ولعل مرد ذلك الى الفترة غير المناسبة التي اعلن فيها الحسين نفسه خليفة ، حتى إن بعضهم استنكر سعي الحسين الى الخلافة مع ان عهدا ولى منذ ان اطاح بها الاتراك قبل قرون ، والى ذلك يقصد الزركلي حين انتقد الحسين (١) :

عجباً لمن طلب الخلافة والخلافة في النجوم  
أين الخلافة لا خلافة في الحديث ولا القديم  
تلك التي ذهبت مع الأيام قبل ذوي (سليم)

وواضح ان الشاعر لا يقر الحسين على مطالبته بالخلافة ، كما انه من جهة اخرى لا يعتبر سلاطين آل عثمان خلفاء اي انه كان يرى حكمهم للعرب غير شرعي وان الخلافة لم يعد لها معنى بعد ان خرجت من ايدي العرب العباسيين

والواقع ان العرب قد نفضوا ايديهم من نظام الخلافة وبخاصة بعد ان شاركوا هم انفسهم في تقويض اركانها في ثورتهم الكبرى ، بل ان الشكوك والريب اخذت تساورهم تجاه الحسين نفسه بعد ان تبين لهم ضعفه امام الانكليز . وبتنتيجة فتور الجماهير تجاه هذه البيعة ولانها كبت في مقاومة العدو الاستعماري الجديد تقلص نفوذ الحسين واكتفى بان يعلن نفسه خليفة على الحجاز فحسب تحت ضغط بريطانيا لأسباب اهمها رغبة الخلفاء في حصر نفوذه هذا في بقعة محدودة ، واخلاء الجو لهم ليطلقوا ايديهم في اجزاء الشام الأربعة .

وحين توفي الحسين بن علي بكاه الشعراء وندبوا حظه وحظ العرب والمسلمين ، ولكن قلة منهم في الشام والعراق ومصر اشارت الى تلك البيعة ، إذ تجاهل اكثرهم ما كان من امرها بعد ان انطوى الحديث عنها وعن موضوع الخلافة نفسه .

والواقع انه منذ سقط الخليفة العثماني طراً على مضمون الشعر القومي الحديث

---

(١) ديوانه ٧١

تطور كبير ، واخذ يعبر عن شعور قومي متعاضم بعيداً عن نظام الامبراطوريات .  
وادرك العرب ان عهد الخلافة قد ولى ، وان إثارة موضوعها من جديد لم يجلب لهم  
إلا الشقاق فجنحوا لرفض مبدأ الخلافة جملة ، وبخاصة بعد ظهور المفاهيم الحديثة  
القومية وفصل عدد كبير من الدول بين الدين والقومية في مجال السياسة  
والحكم . وقد انعكس هذا الاتجاه لدي اكثر الشعراء والكتّاب في  
السنوات التي اعقبت الحرب الأولى .

وإذا كان صوت دعاة الجامعة الاسلامية قد خفت بعد ذلك في الشعر والنثر  
وتحول الي دعم جامعة العروبة بصورة عامة ، فقد ظل عدد من الشعراء  
يفتقدون الخلافة ونظامها بشيء من الحسرة ويرون فيها صورة من الماضي  
الزاهر وبقية من المجد الغابر .

### ٣

على ان ثمة ظاهرة هامة في الشعر القومي الحديث تستجلى واضحة لدي  
كثير من الشعراء في مزج الدين بالقومية او بتعبير ادق عدم التمييز بين العروبة وبين  
الاسلام ، وغير خاف ان هذه النظرة تختلف عن الدعوة الى الجامعة الاسلامية التي  
كانت غالبية على الأذهان حتى انتهاء الحرب الاولى ، والتي يمكن عدّها دعوة سياسية  
عرضت في ظروف معينة وعاشت خلال فترة محدودة .

اما التلازم بين مفهومي العروبة والاسلام في الشعر القومي بل في سائر  
فنون القول ومجالي التفكير العربي فهو امر طبيعي بل ضروري في كثير من الاحيان  
وربما كان من افضل ما يوضح العلاقة الوثقى بينها في التاريخ قول محمد المبارك (١) :  
« لئن كان الاسلام عقيدة عامة في الحياة ورسالة انسانية ذات مبادئ عامة فان العرب  
كانوا هم اول من تلقاها وتبلغها ، وهم اول من وعّاها وتمثلها ونفذها . منهم خرج

---

(١) الامة العربية في معركة تحقيق الذات ١٠٥

صاحب الرسالة وبلغتهم نزل الكتاب ، وإياهم خاطب اول ما خاطب وإياهم كلف بالتبليغ اولا ومنهم كان صحابة الرسول ﷺ الناقلون للإسلام والشارحون لمبادئه . ولهم كان الوعد اولا بالنصر والتمكين في الأرض وارتفاع الذكر ، وهم الذين استلموا قيادته الفكرية واعين مبلغين ، وقيادته السياسية حماة حاكمين ، وعن طريقه امتدت الشخصية العربية عبر الزمان والمكان وامتدت في العالم متغلغلة بين الشعوب والأقوام ثقافة وتفكيراً وسلوكاً وخلال العصور والأحقاب وهو الذي نقلهم - بعد ان وحد مفاهيمهم في الحياة في جميع نواحي الحياة وآفاقها - من افق القبيلة والصحراء الى الصعيد الانساني حيث اصبحوا حداثة القافلة الانسانية واول من قدم النموذج العملي الأول لها . وبه اصبحوا نواة لعالم كبير يحيط بهم كالهالة » ومع ان الاسلام عم شعوباً وائماً كثيرة في الارض فانه لا يذكر إلا ذكرت الاممة العربية ، وقد اشار المفكر الهندي ابو الحسن الندوي (١) الى « ان المسلم ينظر الى العالم العربي كمهد للإسلام ومشرق نوره ومعقل للانسانية وموضع القيادة العالمية » وفي ذلك يقول الفيلسوف محمد إقبال (٢) :

أنا اعجمي الدن لكن خمرتي      صنع الحجاز وروضها الفينان  
إن كان لي نعم الهنود ولحمتهم      لكن هذا الصوت من عدنان

وإذا درسنا الأسباب العميقة لثورات القومية التي اندلعت في العالم العربي منذ قيام الحرب الأولى ضد المستعمرين تبين لنا الأثر الفعال للمشاعر الدينية ومسدي معانقتها الحارة للعواطف القومية . كان للازهريين في ثورة مصر عام ١٩١٩ ولعلماء النجف في ثورة العراق الأولى ولسائر رجال الدين في ثورات فلسطين وليبيا واقطار المغرب العربي يد مباركة على الحركات الوطنية . ولم يكن الشعور الديني الرافداً كبيراً للمنازع الوطنية المتعاضمة باطراد في نفوس العرب الذين لم تستسغ شعوبهم

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٤٥ والمرجع السابق ١٦٠

(٢) انظر الايات في كتاب محمد المبارك : الاممة العربية ، وقد عربها الصاوي

- واكثرهم من المساهمين - ان يتحكم فيها الغرب المسيحي (١). وهذا الشعور لم يكن يختلف في جوهره عما كان عليه ابان الغزو الصليبي قبل قرون. ولقد كان الشعر خير مجلي لهذه الظاهرة.

فحين قامت ثورة العراق ضد الاحتلال البريطاني كان العامل الديني من اهم مقوماتها نظراً لأن الشعور القومي لم يكتمل نضجه حتى ذلك الحين لدى الشعب العراقي، وقد كان كثير من زعماء الثورة من رجال الدين وعلى رأسهم قائدها الروحي الامام محمد تقي الشيرازي الذي كان لفتاواه باعلان الجهاد المقدس ضد الاجنبي المحتل وتحريم طاعته اثر كبير في إلهاب المشاعر الوطنية وإيقاد نار الثورة، كما ان عدداً من شعراء تلك الثورة كانوا من رجال الدين والأدب ايضاً وكثير منهم من الشيعة الفاطميين في الحلة والنجف الأشرف مثل محمد رضا الشبيبي ومحمد باقر الشبيبي وعبدالغني الخضري ومحمد مهدي البصير وعبدالحسين الأزري وعلي الشرقي وسواهم، وهذا الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء يقول (٢):

كم نكبة تحطم الاسلام فيها والعرب  
والانكليز أهلها فتش تجدهم السبب

وحين خرج محمد سعيد الجبوبي رائد الشعر العراقي الحديث من الضريح العلوي في النجف يريد قتال الانكليز ابان الحرب الأولى كان مدفوعاً بشعور ديني جارف. وقد ارسل اليه محمد القزويني هذين البيتين اللذين يؤكدان هذه الظاهرة لدى الشاعر المجاهد (٣):

(١) ومما يؤكد اثر العامل الديني في هذا المجال ان المسيحيين بالمقابل وخاصة في لبنان لم يكونوا يشعرون مثلاً تجاه الفرنسيين الذين كانوا من الكاثوليك بهوة كبيرة لاشتراكهم معهم في العقيدة الدينية. كما كان شأن المسلمين مع الترك من قبل. لقد كان الكاتب المهجري وليم كاتسفليس في جملة الداعين بجرارة الى قبول انتداب فرنسا ويستغرب من السوريين موقفهم تجاه من تمد ارقى الامم، وهو يعال ذلك بان اكثرهم من المحمديين وهي ليست على مذهبهم

(٢) انظر عبدالكريم الدجيلي: محاضرات في الشعر العراقي الحديث ٦٤ من مجموعة مخطوطة الشاعر

(٣) المصدر السابق ٣٣ من مجموعة مخطوطة ايضاً

نحن بني العرب ليوث الوري      دين الهدى فينا قوي عزيز  
لا بد ان نرحف في جحفل      نبيد فيه جحفل الانكليز

ولئن تردد كثير من السوريين في الالتحاق بالثورة العربية الكبرى التي  
نشبت ضد الحكم العثماني عام ١٩١٦ وذلك اشفاقاً منهم على نظام الخلافة واشهرار  
السلاح في وجه اخوتهم المسلمين والترك لقد اجمعوا امرهم بعد ذلك وبادروا الي  
قتال الفرنسيين . وقد تجلت هذه المشاعر الدينية ملتزمة مع العواطف القومية  
بشكل بارز في اكثر ما قيل يومئذ من شعر وطني ، من ذلك ما  
قاله خليل مردم بك (١) :

كم مسجداً حرقوا وكم من راع      سالت دماؤهم به ضحاضحا  
أضحى كتاب الله وهو ممزق      أرجوا (٢) اليه أسنة وصفاحا  
يا غيرة الله اغضي لكتابه      إن قومه لم يبذلوا الأرواحا

وحين نشبت الثورة السورية عام ١٩٢٥ كانت النفوس مفعمة بالشعور  
القومي المتأجج ، ومع ذلك كان للشعور الديني اثره الكبير في رفق التيارات الوطنية  
وتغذية حركة النضال القومي ضد المحتلين . ولهذا اختلط مفهوم الدين والوطن في  
قصائد كثيرة . وهذا الشاعر محمد علي الحوماني يصدر عن ذلك الاتجاه بقوله (٣) :

مجد العروبة أفقرت عرصاته      والضيم حل به فاين أباته  
الله للاسلام هدم صرحه      والى الحضيض تساقطت شرفاته  
ومن ذلك ايضاً ما قاله شوقي في قصيدته المشهورة دمشق (٤) :

الست دمشق للاسلام ظئراً      ومرضعة الأبوة لا تعق  
كما عبر من مصر احمد زكي ابو شادي عن هذا الجانب الديني

(١) ديوانه ١٥٧

(٢) أرجوا : خالطوا

(٣) ديوانه ٩ .

(٤) الشوقيات ٢ : ٨٨

تجاه الثورة فقال (١) :

ريعت لنكبة مجدك الأحلام وبكأك باسم فخاره الاسلام  
حرب الصليب رددتها في أمسهم شرفاً فعادوا ينقمون فهاموا

وقد استيقظت الحمية الدينية قوية في نفوس كثير من الشعراء عندما اخذ  
الفاشيست من الطليان ينكلون باحرار العرب في طرابلس الغرب ، إذ ارتكب  
المستعمرون هناك فظائع رهيبة تجاه المسلمين في تلك البقعة العربية وعيشوا بمساجدم  
وكان ما ابده من ضروب التعصب الأعمى جديراً بأن يستفز مشاعر العرب  
والمسلمين بل البشر كافة ، وقد أثارت الأحداث المؤلمة عام ١٩٣١ التي انتهت بقتل  
عمر المختار قرائح شعراء العرب على اختلاف ديارهم ، من اشهرها ما نظمه امير  
الشعراء شوقي مستنكراً شق شيوخ بلع السبعين من السنين ولم تكن جريته  
الا الذود عن وطنه وقد اشار شوقي الى فقد الاسلام له بقوله (٢) :

ركزوا رفاتك في الرمال لواء يستنهض الوادي صباح مساء  
المسلمون على اختلاف ديارهم لا يملكون مع المصاب عزاء

كما عبر احمد محرم عن تلك الغضبة التي شملت العرب والمسلمين على  
السواء فقال (٣) :

ذعر ( الحطيم ) وراع ( يثرب ) عاصف  
لموت ضج لهوله الحرمان  
سهم أصاب المسلمين وجال في كبد الهدى وحشاسة الأيمان  
وارحمنا للمسلمين تفرقوا وتباعدوا في الارض بعدثوان

وهذه القصائد تذكرنا بمجروب مماثلة جرت بين الطليان ايضاً وبين  
العثمانيين فوق تلك الارض نفسها قبيل نشوب الحرب العالمية الاولى وكيف تطوع

(١) ديوان الثورة ٨٨

(٢) الشوقيات ٣-١٧

(٣) الدكتور محمد حسين ، الاجتماعات الوطنية ٢ ، ١٥٤ عن ديوان غلطوط الشاعر

آنذاك آلاف العرب الى جانب الترك لطرد الدخيل من طرابلس مما اثار قرائح الشعراء على نطاق واسع . ولا ريب ان ما نظمه الشعراء في رثاء المختار كان يستدعي هذا الاهتمام بالجانب الديني في شخصية الفقيه الكبير فهو رأس الاسرة السنوسية ذات النفوذ الروحي البارز والمكانة الدينية السامية ، وكان نضاله المستميت ضد الاستعمار نموذجاً لالتقاء العقيدة الدينية والقومية . والى ذلك اشار اكثر الذين رثوه من الشعراء .

والواقع ان الشعور الديني لم يتجل قويا في الشعر القومي الحديث الا من خلال ما نظمه الشعراء من قصائد حول احداث فلسطين منذ ان وضعت الحرب الأولى اوزارها . فقد تميزت القضية الفلسطينية بطابع قومي وديني معاً نظراً لوقوع احداثها في الأرض المقدسة مهد عيسى ، ومسرى محمد ، ومهبط سائر الرسل .

وبالاضافة الى العرب اهتم مسالمو الأرض قاطبة بما يجري حول المسجد الأقصى من مأس كان وقودها اخوانهم في الاسلام . ويعتبر انعقاد المؤتمر الاسلامي العام في القدس دليلاً على اهتمام مسلمي العالم بما يحدث في الديار المقدسة . ومن هذه الزاوية ايضاً نظر كثير من الشعراء العرب الى نضال الشعب في فلسطين على انه جهاد مقدس يقوم به المؤمنون دفاعاً عن عقيدتهم ومنافحة عن ارضهم الطاهرة ، ولذلك كان للعامل الديني اثره في الهاب المشاعر ضد الصهيونية ، وقد عبر الشاعر العراقي محمد علي اليعقوبي عن هذا الشعور مخاطباً زعماء المسلمين في مؤتمر بقوله (١) :

صونوا حمى الدين الحنيفي من	تلاعب الشرك وأيدي الغير
والبيت والأرض التي شرفت	بالمصطفى والطيبين الغرر
والمسجد الأقصى الذي قد سرى	منه لأعلى العرش خير البشر
فاغتتموها إنها فرصة	اتاحها للمسلمين القدر

(١) الفلسطينيين ١٦



ومن هذا القبيل ما قاله ابو الفضل الوليد :

قد أذلوا العربي المسلما يهودي زنيم شرس  
ضامه في المسجد الأقصى كما  
ضام عيسى وسط بيت المقدس

ويقسم احمد محرم بمجرى الوحي : (١)

لا ومجرى الوحي من مقدسها لن تروها ليهود مطعما  
كما نستشف هذه النظرة الاسلامية تجاه ارض فلسطين المقدسة لدى عمر  
بهاء الأميري إذ يقول : (٢)

يا فلسطين يا تراث النبوة يا لسان المجد الأثيل المقوه  
الأبوة الكهامة تهتر تاراً كلما معرج الرسول تأوه  
اما محمد عبدالغني حسن فيشير الى تلك الرابطة الدينية التي تربط المصريين  
باخوتهم في فلسطين ويقول (٣) :

نحن في الهم اخوة جمعتنا فكرة حرة وقربي ودين  
وهكذا حقق ذلك الالتقاء الرائع بين المشاعر الدينية والقومية بعد الحرب  
العالمية الأولى انتصارات باهرة للحركات الثورية في البلاد العربية إذ استمر صوت  
الدين عالياً في الشعر القومي يؤدي دوره الفعال في مقاومة الاستعمار ويرفد الشعور  
القومي الجارف في نفوس العرب

---

(١) الدكتور محمد حسين ، لانجاهات الوطنية ٢ ، ٥٥ عن ديوان مخطوط للشاعر

(٢) من ديوانه المخطوط

(٣) من نبـع الحياة ٩٨

ولكن الروح الوطنية والمشاعر القومية اخذت تنمو باطراد على حساب الجامعة الاسلامية التي كان لها شأن كبير قبل الحرب العالمية الأولى وفي اثنائها. وذلك بفعل الثورات القومية المتوالية في العالم العربي التي ابتدأت حلقاتها بالثورة العربية الكبرى ثم ثورة مصر عام ١٩١٩ فثورة العراق والثورة السورية واخيراً ثورات فلسطين المتعددة. ففي مصر تحول الشعراء ومعهم الرأي العام عن فكرة تأييد تركي يتربع فوق عرش في الآستانة الى الالتفاف حول الوطن المصري ودعم كيانه، وزى مثالا لهذا التحول في احمد شوقي بعد نفيه الى الأندلس، فهو يقول قبيل عودته الى وطنه معارضاً سينية البحري (١):

وطني، لو شغلت بالخلد عنه فازعتني اليه في الخلد نفسي  
وما يكاد يحط اقدمه في بلده وتكتحل عيونه بمرآه بعد اغتراب دام نحواً  
من خمس سنين حتى اخذ لسانه يلجج بحجة وطنه دون سواء (٢):

أدير اليك قبل البيت وجهي  
إذا فته الشهادة والمتابا  
ولو اني دعيت لكنت ديني  
عليه اقابل الحتم المجابا  
وهكذا اخذ العنصر الديني بالتضاؤل في المجال القومي ليفسح المجال امام المشاعر الوطنية.

اما في العراق وفي الشام التي تضم سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن فقد اخذ الشعور القومي بالتعاظم منذ ان ثار اهل تلك المناطق على الخلافة العثمانية والنفوذ التركي. وكانت العروبة هي السمة البارزة لدى شعرائهم الذين عزفوا الاالحان القومية على وترين اثنين هما تحرر العرب ووحدتهم في حين اقتصر شعراء مصر

(١) الشوقيات ٢ : ٥٣

(٢) الشوقيات ١ : ٥٦

على العنصر الوطني والجامعة المصرية وحدها اي على التحرر فحسب دون  
اي شيء آخر .

وهذا الأمر جدير بان يستوقفنا ويقودنا الي اكتناهاه وتتبع آثاره في الشعر  
فالواقع ان افراد مصر بالاحتلال البريطاني في وقت مبكر وقبل ان تبثلى بمثله سائر  
اقطار الشرق العربي وضع المصريين في وضع معين جعل قضيتهم تختلف عن سائر  
قضايا الشام والعراق التي بقيت خاضعة للحكم العثماني المباشر سنوات طويلة اخرى .  
ثم نما هذا الحاجز ولم يعد المصريون بعد ذلك يتجاوبون مع قضية انفصال العرب عن  
الترك وبالتالي لم يتحمسوا لثورتهم إبان الحرب بل استنكروها ايضا . ولم ينته امر  
هذا الافتراق إلا بعد ان وحدث الاحداث بينهما عندما شمل الاستعمار بلاد الشام  
والعراق منذ انتهت الحرب الأولى ، ومنذ ذلك الحين اصبح العدو مشتركا وبدأت  
الفكرة العربية تنمو على ضفاف النيل وتنطلق من مكائنها ولذلك وجدنا مفهوم العروبة  
يتلفع لدى أكثر الكتاب والشعراء في مصر بثوب إسلامي واضح المعالم ، كما ان  
المفهوم القومي بدا غائماً فيما نظم من الشعر اول الأمر ، ومن مظاهر هذه الروح  
القومية التي بعثت مجدداً في مصر وارتدت ذلك الطابع الاسلامي أبيات لحافظ ابراهيم  
في ( تحية الشام ) يقول فيها : (١)

( النيل ) وهو الى ( الأردن ) في شغف

يهدي الي ( بردى ) أشواق ولهان

وفي ( العراق ) به وجد ( بدجلته )

( وبالفرات ) وتحنان ( لسيحان )

فعلى الرغم من بروز الفكرة العربية في بيتي حافظ يستوقفنا ورود كلمة  
سيحان فيها . وسيحان هذا أو سيحون نهر في آسيا الوسطى الروسيه يصب في بحر  
آرال ، وقد ذكره الشاعر في عداد مناطق العرب نتيجة لفهمه الخاص للوحدة  
العربية وعدم تمييزه بينها وبين الوحدة الاسلامية ، إلا اذا كانت القافية  
اضطرته الي ذلك وهذا ما لا نرجحه لدى شاعر كبير مثل حافظ ابراهيم .

وقد نظم محمود ابو الوفا قصيدة مطولة اسمها ( اذاعة إسلامية ) ذكر في تقديمه لها (١) انه راح يفكر في حال البلاد « العربية الاسلامية » ويتنقل بخياله من تونس الى طرابلس الى جاوه الى حضرموت ثم الى العراق وأخيراً يعود الى مصر . وقد خص الشاعر كل بلد من هذه البلاد بابيات تحدث فيها عن شؤونها وشجونها ، ونحن نلاحظ ان جميع ما ذكره كان عربياً باستثناء جاوه ، وهذا شبيه بما وجدناه آنفاً لدى حافظ حين حشر سيحان في جملة البلاد العربية على صعيد واحد . وربما يرجع اقتصار ابي الوفا على ذكر جاوه المسماة دون ان يردفها بيران وتركيا والأفغان وسواها من الاقطار الاسلامية ، الى ما كانت تعانيه هذه الجزيرة وأخواتها من المناطق الأندونيسية آنذاك من وطأة الاستعمار الهولندي . ولكن الغريب ان يبلغ الشاعر هذه الأرض من الشرق الأقصى ولا يرد في اذاعته الاسلامية ذكر للشام او لسورية التي كانت تغلي كالبركان في ظل الحكم الفرنسي . ومع ذلك استأثرت بلاد العرب وقضاياهم باكبر اهتمام الشاعر في اذاعته الاسلامية

ولعل من ابرز ما يشير الى هذه الظاهرة قصيدة لشاعر مصري آخر هو محمود غنيم نظمها عام ١٩٣٥ اي في فترة متأخرة نسبياً ، ومع ذلك فان الفكرة العربية لم تبد جلية خلالها بل كانت متداخلة في الفكرة الاسلامية أيضاً (٢) :

رباه أدرك شعوب الضاد رباه	ما بال شمل شعوب الضاد منصدعا
آثاره طيب الرحمن مشواه	عهد الخلافة في البسفور قد درست
للشرق لا محض دين سنه الله	اني لأعتبر الاسلام جامعة
شعارنا المجد يهوانا ونهوانا	سل المعالي عنا إننا عرب

وتسير سائر الأبيات على هذا النحو من الازدواج بين العروبة والاسلام . وكما هو جلي تبدو الجامعة الاسلامية اكثر بروزاً لدى الشاعر غنيم الذي يضطرب في فهمه للعروبة ويرى انها تعني الشرق والضاد والاسلام .

١ أشواق ١٠٧

٢ ديوانه ٧٨

وما أكثر ما نصادف في دواوين الشعراء من عناوين لقصائد او عبارات في الأبيات نفسها تشير الى عدم التمييز بين العروبة والاسلام ، وثمة مثل نوره في قصيدة لشاعر مصري اخر هو علي الجندي نظمها بمناسبة وفاة فيصل الاول ، واطلق عليها اسم (مأتم العروبة والاسلام) وهي تصور إلى حد بعيد قوة الاتجاه الاسلامي وطغيانه على الفكرة القومية ، وإذا كان في العنوان ذكر للعروبة فليس في القصيدة كلها ذكر لها او للعرب او حتى للثورة العربية التي كان فيصل بطلها الاول . وكل ما وجدته الشاعر في الفقيه انه وريث هاشم وسليل سبط الرسول ، فهو يعزى عنه آل البيت دون ان يرى فيه أكثر من شخصية دينية فحسب ، في حين ان فيصل يعتبر رائد الزعماء العرب الذين فهموا القومية العربية بعيدة عن الاسلام ، واتجهوا الى فصل الدين عن الدولة على اساس قومي محض . وثمة قصيدة اخرى للشاعر نفسه يرثي فيها احمد زكي باشا ويجعل عنوانها (شيخ العروبة) ولكنها برغم هذا العنوان المستمد من لقب الفقيه لا تكاد تشير الى العرب والعروبة إلا في بيتين من خمسين بيتاً . ولعل من اهم اسباب هذا التصور الديني المحض للمسائل القومية عند الشاعر الجندي وعند محمود غنيم انها نشأت إسلامية وتخرجت في كلية دار العلوم .

وكذلك يمكن ان نعتبر ارجوزة شوقي المطولة (دول العرب وعظاء الاسلام) التي نشرت في ديوان مستقل من اهم الامثلة على اختلاط المفهومين العربي والاسلامي وتداخلها في اذهان الكثيرين من الشعراء ، وهذه الملازمة بين المفهومين التي تطالعنا في عنوان الارجوزة نفسه مردها في الواقع الى هذا التداخل الكبير بين التراث العربي والاسلامي وتاريخها بحيث يبلغان درجة التوحد في كثير من الاحيان وإلى ذلك يشير شوقي حين يتحدث عن اللغة العربية ويعتبرها الأساس الأول في كيان العرب وصرح الاسلام ، كما تتجلى في هذه الظاهرة في سائر اجزاء الارجوزة التي نظمها خلال اقامته في الأندلس منفيًا ، ومن ذلك مثلاً قوله في امجاد اراشدين (١) :

(١) دول العرب وعظاء الاسلام ٥٣

قد فتحوا قبرص للامام بالسفن المزجة كالفهام  
فاصبح القاصي من البر اقرب وصار بحر الروم لجة العرب  
وخفقت كتائب الاسلام في البحر اعلاما على اعلام

ولا ريب في ان قوة العاطفة الدينية لدى امير الشعراء كانت الباعث الاول  
على نظم الأرجوزة المطولة وكثير من قصائده ، ومن هنا برز الاتجاه  
الاسلامي في معظم شعره

على ان بروز هذا المنزع لدى شعراء مصر لأسباب تاريخية واجتماعية لا  
يعني تلاشيها لدى شعراء الأقطار الأخرى العربية كالشام والعراق ، فتشابك تراث  
العرب والمسلمين ووحدة تاريخهم جعل الأمر ظاهرة عامة لدى الشعراء في كل  
مكان . وهذا شاعر دمشق خليل مردم بك يعبر عن مدى هذا التلازم  
بين المفهومين بشكل عفوي فيقول (١) :

كم ذا اجمجم داء كاد يقتلني والداء أقتله ما كان محتجبا  
أعلم أنت من أبكي وأندبه فاني أندب الاسلام والعربا

والأمثلة على هذا التلازم تبلغ حداً من الكثرة بحيث تكفي الإشارة إليها  
وأكثر ما يتجلى ذلك في القصائد التي نظمت في الرسول محمد عليه  
السلام بمناسبة ذكرى مولده او هجرته او غزواته ونحو ذلك مما تطفح به  
دواوين الشعراء .

على ان مفهوم العروبة اخذ يتسم على مرور الايام والأحداث بعالم خاصة  
وإن لم يستقل عن مفهوم الاسلام في كثير من الأحيان ، وذلك بتأثير واقع العالم  
العربي الذي اخذ يتفرد شيئاً بعد شيء عن كثير من قضايا سائر المسلمين في  
الشرق . ويعد احمد محرم - وهو في رأس الشعراء الذين اتحد لديهم المفهوم العربي  
الاسلامي - مثالا بارزاً التحول انصار الجامعة الاسلامية الى الجامعة العربية ، برغم

(١) ديوانه ٢٤٣

عدم اتضاح الفكرة القومية لديه ايضاً ، فهو يقول إبان الحرب العالمية الثانية جهته بدأت المباحثات لتأسيس جامعة للدول العربية (١) :

أمم العروبة جاء يومك فاعلمي      وإلى مكانك فلتهضي وتقدمي  
هذا زمان ليس يفهم اهله      إلا حديث النار او لغة الدم  
أمم العروبة جد جدك فانظمي      من عقدك المنشور ما لم ينظم

فللاحظ ان الشاعر يعتبر شعوب الأقطار العربية أمما شتى تريد اليوم  
ن تتحد ، قبل ان يرى فيها امة جزأتها الغير وانها تنزع إلى استعادة  
مسالف عهدها (٢) .

وكذلك بدأ هذا التحول إلى الاتجاه العربي لدى شوقي الذي « لم  
يكن يذكر العروبة قبل الحرب الأولى إلا على هامش مدائح في الترك او  
في الرسول الكريم » (٣) .

ومما لا ريب فيه ان الروح القومية اخذت تسري سريعا بعد ذلك في شعر  
المصريين ونثرهم بفضل وحدة القضية ووحدة الآمال والآلام والمصير بين الشعوب  
العربية التي صهرتها الأحداث والفت بين قلوب ابنائها .. والحق ان احتضان بعض  
المؤسسات الدينية في مصر كالأزهر وجمعية الاخوان المسلمين والشبان المسلمين  
للدعوة العربية كان له تأثير بالغ في دفع الحركة القومية إلى الامام ، اذ التقى دعاة

---

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات لوطنية في الادب المعاصر ٢ : ١٥٧

عن ديوان مخطوط للشاعر

(٢) كان عبدالرحمن عزام اول امين عام لجامعة الدول العربية يفهم العروبة على  
اساس ديني اسلامي وهذا واضح في كتابه « الرسالة الخالدة » فهو يجد العنصر الديني  
والروحي في اقامة الاوطان ، بل ينتقد القومية والوطنية ويلتمس الدولة والعلاقات  
الدولية في تعامل الأديان السابوية

(٣) الدكتور شوقي ضيف : شوقي شاعر العصر الحديث ١٥٦

الجامعة الاسلامية بدعاة العروبة على صعيد التحرر الكامل ، ووجدوا في الوحدة العربية مرحلة كبيرة نحو الوحدة الاسلامية المنشودة (١) يضاف الى ذلك مركز مصر العريق في صون الثقافة العربية والتراث الاسلامي على مر العصور ، وكونها بؤرة النهضة الادبية الحديثة ، ومن هنا تتضح لنا ايضا بعض اسباب اختلاط مفهوم العروبة والاسلام لدى كثير من شعراء مصر .

واعل مؤتمر ادباء العرب الذي انعقد في القاهرة عام ١٩٥٨ واقتضت اجابته على الأدب والقومية العربية . خير دليل على استمرار صفة التلازم بين المفهومين العربي والاسلامي الذي لم تنفصم عراه في نفوس بعض وفود العالم العربي من خلال ما القوه من كلمات وتعليقات وقصائد . وذلك على الرغم من ان الفكرة القومية قد تغلغلت في نفوس العرب وتجات في الشعر المعاصر الى حد لا مثيل له من قبل .

وهكذا كان التلازم بين مفومي العروبة والاسلام قويا في الشعر القومي يستمد جذوره من طبيعة تاريخنا المديد الذي تداخل فيه تراث العروبة والاسلام تداخلا كبيرا لا انفصام له .

وعلى الرغم من سطوع هذه الحقيقة ثمة ظاهرة يمكن ان تعد منافية لها اخذت تتجلى قوية مع تنامي الايام ، تلك هي عزوف الشعراء المطرد عن ابراز هذا التلازم او التداخل وحرصهم الدائب على معالجة الشؤون القومية في قصائدهم بعزل عن الاعتبارات الدينية ، حتى ان هذا الحذر كان يؤول لدى بعضهم الى تخرج فلا يدير كلمة الاسلام على لسانه وكان ذلك يلصق به تهمة او يصممه برجعية . ومرد ذلك في رأينا الى اسباب كثيرة منها ضعف الاواصر بصورة عامة بين الدين وبين

---

(١) انظر تفصيلات هذه العلاقة لدى الدكتور اسحق موسى الحسيني في كتابه «الاقوان المسلمون» وقد جاء في مقال لعيسى البندك نشر في ماجق السياسة الادبي في نوفمبر ١٩٣٢ : «لم تكن الوحدة العربية فكرة اليوم فهي ربيبة الدعوة المباركة للجامعة الاسلامية او قل انها جزء لا يتجزأ منها ، بل لا تكون مغالين اذا اعتبرناها حجر الزاوية في بناء تلك الجامعة العتيقة»



القومية في المجتمعات البشرية ، والحاح النظريات الاجتماعية الحديثة على استقلال كل من العنصرين عن الآخر وقيامه بنفسه ، ومنها ايضاً ان كثيراً من الأقطار في الغرب فصل الدين عن الدولة ، ومنها أخيراً الاحساس الحاد لدى الشاعر العربي المعاصر بمرارة الذكريات التي خلفها التعصب الطائفي الذميمة وبخاصة ما كان نتيجة التجربة القاسية ابان الحكم العثماني .

وغير خاف ما في هذا المنزع من اهدار التراث الاسلام العظيم وماله من اثر كبير في بناء كياننا القومي ، مقابل توهم او توجس من روايب احداث موقوتة عابرة ، فالاسلام من الزاوية القومية تراث مشترك للعرب جميعاً بالاضافة الى كونه ديناً سماوياً . وهذا التمييز الدقيق لا بدله من ان يقوم في ذهن الشاعر العربي حتى يؤدي رسالته القومية كاملة .

واذا كان هذا الادراك متوقفاً ومألوفاً من قبل شاعر عربي يدين بالاسلام فهو مدعاة لتقدير تجاه عدد من الشعراء العرب الذين يدينون بالعبادة المسيحية ، وقد كان رشيد سليم الخوري (القروي) - شاعر القومية العربية الأول - رائد ذوي الادراك السليم والفهم القويم بفضل جرأته الأدبية وتحرره الفكري ومما قاله في هذا الصدد :

عش للعروبة هاتفاً	بجياتها ودوامها
أنظر الى آثارها	تنبئك عن أيامها
هذا التراث يمت	معظمه الى إسلامها

ومن هذا القبيل قوله ايضاً (١) :

أتحف اوراق العروبة في ربا	لبنان وهي نصيرة في (بذبل)
أزيد أعظم من ابي بكر ومن	عمر إذا انتسب الكرام ومن علي

(١) ديوانه ٤٥١

أو قوله :

أنا العروبة لي في كل مملكة      انجيل حب ولي قرآن إنعام  
شخت قلبي بحب المصطفى وغدت      عروبي مثلي الأعلى وإسلامي

★ ★ ★

وبعد فقد اكتفينا بتبع العامل الديني في الشعر القومي الحديث دون ان نعنى بالشعر الديني المحض الذي نجد نموذجا منه في « الايالة الاسلامية » لأحمد محرم ، ففيها يؤرخ الشاعر لغزوات الرسول في قصيدة مطولة شبيهة بشعر الملاحم ، أو في علوية عبدالمطلب وفي عدد من أماديح الشعراء في الرسول عليه السلام ، وكثير مما نظمه الشعراء الشيعة العراقيون في علي والحسين رضي الله عنهما .

ومن حسن الحظ أن تحول الكثيرين من أنصار الجامعة الاسلامية إلى دعاة متحمسين للعروبة جاء في الوقت الذي أخذت فيه الدعوات الاقليمية الضيقة تستشري في نفوس فئات من المصريين والبنانيين وتنعكس في قصائد الشعراء .

ومن كل ما سبق ومن خلال رصدنا للاتجاه الاسلامي في الشعر القومي الحديث نستطيع القول ان العاطفة الدينية كان لها منذ عصر الرسول المقام الأول في نفوس الشعراء واستمر شأنها كذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وحين بدأت بوادر الشعور القومي تتسرب إلى نفوس العرب نتيجة لعوامل سياسية واجتماعية وتأثيرات فكرية خارجية انعكس كل ذلك في الشعر وأخذت الفكرة العربية الشاملة أو الفكرة الوطنية المحلية تنافس الجامعة الاسلامية الكبرى برغم ان كلتا الجامعتين العربية والاسلامية كانت في جوهرها حركة بعث وإحياء تهدف إلى استعادة الأجداد الماضية ، ولم شعث الشعوب المتأخية التي فرقها الدهر ، ومزقتها الغير والأحداث . إلا أن الوحدة الاسلامية غدت مثلا أعلى ينشده الشعراء وسائر الناس في غير أوانه . ولئن اشتدت الدعوة إليها في بعض الأحيان

فإنما حدث ذلك في أحوال طارئة لم تجت عن استفزازات الغرب المسيحي . والواقع أن هذه الدعوة لم تفلح حتى في العهود الماضية في تكثيل ملايين المسلمين المنتشرين في أقطار متباعدة من آسية وأفريقية تفصل بينهم أراض شاسعة ، وثقافات مختلفة ، ولغات متعددة ، واتجاهات متباينة ، لقد استطاع الاسلام أن يوحد عقيدة عدد من الأمم ، ولكنه لم يستطع أن يقضي على قومياتها أو يوحدتها فبقيت فرساً وأتراكاً وهنوداً وعرباً ...

ويمكننا أخيراً أن نخلص من خلال هذا الفصل إلى الأمور التالية :

١ — كانت البواعث الدينية غالبية على الشعر القومي حتى الحرب العالمية الأولى ، نتيجة ظروف تاريخية واجتماعية عميقة الجذور .

٢ — ازداد تمسك الشعراء بفكرة الجامعة الاسلامية برغم تداعي نظام الخلافة ، حرصاً على مجابهة الغرب الذي كان ينظر إلى العرب والمسلمين بعين صليبية .

٣ — ظل الشعراء يترغمون بنعمة الخلافة ويتوقون إلى إعادتها برغم انهيارها ، يدفعهم إلى ذلك حنينهم إلى الأجداد السالفة في ظل خلفاء بني أمية اويني العباس .

٤ — كان الشعراء الذين هاجموا المستعمر بعنف ، وبخاصة في مصر هم بالأجمال من الذين اعتنقوا العقيدة الاسلامية واستلهموا صراحة العرب وإباءهم .

٥ — كان لشعراء الجامعة الاسلامية فضل كبير في الوقوف ضد النزعات الوطنية الضيقة وخاصة في مصر .

٦ — ظل العنصر الديني كسباً كبيراً للنضال القومي ، إذ أمده بنار جديدة ضد المستعمرين كان الشعر القومي يفتقر إلى مثلها في معركته ضد الأتراك

## العثمانيين .

٧ — تحول أكثر شعراء الجامعة الاسلامية ودعاتها وبخاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية إلى دعم الاتجاه العربي وذلك بالسعي لاعادة الخلافة الى العرب أول الأمر . ثم خطوا خطوة أخرى في الدعوة إلى رابطة العروبة باعتبار عدم التنافي بينهما .

٨ — أخذت الروح القومية تنافس العامل الديني باطراد وتنمو على حساب الجامعة الاسلامية في الشعر المعاصر منذ الحرب العالمية الأولى .

٩ — اختلاط الدين بالقومية كان أحياناً سلاحاً ذا حدين فهو من جهة زاد النضال القومي قوة ولكنه من جهة أخرى أوجد الحذر في نفوس المسيحيين من طغيان الأكثرية المسلمة عليهم مما أفسح المجال لأحاييل المستعمر والنزوات الاقليمية المنحرفة .

١٠ — ظل عدد من الشعراء يحوكم قضائده القومية نسيجاً سدها الاسلام ولحمته العروبة دون أن يستطيعوا التمييز الدقيق بينهما في شعرهم ، وذلك نتيجة لعمق جذور الاسلام في النفوس ، وتشابك تراث العرب والمسلمين .

## الفصل الثاني

### الرابطة الشرقية

١

لعل إطلاق كلمتي الشرق والغرب كان يعني منذ القرون الوسطى شطري العالم القديم شطر آسية وأفريقية و شطر أوربة .

ويبدو أن بوادر الرابطة الشرقية أخذت في البروز منذ الحرب الصليبية التي كانت في جوهرها استعماراً أوروبياً تجلب بالدين، إذ أن الحماسة الدينية كانت الحافر الوحيد الذي استطاع آنذاك سوق الجحافل الجرارة إلى الشرق تحت لواء الكنيسة بحجة تخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، وهكذا ارتبطت تلك الحملات الغربية بالتعصب الديني في أذهان الشرقيين .

غير أن الروح الشرقية أخذت تستيقظ مجدداً في العصر الحديث وعلى نطاق شامل بشكل شعور غامض بالتعاطف بين بلاد متعددة ، وذلك كرد فعل للتوسع الاستعماري وغزو الشرق . وغداً أكثر أجزاء آسية وإفريقية فريسة في قبضة بضع دول أوروبية . ومن ذلك يتضح ان هذه العاطفة المشتركة بين الشرقيين تكونت نتيجة ظروف بعينها وإزاء خطر مشترك طارئ ، فهي أبعد ما تكون عن قوة الرابطة الحقيقية التي ننجدها في الدين أو في القومية أو الروابط الأخرى .

والواقع أنه منذ عصر التوسع الاستعماري في القرن التاسع عشر أخذت الهوة تتسع بين شطري العالم القديم حتى انقلب هذا الشعور إلى عداء متبادل بين الشرق والغرب . وقد دأب بعض المفكرين في أوربة على تعميق هذه الهوة ووضع فلسفات ونظريات تجعل هذين الشطرين على طرفي نقيض ، وكان من أشهرهم الشاعر الاستعماري ( رديارد كبلنغ ) الذي قال جملته المشهورة ( الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ) ، بالإضافة إلى النظريات العنصرية التي قامت على أساس من ازدراء شعوب الشرق وتبرير استعمار الغرب لها .

إن وثبة الغرب الحضارية قد هزت كيان الشرق وأيقظته من سباته ، فأخذ يتطلع مهوراً إلى التقدم المادي الرائع . وكان رد الفعل في بادئ الأمر لدى شعوب الشرق « ضرباً من الدهشة والذهول أمام لغز لا يحل ووقفوا تجاهه على اختلاف قومياتهم موقف المستشعر بضعفه .. وكان التفكير يدور حول ( أسباب تأخر الشرق ) و ( تقدم الغرب ) في سلسلة من الموازنات والمقارنات في شتى نواحي الحياة » (١) وأكثر ما دبحته الأقلام من مقالات وبحوث كان يجعل الشرق موطن الروح ومبعث النبوات ، والغرب موطن المادة ومصدر الثروات ؛ وقد دأب عدد من الكتاب العرب من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وأمين الريحاني ومي زيادة وجبران خليل جبران ومخائيل نعيمة وعباس محمود العقاد على معالجة هذه الموضوعات واستجلاء المفارقات والمميزات في كل من الشرق والغرب ، وقد رأينا العقاد يستخف في فصوله بمدينة الغرب ويشيد بكون الشرق منبت الانبياء وإن الغرب ما زال عالقة على الشرق فيما يدين به وأنه يكفي ان أوربة لم تنبت نبياً . كما رأينا ميخائيل نعيمة الذي ينكر كل حد بين البلاد ولا يقبل مبدأ القومية وكيانات الشعوب ، يقيم بين الشرق والغرب حدوداً ، ويسم كلا منها بسمات مميزة بحيث يجعل منها عالين منفصلين ، ويعد الشرق قلب البشرية والغرب عقلها ؛ كما يرى ان الشرق بصير والغرب مبصر ، وإن الغرب يغرب والشرق يشرق (٢) .

(١) محمد المبارك : الامة العربية . . .

(٢) انظر عبدالكريم الأشتر : الشر وفنونه في المهجر التاملي ١ : ١٧٢ ، ١٨٣

وعلى الرغم من أن هذا التفريق القاطع والتمييز المطلق بين المجتمعات البشرية ليس طبيعياً ولا يمكن قبوله جملة وبخاصة في عصر حطمت فيه المواصلات ومنجزات العلم الباهرة الفوارق والسدود بين الأقطار، إلا أن ذلك يتم عما استقر في نفوس العرب وسائر الشعوب — ولهم من شعور حاد بشريتهم تحت وطأة رواسب الماضي والأحداث السياسية العنيفة التي عصفت بالشرق نتيجة الحروب الكبيرة والغزو الاستعماري الطاغوي. وطبيعي أن يترك ذلك كله صدى في الشعر القومي والاجتماعي وأن يستشعر الشاعر العربي في هذا الخضم بشريته إلى جانب اعتداده بدينه وقوميته.

من ذلك ما عبر عنه أديب التقي في قصيدة اسمها (بين الشرق والغرب) نظمها على أثر زيارة شاعر الهند طاغور لمدينة دمشق عام ١٩٢١، وقد تجلت فيها نفحة إنسانية وادعة كأنما سرت إليها من روح الشاعر الهندي العظيم (١):

حنانك عهد الشرق هل أنت راجع	بما ينبغي أم ليس تخاننا يقضى
أحرار أهل الغرب أموا بلادنا	ترونا كراما لا نسر لكم بقضا
تعالوا إلينا لا لفتح وغارة	لتستعبدوا حراً وتستعمروا أرضاً
ولكن لترتادوا حقائق شرقنا	وتستمعوا للقلب عن كذب بقضا
حملتم إلى الشرق الأسار وجئتم	تراضونه والشرق بالأسر لا يرضى

وتعتبر قصيدة (الشرق والغرب) للصافي النجفي — وقد نظمها في أواخر الحرب العالمية الثانية — من أجمل ما قيل في تصوير مادية الغرب وفلسفته وفيها يقول (٢):

جئناك يا غرب بالأديان والحكم  
وجئنا للشرق باستعمارك النهم

(١) ديوانه ١٠١ .

(٢) ألحان الهميم ٨٣ .

ما الغرب إلا كيان لا فؤاد له      يحيا كآلاته بالغاز والفحم  
زفيره من دخان نافث نقا      وقلبه نابض بالنار والحلم

وكان حسن البحيري واضحاً وصريحاً حين أخذ يخاطب ( كبلنغ )  
الأديب الامبراطوري مباحياً إياه بحضارة الشرق ومشيراً إلى عبارته المأثورة التي  
تقرر تحكم الغرب القوي في الشرق الضعيف الى الأبد، وذلك في قصيدة له  
عنوانها ( الشرق ) وفيها يقول (١) :

« رديارد » هذا الدهر سله من ابتى      الهرمين سله من اعتلى الايوانا  
الشرق شرق عزة ومهابة      والغرب غرب خسة وهوانا  
إنا أنزنا غربكم بضائننا      أيام كتمتم في الورى قطعانا

أما الصافي النجفي فقد استوحى عبارة ( كبلنغ ) وكأنه يرد بها عليه (٢) :

الشرق لا يلتقي بالغرب في زمن      وهل ترى تلتقي الأنوار بالظلم

ومما زاد العاطفة الشرقية رسوخاً في نفوس الشعراء العرب يقينهم أن  
أصل البلاء واحد شمل العرب المسلمين وسواهم ، وأن دول أوربة اتفقت جميعاً على  
اقتسام هذا الشطر الكبير من العالم واستثماره ارضاء لجشعها ، فكأن الغرب  
أخطبوط هائل ليست أطرافه الممتدة نحو الشرق سوى انكثرتا وفرنسة وإيطاليا  
واسبانيا وهولندا .

وقد برزت النزعة الشرقية بوضوح في الشعر القومي الحديث في أعقاب  
الحروب التي وقعت بين الدولة العثمانية وبعض الدول الغربية مثل حرب الروس  
( ١٨٧٨ ) ثم حرب اليونان ( ١٨٩٧ ) ثم حرب طرابلس ضد الطليان ( ١٩١١ )

(١) ابتسام الضحى ٢٧ .

(٢) ألحان المهيب ٨١ .



## وأخيراً حروب البلقان (١٩١٣).

وكان نضال العرب والمسلمين عامة جزءاً من نضال الشرقيين ضد الغرب المستعمر . ومن هنا أصبح مفهوم الشرق رجراجاً ، وكثير استعماله في الشعر والنثر والصحافة ، فتارة يقصد به الجامعة الاسلامية ، وتارة أخرى يراد به العالم العربي وأحياناً كان يشمل الشرق بأجمعه . أما الغرب فقد ارتبط في أذهان هذه الشعوب بالجنح والغزو والاستعمار منذ عهد الصليبيين وقد أشار على الجندي إلى ذلك حين قارن بين صلاح الدين بطل الشرق وبين ريتشارد قلب الأسد قائد الغرب بقوله (١) :

حامي القدس أين ريتشارد لا أين      قضى (البيث) وانطوى حلقاؤه  
فارس (الغرب) راعه فارس الشرق      ويدري فضل الفتى أكفاؤه

ومن هنا أيضاً كان التعميم في مدلول كلمة الشرق واطلاق الشعراء لعنايه يقابل حقيقة المعضلة المشتركة التي تتركز في الجشع الاستعماري ضد البلاد الآمنة . وقد أخذ الشعراء على عاتقهم أن يبشروا برسالتهم ويبصروا شعوبهم بما يحوكه الغرب ضدهم من ذلك مثلاً ما نظمه معروف الرصافي من أبيات أشار فيها إلى ضحك الحق تجاه ما يدعيه الغرب من رعاية لمبادئ العدالة والحرية والمساواة وشر البلية ما يضحك (٢) :

وكم قد سمعنا سياسة الغرب تدعى      بأشياء من بطلانها ضحك الحق  
فهم منعوا رق الأسير وإنما      أجازوا لهم أن يشمل الأمم الرق  
وقد نسج جميل الزهاوي أبياته من شعور الحذر والمقت تجاه الغرب  
الكائد (٣) :

الغرب يلقاك من مكره بوجه طليق

(٢) ديوانه ١٥ :

(١) أغاريد السحر ٧٨

(٣) رباعيات الزهاوي ٨٠

يا شرق لا تأتمنه فالغرب غير صديق  
وكذلك يحذر إلياس فنصل أمته من أحابيل الغرب الماكر (١):

أيادي العرب تسعى فاحذروها      فقد تحذت أديم اللطف مكرراً  
تصافحكم ولكن عن رياء      وتشعل من هشيم الخلف جبراً

ويعصور الشيخ فؤاد الخطيب علاقة الشرق المغبون بالغرب العاتي  
فيقول (٢):

أيها الشرق أنت في خدمة الغرب      كما يخدم اليتيم الوصياً  
فهو يتص من دمانك ما شاء      وقد عز أن تراه رضيعاً

وقد دأب الشعراء على حث الشرق السادر الغافل على النهوض وحضه  
على الثورة ، وبخاصة في فترات الركود والاستسلام لمشيئة الأجنبي . وهذا ولي  
الدين يكن من مصر يهيب بالشرق أن يثب فيقول (٣):

يا شرق ليج بك العداة هوى      يا شرق أغرام بك الطمع  
أويقول:

فلينهض الشرق أهل مجده      قد آن أن ينهضوا وأن يثبوا

وهذه الروح يخاطب مصطفى الغلاييني من لبنان أبناء الشرق وفيهم  
قومه (٤):

بني الشرق طال النوم فيكم فأيقظوا      رقاداً نشاوى غفلة وسبات

(١) السهام ٤١

(٢) ديوانه ٥٥

(٣) ديوانه ١٤

(٤) ديوانه ١٥٠

بني الغرب رفقا بالضعيف فقد كفي  
دعوا الشرق يحيا وحده في اعتزله  
بني الشرق ما يلقون من ضربات  
فما يبتغي منكم لهي وهبات

وكذلك يحث شفيق جبري من دمشق هذا الشرق على الوثوب ضد  
ذئاب الغرب بقوله (١) :

يا شرق مالك لا تفيق      وقد بدت منك المقاتل  
والغرب قد نصب الجبا      تل في الخارج والمداخل

كما يندد إلياس قنصل بخنوع الشرق واستسلامه تجاه المستعمر  
الغربي ويقول (٢) :

يا أيها الشرق التعيس إلى متى      تلقى أمر الاضطهاد وتخنع  
وإلى متى تشكو وما من راحم      يرثي لدى الشكوى وما من يسمع

لقد كان هذا الشرق نائما والغرب يعيث في أرجائه فسادا ، والشعراء  
دائبون على قرع أسماعه برنين قوافيهم وناقوس قصائدهم .

والملاحظ أن صوت دعاة الرابطة الشرقية قد خفت خلال أعوام  
الحرب العالمية الأولى وكاد هذا الشعور بالتماطف يتجمد في العالم العربي نتيجة  
ما حدث من تغيرات سياسية آنذاك . إذ تحالفت الدولة العثمانية مع المانية ، وتحالف  
العرب ( باستثناء المصريين ) مع بريطانية وفرنسة ، وبذلك لم يعد الصراع خلال  
تلك الحرب حاسما بين الشرق والغرب ، بل اتخذ طابعا آخر نتيجة ظهور مبدأ  
القوميات في الشرق .

(١) المختار من الشعر في سورية ، لصبري الاشرع ؛

(٢) على مذبح الوطنية ٦٢

ومن هنا نلاحظ أن أكثر القصائد التي نظمت في الثورة العربية الكبرى لا تلح على هذه الرابطة الشرقية، خلافاً لما كانت الحال عليه من قبل خلال الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ضد دول الغرب .

أما في مصر فقد كانت العضلة مستمرة وجنود الاحتلال ما زالوا يجثمون فوق البلاد ، ولهذا استمر شعراء مصر بالمقابل في حذرهم من الغرب المستعمر وفي خشيتهم على الامبراطورية العثمانية هذه الدولة الاسلامية الشرقية الكبرى التي كانت بمثابة السد الذي يحول دون تدفق المستعمرين ، والصخرة التي تتحطم عليها مطامعهم . وقد ندد عدد من الشعراء وفيهم أحمد محرم بزعيم الثورة العربية الذي استسلم لأكثر دول الغرب جسماً فقال (١) :

نبئت ما زعم الشريف وقومه      فسمعت ما لم تسمع الأذن  
خدعوه إذ ضاق السبيل بمكرهم      ورموا بآمال إليه حسان  
إذا الجلالة لاسعدت بتاجه      ملكاً سواك به السعيد الهاني

وحين تكشف الحرب الكبرى عن نيات الحلفاء الفادرة انفجر الشرق العربي غاضباً ، وبرزت الروح الشرقية من جديد تعبر عن شعور المرارة بعد ما أبداه الشرق من سذاجة وثقة تجاه الغرب الماكر ، ولم تكن ثورة ١٩١٩ في مصر إلا جزءاً من انتفاضة الشرق المتوثب ضد الغرب المستعمر . وقد عبر محمد الأسمري عن هذه الظاهرة وأشار إلى تقلبات الدهر على الشرق والغرب بقوله (٢) :

رجعنا كما كانوا وصاروا كما كنا      كذاك البيالي لا تديم لها خدنا  
ثم يخاطب سعد زغلول زعيم مصر وقائد ثورتها :

(١) الدكتور محمد حسين : الإتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ٢ : ١٩٦ عن ديوان

مخطوط للشاعر .

(٢) تغريدات الصباح ٢٠

فتى الشرق إن الغرب أدلى بمخلب وناب ، فلا تهتز بينهما جينا

ووجد الشعراء في ثوره مصر ثورة الشرق ، كما وجدوا في سعد زغلول  
زعيماً شرقياً استطاع بعزيمته أن يتصدى للغرب ، وفي ذلك يقول  
حافظ ابراهيم (١) :

لك وقفة في الشرق تعرفها العلا      ويحفها التكبير والتهليل  
زلزل بها في الغرب كل مكابر      ليرى ويعلم ما حواه الغيل

وحين توفي سعد افتقده الشعراء العرب ورثوه بجرارة ، وهم لم يجدوا  
فيه زعيماً مصرياً فحسب بل زعيماً للعرب والشرق ، وهذا حليم دموس يناجيه  
من لبنان بقوله (٢) :

زعيم الشرق وهو نداء حق      لثلك لم يقم في الشرق ند  
وكذلك يناجيه محمد الفراقى من سورية بقوله (٣) :

للشرق يا زغلول ما شيدته      عجزت بناه المجد عن تشييده

وتتحلى هذه العاطفة الشرقية بشكل بارز أيضاً في الشعر الحديث تجاه  
زعيم شرقي آخر هو مصطفى كمال أتاتورك الذي انتصر على اليونان إحدى الدول  
الغربية المتحالفة ، وهبر انتصاره ذلك ، الشرق والغرب على السواء . وقد هاج  
هذا الظفر المبين قريحة الرصافي ، فأملت على قلمه قصيدة رفعها ( إلى بطل الشرق  
الأكبر ) كما نعته في عنوانها ، ومما قاله فيها (٤) :

نصرت على بني يونان نصراً      أقام الغرب في هرج ومرج

- 
- (١) ديوانه ١ : ١٢ .
  - (٢) ديوانه ٢ : ١٣٤ .
  - (٣) ديوانه ١٧٧ .
  - (٤) - ديوانه ٤٤ .

كما أشار إلياس فرحات إلى هذه الظاهرة الشرقية أيضاً في حركة  
أتاتورك وانتفاخته في وجه الغرب ووجد ذلك بشيراً بانطلاق الشرق وتحرره (١):

أرى في العالم الشرقي ناراً      جذوعَ الغرب تَأْكُلُ والغصونا  
سلوا عن حرها الغازي (كملاً)      يخبركم بما لا تعلمونا

وشبيه بهذا الاستبشار والتهويل ما نجده في بائية أحمد شوقي بهذه المناسبة  
وفيما نظمه عدد آخر من الشعراء .

وبتيجة الشعور المعادي لدول الغرب الذي بلغ في نفوس العرب حداً  
كبيراً، تطورت النزعة الشرقية في النفوس وخرجت من نداءات التنبيه  
والتحذير إلى مرحلة التهديد والوعيد، وذلك بعد أن وعى المغلوبون على أمرهم  
جوهر قضاياهم وعانوا بأنفسهم من مرارة العبودية، وهذا مصطفى الفلايني يتصدى  
للغرب محذراً إياه من غضبة الشرق المرتقبة فيقول (٢):

أرى أن أهل الشرق قد ضاقت ذرعهم      بكم فاحذروا من داهم الوثبات  
أترتم دفين الحقد في الشرق كله      إلا فارقبوا من أسده الهجمات

وكذلك يشير أبو الأقبال اليعقوبي إلى أن ساعة الخلاص قد اقتربت وينذر  
الظالمين بويل شديد (٣):

ولكم في العرب من باغ عشوم      ولو ان العرب من أهل الكتاب  
ولسوف الشرق يودي بالظالم      ويريه كيف يأتيه العذاب

وقد شبه الزهاوي في رباعياته بلاد الشرق ببركان تعثلي في جوفه الحمم

(١) ديوانه ١٧١ .

(٣) النظرات السبع ١٢

(٢) ديوانه ١٥

ولا بد من أن تنفجر في وجه الغرب عاجلاً أو آجلاً (١) :

الشرق يشبه بركاناً به حمم أخف من أنه ياغرب ينفجر

وحين تفجرت الثورات القومية في أرجاء الشرق عامة وفي العالم العربي بوجه خاص بعد الحرب الأولى استبشر الشعراء بهذه الانتفاضات وأملا من ورائها الخير للشعوب المستعمرة ، وقد عبر الزهاوي عن هذا الشعور بقوله (٢) :

قد ثار في الشرق الخلق واقترب الوعد الحق  
ما كان الغرب بذى ظن أن سوف يحاسبه الشرق

ولم تكد ثورة مصر تنطلق في أعقاب الحرب الأولى حتى تكاثرت شرر الانتفاضات في أنحاء الشرق العربي ، فقد قامت ثورة العراق اللاهبة ضد الاحتلال البريطاني في عام ١٩٢٠ ، وأخذت تتجلى على ألسنة شعراء العراق أعمق العواطف الوطنية متمسة بصفات قومية ودينية وشرقية معاً ، ومما يمثل تلك العاطفة الشرقية أبيات خيرى الهنداوي يقول فيها (٣) :

أيها الشرق هل فقدت الشروقا فأضل الأقدام فيك الطريقا  
يتوا أمرهم بليس وجاؤوك جميعاً يتلو فريق فريقا  
حاولوا لا أبلهم ان يكون الشرق كالعبد مستضاماً رقيقا

وثمة أبيات للرصافي في هذا الصدد يصور فيها ببراعة ، علاقة العراق

---

(١) رباعيات الزهاوي ١٢٦

(٢) رباعيات الزهاوي ١٣٨

(٣) رفايل بطى : الشعر العصري في العراق العربي ١٦٦

بالاستعمار من خلال نظرتة الشاملة إلى الغرب والشرق . وذلك في قوله (١) :

إن هذا الشرق والغرب لمغبون وغابن  
فترى الشرق تجاه الغرب يسعى سعي ماهن  
وترى الغرب عليه ، واقفاً موقف خائن  
فهو يمتص دماء الشرق في كل الأماكن  
إن في الشرق تجاه الغرب نيراناً كوامن  
وإذا تسأل عما هو في بغداد كائن  
فهو حكم مشرقى الضرع غربي الملاين

وكما كانت العاطفة الدينية تسير أحياناً إلى جانب الشعور القومي ، كانت النزعة الشرقية أيضاً تبرز أحياناً أخرى من خلال تلك القصائد ، وحين نشبت الثورة السورية عام ١٩٢٥ نظم أمير الشعراء شوقي قصيدة قومية رائعة عبر فيها عن هذا الاعتزاز الشرقي تجاه الغرب حين أشاد ببني أمية قائلاً (٢) :

كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتمهم فهل سألت سرير الغرب ما كانوا

ورأى محمد سعيد العامودي في انتفاضة السوريين ضد إحدى دول الغرب العاتية مفخرة للشرق إذ قال (٣) :

يا شام حسبك مفخرأ في الشرق أن - بنيك قد نهضوا وقد أرضوك  
اليوم أظهرت الفخار مجدداً لزعانف الغرب الألى جهلوك  
اليوم يا حرية قد حق أن تأتي فأهل الشرق قد نشدوك

كما يخاطب محمد الشريقي الشرق كله من خلال مخاطبته لسورية الثائرة فيقول (٤) :

---

(١) ديوانه ٤٣٨

(٢) الشوقيات ٢ - ١٢٢

(٣) ديوان الثورة ٩٨

(٤) ديوان الثورة ٤٠



يا أيها الشرق إن الغرب مؤثمر والحق للسيف والمغلوب مهتضم  
حرية الشعب أولى ما تقدسه وخير دين به الشرقي يعتصم

أما أحداث فلسطين فقد كانت انصبغ دليل على تأمر الغرب ضد شعوب الشرق . وقد حفل الشعر القومي الذي نظم فيها بيواعث شتى قومية ودينية وشرقية وإنسانية معاً التقت جميعها على صعيد واحد تندد بالاستعمار الغربي ، وقد أشار الشاعر العراقي على البازي إلى الباعث الشرقي في تلك القضية بقوله (١) :

يا بني الشرق لقد عاثت بكم أمم الغرب وأنتم هجد  
كما عبر محمد على اليعقوبي من العراق أيضاً عن تجاوب أقطار الشرق مع فلسطين ومشاركتها إياها في البلاء (٢) :

فمصر والصين وإيرانها وجاراتها والعراق الأغر  
والمغرب الأقصى ومن حوله من دول للشرق أضحت عبر  
إن أجمت نار الوغى بيننا فإن زند الغرب يرمي بالشرر  
ما أسلف الغرب عهداً ولا مواعداً للشرق إلا غدر

ومن كل ذلك يتضح مدى الانسجام الذي انعكست آثاره في الشعر الحديث . بين العاطفة الشرقية وبين الأماني القومية في كثير من الأحداث السياسية التي عرفها العرب خلال هذه الفترة من تاريخهم الحديث . لقد كانت العاطفة الشرقية قوة دافعة أخرى من بين القوى التحررية المتعددة انطلقت تجاهه الشر والعدوان والاستعمار ، ورافداً فعالاً كان له أثره البالغ في تعزيز الحركات الوطنية والشعور القومي في نفوس الشعوب العربية .

(١) الفلستينيات ٤٨

(٢) الفلستينيات ١٦

والسؤال الآن ، ماذا كان الشعراء المعاصرون يقصدون من معنى على وجه التحديد من وراء استعمالهم لفظة « الشرق » في قصائدهم وماذا كانت تعني هذه الكلمة في أذهانهم ؟

لقد سبق أن أشرنا إلى مدى الاضطراب في مفهوم (الشرق) لدى الشعراء والكتاب واختلافهم حوله اتساعاً وضيقاً ، وإطلاقاً وتقييداً . ونحن نتبين ثلاثة مدلولات رئيسية لهذه الكلمة من خلال ما بين أيدينا من الشعر المعاصر :

الأول : ورود كلمة الشرق مطلقة في الشعر بمدلولها الواسع للأمم الشرق قاطبة بحسب المصطلح الجغرافي الشامل .

والثاني : يريد به الشعراء الأمم الاسلامية وفي جملتها العرب .

والثالث : كانوا يريدون به الشرق العربي أو الشعوب العربية وحدها .

ولا ريب أن كل مدلول من هذه المدلولات يعكس تيارات سياسية واجتماعية كانت تمر بالشرق ، وتخلق ظروفاً وافكاراً تؤثر في نفوس العرب وتنجلي آثارها في قصائد الشعراء .

وحين يطلق الشعراء لفظ الشرق بمعناه الأول فانهم يريدون به في الغالب جميع أقطار الشرق وشعوبه على اختلاف أديانهم وقومياتهم من عرب وترك وهنود وصينيين ، ومن مسلمين ونصارى وبوذيين ويهود وسواهم .. وهذا المفهوم الشامل مطابق لواقع الرقعة الجغرافية الواسعة التي تشمل ما نعبه اليوم بالشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى .

وقد أشار الشعراء المعاصرون مراراً إلى كفاح هذه الأمم مقروناً بكفاح العرب ضد العدو المشترك في ذلك الشرق الكبير ، وكان انتصار اليابان على الروس عام ١٩٠٤ في نظر هؤلاء الشعراء ظفراً للشرق المبيض الجناح على الغرب العاتي ، ترك أثراً بالغاً في ضمير الشعوب المستضعفة ، وبعث في

نفوسها الثقة والأمال التي افتقدتها أمداً طويلاً . وكم من قصيدة هلت لهذا النصر المبين ووجدت فيه بشيراً بانتفاضة العرب والمسلمين . واعتبر حافظ إبراهيم سابقاً إلى التغني بانتفاضة اليابان والاشادة بنهضتها ، كما نجد في ذلك قصائد متعددة لمصطفى صادق الرافعي وأحمد نسيم ومحمد عبد المطلب وأمين ناصر الدين وفؤاد الخطيب وغيرهم من الشعراء . وأكثر ما نظم في هذا الشأن كان قبل الحرب العالمية الأولى مما لا يدخل في نطاق بحثنا هذا ، كما كان طابعه بالاجمال الحث والاستنهاض .

ومع ذلك فإن الحرب العالمية الأولى تنتهي ونهضة اليابان ما تزال مملء الأسماع وتعتبر المثل الأعلى عند عدد من الشعراء ، حتى إن أبا الفضل الوليد اعتبرها ربة الشرق الأقصى وتحدث عنها بزهو واعتداد وذلك في قصيدة له أسماها (الشرقية) قال فيها (١) :

ألا فرج لأهل الشرق يرجي	بنجدة ربة الشرق القصي
هي اليابان تطلع للمعالي	بمطلع راية الشمس السني
فهب الشرق بعد خمول دهر	لصرخة ذلك الشعب النخي
وحرار الغرب في نصر ميين	على الجيش اللهم العقري

وواضح أن الشاعر يعتز بهذا النصر ويشيد به معتبراً إياه دعماً وسنداً لكفاح قومه ، وكأنه يرجو لهم مثله ضد الغرب ذلك العدو المشترك . ويبدو أن وثبة اليابان هزت الشرق وشعوبه وبقي صداها في نفوسهم عشرات السنين ، وهذا محمد شعيب العاملي من لبنان يضرب باليابان مثلاً للعرب ويحثهم على النهوض بقوله (٢) :

يا بني الشرق ويحك كيف نبقي  
أبد الدهر عرضة الشنان

(١) نفحات الصور ٣٢

(٢) ديوانه ٥٢

جذباً الشرق ناهضاً لمراقي - المجد والسعي مُهضة اليابان

بل إننا نجد هذا المثل الأعلى ما زال يتردد خلال الحرب العالمية الثانية  
في ذهن الصافي النجفي (١) :

يا أمة العرب لا تنسوا رسالتكم      فانكم قد خلقتُم قادة الأمم  
وصيروا أمة اليابان قدوتكم      في العلم والخلق والاقدام والعظم  
لا تستيروا بنور الغرب فهو دجى      مبطن بلصوص أو بسفك دم

فالصافي حين يدعو قومه إلى الاقتداء باليابان يعبر عن تلك النزعة الشرقية التي تقوم على الحذر تجاه كل ما هو غربي ، والتي وجدت ضالتها في النهضة اليابانية . ولا يخفى أن هذه القصائد التي أشادت بانتصارات اليابان وتقديمتها الحضاري إنما كانت تعبر أيضاً عن ظاهرة نفسية في نفوس العرب الذين وجدوا في ذلك الموضوع ما يطرد عنهم شعور اليأس الذي ران عليهم زمناً طويلاً ، وما يكون بلسما لجراحهم ومتنفساً لرغباتهم في التحرر والنهوض ، بالإضافة إلى ما كانوا يجدونه في تصدي اليابان للغرب من ثأر لهم وانتقام لكرامتهم المهذرة . وقد تجدد هذا الشعور بالتعاطف نحو اليابان على أثر انتهاء الحرب العالمية الأخيرة ، حين قذف الغرب بعض جزرها بالقنابل الذرية فدمرها وأباد سكانها ، ووضع بذلك الدمار الرهيب حداً لتلك الحرب الضروس . واتسع هذا التعاطف حتى شمل العالم واتسم بطابع إنساني ألهم الشعر بأروع الاحساسات وأنبأها .

وكان كفاح الهند المستميت في سبيل تحررها مثار اهتمام الشعراء العرب الذين وجدوا في نضالها ما يعزز نضالهم ضد العدو المشترك ، وقد وجد الاستعمار في تلك البلاد بقرة حلوبا أنشب فيها أظفاره واستترف خيراتها

---

(١) الحان الهميب ٨٣

وسلبها كنوزها الدفينة . وهذا « إلباس قنصل » يلقي بنظره من العالم الجديد نحو هذا الشرق المكافح فيرى بلاد العرب والهند من معدن واحد تعاني الأهوال من الاحتلال الأجنبي ويجمع بينهما ابتلاءً، هما بمحنة واحدة (١) :

يا شرق جزأك الغريب فلم تعد      إلا دويلات تذل وتخضع  
فالشام تأبى أن تلتين وتنثنى      وحقوقها كادت هناك تضيع  
والهند قائمة هناك بثورة      فتصير كمن الانكليز وتصدع

كما نرى الشاعر نفسه يجمع بين نضال عدد من الأمم الشرقية على صعيد واحد في إحدى قصائده فيتحدث عن الثورة السورية وبطش فرنسة بدمشق وعن نضال فلسطين والارهاب الصهيوني وينتقل في القصيدة نفسها الى كفاح الهند وزعيمها الكبير بوحي من الشعور بوحدة القضية المشتركة (٢) :

وما (غندي) الضعيف سوى نبي      شبيه الأنبياء المرسلينا

فقد كان غاندي قبلة أنظار العرب يكدون له من الاحترام والتقدير مالا يقل عما يمكنه له الهنود . ولذلك نرى الشاعر القروي يضعه أيضاً في مصاف الأنبياء ويرجو للعرب مثل وثبته بقومه (٣) :

من شط (بحر الفنج) زأر غضغفر      أشجى لسمعي من هديل حمام  
صوت يردده مسيح الهند في      دلهي لتسمع يا مسيح الشام

كما يشير القروي أيضاً إلى نضال غاندي السليبي حين قاوم الاحتلال مع شعبه بإعلان الصوم ومقاطعة بضائع المستعمر . ويتمنى على المسلمين في بلاد العرب أن يضايقوا المحتل بمثل ذلك (٤) :

(٢) علي مذبج الوطنية ٦٩

(٤) ديوانه ٣١٤

(١) علي مذبج الوطنية ٥٥

(٣) ديوانه ٣٧٥

لقد صام هندي فُجوع دولة  
أهاب بآلات الحديد فعملت  
وشل دواليب الرخاء بصرخة  
كساها نسيج العنكبوت وكم كست  
فهل صار علجاً صوم مليوناً مسلم  
مصانع كانت جنّة المتنعم  
أدارت دواليب القضاء المحتم  
جسوم البرايا القشيب المنمتم

أما عمر يحيى الذي الذي ساقه اضطراد الانكليز إلى الهند منفيّاً فقد  
ابتأس لما رآه في هذه البلاد من تأخر وجهل يعوقان نهضتها وتحررها من قبضة  
المستعمر وهو يقول (١):

أنا في الهند أرى الشرق وما  
ضاق صدر الشرق عن أبنائه  
ليس بدعا أن ترانا عندهم  
فلكم تضحك لما أن ترى  
في حناياه من الداء الدفين  
وحوى من قادة الغرب مئين  
في زوايا دارنا مستعبدين  
بقرا تُرعى وأقواماً تهون

فلم تكن نظرة الشاعر إلى تلك البلاد نظرة المتفرج العابر ، فقد عز عليه  
أن يرى بلداً شرقياً كبيراً يمكن للمستعمر في أرضه ويديح له خيراته . ومن  
الملاحظ أيضاً أن الشاعر يتحدث عن العرب والهنود والشرقيين جميعاً بصيغة  
المتكلم على أنهم بمثابة أسرة واحدة مستعبدة ألغ الجرح بين قلوب أبنائها  
فتعاطفوا .

وقد سبقت الإشارة إلى اثر تعاليم جمال الدين الأفغاني في زيادة اهتمام العرب  
والمسلمين بالروح الشرقية الشاملة من نحو قوائمه المشهورة عن الهند : « لو كنتم  
أتم مئآت الملايين من الهنود ، وقد مسحكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة وخضتم  
ابحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى لجررتوها إلى القعر وعدتم إلى هندكم  
أحراراً » ولا ريب أن مثل هذه الآراء للأفغاني ومحمد عبده وشكيب أرسلان

ورشيد رضا وسواهم من اعلام الفكر والأدب الذين أولوا بلاد الشرق  
عنايتهم في تعاليمهم ومؤلفاتهم ، كان لها صدى في الشعر الحديث استمر أمداً  
غير قصير ، حتى إن الشاعر المهجري أبا الفضل الوليد استمد مضمون أبياته من  
هذه العبارة الشعرية الطريفة للأفغاني وصاغ من وحيا قوله (١) :

فلو أن الهنود مشوا جميعاً إلى يوم أغر عرمرمي  
لطح الانكليز به وآلت ركائبه إلى شد المطي

وثمة قصيدة للرصافي يرمز فيها إلى الهند والعراق بالفيل والحمل ، كما يرمز  
للمحتل الانكليزي عدوها المشترك بالذئب فيقول (٢) :

إذا ما سمعت الحق في قول قائل تخيلت فيلا بالحديد مكيلا  
فوقام هذا الفيل واستجمع القوى لهز بها شم الجبال وقلقلا  
لنا حمل وهو العراق نظنه غدامن وراء الفيل للذئب ما كلا  
فان ينج هذا الفيل من قيد أمره نجونا وإلا أصبح الأمر معضلا

فن خلال هذه الأبيات تتضح الآلام المشتركة التي آخت بين بلدين  
سريين ، وربطت بينهما في مصير واحد ، والرصافي لا يرجو خلاصاً للعراق إلا  
بعد تحرز الهند وهكذا كان .

وكانت هذه النظرة الشاملة إلى العرب وسائر الشرقيين رائد كثيرين  
من الشعراء المعاصرين . فالشاعر القروي لا يفرق بين زعماء الشرق الذين ثاروا  
في وجه الغرب للمستعمر من أجل تحرير شعوبهم حين رجا للشام واحداً من مثلهم  
يقود أمته في انتفاضتها كما ثارت الهند ومصر وتركيا والمغرب وذلك في قوله (٣) :

أين غندي وأين زغلول منا أين عبد الكريم أين كمال

(٢) ديوانه ٤٥٣ .

(١) نفحات الصور ٣٢

(٣) ديوانه ٣٣٩

وقد عبر إلياس فُرحات من مهجره القصى عن استبشاره بانتفاضات أمم الشرق المتلاحقة في سبيل تحررها فقال (١) :

الشرق فتح ناظريه فهاله	مرأى ذئاب العرب في وثباتها
الصين ناهضة إلي أعدائها	والهند نافضة غبار سباتها
والريف مقتحم عباب عجاجة	كلف بوجه الشمس من ذراتها
والشام بعض الشام هب محاولا	فك القيود محطها حلقاتها

فظاهرة النضال واحدة بين أمم عديدة استشعرت وطأة الاحتلال فهبت تزدود عن حياضها .

وكأنما أدرك الشعراء أن تحرر الشرقيين من قبضة الأجنبي رهن بذلك النضال المشترك وأن آمالهم بالاستقلال لن تتحقق إلا إذا تخلصوا من ادواء التفرقة والتعصب. وقد أشار حافظ ابراهيم إلي أهمية هذا التسامح والوئام في قصيدة ألقاها في جامعة بيروت الأميركية عام ١٩١٩ وقال فيها (٢) :

متى أرى الشرق أدناه وأبعده	عن مضطج الغرب فيه غير وسنان
لا فرق ما بين بوذي يعيش به	ومسلم ويهودي ونصراني

وهذان البيتان نموذج لغلبة المفهوم الشرقى على جانب من الشعر القومي واشتمال هذا المفهوم على أديان الشرق المتعددة وقومياته المتباينة .

وهكذا عبر طرف من الشعر القومي المعاصر عن تلك العاطفة الشرقية الشاملة التي وسعت نضال أمم شتى ، قربت بينها الغير والأحداث ووحدت كفاحها مآسي الاستعمار . ولم يكن تجاوب الشعراء مع وثبات هذه الامم الشرقية

---

(١) ديوانه ٢٦٠

(٢) ديوانه ١٣٣



من قبيل فضول النظم والتحدث بشؤون دول غربية أو أجنبية ، فقد كانوا يعكسون في قصائدهم مشاعر العرب ، وتطلعهم الي جيرانهم بعين الأمل الكبير في أن يكمل ذلك الكفاح المرير بغار النصر ، لأن كل ظفر يحرزه أولئك كان يشد من أزر العرب ، ولم يكن تهليل الشعراء لتلك الانتفاضات التي كانت تنبعث من الشرق سوى تعبير غير مباشر عما في نفوس الأمة العربية من نزوع نحو التحرر المنشود .

### ٣

وإذا ما حاولنا اكتناه مفهوم الشرق في أذهان الشعراء المعاصرين من ناحية أخرى وجدنا أن اضطرابهم في اطلاق ذلك المفهوم يرجع في الواقع الى تضيق دلالاته الواسعة الشاملة واقتصرهم فيها على الشرق الاسلامي في أغلب الأحيان ، وعلى الشرق العربي أحياناً أخرى ، وهذا الفهم المترجرج كان يؤثر في المفهوم القومي ذاته لدى الشعراء ، ويصيب معنى العروبة في الشعر المعاصر بكثير من الغموض والاضطراب .

ونظراً لأن العاطفة الشرقية سبقت في ظهورها الروح القومية فقد طبعت في معظم الأحيان بالطابع الاسلامي وبخاصة في عهود قوة أنصار الجامعة الاسلامية ، وفي ظل الخلافة العثمانية ، ولعل أبرز ما يشير الي ذلك تاسيس (جمعية الرابطة الاسلامية) في مصر عام ١٩٢٢ وإصدارها مجلة الرابطة الشرقية التي كان من أركان تحريرها عدد من أعلام الاسلام مثل محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية ، وأحمد زكي باشا الذي كان يلقب بشيخ العروبة والشيخ محمد نجيت شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ عبد الحسن الكاظمي الشاعر العراقي (١) ، وأن فاتحة المجلة لم تكن تميز بين العرب والمسلمين والشرقيين وكان

---

(١) انظر محمد حنين ، الاتجاهات الوطنية ٢ : ١٠٢

حديثها في العدد الأول عما يشمل طرابلس وتركيا وأفغانستان والصين ومصر  
والهند والملايو، دون أن يرد لليابان ذكر لأنها غير مسلمة .

وثمة دلائل كثيرة تفيد أن عدداً من الكتاب والشعراء يستعملون  
(الشرق) بمعنى الاسلام، من ذلك مثلاً مقاله أحمد شوقي مخاطباً السلطان  
عبد الحميد (١) :

وضع الشرق في يديك يديه وأتت من حماسته الأقسام  
وواضح أنه بالشرق هنا الشرق الاسلامي إذ أن معظم المساهمين يقطنون  
في الشرق . وكذلك كان الشأن فيما نظمه أمير الشعراء بعد ذلك تحية  
لانتصار أتاتورك، فالعركة الظافرة شبيهة بمعركة بدر والانتصار فيها انتصار  
للالسلام، وأتاتورك في الترك كخالد في العرب، ثم نقرأ في القصيدة نفسها  
قوله أيضاً (٢) :

هزت (دمشق) بني (أيوب) فاتتبهوا	يهنئون (بني حمدان) في (حلب)
ومسلمو الهند والمهندوس في جذل	ومسلمو مصر والأقباط في طرب
ممالك ضمها الاسلام في رحم	وشيجة وحوهاها الشرق في نسب

فهذه البلاد على حد تعبير شوقي ممالك ضمها الاسلام في رحم وحوهاها  
الشرق في نسب، والشاعر اذ يذكر المهندوس، والأقباط فانما يفعل ذلك  
مدفوعاً بعاطفته الشرقية الشاملة من جهة، وروح التسامح الديني التي عرف بها  
من جهة اخرى، ولسنا نرى في بيت شوقي الأخير سوى تعبير عن معنى واحد  
في كلام الشطرين فالترادف ظاهر بين الفاظها ويعنى لديه أن الشرق  
هو الاسلام .

---

(١) الشوقيات ١ : ٢٨٤ ، والاقسام : الايمان جمع قسم

(٢) الشوقيات ١ : ٦٦

وتبلغ هذه المفاهيم حد الاضطراب والنموض في مثل قول شوقي أيضاً  
وهو يجيبى تركيباً (١) :

فنحن إن بعدت دار وإن قربت      جاران في الضاد أو في البيت والحرم  
ناهيك بالسبب الشرقي من نسب      وحبذا سبب الاسلام من رحم

فمع أن البيت الثاني لا يخرج في معناه عن البيت الذي أوردناه آنفاً :

ممالك ضمها الاسلام في رحم      وشيجة وحواما الشرق في نسب

فاننا نتساءل عما يريده شوقي حين يجعل العرب والترك جارين في الضاد ،  
فهل يقصد اللغة العربية ، مع أنها أبرز ما يميز بين العرب والترك ، أو أنه يقصد  
القرآن باعتباره كتاباً للمسلمين ، في حين أنه أورد ذكر الرابطة الدينية  
في قوله « البيت والحرم » عدا أن العطف ( بأو ) يوحي بأن الشاعر يعني بالضاد  
غير ما يعنيه بالبيت والحرم .

ويتجلى هذا الفهم المترجم لمدلولات ( العرب والشرقيين والمسلمين )  
معاً في قول محمود غنيم (٢) :

أنى اتجهت إلى الاسلام في بلد      تجده كالطير مقصوفاً جناحاه  
ويح العروبة كان الكون مسرحها      فأصبحت تتوارى في زواياه  
كم بالعراق وكم بالهند ذو شجن      شكا فرددت الأهرام شكواه  
سل المعالي عنا اننا عرب      شعارنا المجد يهوانا ونهواه  
هي العروبة لفظ إن نطقت به      فالشرق والضاد والاسلام معناه

(١) الشوقيات ١ : ٢٦٨

(٢) ديوانه ٧٨

وبيت القصيد عندنا ما جعل فيه العروبة لفظاً معناه الشرق والضاد والاسلام . والواقع أن تسرب مفهوم العروبة الى الشعر العربي الحديث ومزاحمته المفاهيم الأخرى التي من أهمها الرابطة الشرقية والجامعة الاسلامية هو الذي ولد اضطراب هذه المفاهيم واختلاط بعضها ببعض بسبب عدم تبلور كل منها في نفوس الشعراء .

هذا التصور الاسلامي المحض للعاطفة الشرقية يعتبر استمراراً للتصور الذي كان يغلب على الشعر القومي قبل الحرب الكبرى ، ولكن الأمر أخذ في التبدل خلال الأحداث والثورات القومية التي عرفها العالم العربي بعد تلك الحرب وإثر انهيار نظام الخلافة العثمانية واضمحلال فكرة الجامعة الاسلامية .

وإذا عدنا ان كثيراً من دعاة الجامعة الاسلامية تحولوا بعد الحرب الكبرى الى دعاة للجامعة العربية كما تبين لنا ذلك في الفصل السابق أدركنا مدى اختلاط هذه المفاهيم بعضها ببعض بحيث كانت العاطفة الشرقية تعني في الشعر القومي العروبة حيناً والاسلام حيناً آخر ، وتعنيهما كليهما معاً في معظم الأحيان .

على أن مفهوم العروبة في الشعر الحديث أخذ يتسم بالوضوح شيئاً بعد شيء ويخرج من تلك الضبابية التي لفته بها مفهومات الشرق والاسلام . ولعل أحمد شوقي خير مثال على هذا التطور فيما نظمه من قصائد قومية منذ عام ١٩٢٥ ونشوب الثورة السورية . فقد قويت في نفس هذا الشاعر ولدى كثير من الشعراء منذ ذلك الحين منازع العروبة نتيجة العوامل السياسية والاجتماعية والذكورية التي أثرت في المجتمع العربي ، إلا أن مفهوم الشرق والشرقيين ظل لاصفاً بشوقي وحافظ وعلى الجارم وسواهم من الشعراء بسبب طول عهدهم باستعماله وكثرة ترده على الألسن والصحف برغم حرصهم على الباس قصائدهم ثوب

العروبة . ومن بوادر هذا التحول الجديد عند أمير الشعراء قوله في  
نكبة دمشق (١) :

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم  
ونحن في الجرح والآلام إخوان

كما يقول في مهرجان تكريمه عندما يبيع بامارة الشعر (٢) :  
يا عكاظاً تألف الشرق فيه من فلسطينه الى بغداده  
كلما أن بالعراق جريح لس الشرق جنبه في عمانه

وأغلب الظن أن شوقي في كلا الحالين هنا يقصد بالشرق رابطة العروبة،  
ومما يؤكد ذلك إقتران الشرق بالفصحى وكون القصيدة تدور حول دمشق  
العربية ، والبيتان الأخيران يشيران بوضوح إلى تطور مفهوم الشرق عند شوقي  
وسواء من الشعراء في هذه المرحلة من ازدياد الوعي القومي .

وقد طبعت العروبة مفهوم الشرق أيضاً في أبيات الأتاما حافظ ابراهيم  
في هذه الفترة نفسها بمناسبة مهرجان تكريم شوقي أيضاً وذلك في قوله مخاطباً  
أمير الشعراء (٣) :

فغن ربوع النيل واعطف بنظرة على ساكني النهرين واصدح وأبدع  
وحي ذرا لبنان واجعل لتونس نصيباً من السلوى وقسم ووزع  
فنبه عقولا طال عهد رقادها وافئدة شدت إليها بأنسع  
فقد غمرتها محنة فوق محنة وأنت لها يا شاعر الشرق فادفع

فبالرغم من أن القصيدة اتخذت عنواناً لها ( نهضة الشرق ) فإن أبياتها

(١) الشوقيات ٢ : ١٢٥

(٢) الشوقيات ٢ : ٢٤٠

(٣) ديوانه ١ : ١١١

كأبيات شوقي في الرد عليها لا تشير إلى أي قطر شرقي غير بلاد العرب ، أو شعب غير عربي ، وامانت الشاعر لشوقي بأنه شاعر الشرق إلا من هذا القبيل أيضاً أي شاعر العرب أو من قبيل اطلاق الكل على الجزء .

والملاحظ هنا أن هذه الأبيات وما سبقها من أبيات شوقي تحمل روحاً واحدة ، وتعلو فيها نغمة العروبة الواضحة على نغمة الشرق الخافتة ، وتفسير ذلك بالنسبة إلى شاعرين عرفنا بعدهما عن تيار العروبة الصافي وانشغالهما بالتعبير عن العواطف الإسلامية أو الشرقية أو المحلية إنما يعني أنها وسواها من الشعراء أخذوا يتأثرون بالمد القومي الجديد ويعكسونه جلياً في شعرهم . ولقد بدا جو تكريم شوقي مشحوناً بشاعر العروبة ؛ فالوفود تمثل أقطار العرب وكان التقاؤها حدثاً قومياً ، كما كان بين الحضور عدد من زعماء الثورة السورية التي كان لها تأثير فعال في نفوس سائر العرب وصدى بعيد لدى معظم الشعراء .

ويمكن القول إن ردة فعل ظهرت على نطاق محدود تجاه العاطفة الشرقية الغضفاضة التي كان عدد من شعراء مصر يتغنون بها ، وثمة قصيدة للشاعر السوداني حسين المنصور يوجه فيها إلى أحمد شوقي نقداً لاذعاً بسبب نزعه الشرقية (١) :

قد عشت يا شوقي لساناً هادئاً	متخوفاً من لفظة الثوران
العرب تبغي شاعراً متمراً	يزجي القريض الثائر الوجداني
دع عنك ذكر الشرق واحفز يعرباً	واخصص بشعرك ثائر العربان
ماذا هم العرب ززال سرى	في الهند أو في الصين واليابان
أو ليس في تلك البلاد شويعر	أو شاعر يسكي على الأوطان

---

(١) الشاطيء المخري ١٥٠

والحق أننا لا نكاد نجد شاعراً آخر تصدى بمثل هذه الصراحة للتنديد  
 بالعاطفة الشرقية باعتبارها زعة واسعة الشمول تبذل طاقة الشاعر في شؤون  
 أقطار أخرى وتصرفه عن معالجة قضية بلده التي ينبغي أن تكون مبعث  
 اهتمامه الأول. ولا ندري إذا كان الشاعر السوداني يخفي شيئاً من العناء  
 الشخصي نحو أمير الشعراء وراء هذه الجملة، إلا أننا نرى في هذه الأبيات ما  
 يتجاوب مع عواطف العرب الذين كانوا منذ أواخر العهد العثماني وفترة تأسيس  
 الجمعيات العربية قبيل الحرب الأولى، يتطلعون إلى شعراء مصر البارزين ويأملون  
 منهم عزف ألحان العروبة، حتى إن عدداً من أحرار العرب بادروا إلى لقاء  
 شوقي حين زار بلاد الشام وحدثوه في هذا الشأن بمكنون نفوسهم وأنهاهم  
 يتلهفون على قصائده الرائعة التي تذكى في نفوس العرب روح النضال  
 ضد الاحتلال.

ولا ريب أن السبب في عدم تنديد الشعراء بالعاطفة الشرقية أو في عدم  
 تعصبهم لها، أنها لم تكن رابطة بالمعنى الصحيح ولأنها من جهة أخرى دعوة  
 واسعة للتعاطف لم تكن لتعارض مع الدعوات القومية الأخرى.

إن العاطفة الشرقية التي ظلت لدى شعراء مصر عامة، وحتى  
 فترة متأخرة نسبياً، متشعبة بالاسلام كانت لدى أكثر شعراء الشام والعراق  
 موسومة بطابع العروبة في أكثر الأحيان، وهذا محمد رضا الشيباني أحد أدباء  
 العراق يقول في قصيدة أسماها (الشرق الناهض) إثر زكبة دمشق بقذائف  
 الفرنسيين عام ١٩٢٥ (١):

صلة الشرقي بالماضي اسلمي لا تعودني سناً منقطعاً  
 جاهدي يا أمم الشرق الآلي قتلونا جاهديهم أجمعاً

(١) ديوان الثورة ٤٤

واذكرى ما فعل الغرب بمن      هذبوه واصنعى ما صنعنا  
 وثب الزيف من الغرب بهم      فأثار الشرق والغرب مما  
 وتعالى في العراقين صدى      من بني الأطرش حتى أسمعنا  
 مدن لو تركت لا اتصلت      جزأوها ليسودوا قطعنا

وغدا الشرق في ذهن حسن البحيري من شعراء فلسطين يعني العرب  
 أيضاً، وذلك في قصيدة أطلق عليها اسم (الشرق) وقال فيها (١):

لا تستهن يا غرب إنا أمة      كتب اسمها لذرا العلاء عنوانا  
 من شرقنا شمس الهداية أشرفت      فأنارت الآباد والأزمانا  
 فسل الفرات عن الذين تبوأوه -      فقد وعى ما شنف الآذانا  
 سل عنهم اليرموك سل بردي وسل      نيل الكنانة أو سل الأوقيانا

ونحن نجد هذا الاتجاه - أي مطابقة الشرق للعرب - لدى بعض  
 الذين مارسوا القضية العربية ومنهم عبد الرحمن الشهبندر أحد الزعماء  
 الثائرين في سورية، فهو يحاول في مقال له أن يجدد معنى الشرق فيقول (٢):  
 « أن المقصود به ليس هو مجد الحثيين والفراعنة والآشوريين والبابليين  
 والفينيقيين ومن حذا حذوهم وكلهم أمم قد خلت وزالت لغاتها فأصبحت حشو  
 لفائف البردى. وليس المقصود مجد التبت وكوريا والصين فهذه أمم بعيدة  
 عنا..» وهكذا ينتهي الكاتب إلى أن يقصر مدلول الشرق على بلاد العرب فحسب.  
 وهذا الاتجاه لدى الشهبندر وأمثاله في فهمهم للشرق يقابل الفهم الإسلامي  
 لدى مصطفى صادق الرافعي ورشيد رضا وشكيب أرسلان وأمثالهم.

أما المسيحيون العرب وبخاصة في الشام والمهجر الأمريكي فقد كانوا  
 بحكم دينهم بعيدين عن أن يفهموا العاطفة الشرقية فهماً إسلامياً، ولذلك

(١) ابسام الضحى ٢٧

(٢) مجلة الهلال نوفمبر ١٩٣٣



أسمت لديهم هذه العاطفة بالروح الشرقية العامة أو بالطابع القومي العربي .

وقد أدى تأسيس جامعة الدول العربية في مصر عام ١٩٤٤ الى دفع ١٩٤٤  
الشعور القومي بقوة الى الامام ، وبخاصة في هذا البلد العربي الكبير الذي كان  
بؤرة للاشعاع الفكري والاجتماعي والثقافي في العالم العربي ، ومصطرباً  
لأفكار ونزعات ونزوات شتى كالجامعة الاسلامية والجامعة العربية وبالرابة  
الشرقية ، والدعوة الفرعونية والنزعة الغربية .. وكان من نتائج ذلك أن ارتدت  
العاطفة الشرقية التي ما زالت جذورها حتى ذلك الحين ممتدة في نفوس  
الشعراء — كما كان شأن الجامعة الاسلامية أيضاً — رداء ناصعاً من العروبة لدى  
عدد من الشعراء تمثل لهم بعلي الجارم الذي كان في معظم شعره بعيداً عن هذه  
الروح القومية الجديدة ، ونستطيع أن نختار من قصيدته « الجامعة العربية »  
قوله (١) :

سنا الشرق من أي الفرائس تتبع	ومن أي آفاق النبوة تلمع
صحائف الشرق وانجاب الكرى عن عيونه	وليس لمن رام الكواكب مضجع
لقد كان حلاً أن نرى الشرق وحدة	ولكن من الأحلام ما يتوقع
فليست حدود الأرض تفصل بيننا	لنا الشرق حد والعروبة موقع
تذوب حشاشات العواصم حسرة	إذا دميت من كف بغداد أصبع
ولو بردى أنت لخطب مياهه	لسالت بوادي النيل للنيل أدمع
ولو صدعت في سفح لبنان صخرة	لدكذرا الأهرام هذا التصدع
فيا زعماء الشرق والشرق أمة	على الدهر لا تفتى ولا تتضعضع
هنا علم الشرق الذي في يمينكم	ستعنو له الأيام والدهر أجمع

ومن الملاحظ هنا أن الشاعر لم يستطع أن يبعد عن لسانه لفظ الشرق

(١) ديوانه ١٣٣

الذي ألفه طويلاً ، فهو يردده ويترنم به في كل بيت تقريباً ، كما أن لفظي العرب والعروبة قلما يردان في القصيدة ، عدا استعمال الشاعر بعض العبارات الغامضة مثل اعتباره الشرق أمة في البيت الذي يسبق الأخير ، ومن المرجح أنه يريد به العرب . ومع ذلك فروح القصيدة تم عن نزعة عربية شديدة ، وتشير الى التأثير الفعال الذي بدأت تحدثه الأحداث القومية في نفوس الشعراء .

وهكذا تقلص مفهوم الشرق في هذه المرحلة المتأخرة من حياة الشعر الحديث ، وأخذ يعني العروبة في أكثر الأحيان ، ولم يكن ذلك التطور سوى انعكاس لاهتمام الشعراء المتزايد بمعالجة قضايا العرب نتيجة لتعاظم الشعور القومي . والواقع أن مفهوم الشرق في أذهان الشعراء والكتاب كان بين مد وجذر يلبس لكل حال لبوسها ، تبعاً للظروف الاجتماعية والسياسية ؛ ففي عهد ازدهار الجامعة الاسلامية كان يفيد الشرق الاسلامي ثم انحسر عن ذلك أيضاً ليطابق الشرق العربي .

ثم أخذ هذا المفهوم يكتسب وضوحاً ودقة في الأذهان ويعود الى ما وضع له بعد أن أخذت المفاهيم الأخرى التي كانت تختلط به تتسم بالتحديد وتستعمل فيما وضعت له أيضاً مثل الجامعة الاسلامية أو القومية العربية ، وبذلك نأى الشعراء بعض الشيء عن استعمال لفظ الشرق في شعرهم القومي ، وأصبح وروده يعني في الغالب مطابقتة المدلول الجغرافي لامتداد الأقطار الشرقية التي تشمل الشرق الأقصى والأدنى والأوسط ، كما يعني أيضاً في الشعر الحديث بصورة عامة الجمع بين العرب وسواهم من القوميات الأخرى المناضلة في هذا الشرق الكبير .

علن أن العاطفة الشرقية لم تخف حدثها في الشعر العربي المعاصر عبر السنين برغم تبدل مفهومها ضيقاً واتساعاً وطغيان الروح القومية عليه ،

ولعل السبب في ذلك يعود الى استمرار النظام الاستعماري الذي لم يحد الغرب عن فرضه بالقسر والاكره على دول الشرق ؛ فقد ظل الشعراء ينددون بالغرب ودوله كلما ألقى الى قومهم بشرّ جديد . وكان هذا الالتقاء الفعال بين النزعة القومية والعاطفة الشرقية - كما كانت الامر بين هذه وبين العاطفة الدينية - كسباً كبيراً للحركات التحررية في العالم العربي . وكيف بقيت الهوة على اتساعها بين الشرق والغرب في الشعر العربي الحديث . وقد ظلت عبارة ( كبلنغ ) السائرة التي تقول « ان الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » حقيقة مؤسفة لم يعمل الغرب من جهته على تلافي أمرها ، وستبقى وصمة في جبين الغرب والانسانية كلها طالما بقي الغرب مصرّاً على جشعه تجاه الشعوب المستضعفة .

أما هذه الافكار التي كانت تتصاحب أو تتفارق في الشعر الحديث من عاطفة شرقية أو جامعة إسلامية أو نزعة عربية .. فقد كانت كل واحدة منها تعزز الاخرى ، ولم تكن تتنافى . وقد أفاد منها جميعاً الفكر العربي الحديث كما أفادت الحركات التحررية .. وكل ذلك وجد صده الأيمن في الشعر الحديث .

إن العاطفة الشرقية في حقيقتها لم تكن رابطة قومية بالمعنى الصحيح ترتكز الى أسس سياسية أو اجتماعية أو فكرية متينة ، ولكنها دعوة واسعة للتعاطف لم تكن تتعارض مع الاتجاه القومي أو لتتنافى مع الوحدة الاسلامية والوحدة العربية . لقد كانت جميع هذه الدعوات والنزعات تلتقي معاً على صعيد التحرر القومي . ولعل أصدق تعبير عن كنه الرابطة الشرقية ما ورد في بيت أحمد شوقي إذ قال (١) :

وما الشرق إلا أسرة أو عشيرة  
تلم بنيتها عند كل مصاب

(١) الشوقيات ٣ - ٣١

وَمِنْ ذَلِكَ نُحْتَصِلُ إِلَى الْقَوْلِ إِنَّ الرابطةَ الشَّرْقِيَّةَ فِي الشَّعْرِ الْحَدِيثِ كَانَتْ رَافِئاً كَبِيراً لِلتَّيَّارِ الْقَوْمِيِّ بِسَائِرِهِ أَوْ يَخْتَلِطُ بِهِ أَوْ يَجَانِبُهُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي أَيِّ حَالٍ يَعْتَرِضُ تَدْفِيقَهُ .

وَإِذَا مَا نَظَرْنَا إِلَى الْمَوْضُوعِ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى نَجِدُ أَنَّ فِكْرَةَ الْعَرُوبَةِ الَّتِي أُطْلِقَتْ بِرَأْسِهَا فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ مِنْذُ أَوَّلِ الْقُرُونِ التَّاسِعِ عَشَرَ ثُمَّ أَزْدَادَ شَأْنُهَا بَعْدَ الْحَرْبِ الْعَالِمِيَّةِ الْأُولَى ، كَادَتْ تَضْيَعُ فِي زَحْمَةِ دَعَوَاتِ أُخْرَى أَكْثَرَ شِمُولاً وَاتِّسَاعاً كَالدَّعْوَةِ إِلَى الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالرَّابِطَةِ الشَّرْقِيَّةِ .. وَلَكِنَّا اسْتَطَاعَتْ بِفَضْلِ جَدْوَرِهَا الْعَمِيقَةِ الْكَامِنَةِ فِي النَّفُوسِ أَنْ تَشَقَّ طَرِيقَهَا مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْعُمُرَاتِ شَيْئاً فَشَيْئاً مُتَسَاوِقَةً مَعَ اتِّضَاحِ الْمَشَاعِرِ الْقَوْمِيَّةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ .

وَلَعَلَّ مِنْ أَسْبَابِ قُوَّةِ هَذِهِ الْعَاطِفَةِ الشَّرْقِيَّةِ فِي الشَّعْرِ الْحَدِيثِ بَرغمِ افْتِقَارِهَا إِلَى الْأَسْسِ الْوَاقِعِيَّةِ الَّتِي تَمَكَّنَهَا مِنْ أَنْ تَكُونَ رَابِطَةً بِالْمَعْنَى الْمَصْحُوحِ تَوَلَّفَ بَيْنَ أُمَّمِ شَتَّى تَسَلَّطَ الْعَرَبُ الْمُسْتَعْمِرَ عَلَى الشُّعُوبِ الشَّرْقِيَّةِ مِمَّا وَلَدَتْ فِي نَفْسِهَا شَعُوراً قَوِيّاً بِالْتَّعَاطُفِ الَّذِي خَلَقْتَهُ مِحْنَةُ الْإِسْتِعْمَارِ الْمَشْرُوكَةِ . لَقَدْ أَصْبَحَ نِضَالُ الْعَرَبِ خَاصَّةً وَالسَّامِيْنَ كَافَّةً جِزْءاً فِعْلاً مِنْ نِضَالِ الشَّرْقِيِّينَ ضِدَّ الْعَرَبِ الْمُعْتَصِبِ . بَلْ إِنَّ هَذَا الشُّعُورَ بِالْتَّعَاطُفِ أَخَذَ بِاتِّسَاعِ نَحْوِ آفَاقِ الْإِنْسَانِيَّةِ الشَّامِلَةِ مِنْذُ انْتِهَاءِ الْحَرْبِ الْعَالِمِيَّةِ الثَّانِيَةِ ، وَرَاحَ يَشْمَلُ جَمِيعَ الشُّعُوبِ الْمَغْلُوبَةِ عَلَى أَمْرِهَا فِي أَيَّةِ بَقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، إِذْ لَمْ يَعُدَّ الصَّرَاحُ الْعَالَمِيُّ مَجْرَدَ صَّرَاحٍ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْعَرَبِ بَلْ غَدَا نِضَالاً مَرِيئاً بَيْنَ التَّحَرُّرِ وَالْإِسْتِعْمَارِ .

# الفصل الثاني الزعات الوطنية الإقليمية

الفرعونية - الفيدقية - الآشورية

عندما انحلت عرى الرابطة الاسلامية في اعقاب الحرب الكبرى الأولى على أثر انفراط عقد الامبراطورية العثمانية وانهيار نظام الخلافة ، نشطت في الشرق العربي الدعوات القومية التي حاولت أن تملأ الفراغ وأخذت تقوم على دعائم جديدة بعيدة عن الأسس الدينية . وكانت دعوة القومية العربية أقوى هذه الدعوات ، اتخذت مظهرأ حاصمها لها في « الثورة العربية الكبرى » وشملت بلاد الشام والعراق منذ العهد الفيصلي .

وقد قوي الاتجاه في فترة النهوض القومي الى بعث الصفحات الرائعة من الماضي العريق ، وذلك باستيحاء أمجاد العرب أو أمجاد من سبقهم من فراعنة وفينيقيين وآشوريين وسواهم ، وكانت قد ظهرت قبل ذلك الدعوة الطورانية في تركيا (١) وهي أسبق تلك الدعوات القومية ولكنهم لم تلبث أن استحالت الى عصبية عنصرية ضيقة ، ثم انزلت الوطنية المصرية فيما يقارب هذا الاتجاه ، كما ظهرت بوادر من هذا القبيل في الساحل السوري وفي العراق . وكانت

---

(١) انظر حاضرم العالم الاسلامي للامير شكيب أرسلان في وصف هذه الحركة .

جميع هذه النزعات المتطرفة في تلك الأقطار تحاول أن تثبت لنفسها كياناً سابقاً على الاسلام بعد أن وجدت في تراثه قاسماً مشتركاً بينها جميعاً ليس بوسعه وحده أن يؤكدها المستقلة ، أو يسم كل شعب فيها بخصائص ومميزات ينفرد بها على الصعيد القومي .

أما الاستعمار الذي تنفس الصعداء بعد أن استطاع تفتيت الامبراطورية العثمانية ، ورأى انهيار الجامعة الاسلامية باعتبارها كانت تضم كتلة كبرى لمجموعة من الشعوب المناهضة له ، فقد هاله انبثاق القومية العربية قوية في أعقاب الحرب الكبرى وهو الذي أسهم بنفسه في تحريضها ضد الدولة العثمانية ، فراح يعمل بدأب من جديد على تفتيتها ، وذلك بتشجيعه قيام القوميات الضيقة في كيان الأمة العربية ، وسعيه لايجاد كيانات صغيرة متعددة في قلب العالم العربي ، وخلق أوطان متميزة تنسم حدودها بالقداسة .

وكان أبعد هذه النزعات خطراً النزعة الفرعونية في مصر . وثمة دعوة مماثلة عرفها لبنان وكانت تدعو الى الفينيقية ، كما عرف العراق دعوة ثالثة كانت تنادي بالآشورية .

١

كانت مصر طيلة عهود مديدة تؤلف مع بلاد العرب وحدة سياسية ودينية وثقافية ، وتنسم بالطابع العربي الأصيل الشامسل ، كما كانت الحصن المنيع للثقافة العربية والتراث الاسلامي . إلا أنها تفردت خلال العصور الحديثة بأحداث معينة جعلتها تسير حيناً من الدهر في اتجاه خاص يتفق مع الظروف التي استجدت فيها آنذاك ، فقد استقامت عن السلطنة العثمانية على يد محمد علي دون سائر البلاد العربية ، ثم ابتليت بعد ذلك بالاستعمار قبل كثير من

البلاد العربية الأخرى . وتبجلى هذا الافتراق في قضية مصر عن سائر قضايا العرب في الثورة العربية الكبرى التي قام بها عرب الحجاز والشام والعراق متحالفين مع انكلترا وفرنسا ضد الحكم التركي ؛ فقد استنكر كثير من المصريين ثورة العرب ضد خلفائه الاسلامية وبخاصة تحالفهم مع الدولة التي تحتل مصر وتذل شعبها .

ورسخ في الازهان منذ ذلك الحين أن شؤون مصر تفرق عن شؤون بلاد العرب الاخرى وأن هدفها الاول يجب أن يتركز في إجلاء المستعمر واستخلاص ( مصر للمصريين ) ، ولما كانت الجامعة الدينية هي الآصرة البارزة التي كان يشعر بها المصريون تجاه اخوانهم العرب والمسلمين قبل انهيار الخلافة وبروز التيار القومي ، فقد انقلبت موجة الوطنية المتطرفة التي غمرت مصر بعد الحرب الكبرى الأولى الى رد فعل قوي تجاه الجامعة الاسلامية قوامه الانفصال والاستقلال عن تركيا وعن كل الأقطار التي كانت تابعة لها ، والتي كانت تشكل معها الامبراطورية العثمانية .

فقد بدأ المصريون عقب انقراط عقد الدولة العثمانية وكأنهم يفتقدون ذاتهم تجاه الفراغ الذي حدث بانهيار نظام الخلافة فراحوا يتلمسون هذه الذات المتميزة في تاريخهم الغابر . وسرعان ما وجدوا في ماضيهم العريق السابق على الاسلام والمسيحية ما يشيع الزهو ويعث على الثقة في النفوس ، « وكان هذا الأدب المعتمد على التاريخ - شعره ونثره - من أقوى الأدوات في استنهاض الأمم وبعث الأمل ومحاربة اليأس ورد الثقة الى نفوس تمكن منها سوء الظن بنفسها حتى قتل فيها روح الأمل والطموح » (١) وبانهيار الجامعة الاسلامية ، وفصل الدين عن شؤون الحكم من جهة ، وقيام الثورة العربية بدون اشتراك مصر فيها من جهة أخرى ، أصيبت الرابطة الدينية

---

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ١ : ٩٩

والرابطة العربية على السواء بنكسة في مصر وأصبح المجال مفتوحاً أمام دعاة  
الاقليمية والاعراض عن الشرق العربي، وغدت التربة صالحة لبذر بذور  
الفرعونية والقومية المصرية المتميزة والأفكار المسمومة التي أخذت تلقى في  
الأذهان بأن مصالح مصر تتعارض مع مصالح العرب .

ويمكن ان نرد بذور النزعة الفرعونية الى عهد الحملة الفرنسية على مصر  
منذ أن كشف شامبليون عن سر الهيروغليفية وحل طلاسم حجر رشيد .  
فقد بدت بوادر هذا الاتجاه في شعر محمود سامي البارودي إذ قال (١) :

سل الجيزة الفيحاء عن هرمى مصر      لملك تدري غيب ما لم تكن تدري  
بناء ان ردا صولة الدهر عنهما      ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر

ومما ساعد على تعاضم هذا الشعور في مصر نشاط الحفريات وظهور  
المكتشفات الأثرية الفرعونية واهتمام الصحف بها والتحدث عنها بكثير من  
الزهو والاعتداد ، وقد استبشر الشعراء بهذه المظاهر الجديدة وسرهم أن  
يروا ماضيهم الذين يبعث أمام عيونهم من مراقده ، فراحوا يتغنون بمصريتهم  
وأجدادهم بنشوة بالغة . ولم يكن هذا الشعور بدعاً لدى المصريين إذا عرفنا  
أن الاعجاب بمحضارتهم تعدهم الى الأقوام الاخرى وبخاصة في بريطانية  
وفرنسة (٢) ، « فقد سحر بمصر أيضاً أقطاب شعراء الحركة الرومانتيكية أمثال

(١) ديوانه ١ : ١٤٩

(٢) ذكر الدكتور محمد رشاد رشدي في « المجلة » عدد فبراير ١٩٥٧ تحت عنوان  
( مصر في الشعر الانكليزي ) : « أنه كانت كل شحنة جديدة من الاثار تفد الى لندن تثير  
اهتمام العامة والخاصة حتى بانت جميع المجلات الادبية والفنية بلا استثناء تقريباً تتنافس في أن  
تنشر آخر أنباء الاستكشافات المصرية ، وفي عقد الفصول الطوال عن الفن الفرعوني والدين  
والحياة العامة في مصر القديمة . لقد سحر الناس في انكثرتا بمحضارة الفراعنة حتى أصبح  
الطابع الفرعوني في قطع الاثاث وأدوات الزينة شائعاً » .



شلى و كيتس و بايرون . . . وكان الحافظ باعثاً رومانتيكياً في أغلب الأحيان باعث نزعة وحنين الى هذه الحضارة التي تختلف كل الاختلاف عن الحضارة الأوروبية ، الى هذه البلاد التي احتفظت بآثار الماضي فبقيت فيها البقاع التي جاء ذكرها في الانجيل وما زال الناس يعيشون فيها على الحالة التي وصفتم بها التوراة ، واكثر من ذلك فانها البلاد التي شهدت مولد الرومان (١) .

لقد برزت الموضوعات الفرعونية في مصر في الصحف والمقالات والقصائد بشكل يكاد يكون مفاجئاً وطاغياً ، وسرعان ما استجاب الشعراء الى هذه الدواعي الباهرة في حياة مصر الحديثة الناهضة . وكان أحمد شوقي في طبيعة هؤلاء الشعراء استجابة لهذا الاتجاه الجديد ، ومن طبيعة شوقي سرعة التجاوب مع مجتمعه وحرصه على تصوير نزعاته ومشاعره . وقصيدته « كبار الحوادث في وادي النيل » التي ألقاها في مؤتمر المستشرقين عام ١٨٩٤ وهو شاب في السادسة والعشرين (٢) تعد البادرة الأولى لديه في إبراز الجانب الفرعوني من تاريخ مصر وتراثها ، وفيها اشادة برمسيس ومناجاة لسيزوستريس وإعظام لآمون وايزيس وأوزيريس وآيس (العجل) . على أن شوقي لم يقتصر في مطولته هذه على الفخر بالفراعنة وعهودهم بل جمع بين أمجادهم وأمجاد العرب بعدهم على صعيد واحد . ولا ريب في أن شعور الاعتزاز بماضي مصر على اختلاف عصورها وحضاراتها كان الباعث الاول في شعره .

---

(١) المرجع السابق ١١٢ وفيه أيضاً « أن كيتس يستمير الكثير من اوصافه في قصيدته الكبرى (هيبرين) من المعابد والاثار الفرعونية التي رآها في لندن أو قرأ عنها في كتب الرحالة . ونجد بايرون يكتب الى اصدقائه فيقول : لاجل أن نثير خيال الشعراء ونستولي على اهتمهم يجب أن نتجه في الشعر الى الجنوب الى بلد مثل مصر ) ويتردد ذكر مصر في شعر شيلي في أكثر من مناسبة خلال قصيدته ، أوزيمندس ؛ أي رأس رمسيس ، وقصيدته ، الإستر ، حتى إن الامر بلغ حد التنافس والتحدي بين عدد من الشعراء الانكليز في نظم مقطوعات من نوع البلاء Ballad عن النيل ، على نحو ما نجده لشالي وكيتس ولي هنت . وقد زار مصر عدد كبير من الكتاب الفرنسيين والانكليز أمثال فلوبيير وثاكري ومس هاريت مارتينو وكنجلاك ولورد لندري وغيرهم .

(٢) أنظر الشوقيات ١٧ : ٠

الا أن اهتمام شوقي وعدد من شعراء مصر بالجانب الغابر من تاريخهم أخذ يزداد على أثر اشتداد النزعة الفرعونية لدى عدد من رجال السياسة والادب والتاريخ والصحافة ممن غلوا في ذلك الى حد قولهم بتميز مصر وشخصيتها ، وانكار الصلات الواشجة بينها وبين أخواتها العربيات (١) ، ومما ساعد على استفحال هذه النعرة ازواء أنصار الجامعة الاسلامية بعد انهيار خلافتهم ، وخيبة أمل دعاة العروبة تجاه زعماء الثورة العربية الذين اسلسوا قيادهم للانكليز عدو مصر اللدود .

وكان نشاط الحفريات ، وظهور المكتشفات الاثرية الهامة يدغدغ مشاعر كل مصري ويبعث في نفسه الزهو حتى ان « اكتشاف قبر توت عنخ آمون أحدث دويماً كبيراً وكأنه نصر مبین ، وبلغ من انشغال الرأي العام بتوت عنخ آمون أن شوقي نظم فيه وحده في هذه المناسبة أربع قصائد أولها قصيدة « توت عنخ آمون » نظمها على أثر اكتشاف المقبرة وهي أكثرها ذيوفاً ، (٢) وقد استهلها بقوله (٣) :

قفني يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الأولينا

وكانت الثانية على أثر وفاة مكتشف القبر كارنارفون من آثار لسعة بموضة قبل أن يتم كشفه وقد كثرت الارجيف وقتذاك عما سموه لعنة الفراعة (٤)

(١) ورد في ملحق السياسة الادبي ١٤ اكتوبر ١٩٣٢ قول محمد عبدالله عمان ، فكرة الجامعة العربية في نظرنا أمنية خيالية لا تقوم على أية أسس أو تقديرات عملية . بل إن التماق بها ضار . . ومن الخطأ البين أن تنظم مصر في سلك البلاد العربية إذا تماق الامر بالناحية القومية ، فالقومية المصرية قومية أثيلة ولم تفقد خواص الوحدة والتجانس منذ ايام الفراعة .

(٢) انظر الدكتور محمد حسين الاتجاهات الوطنية ٣ : ١٠٠ - ١٤١

(٣) الشوقيات ١ : ٣١٣

(٤) محمد حسين ٢ : ١٤٢

في الموت ما أعيأ وفي أسبابه كل امرئ رهن بطي كتابه

أما الثالثة وهي «توت عنخ والبرلمان» فنظمها بمناسبة افتتاح أول برلمان في مصر عام ١٩٢٤ وقد بدأها بخطاب توت عنخ آمون قائلاً (١) :

قم سابق الساعة واسبق وعدها الأرض ضاقت عنك فاصدع غمدها

وأما الرابعة «توت عنخ آمون وحضارة عصره» فمطلعها (٢) :

درجت على الكنز القرون وأتت على البدن السنون

وبرغم اهتمام شوقي البالغ بهذا الموضوع فهو بصورة عامة لم يبلغ حد التطرف الذي وجدناه لدى بعض الكتاب آنذاك ؛ إذ ظل بعيداً عن التعصب الأعمى للفراعنة ، ولا ريب في أن قوة عاطفته الإسلامية كانت خير عاصم له من التعصب والهوى ، ولذلك نراه يعرض بفرعون وعصره فيقول (٣) :

زمان الفرد يا فرعون ولي ودالت دولة المتجبرينا

وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا

كما يشيد بنظام الشورى ويعرض باستبداد الفراعنة بقوله (٤) :

روح الزمان ونظمه وسيبيله في الآخرين

ان الزمان وأهله فرغاً من الفرد اللعين

وهكذا يرى شوقي في الفرعونية نزعة رجعية لا تتلائم روح العصر الحديث وحضارته . والواقع أن أكثر ما نظمه أمير الشعراء حول الفراعنة

(١) الشوقيات ٢ : ١٩٧

(٢) الشوقيات ٢ : ١١٦

(٣) الشوقيات ١ : ٣١٣

(٤) الشوقيات ٢ : ١٩٧

يتسم بالعبرة والموعظة واستخلاص المغزى من الماضي والتاريخ . وتبرز هذه الظاهرة لديه في قصائده المتعلقة بالتاريخ الفرعوني أو العربي على حد سواء فهو يقول مثلاً تجاه قصر الحمراء الأندلسي (١) :

وعظ البحري إيوان كسرى      وشفقتي القصور من عبد شمس

ويصدر عن هذه الروح نفسها تجاه معبد أنس الوجود حيث يقول (٢) :

أين فرعون في المواكب تترى      يركض المالكين كالخيل ركضاً  
أين إريس تحتها النيل يجري      حكمت فيه شاطئين وعرضاً

على أن شوقي ينساق مع روح تلك الفترة المتطرفة في بعض شعره فيشيد بحضارة مصر القديمة وآثارها ويزهى بها على الحضارات الأخرى ، ولا يفوته أن يبرز الروح الفرعونية حتى في صدد حديثه عن حضارة العرب في الأندلس فيقول مستوحياً قافية ابن زيدون (٣) :

وهذه الأرض من سهل ومن جبل      قبل (القيصر) دناها فراعينا  
ولم يضع حجراً بان على حجر      في الأرض إلا على آثار بانينا

وحين يتحدث عن آثار مصر في قصيدته « أيها النيل » يقول مباحياً (٤) :

لا (الفرس) أوتوا مثله يوماً ولا      بن داد في ظل الرشيد وجاق  
كم موكب تتخايل الدنيا به      يجلى كما تجلى النجوم وينسق

(١) الشوقيات ٢: ٥٧

(٢) الشوقيات ٢: ٦٨

(٣) الشوقيات ٢: ١٢٧

(٤) الشوقيات ٢: ١٢٧

تعنو لغرته الوجوه ووجهه  
ومشى الملوكة مصفدين خدودهم  
لشمس في الأفق عان مطرق  
نعل لفرعون العظيم ونمرق  
ياأبي فيضرب أو يمن فيعتق  
ملوكة أعناقها ليمينه

وعلى هذا المنوال من روح الاستعلاء ينسج شوقي أبياته ويفاخر بأعجاد  
الفراعة بما يقرب من خمسين بيتاً . ومع أنه لم يتحدث في هذه القصيدة عن  
العرب والاسلام إلا بأبيات قليلة ، وأن ما قاله هنا يعتبر من أكثر قصائده تطرفاً  
نحو الفرعونية ، فإن الطابع الذي يميزها يتفق مع سائر قصائده الأخرى أيضاً  
في هذه النظرة الشاملة لتراث مصر وحضارتها واعتبار ذلك الماضي بوجيئه  
الفرعوني . والعربي وحدة متكاملة يؤلفان معاً تاريخ مصر وشخصيتها .

وقد تناول محمود عماد أيضاً موضوع ذلك الاكتشاف الأثري وذهب إلى  
أبعد مما ذهب إليه شوقي بمراحل حين اعتبر قوت عنخ آمون جده ، بل إنه أضفى  
عليه صفة النبوة لأن جسمه لم يدركه الفناء بفضل التحنيط (١) :

يا قوت معذرة الحفيد لجده      إن لم تكن منا حقرت حفيدا  
لم يفن جسمك بعد دفنك أدهراً      إن النبوة لا تروم مزيداً

وقد حشر الشاعر في هذه القصيدة أسماء فرعونية كثيرة مثل هاتور  
وأمون وإيزيس وأوزيريس وسيتي ورمسيس وغيرهم .

وتعتبر قصيدة « مصر » لحافظ إبراهيم من أبرز ما قيل أيضاً في هذا  
الاتجاه . وتحدثت مصر عن نفسها مفعم بروح ازهو والاعتداد بنتيجة الشعور  
الوطني الجارف الذي تدفق في أعقاب ثورة ١٩١٩ وعمق شعور مصر بشخصيتها

(١) ديوانه ٣٤٣

وتبدو النزعة الفرعونية في هذه القصيدة ركناً هاماً من التفاخر بأجداد مصر التي  
تتحدث عن نفسها بقولها (١) :

هل رأيتم تلك النقوش اللواتي      أعجزت طوق صنعة المتحمدي  
هل فهمتم أسرار ما كان عندي      من علوم مجبوءة طـيـي بردي  
ذاك فن التحنيط قد غلب الدهر -      وابلـى البـلى وأعجز ندي  
أنا أم التشريع قد أخذ الرومان -      عني الأصول في كل حد  
ورصدت النجوم منذ أضاءت      في سماء الدجى فأحكمت رصدي  
وشدا ( بنتؤور ) فوق ربوعى      قبل عهد اليونان أو عهد نجد

وإذا كان شوقي حريصاً على إيجاد التوازن بين عناصر الشخصية المصرية  
حين يشيد بالفراعنة دون أن ينسى العرب أو المسلمين فإن حافظاً في هذه القصيدة  
قصر افتخاره على الفراعنة وحدهم دون أن يشير بيت واحد إلى تراث العرب  
الزاهي في مصر . وواضح أن فكرة الأسبقية والامتياز في حضارة مصر القديمة  
حيث النقوش والحنيط والتشريع والفلك والشعر هي التي استولت على ذهن  
حافظ وأملت عليه هذا الاتجاه في قصيدته ، إذ إن حضارة العرب جاءت متأخرة  
في الزمن عن حضارة مصر القديمة وهذا ما جعل الشاعر يباهي بالشاعر الفرعوني  
( بنتؤور ) دون الشعراء العرب ومفكرهم . ومع ذلك فإن « حافظ » لم يكن  
مولعاً كشوقي في طرق هذا الجانب القديم من تاريخ مصر والاكثر من نظم  
القصائد فيه . ومما يؤكد أن الباعث على مثل هذا النزوع الفرعوني لدى شعراء  
مصر كان قبل كل شيء تأجيج العواطف الوطنية في نفوس المصريين وشعورهم  
المتنامي بشخصيتهم تجاه المحتل المتحضر قول حافظ في القصيدة نفسها :

قبل أسطول ( ناسن ) كان أسطو      لي سريعاً وطالعي غير نكد

وواضح أن الشاعر يحاول أن يبذ المختلين الذين يتهمون بأسطولوجهم بأن  
المصريين سبقوهم الى ذلك قبل آلاف السنين .

ثم طاب لشعراء مصر العزف على هذه القيثارة الفرعونية بكثير من  
الحماسة حتى كأنهم لم يعودوا يرون سواها . وهذا أحمد زكي أبوشادي يخاطب مصر  
بقوله (١) :

يا قبلة ( ايزيس ) تركع نحوها      شكراً لمنصفها على الآباد  
هل أنت إلا مجد (منف) تقمصت      آياته بجنانك الوقاد

وهو حين يخاطب مصر ثانية يردد ما كانت تتداوله الصحف من أن  
المصريين أحفاد الفراعنة (٢) :

رمسيس لم يدفن بأرضك روحه      إلا ليحظبها تغير شريك  
والتابعون من الفراعنة الألى      أحيوك لم يبنوا لغير بنيك

وقد سلك محمد الأسمر نفسه في جملة الداعين الى خلق أدب محلي ،  
متميز بالطابع المصري مستقل عن آداب الشعوب الشرقية الأخرى الناطقة  
بالضاد (٣) وكان في طليعة المزهوين بأجماد الفراعنة ، وما قاله مفتخراً (٤) :

خلت من بني فرعون شم المنازل      ولم تخل إلا من رجال بواسل  
مضوا ومضت أيامهم غير أنهم      لهم في المعالي كوكب غير زائل

(١) مصريات ٥٦

(٢) مصريات ٥٩

(٣) أنظر الدكتور محمد حسين : الاتهامات الوطنية ٢ : ١٣٧

(٤) تغريدات الصباح ٢٦

ورثناهم أما العروش فقوضت وأما المواضي فهي دون الحماثل

وهو يترحم على تلك العهود الغابرة بقوله (١) :

ألا رحم الله الزمان الذي مضى      فإله من عصر ولله من عهد  
بني فيه خوفه الراسيات على الثرى      فأعجب به يني الرواسي بالأيدي

ويصور لنا الأسمر تلك النشوة البالغة التي كان يشعر بها عدد من الكتاب  
والشعراء تجاه الفراعنة فيبتزون لذكورهم طربا فيقول (٢) :

لنا وطن للضيف بين رحابه      قصور وللإعداء فيه قبور  
تحيط به أبناء فرعون أنهم      يسرون حيث المكرمات تشير  
يحدثني التاريخ عنهم فأنتي      وبي صلف من قوله وغرور

وكثير مما نظمه عباس محمود العقاد وبخاصة في سعد زغلول يسير في هذا  
الاتجاه ؛ ففي إحدى قصائده التي نظمها على أثر نقل رفات سعد إلى ضريحه المقام  
على النمط الفرعوني يقول (٣) :

الفراعين الألى أجليتهم      لتمنوا لو أجازوك الطريق  
أنت أضفيت على أوطانهم      سعة وهي من الأسر تضيق  
أنت أيقظت لهم تاريخهم      وهو في نومته لا يستفيق  
فضلك الإلاحق أحيا فضلهم      فاستوى منه طريف وعريق

(١) تغريدات الصباح ٢٧

(٢) تغريدات الصباح ٢٨

(٣) عابر سبيل ٥٨



وفي قصيدة أخرى للعقاد اسمها «تمثال رمسيس» اشادة بسظوة فرعون مصر وجحافله التي بلغت الشام وبابل وبنينوى ، واعتداد بآمون وبتنوير.. وشييه بذلك ايضاً قصيدته المسماة « هيكل الكرنك » (١) فهو في أكثر هذه القصائد وأمثالها لم يكن ليشير إلى أية أجداد عربية على النحو الذي وجدناه لدى شوقي .

وبالرغم من أن الشاميين والعراقيين كانوا يجدون في سعد زغول زعيماً للعرب وللشرق لا زعيماً لهم وحدها فان العقاد في مراثيه المتعددة لزعيم مصر لم يشير إلى شيء من ذلك وإنما كان سعد في نظره حفيد الفراعنة فحسب . فقسي قصيدته المطولة « ذكرى الأربعين » التي يصف فيها تشييع جثمان الزعيم الراحل يقول (٢) :

موكب رمسيس لم يظفر به وهو مولى الخلق من بيض وجون

إذ لم يذكره سعد إلا برمسيس . وكان بوسعة أن يقرنه أيضاً بأبطال عظام من التاريخ الاسلامي والعربي الحافل ، بل ان المتوقع من العقاد وغيره ممن نظموا في سعد زغول أن يذكرهم اسمه في بعض الأحيان بسعد آخر هو ابن أبي وقاص أحد كبار الصحابة ومن اعلام العرب والاسلام ، في حين وجدنا الكثيرين ممن تناولوا مصطفى كمال أتاتورك في شعرهم فطنوا الى هذا الأمر برغم تركية أتاتورك ، فقد رأى فيه شوقي ملامح من ابن الوليد ونعمه بخالد الترك في قصيدته البائية ، كما خاطبه معروف الرصافي ناعماً إياه بسمي المصطفى ..

والواقع ان انقطاعاً نفسياً بين عدد من شعراء مصر وبين اجداد العرب

(١) ديوانه ٢٦٨

(٢) ديوان العقاد ٢٨٧

كأن يحدث بسبب طغيان التيار الفرعوني في أرض الكنانة ، وهذا محمود حماد  
يرحب في قصيدة له بالملك السابق فاروق فيشبهه بآمون مع ان اسمه من  
اسم عمر بن الخطاب (١) :

آمون اشرق يوم عيد الوادي ام ذاك فاروق المنار الهادي ..

وحين تزوج فاروق ملك مصر اشاد بهذه المناسبة عدد كبير من الشعراء  
واستبشروا بعدها خيراً لمصر ، ومنهم من جنح لخلق هالة من جو الفراعنة حول  
ذلك الملك علي نحو ما نظمهم ابراهيم مأمون إذ قال (٢) :

مهرجان على المشارق موف	يحشد الدهر رائعاً يتجمهر
خف في قدسه فراعنة الوا	دي نشاوى لخطا تدل وتفخر
وكان الوفود من « عين شمس »	ومن « الكرنك » المخلد تخطر
وكان الزفاف في طيبة المجد »	وحشد الجموع حول « الأقصر »
فانظر النيل والمواخر فيه	تلق دنيا من الزمان تنشر
تلق عرش الجلال من آل خوفو	ضاحي الحشدين جنود وعسكر
وتجد « إحمس » الجري يزجي	سفن المجد تستريد وتكثر
انظر السفن في الوشائع تترى	ان فيها « تحتمس » النيل يزأر

وهكذا نجد أن هذا التيار الجديد الطاغى قد غمر أكثر شعراء  
مصر آنذاك فأقبلوا عليه يعترفون من معينه بشغف ، ويصوغون من  
مفاخره ونسبه القصائد المطولة يشيدون فيها بتلك العهود الغابرة بكثير  
من الزهو والاعتداد .

(١) ديوانه ٣٥

(٢) انظر ( صحيفة دار العلوم ) عدد خاص بالزفاف الملكي ، مارس ١٩٣٨ ص ٢١

ويبدو أن الفترة التي عاشتها مصر آنذاك جعلت أمون ورمسيس  
 وخوفو وبتنور ورع وإيزيس أشد لصوقاً بنفوس عدد من الشعراء وأكثر  
 استهواء لمشاعرهم من ابن الوليد والمأمون والرشيد والمتنبى وصلاح الدين وابن  
 خلدون .. ويبدو أن هذه النغمات الجديدة لدى شعراء مصر كانت صدى  
 لانتشار تلك النزعة على ضفاف النيل تستمد العزة من ماضيه العريق .  
 ولسنا هنا بصدد الآراء المتطرفة التي كانت تصدر عن بعض الصحف والمحافل  
 في أرض الكنانة وتزعم أن وجود العرب في مصر لم يتعد كونه حقبة طارئة  
 أضيفت الى سلسلة طويلة من حلقات التاريخ المصري ، « وان مصر تعرضت  
 لغزوات الفاتحين من اجاش ويونان وفرنس ورومان وعرب وترك وإفرنج ولكنها  
 احتفظت بشخصيتها المصرية ، وأنه مضى على مصر أكثر من ألفين وثلاثمائة  
 سنة منذ ما فقدت استقلالها بنتها ، حكم الفراعنة » (١) . أو كما يدعي  
 آخر (٢) « أنه من الخطأ البين ان تقضم مصر في سلك البلاد العربية إذا تعلق  
 الأمر بالناحية القومية ، انها ورثت الاسلام واللغة من غزاتها ولكنها لم تكن  
 عربية قط !! .. »

فالحق ان الشعراء في مصر نجوا بصورة عامة من هذه المزالق ولم يبلغوا  
 هذا الحد من التطرف والأخذ بالنعرات الانطوائية ، إلا ان ظلاً من تلك  
 الآراء بدا في بعض ما نظموه من شعر على نحو ما نجده لدى محمد الأسمر او لدى  
 أحمد زكي أبي شادي الذي يقول مخاطباً مصر (٣) :

الفرس والرومان والعرب اکتفوا  
 لسمو دواتهم بأن عرفوك

- 
- (١) من محاضرة لمقرص باشا ، انظر المقتطف مارس ١٩٢٦ ، وانظر محمد حسن ،  
 الاتجاهات الوطنية ٢ ، ١٣٠  
 (٢) عبدالله عنان ، انظر ملحق السياسة الادبي ١٤ أكتوبر ١٩٣٢  
 (٣) مصريات ٥٩

فهُوَ يسلك العرب مع الفرس والرومان وأنهم جميعاً غزوا مصر ، وكأني  
بالشاعر يمتقد ضمناً أن العرب شيء والمصريين شيء آخر .

لقد كانت الدعوة الى خلق ( أدب قومي مصري ) تصادف هوى في  
نفوس الكتاب والشعراء ، وهي تطالب بأن تقوم نهضة مصر على بعث المجد  
الفرعوني القديم مثلما قامت النهضة الأوربية الحديثة على بعث المجد اليوناني  
واللاتيني (١) دون أن يتناول هذا الأدب المصري الجديد حياة الشرق العربي  
أو البلاد الشقيقة المجاورة . وبلغ الامر ببعضهم حد المطالبة بقصم عرا الجامعة  
اللغوية والاعتماد على المبهجات المحلية لأن العربية سائرة الى الانقراض ولا تصلح  
لغة للحياة ، كما آلت إليه حال اللاتينية ، وأن على كل قطر أن يقوى لهجته المحلية  
لتكون لنته القومية كما صنعت فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ...

وقد كادت النزعة الفرعونية تبلغ لدى بعض الشعراء حد الالتزام بفضل  
الجهود الدائبة التي بذلها عدد من الكتاب والصحفيين والمحاضرين والخطباء حتى  
بلغت آثارها جهاز الدولة الرسمي فيما بدا من مياسم فرعونية على منشآتها ونقودها  
وطوابع بريدها ونصها . إذ لم يكن يخلو ديوان شاعر من التفاخر بأبجداد  
الفراعنة وآثارهم . وقد أصدر أحمد زكي ابوشادي ديواناً خاصاً عام ١٩٣٤ اسماه  
« وطن الفراعنة » ويقصد به مصر . اهداه « الى القومية المصرية وحماتها » وهو  
يشتمل على بضعة عشرة قصيدة تدور جميعها حول التاريخ المصري القديم  
وتستمد مادتها منه باستثناء قصيدة واحدة من التاريخ العربي وصف فيها  
قلعة صلاح الدين . وفي هذا الديوان إشادة بالغة بالأهرام وبناتها ، وابي  
المول ووادي الملوك ومعبد حتاسو والكرنك الخ ... وبالإضافة الى ان  
القصائد المذكورة تبدو عليها وطأة النظم ويبدو خيالها محدوداً ، فلها

---

(١) السياسة الاسبوعية ، ١٧ ديسمبر ١٩٢٧ ، والاتجاهات الوطنية ٢ ، ١٣٦

محشوة بالأسماء الفرعونية الغربية على اللغة العربية ، وهي في الواقع إحدى ثمار التأثير البالغ لتلك النعرة القومية المتطرفة ، ويحسن بنا ان نستمع الى رأي ابي شادي نفسه في ديوانه هذا حيث يقول (١) : « اجتهدت في اختيار مواضيع متنوعة مرتبطة بتاريخ مصر القديم وبجياتها الاجتماعية ، وبنهضتها الحديثة ، فمن حق الأدب القومي ان نحفل بالمواضيع القومية الصحيحة . ومهما كانت عنايتنا بتاريخ العرب فان ابلغ حفاوتنا بالأدب المصري من حق وطننا علينا ، فلا خير في قصر عناية الطالب المصري على بغداد ودمشق وقرطبة وطليطلة او في إغفاله وادي الملوك ومعبد حاتاسو وبقايا العظمة المدهشة لمصر القديمة »

وعلى هذا النحو بعثت روح مصر القديمة بوجهها الفرعوني في مختلف مظاهر النشاط المعاري والفني . ولم ينبج من هذا التيار شاعر سوري اقام في مصر هو خليل مطران الذي نظم في الموضوع عدة قصائد منها « نشيد عنخ آمون » وفيه يقول (٢) :

انا ( فرعون ) ، انا ( توتانمون )  
صاحب التاجين من ابناء ( را )

كما اشاد مطران ايضا بتمثال نهضة مصر وتعني بالهرم في ابيات وقصائد اخرى .

وبوسعنا بعد ذلك ان نحكم على ضوء ما تقدم من شواهد في هذا المجال بقولنا ان النزعة الفرعونية لم تكن لتبلغ في قصائد الشعراء بصورة عامة حد التبشير المذهبي بالنعرة الانفصالية المتطرفة ، بل كانت لا تعدو حدود التفاخر بالماضي العريق في مرحلة من تكوين شخصية مصر القومية التي بهرتها المكتشفات

(١) ص ٧٦

(٢) ديوانه ١٦٦

الرائعة واعادت إليها ثقمتها بنفسها وقوت قدرتها على شق طريقها في الحياة .

على اننا لا نكاد نجد لدى شعراء مصر في مقابل ذلك — وإن كنا نجد لدى بعض كتابها (١) — تنديدا قويا بهذه النعرة الفرعونية المتطرفة نحو قطع الصلة بالعروبة ومحاولة تغيير وجه مصر الحقيقي . وثمة ابيات قليلة نظمها الشاعر السواداني حسين المنصور في مرض تنديده باتجاه أحمد شوقي في قصائده الوطنية يقول فيها (٢) :

العرب تبغي شاعراً متمسراً      يزجي القريض الثائر الوجداني  
أيصح مدحك فترة وثنية      وإشادة بهياكل ومباني  
ما توت عنخ وغيره ، ودمائهم      ان تبغها لم تبسق في شريان

والواقع أن التنديد بالنعرة الفرعونية لم يصدر عن شعراء مصر وإنما صدر عن شعراء الشام والعراق بالدرجة الأولى إذ أنهم أدركوا خطر تلك الدعوة المنحرفة التي كانت ترمي الى إبعاد مصر عن شقيقتها ؛ فقد كانت أرض الكنانة معقد رجائهم وقبلة أمانهم ، وهذا معروف الرصافي يؤكد عروبة مصر بقوله (٣) :

إني أرى مصر والتاريخ يشهد لي      تحيا بعرق بها من ضمضيء العرب  
وليس فرعونها ممن يشط به      بعد عن العرب العرباء في النسب

---

(١) كان محمد علي علوبة وعبد الرحمن عزام وعلي العائني في طليعة دعاة الجامعة العربية ومناوئي الدعوة الفرعونية . وقد التقوا في ذلك مع دعاة الجامعة الاسلامية أمثال محمد عبده ومحمد رشيد رضا وشكيت أرسلان وسواهم .

(٢) الشاطيء الصخري ١٥٠

(٣) انظر الابيات في كتاب « معروف الرصافي » لمصطفى علي ص ١٢٩ ، ولم ترد في الديوان .

يت للعرب ماضيها وحاضرها بنسبة غضة في المجد والحسب

وعندما استفحل أمر الدعوة الى « ضرورة خلق أدب قومي يكون مستقلا عن آداب الشعوب الشرقية الاخرى الناطقة بالضاد معبراً عن نفسية المصريين وشعورهم ، تصدى الرصافي لأولئك الدعاة في قصيدة أسماها « التعصب الوطني للآداب » وقال فيها (١) :

من جور مصر على العروبة أنها	تعمد التمصير في آدابها
من أين كانت مصر في أقباطها	كمواطن الأعراب في أعرابها
أبت العروبة أن يفوق هزارها	صرد زقي في مصر زقي غرابها

وقد دأب شعراء الشام وخطبائها وزعمائها على إثارة الموضوع كلما سنحت لهم الفرص ، من ذلك ما فعله شفيق جبري في قصيدته عندما زار أمير الشعراء دمشق عام ١٩٢٥ ، إذ أشار فيها الى انحراف عدد من رجال مصر عن العروبة وناشدهم التمسك بجبالها (٢) :

كيفان تضرب العروبة فيهما	حتى تجول على السنين مجالها
لو تشككي مصر أذى بشمالها	بترت ربوع الغوطتين شمالها
بالله بالقرآن بالبيت الذي	قذفت اليه جرم أبطالها
لا تقطعوا صلة العروبة بيننا	حتى ندل على اللغى إدلالها
ماذا بمصر وكلنا ظمىء الى	مصر يناجي أهلها ورجلها

وقد جدد شفيق جبري القول في عروبة مصر بعبارات أشد وطأة على

(١) ديوانه ١٧٢

(٢) مجلة الجمع العلمي العربي بدمشق م ٥ ، ج ٨ ، ص ٣٨٨

أثر زيارة حافظ إبراهيم لدمشق عام ١٩٢٩ فقال في حفلة تكريمه (١) :

إذا بكت جنات النيل من ألم  
أواصر بيان العرب محكمة  
أرى رجالاً على الأهرام دينهم  
تكبوا عن صميم العرب واعتصموا  
لكن مصر وإن هشت وإن عبت  
ركن العروبة للقاصي والداني  
بكت دمشق بدمع منه هتان  
النيل والشام في الآلام صنوان  
حل الأواصر من طي وشيبان  
بجبل رمسيس أحداً بأحدان

وقد أزرى إيليا أبو ماضي بينة الأهرام من حيث كان ذلك مبعث افتخار  
لا حد له عند المصريين فقال (٢) :

بنى الأهرام ( فرعون ) فدامت      لتخبر كيف كان الظالمونا

وهذه النظرة من أبي ماضي ربما كان مردها إلى منزع الشاعر الانساني  
ونفوره من العنف والاستبداد والسخرية ، وهي من ناحية أخرى تماثل  
ما كان يصدر عن إبراهيم عبد القادر المازني واحمد حسن الزيات وعدد من كتاب  
مصر في هذا الصدد نحو آثار الفراعنة وما توحيه من جبروت .

والواقع ان هذه القصائد وامثالها لم تكن سوى رد فعل معتدل تجاه  
بعض دعاة الفرعونية الذين تطرفوا في دعوتهم إلى حد انكار كل صلة لمصر بالعروبة  
حتى كادوا على حد قول احمد حسن الزيات « يجعلون المآذن مسلات ،  
والمساجد معابد ، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة » واعتقدوا ان  
الرابطة المكانية او رابطة الأرض وحدها تكفي لايجاد صلة بين الشعوب .

(١) ذكرى الشاعر بن ١٩١

(٢) الجمائل ١٢٣



وكانت طائفة من الكتاب ترى ان مصر الحديثة اقرب الى مصر الفرعونية منها الى جاراتها العربيات ، كانت طائفة اخرى تعتقد ان مصر اقرب الى اليونان ، وكانت طائفة ثالثة تعتبرها ألصق بأوروبا ، وقد التقوا جميعاً في ابعاد الطابع العربي عن مصر (١) .

ومن الحق ان نقول إن الشعراء في مصر لم يبلغوا في نزعتهم الفرعونية المدى الذي بلغه كتابها في تطرفهم ، ومعظمهم اشاد بها باعتبارها تراثاً وعصراً وحقبة من التاريخ لا على انها جنس او قومية ، وربما كانت طبيعة الشعر وقوابله وقوافيه من جهة ، وعمق جذور الثقافة العربية في نفوس الشعراء من جهة اخرى خير ما عصم الشعر في مصر من الانزلاق البعيد نحو تلك الآراء المتطرفة وجعله يتسم في معظم الأحيان بالمحافظة والاتزان ، ولا يفسح صدره للنعرات الخلية والدعوات العربية الا بصعوبة وبمقدار .

وكان لشعراء الجامعة الاسلامية فضل كبير في حصر تيار الفرعونية وعدم استفحال امره في الشعر (٢) ، صحيح انهم لم يتصدوا للتنديد به كما كان متوقفاً منهم ، وذلك لأن الرياح لم تكن آنذاك تهب معهم ، الا انهم بنتيجة لزوائهم في هذه الفترة بعد ان فقدوا خلافتهم ، ظلوا معصومين من الانجراف في هذا التيار الذي وجدوا فيه تعلقاً بوثنية عريقة تغاير عقيدتهم الاسلامية السامية ، وكان من ابرزهم احمد محرم ومحمد عبد المطلب . وكذلك فان الذين تخرجوا في دار العلوم عصمتهم ثقافتهم العربية والاسلامية بصورة عامة من الانزلاق نحو الفرعونية المتطرفة ، ومن هؤلاء محمود غنيم وعلي الجندي وغيرها .

---

(١) الملاحظ أن الدعوة الى الفرعونية تبناها حزب الاحرار الدستوريين وعلي الاصح بعض أعضاء هذا الحزب وكانت جريدة السياسة منبراً لأرائهم .

(٢) كان لصحيفة المنار لمحمد رشيد رضا ورفاقه من حملة الفكرة الاسلامية أثر فعال في مناهضة المعرات الانطوائية .

وقد وجدنا بين شعراء مصر من اتسم باعتدال نظرته الى ماضي مصر وتاريخها فاعتز بالعرب والفراغة على السواء دون ان يصدر في ذلك عن دعوة مذهبية معينة ، وقد عبر على الجندي عن هذا الاتجاه في بعض ابياته فقال (١) :

نحن جند النيل ابناء الفدا      ورجال الحرب أبطال الكفاح  
من فراعين ومن عرب كرام      يومئذ الناس إليهم بالسجود

وصدر عن الاتجاه نفسه على أحمد باكثير بتفهم ووعي لمعضلة الازدواج في تراث مصر الحضاري فقال على لسان أحد شخوص مسرحياته (٢) :

أبوكم أبي يوم التفاخر يعرب      وجدكم فرعون أضحى بكم جدي

وهكذا نرى عزوف عدد من الشعراء عن حدة الدعوات المذهبية وتطرف النعرات الانفصالية وحرصهم على المؤاخاة بين هذين العنصرين العريقين في تراث مصر العربي والفرعوني والتأليف بينهما في وحدة متماسكة منسجمة. ومما نلاحظه في هذا الصدد أن الكثيرين من الشعراء الذين افتتوا بالفرعونية كانوا هم أنفسهم — شأن كثير من الكتاب أيضاً — في طبيعة المبشرين بالعروبة، نذكر منهم أحمد شوقي وحافظاً وأبا شادي . . مما يدل على الصفة العارضة للدعوة الفرعونية التي ازدهرت على ضفاف النيل في وقت من الأوقات .

وجملة القول إن الشعر العربي في مصر ظل عربي الاسان والهوى ، وقد عاقت به بعض الشوائب الى حين ، ولكنه بفضل ما اتسم به من أصالة استطاع أن يتخلص منها بعد ذلك ويسير قدماً في الاتجاه العربي السليم .

(١) ألحان الاصيل ٥ :

(٢) أنظر في المسرحية ٢ :

ان النزعة الفرعونية لم تكن النزعة الوحيدة من نوعها في العالم العربي بل كانت الى جانبها نزعات أخرى كاللدعوة الفينيقية التي قامت في لبنان والدعوة الآشورية في العراق . وقد ظهرت هذه الدعوات في فترات متقاربة بعد انتهاء الحرب الأولى ووقوع بلاد العرب في قبضة المستعمرين الذين شجعوا هذا الاتجاه الجديد وحرصوا على دعمه بسترار من الابحاث العلمية والمكتشفات الاثرية أملا في تثبيت وحدة العرب عن طريق خلق كيانات منفصلة متميزة في الوطن العربي .

والواقع أن جميع هذه النزعات كانت من طبيعة واحدة تعبر عن اتجاه فكري واحد وتستلهم مقوماتها من معين واحد هو ذلك الماضي السحيق السابق لوجود الكيان العربي . ويؤيد ذلك ما كتبه محمد حسين هيكل بعنوان « حاضر لا ماضي له ، لا مستقبل له » (١) إذ قال إنه حين يدعو المصريين الى هذا الاتجاه انها يراه واجباً قومياً يجب أدائه في البلاد المختلفة بالدعوة الى مثله ، وأضاف قوله « .. إن تطبيق هذه الفكرة في بلاد الشرق العربي يؤدي الى نتيجة هي خير النتائج ، وبودي أن يصل أهل الشام حاضرهم بماضيهم منذ عهد الفينيقيين ، والى أن يصل أهل العراق حاضرهم بماضيهم الى عهد آشور وبابل . »

( ) انظر ملحق السياسة الاسبوعية ٢٩ سبتمبر ١٩٣٣

وكان منطلق هذه النزعة في الساحل السوري ذلك الشعار  
 البراق « سورية لسوريين » كما كان منطلق الفرعونية في أرض الكنانة  
 الشعار المماثل « مصر المصريين » على أن السوريين في نظر دعاة الفينيقية  
 وفيهم جماعة الحزب القومي الاجتماعي - انما هم أمة متميزة تعبير الأمة  
 العربية وأنهم بالتالي ليسوا جزءاً منها ، لانهم كما يزعمون يرجعون  
 بنسبهم الى السوريين القدماء ويعنون الفينيقيين . وكان طبيعياً ان تستهوى  
 الدعوة الفينيقية (١) بعض اللبنانيين بعد أن وجدت الظروف مواتية لها  
 في هذا البلد الصغير الذي كان عرضة لمجازر طائفية منذ مأساة ١٨٦٠ في  
 ظل حكم عثماني فاسد كان قوامه التعصب والبؤس ، ما سمح للمستعمرين بدس  
 أنوفهم في شؤونه . وقد دأب الفرنسيون على بعث الماضي الفينيقي والحثي في بلاد  
 الشام عن طريق كتابة تاريخ جديد لها والكشف عن آثارها الدفينة أسوة بما  
 فعله الانكليز في مصر (٢) . واستطاعت فرنسا أن تنفذ الى مشاعر اللبنانيين عن طريق  
 الطائفية المستحكمة بينهم بلباهم الموارد بأنهم ليسوا من العرب وإنما هم احفاد المردة  
 القدماء وأن لبنان من أرومة فينيقية ، وأن القومية العربية فكرة إسلامية ترمي  
 الى التسلط على المسيحيين .. (٣) حتى خيل الى بعض اللبنانيين أن العروبة دعوة  
 رجعية قوامها العودة الى الصحراء ، وأن مصلحة لبنان هي في الاتجاه نحو الغرب  
 الاوربي وقطع صلته بكل ما هو عربي . ونجح عن ذلك قيام منظمات آمن بعضها  
 بالكيان اللبناني الخاص وشخصيته المتميزة ، وخشي عليه أن يذوب في كيانات  
 اخري اكثر اتساعا كالكيان العربي أو الاسلامي كما آمن بعضها الآخر بالكيان  
 السوري بشطريه الساحلي والداخلي لاحتوائه أمة متميزة .

(١) ذكر عبد الله نحاس في كتابه ( الفينيقيون ) أن فينيقية لفظ أطلقه اليونان على هذه  
 البقعة الضيقة من ارض الكنعانيين الواقعة عند سفح جبال لبنان على ساحل البحر وهي التي  
 كانت لسفنها مملكة البحار ألوفاً من السنين قبل التاريخ الميلادي ، والفينيقيون خبط من  
 الكنعانيين والآراميين

(٢) انظر محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ١٢٦

(٣) انظر الامير مصطفى الشهابي ، الفوهية العربية ١٥٨

ففي المهجر الامريكى الشمالي تألفت جماعة من الادباء المغتربين أسمت نفسها (لجنة تحرير سورية ولبنان) وكان جبران خليل جبران ومخائيل نعيمة ونسيب عريضة من أبرز أعضائها ، وكان من مبادئها قيام حكومات محلية في سورية تحت رعاية فرنسة وحماتها (١) « وأصدرت هذه اللجنة لتأييد اتجاهها بحثاً تاريخياً يثبت أن السوريين هم من أصل سرياني فينيقي مع خليط يوناني وروماني وعربي » (٢) وقد رفعت اللجنة التي شكلها أولئك الأدباء مذكرة الى مؤتمر الصلح جاء فيها (٣) « أن السوريين ليسوا بعرب ، واللغة العربية التي يتكلمون بها اضطرهم الفاتحون الى استعمالها بدلا من اللغتين الآرامية الوطنية واليونانية اللتين كانتا اللسان الشائع في البلاد السورية ».

ومن أبرز مظاهر تلك العرة أيضاً ما نجده في مقال نشره شكرى غانم وهو في باريس تبرأ فيه من العروبة كما برأ اللبنانيين من الأمة العربية وقال (٤) : « إننا معاشر السوريين أو اللبنانيين لسنا بعرب وإن تكلمنا بالعربية وانما نحن فينيقيون » وكان ذلك منه على أثر قيام أول حكومة عربية في الشام بعد جلاء العثمانيين . وقريب من ذلك ما كان يصدر عن أقلام كتاب آخرين ، فقد كانت العروبة غمّة عند جبران وضائعة في الشرقية ، ومن قوله (٥) « علينا أن نحافظ على صبغتنا السورية » ..

واذا رحنا نتبّع اصداء هذه الوطنية المحلية في الشعر بعد أن آلت في كثير من الأحيان الى عرة انفصالية ضيقة لم نكد نجد أكثر من شذرات متفرقة . ومرد ذلك فيما يبدو الى غلبة طابع السياسة والجدل على هذه الآراء . ولنشوء

(١) انظر عبدالكريم الاشر : النثر وفنونه في المهجر الشمالي ١ : ١٥٣

(٢) انظر ذلك مفصلاً في المرجع السابق ١ : ١٥٠ - ١٥٧

(٣) انظر المرجع السابق نقلاً عن السائح عدد ٣ تموز ١٩١٩

(٤) انظر ديوان معروف الرصافي ، اذامش ١٧ :

(٥) الهلال سنة ١٩٣٤ عدد مارس ٥١٤

هذه النعرات بصورة عامة في بلاد نائية عن الوطن العربي . ولعل معروف الرصافي الذي دأب على العمل السياسي في تلك الحقبة من حياته في طليعة المتربصين بما يحاك حول القضية العربية ، ومن قبل سلق مؤتمر باريس الذي عقده لفيف من رجالات العرب قبيل الحرب الأولى بلسان حديد لاحتوائه عناصر لا يوثق بوطنيتها ولا اختياره العمل في عاصمة دولة أجنبية لا تخفى مطامعها في بلاد الشام على أحد . وقد تصدى من جديد لمقالة شكري غانم آنفة الذكر - وكان هذا أحد أعضاء المؤتمر البارزين - بقصيدة أمتاها ( صبح الأماني ) فند فيها دعواه كما نافح عن العهد الجديد في دمشق . وكان مما قاله معرضاً بأولئك المارقين من عربتهم (١) :

وهل حسبوا أن العروبة في الورى من العر حتى أنكروا ذلك العرا

ومن الملاحظ أن الدعوة الفينيقية بحكم طبيعتها المحلية - شأن الدعوة الفرعونية - انحصر أمرها في لبنان دون أن تقيم وزناً للروابط الواشجة بينها وبين سائر الأقطار العربية ، فلم تكن هذه الروابط في اعتقادها تعدو رابطة الجوار . أما اللغة فليست مقوما قومياً بالضرورة . ومن هنا كان القوميون العرب يجدون في أمثال هذه الدعوات خطراً على كياناتهم لأن أصحابها لا يعدون أنفسهم عرباً . وقد وجد خليل مردم بك في أمثال هذه الدعوات حرباً على العروبة ، ولا تختلف في جوهرها عن مؤامرة التتريك التي حاول حزب الاتحاد والترقي التركي فرضها على العرب قبيل الحرب الأولى وإبانها . وفي ذلك يقول مخاطباً دمشق مشيداً برسوخ عروبتها تجاه كل هذه الأخطار :

وظللت خالصة العروبة حينما أخذت بنوك بمحنة التتريك  
وتطهرت أنساب من قطنوك من دعوى أخي السريان والفينيكي

(١) ديوانه ١٧٤ ، والعمر : مرض الجرب يصيب الإبل

ولقد بلغ الأمر بخير الدين الزركلي حداً جعله يربط بين هذه النعرة وبين الخيانة في معرض تنديده بفرقة ( القناسة ) التي جندها الفرنسيون من بعض المرتزقة في لبنان لقمع الحركات الوطنية فقال (١) :

لبس ما ادخرت في الروع من لباس	قناسة الشؤم ماذا في كنانها
هيجوا فهاجوا على آساد أخياس	ما إن رأيت سلوكين قلبهم
وساقهم فمضوا مهراز نخاس	دعاهم فعضوا داعي مواطنهم
وإن أبيت فما في الأمر من لباس	الله يعلم أنا كلنا عرب
إلى عناصر لم تخلق وأجتاس	كونوا سلائل (فينيق) أو اتسبوا

وهكذا نتبين من خلال أبيات مردم ثم الزركلي مبلغ الحساسية الشديدة لدى شعراء دمشق تجاه الدعوة الفينيقية ، كما لمسنا ذلك لديهم من قبل تجاه الدعوة الفرعونية . وهذا يعكس بوضوح مشاعر السوريين بصورة عامة تجاه كل نعرة لا تتفق والعروبة . يضاف الى ذلك أن لبنان كان في جميع العهود شطراً من سورية ، فكل ازدهار للطائفية أو الفينيقية فيه يعنى الابتعاد عن حظيرة العرب والتقاطع بين هذين التوعمين ، وفي ذلك أكبر خطر يهدم دعائم الوحدة العربية المنشودة التي كان السوريون في طلائع دعائها .

أما عوامل ظهور هذا التيار الوطني في لبنان الذي انقلب سريعاً الى نعرة هدامة وعدم تسربه الى سائر أجزاء الشام فهي أن سفوح جبال لبنان وسواحلها كانت موطن الفينيقيين قديماً ومنطلقهم نحو الغرب عبر البحار . والعامل الآخر نجم عن ضعف إيمان عدد من الموارنة اللبنانيين بالعروبة وشكوكهم في أن تكون قناعاً للجماعة الاسلامية التي لقي لبنان من جرائمها الأمرين في العهد

(١) ديوان الثورة ١٠٨

العثماني . وهكذا كانت الفينيقية صنو الطائفية ترتكز إليها وتتسع باتساعها وكان المهجر — وهو امتداد ثقافي وفكري واجتماعي للبنان — الموئل الآخر لهذه النعرات التي انتقلت مع أبنائه الى العالم الجديد واستثمرت فيه .

ويعد إلياس فرحات ورشيد سليم الخوري من شعراء المهجر في مقدمة من زادوا عن الاتجاه القومي السليم ونددوا بتلك الآراء المنحرفة ؛ فقد ألمح الشاعر القروي في مقدمة ديوانه الكبير الى خطر تلك النعرة الاقليمية الضيقة فقال (١) : « يا فتيان العرب ، لقد كثر بينكم قادة عمه يوقعون في قلوبكم أنكم لستم عرباً فيضلونكم عن أنفسكم ، ويتمسفون بكم كل طامسء ؛ إن عروبتكم لن تجحد فضل أقاليمكم ولكن أقلمتكم تخسركم عز العروبة وأيدها وغنمها » .

وفي موشح « تحية إلى الاندلس » لإلياس فرحات غمزة خاطفة بدعاة الفينيقية حيث يقول (٢) :

يا ابنة الزهراء يا أندلسية      إن من أجدادك العرب بقية  
لم تزل شامخة الرأس أبية      لم تفرقها مساع أجنبية  
لم (تثنيها) دواع مذهبية

فهو يقرن الفينيقية مع المحاولات الاستعمارية ، ويرى فيها جميعاً خطراً على العروبة . ونستنتج من قصيدة أخرى لفرحات أيضاً وجهها « الى عرب سان بلولو ، أن عددا من دعاة الفينيقية قد بلغوا المهجر ونشطوا في نفث سموم دعوتهم هناك ، وها هو ذا يحذر من الخطر الماحق فيقول (٣) :

(١) المقدمة ط ن

(٢) ديوانه ٢١٠

(٣) ديوانه ١٢٢



بني بلد البن اللذيذ شرابه  
سمعت بأن الارقم الصل زاركم  
وان جراثيم (التفينق) أوشكت  
حذار فهذا الداء صعب شفاؤه  
ويا من رأوا نور العروبة ساطعاً  
لينفت سماً بين شذقيه ناقعاً  
تد إليكم في الظلام الاصابعا  
ولا تجوجوني أن أعد المياضعا

وتعتبر قصيدة « حيرام حيرام » لفرحات أقوى ما قاله شاعر عربي في التصدي للدعوة الفينيقية وتفتيدها بعد أن اشتد ساعد أنصارها في لبنان أملاً في اضافة صفة القداسة على حدوده المصطنعة مع جيرانه العرب والتمهيد لسلسلته عن عرويته . ومن هذه الايات قوله (١) :

قوم لقد انكروا جهلاً أرومتهم  
لولا التعصب كانوا كلهم عرباً  
هذا التفينق للتفريق أوجده  
وكيف لا يحذر الباغي إذا اجتمعت  
فليعلم نفر الغاؤون أنهم  
ما كل من حملت أرض ذوى رحم  
مستمسكين يقوم ما لهم أثر  
فلتمناً العرب لم يعلق بها الوضر  
عات يبغضه بالوحدة الحذر  
تحت اليبارق بدو العرب والحضر  
ضلوا السبيل الى العلياء فانحدروا  
لبنان ينبت فيه الارز والجزر

والطريف في هذه القصيدة أن الشاعر نفسه يفتخر فيما يلي من أبياتها بأجداد الفينيقيين على أنها جزء من التراث الكبير الذي آل الى لبنان ولكنه يربأ بهذه الاجماد أن يستغلها ويدنسها أناس تحوم حول وطنيتهم الريب والشكوك :

إنا نضن بمجد السابقين الى  
الراكبين فحول الموج مزبدة  
نشر الحضارة يغشى صفوه الكدر  
ايام لم يك يعالو ظهرها بشر

(١) ديوانه ٢٠٧

ما ذنبهم وهم الاحرار يكسبهم      دعوى العبيد هو انا بعدما اندثروا  
 حيرام حيرام والأيام عادلة      لو كنت حياً لكنت اليوم تتحجر  
 يعني الدعوى العالي وهي شاهدة      إن الدعوى على اضلاعها حجر

وبالاجمال فقد رأى الشعراء وبخاصة في سورية أن الدعوة الفينيقية التي  
 كانت تلقى التأييد من فرنسة خطر يهدد العرب ويزيدهم انقساماً .

ولهذا كان معظم ما مر بنا آنفاً من الأشعار حول هذا الموضوع  
 يتسم بطابع السلبية والعنف الذي بدا في استنكار هذا الاتجاه الاقليمي  
 الضيق والتصدي لدعائه .

على أنه لا بد من القول ان الساحل اللبناني كان محط هجرات  
 عديدة منذ ما قبل التاريخ . وفي ذلك يقول الدكتور قسطنطين زريق (١) :  
 « لقد تتابعت بعدئذ هذه الموجات خلال العصور التاريخية القديمة والوسطى وكان مهبداها  
 جميعاً — من فينيقية وسواها — الجزيرة العربية . وهذه حقيقة يجب ان نذكرها  
 ونسبر معناها . ان تسرب العنصر العربي الى لبنان لم يتقطع منذ ما قبل الاسلام ،  
 فقد نزحت الى لبنان قبائل عربية معروفة كعامله في الجنوب وتيم الله بن ثعلبة  
 في وادي التيم وتنوخ في الشال . وقد جاء في كتاب البلدان لليعقوب بن ابي  
 الجاور لصيداء كان يسكنه قوم من قريش ومن أهل اليمن »

وعلى ذلك لا مجال لوسم الفترة الفينيقية من تاريخ هذا البلد بأنها منافية  
 في طبيعتها للعروبة وجعلها نزعة مقابلة لها متعارضة معها . كما لم يكن ثمة سبب  
 منطقي يضمني على الحقبة الفرعونية من تاريخ مصر هذا الطابع المذهبي الذي

---

(١) الوحي القومي ١٠٢

أبتدعه بعض الباحثين أو السياسيين عن قصد أو دونما قصد ، فكلمتا الحقيبتين ذات تراث أصيل ومجد مؤثر انبتته هذه الأرض الطيبة وتوارثته أهلها العرب جيلا بعد جيل .

« والواقع ان الفينيقيين الذين كانوا اول المستوطنين للساحل اللبناني ، حيث بنوا حضارة مزدهرة مؤسسة على التجارة البحرية ، زالوا وزالت معهم لغتهم وحضارتهم قبل العصر المسيحي . وقد خلقت خرافة الفينيقية لمواجهة الاتجاه نحو الوحدة العربية . ولكن لما كانت فكرة مصطنعة فانها سرعان ما تلاشت » (١)

وقد دأب عدد من الباحثين والأدباء على إبراز الشخصية اللبنانية أو الشخصية السورية بشكل متميز ومن أولئك أنطون سعادة وسعيد عقل الذي يعتبر (٢) « أن شخصية لبنان من مجموعة أربع بؤر عقلية : من صيدون الموغلة في القدم ، والتي تعاصر موسى والفراعنة ، الى القدس حيث اشعاع يسوع ، فأنتطا كمية حضارة اليونان والرومان ، حتى عهد دمشق ودخول العرب باب التاريخ . »

وكما كانت الحفريات تمد دعاة الفرعونية بنسخ الحياة من حين الى آخر كذلك كان الشأن في لبنان وسورية ، إذ كان لمكتشفات رأس شمرة وسواها أثر بالغ في تعزيز النظرية القومية السورية ، وفي ذلك يقول زعيم الحزب القومي السوري الاجتماعي أنطون سعادة (٣) « ما يعيننا في هذا الموضوع من اكتشافات رأس شمرا هو القوائد والملاحم الرائعة التي تثبت بدون شك أن الشعر الكلاسيكي ابتداءً في سورية وعنه نقل الأغرريق الذين

(١) نجلاء عز الدين : العالم العربي ٥٧ ،

(٢) قدموس (المقدمة) .

(٣) الصراع الفكري في الادب السوري ٨٢

تعاونوا هم والرومان على غمط سورية حقها في الابداع الفني وقيادة الفكر الانساني .»

ويحاول سعادة وضع أسس أدب سوري جديد على نمط المحاولات التي دعا اليها بعض المصريين فيهب بالشعراء أن يطلعوا على هذه الكنوز الروحية الثمينة ليزدادوا يقيناً بحقيقة نظرهم الى أن يقول (١) : « الآن أخطب أنا جميع شعراء سورية قائلاً تعالوا نأخذ بنظرة الى الحياة والكون والفن نقدر على ضوءها أن نبعث حقيقتنا الجميلة العظيمة من مرقدها . لقد نتج عن هذه النظرات الجديدة في سورية مجرى حياة جديد لتيسارات النفس السورية التي كانت مكبوتة ومحجوزة ، فهل يتنبه لهذه الحقيقة أدباء سورية وخصوصاً شعرائها ويلبسون الدعوة .. »

وقد آتت هذه النداءات كلها فظهرت بوادر الاستجابة لدى عدد ضئيل من الأدباء الذين فرعوا الى تلك العبود الغائرة يستمدون من اساطيرها ادباً جديداً متميزاً وفي مقدمتهم سعيد عقل الذي اصدر مسرحيتين في هذا المجال هما : « بنت يفتاح » و « قدموس » . وقد بلغت منه نزع الاستعلاء حداً جعلته يصف رسالة لبنان بأنها « رسالة فذة تخولنا لبسنة العالم » (٢) .

ومع ذلك لم تبلغ النعرة الفينيقية لدى الشعراء في لبنان ما بلغته لدى بعض ساستها وكتابها من التطرف . لقد تجرأ مثلاً شكري غانم وأمثاله على القول بأنهم فينيقيون وليسوا بعرب ، وردد جماعة من قادة الحزب القومي الاجتماعي أو الحزب القومي السوري كما كان يسمى نفسه في العديد من صحفهم ومحافلهم بأن السوريين أمة متميزة وأن العروبة مرض نفسي شوه العقل

(١) الصراع الفكري في الادب السوري ٨٦

(٢) مقدمة قدموس ٢٢

السوري ودعوة رجعية مرادفة للبدأوة والعودة للصحراء وأنها قنّاع يتستر به دعاة الطائفية الاسلامية ، وان الوحدة العربية ليست سوى هذيان من العروبيين « (١) إلا أن الشعر كما كان شأنه في مصر أيضاً لم يفتح صدره لمثل هذه الآراء الهدامة .

ومما تجدر ملاحظته أن ماسبق من القصائد والمقطوعات يكاد يكون جل ما نظمه الشعراء بصدد هذا المذهب السياسي الذي لم يكن يتفق في دعوتيه والاتجاه العربي السائد . ولكن الاعتماد على الغابر الفينيقي وربط حاضر الأمة وشخصيتها به ، وجعل ذلك قومية متميزة أمر يخلف كثيراً عن النظرة إلى ذلك الغابر من حيث أنه تراث عريق فحسب يضاف الى سفر الأجداد الحافل الذي آل إلى العرب المعاصرين ، وعندئذ تغدو الفينيقية والفرعونية وسواهما كسباً للكيان العربي الراهن ورافداً قومياً عريقاً يسهم بصورة فعالة في توضيح معالم الشخصية العربية وتوكيد أصالتها .

وعلى هذا السبيل مضى أكثر ما نظمه الشعراء في ذلك الموضوع ، وهو على قلته لم يكن يعدو في غالب الأحيان نطاق التفاخر ، من ذلك ما نجده في قول إيليا أبي ماضي إذ يبرر هجرته وإخوانه من لبنان (٢):

لبنان لا تعذل بنيك إذا هم  
ركبوا إلى العلياء كل سفين  
ورثوا اقتحام البحر عن فينيقيا  
أم الثقافة مصدر التمدين

(١) انظر كتاب : المالكي - رجل وقضية ٨٧

(٢) الجمائل ١٠٠

فالأشادة بعظمة الفينيقيين كانت محور تفاخر الشعراء (١) وأكثر ما أنصب هذا التفاخر على أمرين : عظمة دولتهم البحرية وأسبقيتهم الى ابتكار حروف الهجاء . وقد أشاد شكر الله الجر بهاتين الصفتين البارزتين فقال (٢) :

من شعاع البدر والشمس كساء	وشطوط نسج السحر لها
يوم كانت من بني الدنيا عفاء	عمرت في سالف الدهر بنا
لا يزالون مع الفتح بلاء	في غزاة من بني فينيقيا
منشآت كن للمجد وطاء	روضوا البحر وشادوا فوقه
صانه التخليد في حرف الهجاء	خلفوا في كل أرض أثراً

ومما قاله الشاعر نفسه مشيداً بتلك الأجداد السالفة ، قصيدته « على خرائب بيلس » وهي مدينة جبيل الفينيقية على الساحل اللبناني (٣) :

خالد في جلائل الآثار	أي شعب كشمعك الجبار
عابثا بالخطوب والأخطار	ضارباً في جوانب الأرض زهوا
هازئات بالموج والاعصار	ناشراً في بحارها منشآت
من حصون وشاده من ديار	أعجز الأرض كلها ما بناه

( ) أنظر تفاصيل تاريخ الفينيقيين ودورهم الحضاري في كتاب « فينيقية » للاستاذ فاك وقد ترجمته بنت بطوطة سنة ١٣٦٥ هـ وطبع بدمهور ، وأنظر أيضاً ( الفينيقيون ) لمبداء الله يوسف نحاس ط جريدة الصير سنة ١٩٤٣ ص ٩ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٩٤ ففيه أنهم أول من أثبت أن إفريقية شبه جزيرة ، وقد أشار الى ذلك هيودوت ، وأنهم عرفوا أميركا بعد أن اوغلوا في البحار ؛ كما عرفوا كروية الارض والمد والجزر والفتك . كما ينسب اليهم اكتشاف الصبغة الارجوانية وحجر المغناطيس واحتكار التجارة ، وممارسة النظام الديمقراطي في قرطاج التي عرفت مجلساً للشيوخ ، وكان لها دستور انفردت به وأبدى أرسطو إعجابه به .

(٢) الرواقد ٤١

(٣) الرواقد ١٥

وثمائل للجمال أجادت      تحت أجزائها يد الحفار  
يعرف الموج حسنهما قترامى      فوق أقدامها عديم القرار

ولا ريب أن أبياتاً كهذه لا تخرج عن تصوير روعة تلك الآثار الفينيقية التي لا تعدو نظرة الشاعر إليها الناحية الفنية، ويتابع الشاعر نفسه قوله في القصيدة نفسها:

أمة شرد الزمان بنيتها      فذراهم على متون البحار  
حدث الناس أيها الشط عمّن      حكموا في أعنة الأقدار  
خبر الكون عن عظام شتى      كان ملء الأسماع والأبصار  
إن أجسادنا وما أحرزوه      كان بالجد من غنى وفخار  
فانهجوا نهجهم وكونوا كباراً      يرحب الكون للرجال الكبار

فالأبيات لا تخرج عن نطاق التفاخر على الرغم من اعتبارها اللبنايين أحفاداً للفينيقيين. وهذا النسب الذي أشار إليه الشاعر نسب معنوي والاشادة به أمر طبيعي بل أن التفريط به لا يعد طبيعياً. وهدف الشاعر من حث قومه واستنهاضهم واضح يذكرنا بطريقة شوقي في فرعونياته. ومع ذلك يعد شكر الله الجر في رأس الشعراء الذين اشبتت قريحتهم بالروح الفينيقية وتطرفوا في الاعتزاز بها.

وقد تعنى عقل الجر بالعهد الفينيقي وزهي به في نشوة بالغة فقال (١):

لم نكن وعيون الشرق شاخصة      شعباً على صغره فاق الملايينا  
لم نكن لبني الدنيا أساتذة      حتى حروف الهجاء من صنع أيدينا

(١) انظر الابيات في جورج صيدح: أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية ٣٩٤

ألم نكن وبحار الكون مسرحنا      نلقي على أيها شئنا مراسينا  
 انا ثبتنا ثبات الأرز في جبل      قد جاور الله في أعلى علمينا  
 وارى الزمان شعوباً في غياهبه      وقصرت يده عن أن توارينا

والملاحظ ان الشاعر بالتزامه ضمير المتكلم في آياته جميعا يحرص على اعتبار نفسه من حفدة اولئك الفينيقيين ، وهذه الروح روح الاعتداد والزهو بذلك الماضي الغابر تماثل ما وجدناه لدى عدد من شعراء مصر كحافظ إبراهيم في قصيدته « مصر تتحدث عن نفسها » ومحمد الأسمري في عدد من قصائده ، فهناك بناء الأهرام ولم التشريع ورصد النجوم وفن التخطيط ، وهنا سادة البحار واساتذة العالم ومبدعو حروف المهجاء ..

ولم يكن اطلاق اسم (النادي الفينيقي ) على إحدى الحلقات الأدبية في المهجر البرازيلي إلا مظهراً من روح الاعتداد والتفاخر عند عدد من اللبنانيين الذين كانوا يحرصون على توكيد شخصيتهم القومية في تلك البلاد النائية ويجدون في مثل هذه المظاهر ما يرضي ذاتهم الطامحة . والنادي الفينيقي نفسه لم يكن لديه من الفينيقية سوى الاسم ، حتى إن النشيد الذي نظمه عقل الجر لهذا النادي لا يحمل من الفينيقية سوى العنوان فلغته مصرية ومعانيه عربية ، حتى إن الاعتزاز بالعروبة جاء في صلب هذا « النشيد الفينيقي » (١)

ايه اشبال الاسود      اتم خير الامم  
 فاقتفوا إثر الجدود      واملاءوا الدنيا عظم  
 وابعثوا فينيقيا  
 حسبكم نادى الادب      وعكاظ المهجر

(١) انظر ودبيع ديب : الشعر العربي في المهجر الامريكى ٨٧



محييا مجد العرب من بطون الاعصر  
ناثرا ما طويا

ويبلغ هذا الزهو أقصاه لدى رشدي المألوف الشاعر اللبناني في قصيدته  
« بلادي » ومنها قوله (١) :

أهلت ذروة الدنيا غداة الصخذ في صور  
ويوم البحر للعالم - أغمار من النور  
وجئنا الشمس بالنار

ولم تدري

ومنا كان طاليس وإن زورّ من بعد  
وغنينا وهوميروس - لم يحلم به مهـد  
وكان الجن في اليم

فلم نهرب

وعمدنا من المغرب - والتاريخ عطشان  
وعلمناه ان يحلم - بالنة والقسري  
فلا لوم على الام

إذا اذنب

بلادي واحة التاريخ - والتاريخ عطشان  
بلادي موئل الناس إذا روع إنسان

---

(١) ديوانه اول الربيع ١٨ - ٢٣

فالشاعر يعني هذا النشيد على اجنحة الماضي البعيد مأخوذاً بنشوة  
الذكريات الباهرة . إنه يزهي بأجداده الذين شهدوا مولد العصور وكان على يدهم  
انبثاق الحضارة ، ويعد الفينيقيين سابقين الى المعرفة ، عرفوا الفلسفة قبل ان  
يعرفها الاغريق وابدعوا الملاحم قبل عهود اليونان برغم ما دأب عليه  
الجاحدون في طمس هذه الحقيقة . كما شقوا عباب البحار منذ فجر التاريخ ونقلوا  
تجارهم الى اوربا التي قبست من نورهم ثم عقمهم وجحدت فضلهم ، وتسير سائر  
اجزاء النشيد على هذا المنوال من الزهو بالامجاد الغابرة وعد المناقب الباهرة .  
والملاحظ في هذه القصيدة وبعض القصائد التي تعزف على الوتر نفسه ان روح  
الفخر والزهو مشوبة بالمرارة والاسى لهذا الغبن الفادح الذي تلقاه منجزات  
النبوغ الفينيقي باستمرار حتى كادت تحي معالمة في الازهان باستثناء نفر من  
العارفين ، وهذا الاتجاه في حقيقته صدى لآراء وبحوث صدرت عن بعض ادباء  
لبنان ومفكره (١) وكان بمثابة ثلثة تحز في نفوس المعتدين بالكيان اللبناني  
الأصيل .

وثمة اخيراً قصيدة للشاعر البرازيلي ( اولافوبيلاك ) نظمها بالبرتغالية  
واسماها « الفينيقيون » وقد عرّفها فوزي المعلوف . وهي لا تكاد تخرج عما سبق  
ان وردناه لسائر الشعراء إلا بكثرة ما تضمنته من اسماء فينيقية خلال ابياتها من  
ذلك قوله (٢) :

لله صور وهي تسبح في الضيا والبحر يلع وجهه البسام

(١) كتب سعيد عقل عدداً من المقالات ومقدمات مسرحياته في هذا الصدد ، ومنها مقدمته  
لديوان الشاعر رشدي المعلوف آنف الذكر ، وانظر أيضاً ما ورد في كتاب ( الصراع  
الفكري في الادب السوري ) وبخاصة تعليق مؤلفه أنطون سمادة على مكتشفات شيفر في  
رأس شمرة التي دلت تقوشها على معرفة الاقدمين في هذه البقعة بقرن الملاحم وغيره من  
أوجه النشاط الانساني ارفيع .

(٢) انظر ديوان فوزي المعلوف ٣٣

سفن من الارز المتين يعدها  
سيراوا (فلمخار) يبارك من جلوا  
من أرض صيداء ومن أنتردس  
ليوسعوا سبل الحياة وينشروا  
مستعرضاً أحمالها ( حيرام ) (١)  
والشوق خلف والرجاء أمام  
وجييل قد شدوا الحبال وقاموا  
علم الحضارة والشعوب نيام

وقصيدة ( بيلاك ) هذه تم عن طابع الحنين الذي ساد فئة من الشعراء  
الغريبيين نحو حضارات الشرق القديمة وكان في حقيقته مظهرأ من مظاهر النزوع  
الرومانسي الذي رأينا مثيلا له لدى عدد من الشعراء الذين أخذهم سحر الشرق  
وعراقته في المعرفة ، فتغنوا به وناجوه بلهفة ، وشد بعضهم الرحال لزيارته والعيش  
فترة بين ربوعه . وقد أشرنا من قبل الى ما كان من أمر شللي وبايرون  
وكيتس ولى هنت وثاكري وفلوبير ولامارتين (٢) وسواهم من اقتنائهم  
بمصر ولبنان .

وهكذا فان نزعة الاعجاب بالعبود السحيقة التي طغت حيناً من الدهر  
على اللبنانيين وعلى سواهم من الاقوام الاخرى كانت الباعث الاول على نظم  
هذه القصائد . وهذه النزعة إنما تم في الواقع عن تعطش كبير لكل  
ما يغذي روح شعب خضع للاستبداد قروناً حتى كاد يفقد ثقته بنفسه .  
ومثل ذلك الشعور مألوف ومنتظر لدى شعب ينزع الى النهوض ويبحث عن  
بعض معالم شخصيته الضائعة في ثنايا ماض عريق منسي ، فهو يتمسك  
بنبطه ونشوة بكل ما يرفد حاضره ويعينه على استعادة مكاتته بين  
الامم .

---

(١) حيرام ملك فينيقي كبير عاصر سليمان ملك إسرائيل ، وذلك قبل الميلاد بنحو ألفي عام ،  
وملخار ملك فينيقي آخر .  
(٢) زار لامارتين لبنان ومكث في ربوعه حيناً .

على أن الشعر الحديث والمعاصر في سورية ولبنان لم يكن توافاً الى اقتحام هذا المجال الفينيقي بتلك الحماسة التي وجدناها لدى بعض الشعراء في مصر ، وما ذلك إلا لان الدعوة الفينيقية في الاصل لم تلق الرواج الذي لقيته الفرعونية في مصر . ولعل من أسباب ذلك ضالة الآثار الفينيقية الماثلة أمام البنانيين خلافا لما كان عليه الحال في مصر من قيام الاهرام وأبي الهول ووادي الملوك والكرنك وموميات الفراعنة ومعابدهم وسواها من مظاهر الجبروت ، ولهذا لم ينفعل الشعراء في لبنان بعظمة الفينيقيين الا قليلا . لقد فخرُوا بماضيهم الغابر وحق لهم ذلك لانه جزء من تراثهم الذي آل اليهم من تلك العهود السحيقة ، وبقيت الحماسة للفينيقيين ضمن حدود المباهاة والافتخار دون أن تؤول في الشعر الى دعوة مذهبية ، ولم يشأ شعراء لبنان بصورة عامة أن يتعلقوا بسراب بعيد والماء الزلال يترقرق عند أقدامهم . بل ان ظاهرة التفاخر نفسها برزت على نطاق ضيق بحيث لم تجر الا لفاظ الفينيقية على ألسن الشعراء في لبنان كما جرت نظائرهما الفرعونية على ألسن الشعراء في مصر . وربما كان مرد ذلك الى أن الصحافة اللبنانية لم تول المظاهر الفينيقية اهتماماً كبيراً ، خلافاً لما كان يحدث في مصر من نشر أنباء المكتشفات وصورها وتدييج المقالات المستفيضة في تأييد الدعوة الفرعونية أو في تفنيدها ، حتى ان ما مر بنا من ألفاظ فينيقية في قصيدة الشاعر البرازيلي ( أولافويلاك ) العربية عن البرتغالية لا نكاد نجد نظيراً لكثيرته فيما نظمه الشعراء العرب انفسهم ، وهذا الامر يجعلنا نعتقد ان شعراء لبنان كانوا يجهلون دقائق ذلك الماضي الفينيقي وتفصيلاته بحيث كان بعض الشعراء الاجانب يفوقونهم في هذا المضمار .

والواقع ان النزوع الى ايجاد الفينيقيين الغابرة كاد يقتصر على المهجريين من شعراء لبنان كما تدل الشواهد التي مرت بنا آنفاً . ولم تكن هذه الظاهرة على الأرجح إلا نتيجة لأزمة نفسية لا بد ان يمر بها المغرب فيما يبدو حين يطأ تلك الأرض الغريبة النائية فيشعر وكأنه فقد ذاته في هذا الخضم

المضطرب من الأقوام المتباينة في ملأها ونحلها وألسنتها، ولذلك كان المهاجر يحرص على توكيد هذه الذات، وبلورة شخصيته عن طريق مباحثاته أولئك الغرباء بعراقة أصله وانتمائه الى شعب مجيد كان شأنه ناهياً منذ فجر التاريخ.

وجملة القول أن الدعوة الى الفينيقية أو الى الكيان السوري طغنت الى حين ولكنها لم تلبث أن انحسرت تاركة في الشعر صدى باهتاً خافتاً. وقد ظل الشعر في لبنان مضري الألفاظ عربي الروح بفضل تأصل العروبة في هذه البقعة التي انبثق منها فجر النهضة الأدبية الحديثة وغمرت أنوارها العالم العربي.

### ٣

ونأتي الآن الى دعوة ثالثة أطلت برأسها في العراق ولكنها ولدت هزيلة لم تلبث أن اضمحلت وماتت، تلك هي الدعوة الآشورية التي حاولت خلق قومية في العراق تقوم على صلة النسب مع الآشوريين والبابليين الذين كانت لهم حضارة عريقة في هذه البقاع قبل بضعة آلاف من السنين.

والواقع أن هذه الدعوة اقتصرت على فئة ضئيلة من العراقيين ولم تكن تعدو نطاق بعض الأقليات من بقايا الآشوريين. وقد كان الاجنبي المحتل يقوم بدور فعال في دعمها وتحريضها كما كان شأنه في مصر ولبنان، والى ذلك أشار الشاعر القروي مهدداً لاحدى قصائده بقوله (١) « كانت انكلترا خلال حكمها للعراق تكرم الملك فيصل وتقيم له المهرجانات في لندن وتتظاهر بصداقته، في حين كانت باليد الأخرى تمد الآشوريين بالمال والعتاد ليثوروا على حكم الأسرة

(١) ديوانه ٣٠٣

المهاشمية . من ذلك ما قام به ( مار شمعون ) الآشوري حين أعلن الثورة « ثم يورد قصيدته التي يقول فيها :

يدون للتسليم في ( لندن ) يدا      ويخفون للتسليح في ( نينوى ) يدا  
لأمر يلاقيك الفرنجي باسمها      فزد حذراً ما زاد ذئب توددا  
تراه صحيح الود وهو سقيمه      كما تكسب الحمى الحدود توردا  
وهز ( لشاما نصر ) سيفهاشم      وكال ( لمر شمعون ) كيلا ملبدا

وقد أشار عدد من شعراء العرب الى محاولة بقايا الآشوريين تغيير وجه العراق العربي وإقامة دولة آشورية بمساعدة المستعمر . ومما قاله عمر أبو ريشة في صدد تأييد غازي (١) :

ليس يطوى التاريخ صفحة مجد      أنت سطارتها بأسنى مداد  
يوم هزت آشور في وجهك الطلق      رماحاً رعافة الأحقاد

أما خير الدين الزركلي وهو في طبيعة الشعراء الذين عرفوا بنضج شعورهم القومي وأصالة نقد ضاق ذرعاً بالسياسة الجائرة التي كان يتبعها المستعمر في بلاد العرب من تقسيم وتجزئة ، ورأى في مثل هذه الدعوات الاقليمية ضغناً على إبالة فهو يتحدث عن حالة قومه والأسى يلاء قلبه (٢) :

تجهت النكوب لهم فيأتوا      أسارى في العراق وفي الشا  
وقسمت البلاد بهم فراحوا      ووحدتهم تصير الى انجذام  
أمنتسب لآشور وماض      بنسبته الى إرم بن سام  
ومنقطع تردد بين بين      فحار فجاد عن طرق الزحام

(١) ديوانه ١٢٥

(٢) ديوانه ٤٩

وكانوا أمة سادت وشادت      موحدة المنابت والنماي  
فبت الجبل وانقسموا شعوباً      فلا قربي ولا صلة اعتزام

على أن هذه الدعوة الآشورية التي اصطبغت بصبغة سياسية أكثر منها اجتماعية لم تؤثر كثيراً في مجرى التيارات الفكرية والأدبية في العراق ، إذ لم يشعر العراقيون بأية رابطة أو آصرة تشدهم إلى أجداد بابلين أو آشوريين لا يكادون يعرفون عنهم إلا اليسير مما تناثر في الكتب أو المتاحف ، كما أن طبيعة العراق ومناخها وقلة الصخور فيها لم تساعد آثار تلك الأمم الغابرة على أن تعمر أحقاباً مديدة خلافاً لما كان عليه الحال في مصر . ومن جهة أخرى فإن ضعف الصحافة العراقية وقلة انتشارها آنذاك ، لم يتح لهذه الآراء أن تتخذ الصحف منبراً لها ، بالإضافة إلى أن قوة العقيدة الدينية لدى الشيعة وسائر المسلمين في العراق كانت درعاً واقية لمثل هذه النعرات التي ترتبط بماض عريق بالوثنية .

ومن هنا ندرك ضآلة تسرب الآراء الإقليمية إلى أدباء العراق ، إذ ما كان لأبجداد بابل أو نينوى في نفوس الشعب مكانة بغداد والبصرة والكوفة والموصل ، كما لم تستطع عظمة بختنصر ونبوخذ نصر وسميراميس أن تضارع عظمة المأمون والرشيد والجاحظ الذين ما زال ذكرهم يرن في أرجاء العراق وسائر العالم العربي .

والواقع أننا لا نكاد نجد في دواوين شعراء العراق أي صدى لدعوة إقليمية ضيقة ، بل إن الشعر في العراق لم يفتح صدره حتى للمفاخرة بأبجداد الماضي الغابر كما كان الشأن عليه في مصر ولبنان . فقد كان الزهاوي والرصافي والكاظمي والجواهري وبحر العلوم والهنداوي والشيبلي واليعقوبي وسائر الشعراء في العراق أبعد ما يكونون عن التجاوب مع تلك النزعات القومية الضيقة ، حتى إن ما نظمته

الشعراء في موضوع البابليين والآشوريين على قلته لا يعدو نطاق التفخـر  
والاعتداد بالحضارات العريقة التي عرفتها أرض الرافدين . من ذلك ما قاله علي  
الشرقي مناجياً مدينة بابل ومشيداً بحضارتها وعظمتها (١) :

يا سرير المجد والمجد غلام	بابل يا بلد السحر سلام
والصفايا لك والبرج رغام	السرائيا لك ( والبرج ) لواء
حوله الطفلات عم ونظام	ولد الفن على عتبتها
هيئة الهيكل والأرض ركام	تصف الهيكل والأرض دمي
( لمورابي ) حلال وحرام	هذه اللبنة في معجزها
رابض ليس له عنق وهام	قد شجاني أسد في بابل
مجدنا الغالي وأجداد عظام	ضاع - لما ضيعت آثارنا -
بك يصيبه انطباع وارتسام	بابل ما أنا إلا حالم
من جلال المثل العليا وسام	نشأ الملك بواديك له
المعزات يراع وحسام	والفرات الرهو في أريافه
عزمه فاعتاقه الموت الزؤام	خاضه الاسكندر المغرور في
للعلا فيه عرام وغرام	ورأي ( كورش ) فيه أمة
حانقاً يملأ جنبه احتدام	وثوى ( مردوخ ) في فرضته
زاحف يتبعه جيش لهام	( نبوخذ نصر ) في شاطئه
وله في ( أورشليم ) قسام	بين ( نيبور ) و ( ركا ) جيشه
للهمات دروع وسهام	والفرايون إذا حفزتهم

فالقصيدة على ندرة أمثالها لدى شعراء العراق من حيث اهتمامها بهذا  
الموضوع ، لا تمتاز بمقومات فنية تذكر عدا ضعف نسجها ، والشاعر

(١) عواطف وعواصف ١٣٢



يسرد فيها بعض آثار بابل ومعالمها ثم يعزى بتلك الانتصارات الغابرة التي حققها البابليون ضد قدماء الفرس والمصريين ، وهي من حيث اتجاهها لا تختلف عما انطوت عليه مثيلاتها من مباحاة بالماضي الغابر . مع ضآلة ما يجهد الشاعر في وصفه من الآثار الماثلة التي لا تعدو لبنة قديمة وأسداً أطاح الدهر برأسه .

أما ما عدا ذلك من الشعر الذي يجري على هذا النمط من الافتخار بالأبجد السابقة على العرب والاسلام فلا نكاد نجد نظائر له تذكر لدى شعراء العراق انفسهم . وثمة قصيدة نظمها شاعر مهجري هو ابو الفضل الوليد اسمها ( العراقية ) وقال فيها (١) :

و ( بابل ) بعدها ام الفرات	لدجلة ( نينوى ) ام حصان
وقد جاءت بكل المعجزات	( فبابل ) اي تملكة حوتها
وجنات تلوح معلقات	بأسوار تنوء بها الرواسي
بناه ( بختنصر ) بالظلمات	واملاك لهم ملك فخيم
شجي بالعظام والعظاات	واما ( نينوى ) فلها حديث
أشد من الملوك على العداة	مليكتها ( سميرة ) ثم كانت

ومع أن الشاعر لا يزيد في أبياته هذه على ان يقف وقفة الفنان تجاه روائع الماضي كحدائق بابل المعلقة او دهاء سميراميس وجمالها ، فانه يؤكسد في القصيدة نفسها رسوخ العروبة في العراق برغم تعاقب الأمم على أرضه إذ يقول :

فكم دول توات ثم دالت      وكم امم تواتر بائدات

(١) نفحات الصور ٦٢

سوى عربية ثبتت لفضل وليس لغيرها فضل الثبات

وثمة آثار ادبية ظهرت في العراق واستوحت تاريخ الآشوريين والبابليين كأوبريت « بابلون » الشعرية (١) وهي شبيهة بقدموس ، وبنت يفتح لسعد عقل وكسرحية شعرية أخرى اسمها (شمسو) واخيرة عنوانها « الأسوار » (٢) . كما أكثر الأدباء في قصائدهم الغنائية وأوبراتهم وأقاصيصهم من معالجة موضوع سميراميس الأميرة الآشورية . إلا ان هذه الآثار ومثيلاتها المستوحاة من عهود الفراعنة والفينيقيين والتي ارتدت في الغالب الثوب الشعري والقصصي لم تكن تعدو الجو الأسطوري والخيالي فظلت بعيدة عن النطاق الواقعي للامة ضئيلة الأثر في حياتها القومية .

ونحن نقع على آثار ادبية متعددة تحمل اسم ( بابل ) من ذلك مثلاً مجموعة مختارة من الشعر العراقي القديم والحديث أخرجها محمد علي اليعقوبي باسم « البابليات » . وثمة مجموعة شعرية أخرى تحمل اسم ( البابليات ) ايضاً لمحمد مهدي البصير وهي تحوي في جملتها شيئاً من شعره الي جانب بعض محفوظه . كما اطلق علي الخاقاني على كتابه الكبير اسم « البابليات » او شعراء الحلة ، وقد آثر جعفر الحلي ان يطلق على ديوانه الشعري عنوان « سحر بابل وسجع البابل » الخ ... كل هذه الاسماء التي تشير الي بابل لا تعدو في الواقع الغلاف الذي ارتسمت حروفها عليه فوق ما ذكرنا من كتب ومجموعات شعرية ودواوين ، وليس وراءها ما يمت بأي صلة او اشارة الي البابليين ابعد من ذلك . ولا ريب ان صفة القدم واصالة الحضارة في العراق جعلت عدداً من الادباء يجردون في كلمة ( بابل ) رمزاً عريقاً لارض الرافدين .

(١) لسفاه الحيدري ، وبابلون أميرة بابلية تقع في حب أخيها

(٢) المسرحيتان لحاله التواف

أما سورية فقد نُجبت تقريباً من وجود نزعات اقليمية مماثلة برغهم محاولات المحتلين ، وقد انعكس هذا الصفاء في الشعر فكان ناصعاً في عروبه .  
ويعتبر العهد الفيصلي في دمشق على قصره «مؤزجاً للحكم العربي السمح» فرئيس الدولة كان حجازياً ، ومدير العدل لبنانياً ، ومدير المالية لبنانياً متمصراً ، ومدير المعارف سورياً من حلب ، ومدير الشرطة فلسطينياً من نابلس ورئيس أركان الجيش عراقياً وهكذا...» (١) وقد اشار ساطع الحصري (٢) الى ان سورية اعرق الاقطار العربية في الشعور بالقومية العربية واكثرها تجرداً عن النزعات الاقليمية ، فقد كان تيار العروبة من القوة والصفاء بحيث لم يسمح لاية نعة منحرفة ان تطل برأسها وذلك برغم ان سورية كانت مسرحاً لحضارات الآراميين والحيثيين العربية...



وإذا ما رصدنا مسار هذه النزعات الاقليمية المنحرفة من خلال الشعر الحديث ، نجد انها كانت ترتكز بالاجمال الى اهداف سياسية وقومية متطرفة بدأت أول الامر باتجاه وطى يرمي الى خلق كيانات جديدة مستقلة - شأن الفتى يشب عن الطوق ويمنح للعزلة والتميز عن جامعة الاسرة وتوكيد ذاته وشخصيته . وقد تجلى ذلك في خشية اطني السيد وسواه من المفكرين ان تدوب الشخصية المصرية في الدولة العثمانية ، وتخوف الكثيرين من مسيحي لبنان ان يطغى عليهم المسلمون في الشرق العربي وحرص بقايا الآشوريين في

(١) الامير مصطفى الشهابي : محاضرات في القومية العربية ١٢٣

(٢) آراء وأحاديث في القومية العربية ١١

العراق على التمييز عن العرب في دولة مستقلة خوفاً على كيانهم من الانقراض .  
إلا ان جميع هذه المخاوف تبددت مع نمو الوعي القومي السليم إثر تضائل  
النفوذ الاستعماري في بلاد العرب . وقد تنبه انصار هذه الدعوات بصورة  
عامة الى اخطار القوميات الضيقة لانها تدعو الى الانفصال والتجزئة وانها قد  
تتحاسد وتتناحر مما يضعف كيانها امام قوى الشر العاتية .

إن علاقة سكان مصر والشام والعراق بالفرعنة والفينيقيين والآشوريين  
اصبحت واهية الى حد لم تعد تصلح معه ان تكن أساساً لبناء قومي وبخاصة  
بعد ان تقطعت اسباب اللغة والعقيدة والمشاعر .

ولا ريب ان النجاح لم يحالف تلك الدعوات لانها قامت على العزلة  
والانفصال ولانها لم تستند الى اساس واقعي من حياة الجماهير التي لم  
تلتفت كثيراً الى ماضيها الموعل في القدم ، وبالتالي لم يكن بينها من يعتز بأسر حدود  
وبتختصر ، او بحيرام وملخار ، أو باختاتون وخوفو .

ومن حسن الحظ ان الشعر العربي الحديث قد ربأ بنفسه ان يندو بوقاً  
لهذه الدعوات المذهبية الطارئة ، وحاكياً لتلك النزعات الانفصالية الضيقة  
وهو في الواقع لم يكن يعدو حدود التفاخر بالاجداد السالفة التي  
آلت الى العرب واضيفت حلقتها الى سلسلة تراثهم العريق . ولا خير  
على الفن ان يتسم بخصائص مميزة في كل قطر او بيئة او مدينة بل ان  
التنوع من مقومات الفن الرفيع ومن مستلزمات الابداع والاصالة . ومن  
الضروري ان نجد طابعاً إقليمياً طريفاً لدى كل من شعراء لبنان او  
العراق او المغرب او سواها من اقطار العرب على ان يكون هذا التنوع  
وهذه الالوان ضمن إطار وحدة الطابع العربي الشامل الذي يبسط جناحيه  
على فنوننا الادبية كلها .

## الفصل الرابع العاطفة الانسانية

١

من الظواهر البارزة في هذا العصر الحديث مناداة عدد من رجال الفكر والفرن بالانسانية . ويبدو أن اهتمام العالم بما انتجه المعري وطاغور وتولستوي وبرتراند رسل وسواهم ممن كانت آثارهم مفعمة بالطابع الانساني الاصيل ، حث الكثيرين من الكتاب والشعراء على مجاراتهم في هذا المضمار أملا في إدراك شيء من تلك الشهرة العريضة .

وقد استهوت هذه النزعة الانسانية عدداً من الشعراء العرب المعاصرين فراحوا يعلنون أنهم يريدون أن يكونوا لكل جيل ولكل جنس . أما الشعر الوطني والقومي فقد ترفعوا عنه لانه في نظرهم شعر محدود بالزمان والمكان مشدود الى الأحداث العارضة والأرض الضيقة . والشاعر الانساني الرفيع عندهم من اعرض عن احداث عصره ، وتحلل من نطاق بيئته ، وتخطى حدود وطنه ، وتجاهل ما تعانيه امته . وقد خيل الى هؤلاء أن الأمر في غاية اليسر وأنه ليس على الواحد منهم إلا أن يختار في أن يكون شاعراً قومياً محدوداً أو شاعراً إنسانياً خالداً .

هذه الفكرة التي قد تخطر ببال الفنان ، وتداعب آماله ، تغاير طبيعة الفن الصحيح الذي لا يتقبل هذا التخطيط الصارم الذي يسبق الابداع الفني . وكل فنان يحاول استعجال صفة الشهرة والخلود دون أن تكون طبيعته ومواهبه مهياً لذلك ، إنما يلاحق أطياف شهرة زائفة ، وخلود موهوم ، شأن من يسعى وراء سراب براق .

حقاً إنهم لمساكين أولئك الذين يأنفون أن تتذوع من شعرهم رائحة وطنهم .

لقد كان أدبنا العربي القديم غنياً بالعناصر الانسانية ويكفي أن نضرب المثل بأبي العلاء المعري الذي كان شعره مشبعاً بتلك الروح برغم معالجته قضايا مجتمعه في الصميم .

ولعل هذه الايات لأبي الطيب المتني من خير ما قاله شاعر في تصوير العاطفة الانسانية على أنها زعة الى السلام وليست دعوة الى الاستسلام :

كلما أنبت الزمان قناة      ركب المرء في القناة سنانا  
ومراد النفوس أصغر من أن      تتعادي فيه وأن تتفاني  
غير أن الفتى يلاقي المنايا      كالحلت ولا يلاقي الهوانا

إنها إنسانية إيجابية بحق ، تستنكر التطاحن والتناحر والحروب ، ولكنها تأبى أن يكون الاستسلام والاذعان ثمناً لسلام زائف ، وإلا فالموت أجدر بالمرء من عيش الذل والهوان .

والذي يهمنا هنا أن نستشف المشاعر الانسانية التي عاقت شعرنا القومي الحديث ، وكانت رافداً حياً له ، وأن نتلمس في بعض القصائد الانسانية شيئاً من عناصر الوطنية والقومية . أي إننا نحاول أن ندرس الجانب الانساني في الاتجاه القومي ، كما حاولنا من قبل دراسة الجانب الديني والتزعات الأخرى التي عايشت شعرنا القومي الحديث وكانت روافد له .

ولكن ما حقيقة تلك الانسانية وكنها بعد ان كثر الحديث حولها ،  
وتطلع الكثيرون نحوها ؟ . إنها زعة اصيلة في الانسان ونظرة شاملة نحو البشر  
تطمح الى السمو بالنفس نحو المثل العليا وتطهيرها من شوائب الأنانية والنفعية ،  
وتزيهها عن التعصب والتحيز . وهي عاطفة شاملة تضم البشر وتعتبرهم إخوة  
وتشدهم الى أهداف سامية مشتركة ، وكأنهم أسرة كبرى تذوب بينها الفروق  
العارضة والصفات المميزة ، ولا يقام معها كبير اعتبار لعرق أو لجنس أو لدين ،  
ولا مفاضلة بين أسود وأبيض ، أو شرقي وغربي ، أو مسلم ومسيحي ، أو  
عربي وهندي .

لقد صدر خير الدين الزركلي الشاعر القومي الكبير عن نفحة إنسانية  
أصيلة بقوله في إحدى قصائده الوطنية (١) :

يكفر فينا معشر معشر أم	على الحق ، والانسان قد يتبصر
دع الناس لا تبغ الذين تهودوا	بشر ، ولا تبغ الذين تنصروا
عجبت لأمر الناس أبناء واحد	يفرقهم دين وجنس وعنصر

وكان هذه النفحة قبس من روح المعري وفنه الانساني الرفيع . وقد  
سبق أن رأينا اتساع العاطفة الشرقية الى رحاب الانسانية في قصيدة لأديب التقي ،  
نظمها إثر زياره طاغور الشاعر الانساني الي دمشق وقال فيها (٢) :

أجرار أهل الغرب أموا بلادنا	ترونا كراماً لانسر لكم بغضا
تعالوا إلينا لا لفتح وغارة	لتستعبدوا حراً وتستعمروا أرضا
ولكن اترتادوا حقائق شرقنا	وتستمعوا للقلب عن كذب نبضا

(١) ديوانه ٨٥

(٢) ديوانه ١٠١

ومن ذلك ما قاله عمر ابو ريشة في غمرة الأحداث التي كانت تحيق  
بالعالم العربي (١) :

ليت شعري متى ينفض هذا الشرق من خادع الطيوف جفونه  
ومتى ينشر الوئام جناحيه — مظلاً جباله وحزونه  
ومتى تخمد العواصف في اليم ، وتحذو ريح السلام سفينه

فالشاعر هنا يتوق الى رؤية هذا الشرق قوياً سعيداً يسوده الوئام وتمحي  
منه آثار الحزن ، وتخمد فيه عواصف الأحداث ، وحينئذ ينعم بالسلام المنشود . ولا  
ريب ان شعراً كهذا كلام عذب تهفو إليه النفس وتطرب ، بل الأعذب منه لو ان  
المتناحرين على المغنم اقتنعوا بدعوة الزركلي ، واستجاب المستعمرون لنداء التقي ،  
وحققت الاقدار امانى ابي ريشة . ولكن انى لئله هذا الشعر الوداع المترفق ان  
يكون مجدياً في تحقيق رسالته تجاه وطن استحكمت فيه الطائفية والتعصب ،  
واستشرت علله وادواؤه ، وتكالت عليه قوى الشر والعدوان .

لقد خاض العرب معركة المصير ضد اعداء كثير في الداخل والخارج .  
وكان عليهم ان يقاوموا الاستبداد ، ويناضلوا الاستعمار ، وكان على الشعراء وهم  
رواد الحرية والوعي ان يقرعوا نواقيس الخطر ويشحذوا العزائم ويوقظوا النيام  
ويبشروا بالخللاص . وكيف يستمع الطغاة في زحمة المعارك وغمرة الدماء وصليل  
الحديد ، الى اصوات كهديل الحمام ، والحان كأنغام الناي ، ونداءات في  
نعومة الحرير .

والواقع ان الشعراء ساروا في هذا الطريق السهل الممهّد إذ تغنوا بتعاليم  
الثورة الفرنسية واشادوا بمبادئ ولسون ، ووثقوا بوعود الحلفاء ، وتفاءلوا

---

(١) ديوانه الاول ٢٠٦ - ٢١٦



بالخير ، وتوقعوا الانصاف ، حتى عيب عليهم إغراقهم في ذلك الى حد السذاجة . .  
ولكنهم لدعوا بالجرم من خلال الرماد ، ولسعوا بالافعي من داخل القش ؛ فقد  
كشفت لهم دولة الحرية والعدالة والمساواة عن انياب عصل في اسرتها السم الناقع ،  
وبدت حليفة الامس وصديقة العرب ذئباً ضارياً في ثوب حمل وديع ، واكتوى  
العرب بنار الغدر فأورثهم ذلك شعوراً حاداً بمرارة الخيبة عبر عنها الشعراء ، ولم  
يجدوا مناصاً من إعلان النضال من جديد مع شعوبهم المثارة .

ومن هنا كان لزاماً على النزعة الانسانية البحتة في غمرة هذا الصراع  
الرهيب ان تخفض الصوت ، لتفسح المجال امام الشعر القومي المتحفز ليؤدي  
رسالته الملحة في هذه المرحلة العصبية من حياة العرب ، ولذلك قل ان نجد شعراً  
يعزف على وتر الانسانية في خلال نضال العرب المرير ضد قوى الشر . إذ ان ذلك  
الحال اقتضى من العرب ان يجندوا كل طاقاتهم بما في ذلك الادب شعره ونثره في  
سبيل التحرر . ومن الطبيعي ان تقابل بالريب والحذر كل دعوة إنسانية يصدر  
عنها شاعر ويتجاهل فيها واقع شعبه وظروف وطنه ، إذ ان التبشير بالسلام في  
اوج احتدام المعركة مع العدو دعوة صريحة الى الاستسلام ، والمناداة بالصفح  
والتسامح تجاه عدو غادر لا يرحم دعوة صريحة الى الذل والعبودية ، لان وضع  
الندى في موضع السيف مضر ، على حد تعبير الشاعر العربي .

## ٢

وثمة ظاهرة غريبة عرفها الشعر الحديث بتأثير ظروف اجتماعية معينة ،  
إذ ان العاطفة الانسانية الكامنة في نفس الشاعر العربي كانت تستيقظ في الساعات  
التي يخيم فيها اليأس على العالم ويهدد البشر شبح الحروب ، لتضفي على الشاعر  
القومية نفحات فياضة من الانسانية الرحيمة . ولذلك تلمع كثير من الشعر

القومي بثوب الانسانية الفضفاض . في إبان الحرب الكبرى الاولى يصدر الزهاوي  
عن قوله في رباعياته (١) :

إن المدافع ترغو      والحرب حرب ضروس  
طارت هنالك ايد      وارجل وروس  
قد شبت الحرب ناراً      عمت تروع الاناما  
يا نار كوني علينا      برداً وكوفي سلاما

ومن ذلك ما قاله إيليا ابو ماضي في تلك الحرب ايضاً (٢) :

بئس الوغى يخني الجنود حتوفهم      في ساحها والفخر للتيجان  
ما اقبح الانسان يقتل جاره      ويقول هذى سنة العمران  
لا حق إلا ما تؤيده الظلي      ما دام حب الظلم في الانسان  
ما بالكم لا تغضبون لمجدكم      غضبات ملطوم الجبين مهان

وكان الشاعر إذ يستنكر ان يقتل المرء اخاه . لا يجسد في الوقت نفسه  
مفراً من اتباع العنف مع اهله لاستخلاص الحقوق المغتصبة ، لأن ذلك في نظر  
الشاعر شر لا بد منه . وهي ابيات شديدة الشبه بما اوردناه للمتنبي في  
بداية هذا الفصل .

وابو ماضي يندد في قصيدة اخرى بتلك الحرب الطاحنة نفسها بقوله (٣) :

اعجب ما في بني التراب      قتالهم فوقه عليه  
قد صيروا الارض كالكتاب      وانحشروا ما بين دفتيه

(١) ص ١٣

(٢) زهير ميرزا : إيليا ابو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١٨٩

(٣) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١١٨

فراقبوا ذمة الاخاء ولتنس احقادها لخصوم  
لا تتبعوا سنة البقاء فانها سنة ظالم

ففي بيته الاخير استنكار لتطبيق مبدأ دارون الذي يقضي بأن البقاء  
للاقوى ، على العلاقات بين البشر لان ذلك يعني فناء شعبه في جملة الشعوب المستضعفة  
وهو الذي يرى (١) ؟

إن الانام على اختلاف لغاتهم وصفاتهم لو يذكرون قبيل

ومن اهم ما نظمه ابو ماضي في غمرة تلك الحرب وتمثل فيه هذا المزج  
الموفق بين الاتجاهين الانساني والقومي اللذين تعانقا في نفسه موشحه « متى  
يذكر الوطن النوم » الذي يقول فيه (٢) :

ذكرت الحروب وويلاتها وما صنع السيف والمدفع  
وكيف تجور على ذاتها شعوب لها الرتبة الارفع  
وتخضب بالدم راياتها وكانت تدم الذي تصنع

كما يقتل الطير في الجنة ويقتنص الظبي في السبب  
كذلك يجني على امتي بلا سبب وبلا موجب  
فحتام تؤخذ بالقوة ويقتنص منها ولم تذب

ارى الليث يدفع عن غيضته بأنيابه وبأظفاره  
ويجتمع النمل في قرنته إذا خشي الغدر من جاره  
ويحشى الهزار على وكمته فيدفع عنها بمنقاره

(١) المصدر السابق ٢٣٨

(٢) الجداول ٢٧

متى يذكر الوطن النوم كما تذكر الطير أوكارها

في هذا الموشح تنديد بقوى الشر وويلات الحروب . كما فيه انتقال بارع من ذلك الجو العام الى موضوع بلده لبنان الذي كان يلاقي الأمرين مع أخوته العرب (١) . ولعل أجمل ما في الموشح مقطعه الأخير بتشبيهاًته الرائعة التي قصد الشاعر من ورائها الى حث أمته على النضال .

وثمة قصيدة أخرى أوحى بها الى محبوب الخوري الشرتوني مأساة لبنان أيضاً في غمرة تلك الحرب نفسها عندما شدد الاتراك الوطأة على العرب وشنقوا عدداً كبيراً من أحرارهم وهذه القصيدة التي نظم الشرتوني قوافيها في مهجره القصي تعزف ألحانها الشجية على ذلك الوتر الانساني السامي مستوحياً إياها من تلك الأحداث القومية الدامية فوق سفوح لبنان الخضر (٢) :

أرى الأرض وهج النار ملء جهاتها	طعان القنا فيها وصدم الفيالق
ملايين من أنبائها هبطوا الثرى	وما انفك يهوي لاحق اثر لاحق
فهل تجد الأنهار في الأرض مسبحاً	وفي الأرض طوفان الدماء الدوافق
وهل تجد الأطيوار في الجومسرحاً	وفي الجو أفواج النفوس الزوايق
عيال على أعشاشها مطمئنة	تناولها صرف الزمان بطارق
يجرد من أحشائها مهجاتها	ويقذفها مذبوحة في الخنادق
فلا تقطعوا أغصانها وصخورها	فكم ظلمت من موجع متضايق
ولا تبسموا ثغراً لحرمة وردتها	فحمره ذلك الورد من دم عاشق

(١) ألهمت المجاعة في لبنان توفيق يوسف عواد قصة (الريغف) ، وميخائيل نعيمة (مهرجان الموت) .  
(٢) ديوانه ٦٣

هناك قبور الوالدين وحولها  
 وثم قبور العاشقين وفوقها  
 يجود اليتامى بالدموع الغوادق  
 تسيل حشاشات الحسان العواتق  
 على عربي القوم وطأة ساحق  
 فلن تبلغوها عن طريق المشانق  
 لئن تطلبوا أكبادنا وقلوبنا

لقد سرت في أوصال هذه القصيدة روح إنسانية عميقة أشبه شيء بروح  
 المعري والحليم، وبخاصة في تصوير الموتى من ضحايا الحرب وكيف تفتقت  
 وجوه الأرض عن جنثهم نباتات وأغصاناً، واكتست أجساد الطير  
 من لحومهم لحوماً، واستحالت حدود العاشقين من حمرتها القانية  
 أزهاراً ووروداً.

ومن أمثلة اشتداد العاطفة الانسانية أثناء الحروب وفي أعقابها، وبسط  
 جناحيها الرحيمين على الشعر القومي قصيدة «أخي» (١) لمخائيل نعيمة التي  
 نظمها أيضاً عام ١٩١٧. وهي صورة نابضة بالحياة تمثل بصدق، نفسية هذا  
 الشاعر المرهف الحس الذي اكتوى بنيران الحرب الكبرى، وعانى تجربتها  
 القاسية بعد أن كتب عليه أن يخوض غمراتها مجدداً في الجيش الأمريكي، مما زاد  
 في صبغ عدد من قصصه وقصائده بصبغة إنسانية محبة :

أخي إن ضج بعد الحرب غربي بأعماله  
 وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله  
 فلا تهزج لمن سادوا، ولا تشمت بمن دانا  
 بل اركع صامتاً مثلي بقلب خاشع دامي  
 لبسكي حظ موتانا

(١) همس الجفون : ١٠

أخي إن عاد بعد الحرب جندي لأوطانه  
وألقى جسمه المنهوك في أحضان خلانه  
فلا تطلب إذا ما عدت للأوطان خلانا  
لأن الجوع لم يترك لنا صجبا نناجيهم  
سوى أشباح موتانا

أخي من نحن لا وطن ولا أهل ولا جار  
إذا نمنا إذا قمنا ، ردانا الخزي والعار  
أقد خمت بنا الدنيا كما خمت بموتانا  
فهات الرفش واتبعني ، لنحفر خندقاً آخر  
نوارى فيه أحيانا

« نفس مرسل وموسيقا متصلة . فاللقطوعة وحدة تمهد لخاتمها ، وفي هذا ما يشبع النفس .. أخي ! فأنا إذن شريكه في الانسانية وأنا قريب منه وهو قريب مني . الشهادة شعور أناني خسيس وما أحقرها شماتة تلك التي نستشعرها لمن دان ، ما أحقر أن نشمت من جثة هامدة .. » (١) ، ما جدوى الهزج والتهليل للظافر العاتي وأي نصر ذلك يعتلي إثره المرء جسد أخيه الذييح . « ما أشبه المنصور بالمكسور » (٢)

« وشبيه صوت النعي إذا قيس بصوت البشير في كل ناد »

أما الالم الانساني المشترك الذي لا يعرف وطناً ولا قومية ولا حدوداً فلقد لف بشملته كل إنسان وكل ذي قلب وإحساس .

(١) محمد مندور : في الميزان الجديد ٥١

(٢) شطر من بيت للشاعر القروي في قصيدة نظمها إثر احتلال جيش الحلفاء بقيادة النبي القدس أواخر الحرب العالمية الاولى .

ويبلغ التماق الجميل بين الشعور الانساني والقومي في قصيدة الشاعر مداه حين يحدثنا عن ذلك الجندي العربي الذي عاد من ساحة القتال الى أهله منهوكاً فلم يجد من يرتقي في أحضانه لان الجوع الرهيب قد حصد قسومه حصداً واقتلع أنفاسهم اقتلاعاً .

فالشاعر ناغم أشد النغمة على تلك الحرب الضروس وما جرته من ويلات على قومه فلم تبق ولم تذر ، وفي نفسه أيضاً ثورة مضطربة على الشرق العربي الخانع المستكين ، الشرق الذي لفه العار بشملته وهد الذل أركانه ، حتى لقد خمت الدنيا بأهله وساكنيه أولئك الاحياء الخائمين .. وما أجدرهم بأن يواروا في التراب ويفيوا في الرموس (١) .

هو الجوع ، والعري ، والفقر و الخزي والذل والعار ، وهو الفلاح والكوخ والارض ، والمدفع ، وللاموات والاحياء .. كلها معان متلاحقة متآخية أوحث بتلك الظلال الانسانية التي تلفت بها مأساة شعب لبنان واتحدت معها في صوفية عميقة .

ثم ارتدى الشعر القومي المعاصر حلة جديدة من العاطفة الانسانية حين لاح شبوح الحرب مرة أخرى ولم يكد العالم ينسى ما عاناه من أهوال في الحرب الاولى. وقد عبر عدد من الشعراء في خلال تلك الحنة الشاملة عن أنبل العواطف وأحلى الاماني ، من ذلك ما يقوله محمد عبد الغني حسن (٢) :

---

(١) : كاد نلّس هذه الروح الوطنية المزعجة في كثير من نماذج الادب المجرى وهي ليست كافرة بالشعب ولكنها تفور غضباً على ضمه فتقذفه بالحجم عليه يفيق ، يقول جبران في العواصف ، المؤلفات الكاملة ٣ : ٤ ؛ ( أنا أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة ) .

(٢) من نبع الحياة ١٠٧

ملاءوا البلاد عداوة وخصاما ما ضر لو ملاءوا البلاد سلاما  
الله لا يرضيه أن شعوبه يتبادلون على العداة سهاما

وحين أهل عام هجري جديد خلال تلك الحرب الاخيرة استقبله على  
محمود طه بهذه العاطفة وقال (١) :

غن للهجرة عاماً بعد عام وادع للحق وبشر بالسلام  
كن بشير الحب والنور الى مهج كلهم وأكباد دوامي

ثم يشير الى أيادي النبي محمد على البشرية بقوله :

ززل العالم من أقطاره بقوى الروح على القوم الطغام  
وبنى أول دنيا حرة برئت من كل ظلم وانام  
تسع الناس على الوانهم لم تفرق بين آرى وسام  
حاطم الاصنام هل منك يد تذر الظلم صريعاً من حطام

وفي قصيدة « الصليب الاحمر » لعمر ابي ريشة تبرز ادواء البشر وطبائهم  
في السعي وراء الاحتراب والتفاني حيث يقول (٢) :

في كل متكأ وكل وسادة جرح يسيل ودمعة تتحدر  
عيسى طلعت على الوجود وليس في آفاقه إلا الشقاء الا كدر  
هزوا بوجهك فاتكات حراهم واستكبروا والله منهم اكبر

---

(١) زهر وخر

(٢) ديوانه ٢٤١



فالقصيدة برغم أنها تصور مأساة البشر وجراحهم في تلك الحرب الطاحنة ، تتضمن تنديداً بقوى الشر العاتية التي تقض مضاجع الشعوب الآمنة وفي جملتها أمة الشاعر . ونحن نجد هذه الظاهرة أشد بروزاً لدى أبي ريشة نفسه في قصيدة أخرى إذ يقول (١) :

لم يزل شرّب النجيع مكارى يتبارون حوله عدوانا  
 ما ألانت قلوبهم أدمع الأيتام - أو هزهم أنين الحزاني  
 فضحايابهم تمور على الرمل - المدمتي وتعتلي صلبانا  
 كلهم في وليمة البغي يخشى أن يرى جف غيره ملاننا  
 قل لتلك الحمام البيض طيري فالخطايا تدفقت طوفانا

وقد انحسرت أمواج هذه الحرب عن نزعة إنسانية بارزة ظهرت جلية في نتاج عدد من شعراء الجيل الجديد تحول حدود البحث دون تناولهم ..

وهكذا وجدنا الشعراء العرب يرتفعون أحياناً بأحداث وطنهم الى مستوى إنساني رفيع ويعزفون على هذا الوتر حين كانت أهوال الحروب والمجازر البشرية تظفي على أحداث قومهم وبلادهم ، وكأنهم في ذلك كانوا يتلفتون الى العالم يواسونه في محنته التي لم تكن في جوهرها إلا صورة مكبرة لمحنة أمتهم ووطنهم .

أما في أوقات السلم ، فلم يكن العرب ينعمون بالسلام إلا غراراً لأن المستعمر كان يجثم فوق صدورهم والنضال من أجل إزاحته عن الوطن كان مستمراً بلا هوادة ، ومع ذلك فقد يعثر الباحث على بعض النفحات الانسانية من خلال ثورة البراكين وغبار المعارك ، على نحو ما قاله السكاظمي إبان الثورة السورية (٢) :

(١) ديوانه ٧٣

(٢) ديوان الثورة ٣٧

الا قوتلت يا إنسان - من هذا تقائله  
 أليس أخاك من تردي وأختك من تنازله  
 ألا عطف تناشده ألا عدل تسائله  
 وفيم الانتداب إذا غلا بالفتك عائله  
 يموت الطفل من جوع ويحيا فيه قاتله

وقد صدر أحمد شوقي عن شعور إنساني أصيل في نفسه حين انقض  
 الطليان على برقة الآمنة كالوحوش الضارية ثم شفقوا زعيمها عمر المختار وهو شيخ  
 هدت جسمه السنون فقال من قصيدته الرائعة (١) :

يا ويحهم نصبوا مناراً من دم يوحى الى جيل الغد البغضاء  
 ما ضر لو جعلوا العلاقة في غد بين الشعوب مودة وإخاء  
 جرح يصيح على المدى وضحية تلمس الحرية الحمراء

وثمة قصيدتان لبدوي الجبل وخلييل مردم تحملان إسماً واحداً هو  
 ( شهيد إرلندا ) تعتبران نموذجاً لتعاقب المشاعر القومية والإنسانية ، فقد تطلع  
 الشاعران الى بطولة شعب صغير يربض فوق جزيرته ويقاوم الاستعمار بلا  
 هواة ، وهزهما نضاله ، فتجاوبا معه بعد أن ألف الجرح بينهما وبينه . ومما قاله  
 مردم في بطولة ذلك الشاب الإيرلندي (٢) :

بنفسى أنت من هاد امام أنار لمدلج الأقوام فجرأ  
 ليهنك أن أهل الأرض إلب على أن يدركوا لذويك ثأراً  
 كأنك من ذوي قرباي لما رثيتك باكياً نظماً ونثراً  
 ولكني بكل فتى كريم أخى ثقة عزيز النفس مغرى

(١) الشوقيات ٣ : ١٧

(٢) جريدة البرق عدد ١١٤٧ ، وانظر قصيدة بدوي الجبل في ديوانه ١٨٥

فقد وجد الشاعر في كفاح هذا الفتي وشعبه صورة حية لكفاح العرب وأخاً لهم في النضال المشترك ، وكانت أبياته تعبيراً عن التجاوب الانساني العميق بين أسرة الشعوب التي تؤلف بينهم رابطة الانسانية الشاملة .. وثمة قصائد أخرى من هذا القبيل عبر فيها أصحابها عن مشاركتهم بعض شعوب العالم في محنتها نشير من بينها إلى قصيدة « الفتاة الحبشية » لاسكندر الخوري البيجالي (١) التي تصور انقضاء قوي الطليان الناشئة على الحبشة الآمنة عام ١٩٣٥ ، وهذا التجاوب الانساني مرده أيضاً إلى ابتلاء العرب والاحباش معاً بالعدوان الاستعماري .

وهذه أبيات لنسب عريضة يتناطب فيها واثمه الامريكي الجديد في نيويورك وهي تمثل الجانب الايجابي من الاتجاه القومي ، وتعزف لحنها على وتر الاخاء البشري (٢) :

يا بنت مجد الغرب في الغلواء اني ابن الشام  
يا جارتى قلب ودود ليس يرغب في خصام  
يا جارتى لسنا على طرفى نقيض في المرامى  
مجدي ومجدك واحد ما بين أمجاد الكرام  
هو أن يسود الحق في دنيا المودة والسلام  
هو أن يعيش الناس إخواناً على شرع الوثام  
وأنا على عهد العروبة لن أزال إلى الخيام  
إن كنت بين الناطحات السحب أو بين الخيام

ومن هذا القبيل ما نظمه الرصافي في قصيدته يوم ( سنغافورة ) في الحرب الاخيرة (٣) وما نظمه على محمود طه وسواه من الشعراء إشادة ببطولة ستالنجراد (٤) ثم ما كان أخيراً من تجاوب شعراء العرب على نطاق واسع

(٢) ديوانه ٢٧٤

(٤) زهر وخمر ٦٣

(١) المفقود ٩٥

(٣) ديوانه ٤٧٣

تعداهم الى شعراء العالم وأدبائه ، مع أبناء ( هيروشيا ) التي حل بها دمار وهلاك  
لم يعهدما البشر من قبل .

وقد حرص الشعراء على أن يتجاوبوا من حين الى آخر مع مشاعر  
الشعوب الاخرى دون أن تربطهم بهم رابطة دين أو قومية أو جوار وإنما كانت  
العاطفة الانسانية وحدها مبعث تجاوبهم هذا ، فقد ايقنوا أن المأساة لا تقتصر على  
أمتهم فحسب بل تشمل سائر الامم بعد أن غدت البشرية العذبة ضحية الظلم  
والمدوان .

### ٣

والملاحظ أن أكثر ما تتجلى العاطفة الانسانية في الادب العربي المعاصر  
لدى المهجرين بالدرجة الاولى ، حتى إن ذلك غدا من سمات هذا الادب  
شعر ونثره . ولشدها كان يؤذي مشاعرهم أن يعتدي الانسان على أخيه الانسان  
ويؤذيه ، وكانوا في ذلك متأثرين بعوامل شتى في طبيعتها تعاليم المسيحية  
السمحة التي تبشر بالاخاء وتحض على التسامح ، ومنها نفورهم من الطائفية  
ومآسيها والاستبداد وقسوته ، ويضاف الى تلك الاسباب اتساع افقهم الاجتماعي  
في مهجرهم وتففتحهم للحياة الحافلة بأنماط من الاجناس والملل والنحل ،  
وعيشهم في بيئات جديدة تغاير ما عرفوه في الوطن الأم . ومن هذه البؤرة انطلقوا  
يستنكرون العنف ويستفظعون الحروب ويدعون للحجة وينادون بالسلام  
كأراحوا يهدمون كل ما قد يباعد بين المرء واخيه فنددوا بالطائفية  
والاقليمية والعنصرية .

ولعل ادباء ( الرابطة القلمية ) في المهجر الشمالي ونخص منهم جبران  
خليل جبران ومخائيل نعيمة في طبيعة من بشروا بالفكرة الانسانية ورفعوا

لواءها عالياً في الادب الحديث . فمن أراء جبران السائرة (١) : « الارض كلها وطني والعائلة البشرية عائلتي » ويجاريه نعيمة فيقول (٢) « ما هو العالم العربي ؟ إنه نقطة في بحر الانسانية والانسانية نقطة في بحر الكون » . ومن المرجح أن صدور مثل هذه الآراء عن علمين كبيرين من ادباء المهجر وركنين بارزين في الرابطة القلمية كان له صدى بعيد لدى سائر أعضائها وفي طليعتهم إيليا أبو ماضي . فقد خفت الصوت القومي لدى هذا الشاعر فيما نظم من قصائد بعد دخوله في عضوية تلك الرابطة وإن لم يذهب في شعره الى المدى الذي ذهب اليه جبران ونعيمة في نثرهما . وهذا الانعطاف واضح في نتاجه منذ ذلك الحين في ديوانيه البارزين الجداول ثم الخمائل .

إن المقيم في أرض الوطن يلفحه أتون المعركة ويرى بأم عينه لهيبها يلتهم إخوة له ثم يعقد قوافيه من جذوتها ليس كمن يرقب الامر من بعيد ويخلو الي نفسه المعلمنة ويستقي من معين عقله وفيض ثقافته وفلسفته ، « وما راء كمن سما ، . ومن هنا لم يعيش بعض المهجرين حقائق قومهم من جميع وجوهها .

ونحن نجد في المقدمة الضافية التي وضعها الشاعر القروي لديوانه الكبير إشارة الى هذه الظاهرة التي نبه أمرها في المهجر وردا غير مباشر عليها ، إذ أن جماعة « نصحوه بالانصراف عن الشعر الوطني الى الشعر الانساني ليصير شاعراً عالمياً » فأجلهم : « هب أصاب من قال إني كان في وسعي أن أصير شاعراً عالمياً فاني لست بأسف أنني أحبت بلادي أكثر من نفسي ، وحاولت أن أن افتدي مجدها بمجدي وخلودها بخلودي (٣) .

(١) انظر دمنة وابسامة ١٨٨ ، وأنظر أيضاً مجموعة المؤلفات ٢ : ٢٢٧

(٢) انظر عبد الكريم الاشتر : النثر وفنونه في المهجر الشمالي ١ : ١٧٣ ، والمبارة من

حديث شفهي لنعيمة مع

(٣) انظر مقدمة الديوان صفحة زل .

لقد كان عدد من ادباء المهجر ونقادهم يربؤون بالادب شعره ونثره ان يعالج قضايا الوطن ويعيرون القروي وفرحات والوليد باتجاههم القومي في قصائدهم . وقد انبرى القروي في شطر من مقدمة ديوانه ومقدمة اعاصيره للدفاع عن مذهبه وتفنيدهم النزعة الانسانية المزعومة فقال (١) : « وما الشاعر الوطني الحمى في امسة مستعبدة إلا الشاعر الانساني قبل اي شاعر سواه ، لان هذه المبادئ التي يسبح لها ويصلي في محرابها ويجهد في سبيلها ليست معبودة وطنه فحسب بل معبودة الاوطان جميعا . وامعري اية قيمة واي سرور ، واي فآل يجد المتبجحون بانسانيتهم المتخدره في عالم لا حرية ولا حق ولا عدالة فيه » وقال (٢) : « إن صراخ سورية وعويلها يكاد يقض مضاجع النائمين في المربخ ، ودخان غيظها يوشك ان يططن القبة الزرقاء بقبة سوداء ، افتريدون منا ان نجترح المعجزات فنسمعكم همس الازهار وسط هذا الضجيج ونصور لكم الوان الشفق وراء هذا القتام ؟ .. وهبواكم لا تؤمنون بغير الارض وطناً وغير الانسانية عشيرة ، افتعتقدون ان الارض قد صارت جنة والناس فيها ملائكة ينعمون ... إن الذي يفضح لحسق هضم في الصين اولى به ان يناضل لدفع حيف نزل بيلاده .. إن الحرية هي الحياة بمعناها الشريف ، وهي اول حقوق الانسان فهل من شروط حبكم للانسانية ان تنكروا الحياة على اقرب ابناء الانسانية اليكم ، افأتم اكلف بالسلام من مسيح السلام ، اما غضب فانها بالوسط على الصيرفة وباعة الحمام يطردكم من الهيكل غيرة على بيت أبيه ؟ » .

والحق ان هذه المقاطع من أقوى ما دافع به شاعر عن اتجاهه القومي وفند فيه تلك السلبية المشحونة بثوب الانسانية البراق .

على ان الشعر القومي ظل بصورة عامة معصوماً من هذه النزعة

(١) انظر مقدمة الديوان ص : ٧

(٢) مقدمة الاعاصير ٧ - ٤٩

الانسانية السلبية ، كما ظل من الناحية المقابلة بعيداً عن النزعات الاقليمية المتطرفة « ولم تستطع الدعوة الى الأخوة البشرية على ما فيها من نعمة عذبة جذابة ، ولا المذهب الاشتراكي الحر على ما فيه من قواعد معقولة ومقبولة ، أن يطمس معالم القومية الجنسية أو يذهب بالفوارق اللغوية والثقافية . فالعالم لا يزال مقسوماً الى إنجليز وألمان وفرنسيين وطلينان وعرب وأسبان وما الى ذلك من أقوام وشعوب » (١) ومن جهة أخرى فإن « القوميات لم تستطع مطلقاً أن تغلق الابواب على نفسها وتسد المنافذ على تحفز الانسان نحو الأفق الانساني ، كما لم تستطع التيارات العالمية سواء كانت أدياناً أم كانت مذاهب فلسفية أن تقضي على القوميات أو تحو هذا التقسيم الذي قسم الله البشر على أساسه إذ جعلهم شعوباً وقبائل » (٢) . إن تطور البشرية وازدهارها يتبن على أساس نحو وحدتها التي هي القوميات نحواً ذاتياً من جهة ونحواً على أساس تعانقها وتوسيع الصعيد المشترك فيما بينها من جهة أخرى .

ويبدو أن سبب بروز هذه النزعة السلبية في الأدب الحديث حتى كادت تغزل دعواتها عن كفاح شعوبهم ، ظهور بعض القوميات العدوانية المتناحرة في أوربة واعتمادها على العنصرية المتطرفة والقوة الغاشمة في سبيل التوسع والاستعمار كما كان الشأن في النازية والفاشية ، في حين أن القومية المتفتحة المتأخية مع سائر القوميات نواة للانسانية المنشودة ، والقومية العربية لا يمكن أن تكون عدوانية لأنها نفسها كانت ضحية العدوان .

والشعر القومي الحديث لم يحمل في ثناياه أية بذور للقومية العدوانية أو العنصرية المغالية حتى في فترات انجرافه مع المذاهب الاقليمية الضيقة ، فهو في قوميته لم يكن ليتعارض مع الانسانية ، بل كان عوناً لها ومرحلة

(١) من مقالة الدكتور عبدالرحمن شهنبر ، الهلال ، نوفمبر ١٩٣٦

(٢) انظر محمد المبارك : الامة العربية في معركة تحقيق الذات ١٧

طبيعية في سبيل بلوغها . وثمة آيات لخائيل خليل الله ويردي تعبر عن هذا التعاقب الجميل بين العروبة وبين الانسانية يقول فيها (١) :

نحن قوم زيد عيشاً كريماً      ولكل الورى نود النعما  
فاذا ضمت العروبة أبناً      ء بلادي فلنا المرام العظما  
ومتى وحد الاخاء بني الدنيا -      اتبعنا صراطه المستقما

وهذه هي العروبة الحقة وكل قومية متفتحة ، إنها نواة للانسانية الشاملة المنشودة ، ليست عادية ولا مستعدية ، وليست متعالية ولا متعصبة . وإن التعاطف مع آلام البشر ، والتجاوب مع أحداث العالم ، صفات أصيلة في القومية المتفتحة لأنها غصن نضير من دوحة البشرية . وليس أجدر من الأدب بأن يحمل هذه الروح الانسانية الايجابية لأن الفنان إنسان قبل كل شيء ، ولهذا فاننا نكبر عاطفة « حافظ إبراهيم » تجاه أهالي مسينا حين نكبوا بالزوال ، كما نكبر ثورة « برناردشو » على وحشية قومه في دنشواي (٢) وتنديد « رومان رولان » بفظائع الانكليز في حرب البوير (٣) لأن ضمير الانسان هو الذي تكلم في هؤلاء قبل أن يكون الواحد منهم عربياً أو انكليزياً أو فرنسياً .

إن ظروف الوطن العربي وابتلاءه بالاستعمار هي التي حدثت من انطلاق شعرائه في أجواء العاطفة الانسانية الرحية ، وفرضت عليهم أن يقدموا عليها الرسالة القومية . وإن السنين الطويلة التي عاشها العرب في نضال دائم جعلت شعراءهم ينهمكون في تصوير مآسي بلادهم وحفزهم أبناء قومهم قبل كل شيء آخر . ومع ذلك فقد كانت رسالتهم هذه تسير في مراميها الرسالة الانسانية ، لأنها تدعو الى إقامة العدل واعلاء الحق ، ورد الكرامة لكل

(١) ديوانه ٢٢٤

(٢) انظر مقدمة « جزيرة جونبول الاخرى »

(٣) راجع مسرحية « سيأتي الغد »



مواطن في أرضه ، وإعادة الحرية الى وطن وهو جزء من الوجود الشامل والى شعب هو عضو في أسرة الانسانية الكبرى .

من كل ذلك يتضح أن القومية المتفتحة والانسانية الحقة ليستا ضدّين تقابل إحداها الأخرى ، وان وجود إحداها لا ينفي بالضرورة وجود الثانية ، لأن القومية الايجابية ليست سوى خلية فعالة في جسم البشرية .

إن الشاعر شأنه شأن أي فنان ليس بوسعها أن ينفلت من وجدان قومه وأن ينسأخ عن تراب وطنه . والقومية ليست جداراً يحجبه عن الانسانية وإنها هي قمة سامية يشرف من فوقها على آفاق الانسانية الرحبية ، وإن إنسانية الأدب لا يمكن أن تعني إطلاقاً أن يتحلل الشاعر من أوامر الوطن ، ومن وشائج الارض ، ومن وجدانية اللحم والدم والتاريخ والمجتمع « ويخطيء من يظن أنه ليس في وسع الأدب والسمو الى افق الانسانية إلا بالابتعاد عن اللون المحلي أو القومي ، وربما كان العكس هو الصواب ، أي كثيراً ما كان الادب أصدق إنسانية إذا كان أصدق قومية ، ذلك أن الابتعاد المصطنع عن القضايا القومية والألوان المحلية يخرج الادب عن نزاهته وصدقته (١) ومتى استطاع الشعر أن يكون تعبيراً حياً عن تجارب أصيلة صادقة ووجد فيه أي إنسان في اي مكان نفسه وحقيقته فقد اكتسب الصفة الانسانية ، لان الفن الحق الاصيل لا وطن له ودو ملك لن يتذوقه . وعلى هذا الاساس تروعننا إلياذة هوميروس والف ليلة ولييلة وسيرة الأيام وعنتره ... على الرغم من بروز السمة القومية المحلية في هذه الاثار الأدبية جميعاً .

وتعدد القوميات في الأسرة الانسانية يعني في الوقت نفسه تنوعها وتعدد

---

(١) الدكتور أمجد الطراباسي : من محاضرة « الادب العربي بين الادب القومي والادب الإنساني » ص ١٨٣ نشرت في مجموعة دار الكتب الوطنية مجلد عام ١٩٥٢

الوانها تبعاً لاختلاف بيئتها ومشاربها وظروف حياتها ، إذ لكل قومية طبائعها وامزجتها وعقليتها وميولها واتجاهاتها . وبكلمة واحدة لكل قومية ذاتيتها وشخصيتها . والاختلاف فيما بينها أشبه بالفوارق الذاتية بين أفراد الأسرة الواحدة . وربما كان هذا أبرز ما يميز الجماعات البشرية من سائر الاحياء . وتبعاً لذلك كان لكل قومية أدب متميز يعكس شخصيتها وطبيعتها ويصور مطامحها وآلامها ومنازعتها . وفي أدب العرب اليوم كما كان شأنه بالامس شعر يتسم بطابع ذاتي وخصائص مميزة . الا أنه في الوقت نفسه شأن كل أدب حي متطور لا يهمل السمات الانسانية العامة التي تلتقي على صعيدها سائر القوميات العاملة المتفتحة ، إنه أدب يموج بالحياة ويسهم في تنمية وإغناء النشاط الانساني الرفيع . وكما نجد في شعور كل فرد وجهين ذاتي وجماعي فليشعر كل جماعة أيضاً وجهان قومي وإنساني . والشعر خير ما ينبغي له أن يصور هذه المنازع الأصلية في الذات وفي الجماعة على السواء .

إن النزعة الانسانية المصطنعة ربما أبعدت الانسان عن وطنه ، أما النزعة الانسانية الأصلية فهي التي تربطه بوطنه ربطاً لا انفصام له . (١) وعلى هذا فالدعوة الى الاستقلال والمطالبة بالحرية ومكافحة الاستبداد اهداف قدستها الشعوب وباركت من بشرها . وقد كان لها في الأغلب وجهان قومي وإنساني معاً . وإن من الاعمال الأدبية الحديثة التي استلهمت من وثبة القومية العربية ما يحمل في طياته بذور الخلود والانسانية ويمكنه ان يتعدى الحدود ليجد فيه كل شعب طريقه الى الحرية مرآة لنفسه وإن أدبا كهذا ، دائم الاتصال بالقيم البشرية لا شك أنه جدير بالحياة » (٢) .

والشاعر بصورة عامة ، ونظراً لطبيعته المرهفة ونفسه الصافية نفور من

(١) انظر المرجع السابق

(٢) المرجع السابق

التباغض والخصام يشمئز من الدماء والحروب ، ويتفطر قلبه أسى للبؤس والشقاء ، فهو تواق أبداً الى إدراك الأهداف السامية التي تحقق لأمته ولسائر البشر ، العدالة والرخاء والسلام .



وجملة القول لم ينبجس الشعور القومي العربي صافيا في الشعر الحديث أول الأمر . فمد ولادته في نفوس العرب صحبته منازع أخرى أخذت تضفي عليه ألوانها حتى بات من العسير التمييز بينها وبينه ، بل استطاعت هذه المنازع في بعض الأحيان وتأثير ظروف وعوامل تاريخية واجتماعية أن تطغى على الحس القومي السليم وتحرف به عن الطريق السوي .

وعلى الرغم من ان الشعور القومي العربي اتسم في بعض الأحيان بصراع مع المنازع الأخرى مثل الجامعة الاسلامية والروح الوطنية المحلية ، إلا انه افاد منها كثيراً في تطوره وازدهاره ؛ فقد عزز الشعور الديني في كثير من الأوقات شعور العرب بعروبهم ، وكذلك اكتسب هذا الشعور قوة بازدهار الوعي الوطني المحلي في بعض الأقطار العربية ، واتفقت ايضاً النزعة الترقية ضد الغرب المستعمر في كثير من وجوهها مع الاتجاه القومي ، كما انسجمت النزعة الانسانية التي تدعو الى السلام وسعادة البشر وتحرير الانسان من العبودية مع الأهداف القومية الأساسية .

كل هذه الاتجاهات كانت اشبه بروافد مختلفة الألوان والطعوم انصبت على تيار القومية العربية فأكسبته غناء ومضاء .

وكان طبيعياً ان يأخذ الاتجاه القومي طريقه السوي بعد ذلك وان تتضح معالم القومية العربية بتأثير الاحداث الجسام التي تعرض لها العرب في تاريخهم الحديث وكانت كالنار تطرد الخبث من الحديد . « واما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

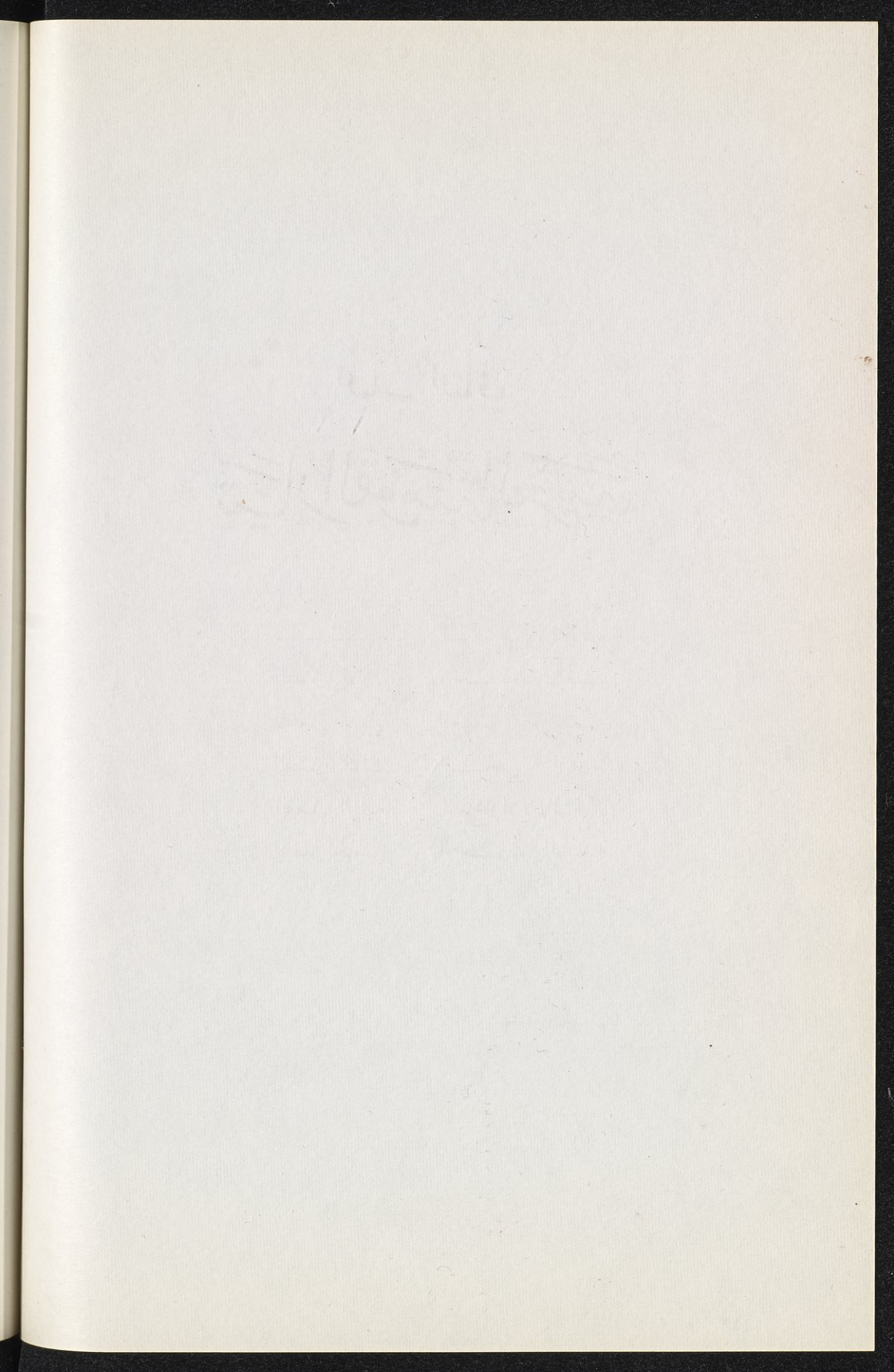
وقد عكس الشعر العربي الحديث على صفحته الراقية مجمل ذلك الصراع والتطور والانحراف وعبر عن مختلف المنازع التي لازمت الشعور القومي خلال فترات معينة ، كما عبر عن تلك الشوائب التي علقت به حيناً من الدهر ثم انحسرت عنه .

وربما كانت مراحل هذا الصراع الفكري اشد بروزاً في النثر الحديث ، لأن الشعر بحكم طبيعته يضيق بالجدل والصراع المذهبي ، ولهذا فإن المضمون فيه - كما تبين لنا - لم يتسم بهذه الحدة التي عرفها النثر . والشعر اشبه بصفحة القمر الذي يعكس إلينا الاشعة اللاذعة التوهجة معتدلة لطيفة ..

## الباب الثاني

# تيسار القومية العربية

نشوء الفكرة القومية	تمهيد
وحدة الأصل	الفصل الأول
اللغة العربية	الفصل الثاني
الماضي المشترك	الفصل الثالث
المطامح والآلام المشتركة	الفصل الرابع
الوحدة العربية	الفصل الخامس



تهذيب

## نشوء الفكرة القومية

ليس الارتباط بين أفراد القومية الواحدة ، إلا تعبيراً عن غريزة حفظ الذات الجماعية التي هي امتداد للتعبير عن غريزة الشعور بالأناية في النطاق الذاتي للفرد .

وإذا كانت القومية بمفهومها البسيط تعني شعوراً مشتركاً بين جماعة من البشر بأن ثمة ما يجمعهم ويؤلف بينهم ليكونوا أمة واحدة متميزة عن سائر الأمم ، فإن القومية بهذا المعنى عريقة في وجودها لدى الأقوام منذ فجر التاريخ وقيام المجتمعات المتحضرة . فهي تتمثل في الهنود والصينيين والآشوريين واليونان وغيرهم من الأمم التي كانت ذات قومية متميزة ، بعضها باد ليندمج في قوميات أخرى وبعضها ما زال قائماً .

« فالقومية بهذا المعنى شيء موجود في التاريخ باستمرار . وقد يشتد الشعور بها فتكتسب قوة تجعلها فعالة في التاريخ حتى لتطغى على كل علاقة أخرى تجمع بين الانسان والانسان . وقد تضعف فتظهر عليها قوى أخرى تكون أكثر فعالية وشدة ، فيتوارى الشعور بالقومية لتحل محله روابط أخرى

ولكنه لا ينعدم بل يستكن في النفوس ويكن في ضمير الأمة » (١)

ولقد كانت القومية العربية موجودة على هذا الشكل الباهت الغامض خلال عصور ما قبل الاسلام ، تغلبت عليها الرابطة القبلية فتوزع ولاء العرب نتيجة لذلك على عدد من شيوخ العشائر . ومما يؤكد وجود تلك القومية آنذاك ، الوجدان المشترك المتمثل في الشعر الجاهلي والأمثال والأساطير والحج والمعتقدات والعادات المشتركة وغيرها . وثمة مثل بارز على انطلاق المشاعر القومية من مكائنها في نفوس العرب حين قام الفرس بغزو بلادهم في معركة ذي قار ، فقد استيقظت المشاعر القومية لدى عدد من القبائل تجاه قومية أخرى عادية ، وكان ذلك إرهاباً بوحدة العرب في ظل الاسلام .

ثم انتشر الاسلام بين قبائل العرب فأخى بينها ووضع حداً لتناحرها وتباؤها ، ووحدها في أمة تدين بالولاء لزعيم واحد من طيبتها ، وكان الفضل الأول في ذلك للعقيدة الجديدة التي اعتنقها العرب فألفت بينهم وتغلبت على كل رابطة سواها .

وما حدث بعد ذلك أن الاسلام انتشر بين الترك والفرس والهنود وغيرهم ، وكان أن تقبلت هذه الأمم دين العرب ولكنها لم تقبل قوميتهم ، ولذلك حافظت على كيائها ، وكانت من أبرز عوامل الاضطراب في الدولة الاسلامية ، لأنها كانت تنزع باستمرار الى الاستقلال بقوميتها في دولة ذات كيان متميز .

---

(١) انظر محمد منيف الرزاز في محاضرة له عن القومية ألقاها في الكويت .



وقد صور الأدب العربي القديم وبخاصة في العصور العباسية الصراع المرير بين العرب والفرس والدعوة الشعوبية ، كما صور من جهة أخرى الصراع بين العرب والترك والنصرة الطورانية . وقد وجدنا بوادر الفكرة العربية لدى أبي تمام والمتنبي وغيرهما ، وكان دعبل الخزاعي وعبدالله ان المعتز من الشعراء الذين تصدوا بسليقتهم القومية السليمة للخلافة والترك من مثل (وصيف ، وبغا ، وأشناس ، وبلغر) ونددوا بتسلطهم على الحكم في العصر العباسي .

ومن ذلك يتبين أن الدين حتى في أزهى عصوره سواء في الشرق أم في الغرب لم يتمكن من التغلب على المقومات القومية للأمة ، وإن كان في الوقت نفسه عاملاً فعالاً في الكيان القومي المستقل لدى كل أمة . وقد بقي الاسلام - تبعاً لدوره العظيم في بث القومية العربية ومصاحبته إياها قروناً مديدة - مختلطاً لدى العرب بالمفهوم القومي حتى العصور الحديثة « حين تأثرت القومية العربية وسائر القوميات في الشرق بظهور القوميات الغربية وأفادت من تطورها وفلسفتها واهتدت بهديها ، ثم انصهر ذلك كله في الشعور القومي الأصيل النابع من ذات الأمة ، والذي اتخذ هذا المظهر العاتي البارز تجاه الاستعمار ، وشرعت تطرد الضباب من حولها وتخلع ثوب الغموض الذي كانت ترتديه قبل القرن التاسع عشر » (١) .

وقد انصهر التراث العربي الجوهري بالتفكير الغربي الحديث ، وحدث تفاعل امتزج بشخصية الأمة وظروفها الراهنة ، وتولد شعور قومي متميز لا بالقديم ولا بالأوروبي وكان أبرز مظهر لهذا الشعور القومي مطالبة العرب بأن تعود الخلافة إليهم بعد أن اسثأثر بها الترك قروناً ، كما تجل ذلك

(١) المرجع السابق .

فما كتبه عبدالرحمن الكواكبي ولجيب عزوري وسواهما . « ولم تعد القومية مجرد رد فعل انطوائى سلبى ينتهى الى الرجعية والتعصب ، ولا رد فعل مقلد ينتهى الى إنكار الذات ، وإنما استجالت الى رد فعل واع تجاه الاستعمار وما ينطوي عليه من استعباد وكتب للحريات واستغلال للخيرات وزرع للنعرات الطائفية والعنصرية والطبقية . وأصبحت القومية العربية عقيدة إيجابية خلاقة لكيان أمة جديدة حديثة تقوم على أسس وطيدة ودعائم ثابتة من الاستقلال والتحرر الاقتصادي . هي في نشأتها وظروف نموها تختلف عن القوميات الغربية التي غدت عدوانية توسعية لأنها ترعرعت في ظل النظام الاستعماري (١) » .

وكان طبيعياً أن يفتقر المفهوم القومي خلال فترة من حياة العرب الحديثة الى الدقة والتحديد والوضوح شأنه في ذلك شأن كل مفهوم اجتماعي ، وقد رأينا في الفصول السابقة مدى تصوير الشعر الحديث ظاهرة اختلاط القومية العربية بالعقيدة الاسلامية والعاطفة الشريفة ثم بالنزعات الاقليمية الشائبة .

ومع أن الشعر القومي قد واكب نضال العرب منذ أواخر القرن التاسع عشر فإن الفكرة القومية لم تجد لنفسها مكاناً في الشعر الحديث إلا بصعوبة . فالعاطفة الوطنية في مصر كانت وحدها تطبع قوائد الشعراء منذ عهد البارودي وما قبله أيضاً ، دون أن تتسم تلك الوطنية بميسم القومية العربية ، كما كانت العاطفة الدينية طابع كثير من الشعر الوطني في العالم العربي .

---

(١) انظر المرجع السابق

ولكن عدداً من شعراء العرب وبخاصة في لبنان استطاعوا أن يكونوا في أذهانهم مفهوماً سليماً للقومية العربية منذ ذلك الحين ، فكانوا رواد الاتجاه العربي . وقد أخذ شعور العرب بقوميتهم وعروبتهم يتميز ويقوى باطراد في أواخر العهد العثماني ، « وإن إلحاح عدد من الشعراء على لفظي العرب والترك ، وإبرادهما معاً وتوجيه الخطاب الى الفريقين على أنهما طرفان تهما قضية مشتركة لا أمة واحدة متماسكة قد انصهرت عناصرها في قومية واحدة ، إن هذا الإلحاح إن دل على شيء فعلى أن الفكرة العربية قد شقت طريقها الى الامام ، وعلى أن الانفصال النفسي كان قد وقع فعلا بين الترك والعرب ، وعلى أن هذا الانفصال قد استقر فعلا وبصورة لا شعورية في نفوس الشعراء جميعاً سواء في ذلك من كان عربي الاتجاه أو عثمانيه » (١) من ذلك ما نراه مثلاً في قول أحمد محرم (٢) :

يا آل عثمان من ترك ومن عرب      وأي شعب يساوي الترك والعربا  
أو قول شوقي (٣) :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب      حياك من يبعث الموتى ويحييها  
أو أمين ناصر الدين (٤) :

بني العرب والأتراك أين حمية      يروع العدا منها اللظى المتسعر

(١) الدكتور أمجد الطرابلسي : شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ٥١

(٢) ديوانه ٢ : ٤

(٣) الشوقيات ١ : ٣٢٥

(٤) صدى الحاطر ٢٥

والواقع أن الفكرة القومية نمت بشكلها الواعي ومفهومها الحديث في أذهان مثقفي العرب الذين كانوا منتشرين في الآستانة وباريس والمهجر نتيجة احتكاكهم بالقوميات الأخرى واتساع آفاقهم . ولقد كانت هذه الفكرة كامنة في نفوسهم تغشها العاطفة الدينية المشتركة مع الترك ، إلا أن نموها السريع كان على شكل رد فعل تجاه القومية التركية المتطرفة (الطورانية) ؛ من ذلك أن أحد غلاة الترك تعمد أن يردد على مسامع بعض العرب قصيدة تركية تم عن تلك الروح المتعالية فيها تجمد صارخ للعرب ولرسولهم معاً ، وما زال الأمير مصطفى الشهابي يذكر أحد آياتها وهو (١) :

جد مذ جنكيزخان عاقلدر بزم      جد مز جد الحسينهم معادلدر بزم

ومعناه :

جدنا نحن جنكيزخان العاقل      وجدنا نحن معادل جد الحسين

ومن هذا القبيل اقتراءات جديدة (إقدام) التركية على العرب وتصرفات الترك الشائنة ضدهم مما كان له أسوأ الأثر في نفوس العرب . وكان في الوقت ذاته خير موقظ لقوميتهم الكامنة .

ومنذ ذلك الحين ، وبعد أن قامت الحرب الكبرى يدخل الشعر القومي في طور جديد تزداد معه الفكرة العربية قوة واتضحاً نتيجة لزيادة الوعي القومي من جهة ولانحسار المفهوم الديني والعاطفة الشرقية ، ولخروجها

(١) انظر كتابه محاضرات في القومية العربية ٦٤

ظافرة بعد ذلك من حومة صراعها مع النزعات الاقليمية الضيقة من  
جهة أخرى .

ولعل أول ما نلاحظه في هذا الشعر الذي قيل منذ قيام الحرب الكبرى  
أن الفكرة العربية قد أفادت في نشأتها من الحركات القومية الأخرى التي  
كانت تقوم من حين إلى آخر في الدولة العثمانية ، كحركات شعوب البلقان التي  
كان لها صدى في نفوس العرب فضلا عن صدى سائر الحركات الأخرى  
في أوربه .. وقد دلت بعض قصائد الشعراء آنذاك على هذا التأثير ، من  
ذلك قول إيليا أبي ماضي مخاطباً قومه (١) :

أبناء سوريا الفتاة تضافروا      وخذوا مثالتكم عن البلقان  
ما الترك أهل أن يسودوا فيكم      أو تحكم الآساد بالظلمان (٢)

ولا يبعد أن تكون عبارة (سورية الفتاة) التي وردت في قوله من  
مظاهر تأثر الشعراء بعبارة (تركية الفتاة) وهي اسم الحزب الذي  
أسسه الترك وجاراهم فيه العرب بعد ذلك بتأسيس حزب آخر يحمل  
اسم (العربية الفتاة) . ونجد هذا الاتجاه أيضا في قصيدة أخرى لأبي  
ماضي يقول فيها (٣) :

أبناءؤكم ، لطفى على أبناءكم      يلهو بهم أبناء جنكزخان  
ثوروا عليهم واطلبوا استقلالكم      وتشبهوا بالصرى واليونان

(١) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر ١٣٥

(٢) الظلمان مفردتها ظلم وهو ذكر النعام .

(٣) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي ١٨٧

فهذا الفهم الصحيح للفكرة القومية عند أبي ماضي مرده إلى إدراك حقيقة الثورات القومية التي كانت تنشب في تلك الفترة ، مما جعله يجد أن قضية بلاده لا تختلف في جوهرها عن هذه القضايا القومية في شيء وليس مصادفة أن تنطلق البادرة التحررية الأولى قبل ذلك من البلقان نفسها حيث كان بعض الضباط العثمانيين من العرب والترک يعيشون في غمرة الشعور القومي اللاهب ويتشبعون بروحه الثورية حتى آل بهم الأمر عام ١٩٠٨ إلى زحفهم الشهير على الآستانة وإكراههم السلطان على إعلان الدستور وإطلاق الحريات العامة .

وبشير أبو ماضي أيضاً إلى ظاهرة القوميات التي تعاضم شأنها في العالم ويعجب أن يرى العرب بعيدين عنها فيقول (١) :

أدركت غاياتها كل الشعوب نهض الصين وما زلنا نيام

وعلى هذا الصعيد القومي ينظر أبو ماضي إلى حكم الترك للعرب فيرى فيه تحكماً للأقلية في الأغلبية (٢) :

إلى كم يحصرون الحكم فيهم      وكم ذا يتغنون بنا احتكاماً  
ألسنا نحن أكثرهم رجلاً      إذا عدوا وأرفعهم مقاماً

كما يقول (٣) :

متى كان جنكيز لفتحطان سيدياً      فيمسى بنو هذا لذلك موالياً

---

(١) المرجع السابق ١٥٦

(٢) المرجع السابق ١١١

(٣) المرجع السابق ١٩٩

والملاحظ في البيت الأخير والذي قبله أن روح الاعتداد بالعروبة أخذت تشتد في الشعر العربي وتسم في هذه المرحلة من نشوئها بشيء من التعالي اقتضته غطرسة الترك . ومن جهة أخرى فإن الكثيرين من الشعراء العرب المسلمين لم يكونوا آنذاك يصدرون عن مثل هذه الآراء ، فقد كانت غالبيتهم ترى في ثورات البلقان حركات هدامة تهدف إلى إضعاف الامبراطورية العثمانية وتشكل خطراً على دولة الخلافة وعلى الاسلام نفسه . بل إن عدداً كبيراً من العرب لم يكن آنذاك يستشعر خطراً من جراء تحكّم الترك به لأنهم كانوا في نظره مسلمين ، وليس من ضير في أن يرئس المسلمين مسلم وإن كان غير عربي .

إلا أن إعدام جمال باشا أحرار الشام إبان الحرب الكبرى كان نقطة تحول في مشاعر العرب القومية ، إذ فتح هذا العمل الطائش أعينهم على أن الدين وحده ليس بوسعه أن يؤلف بين عنصري الامبراطورية المتداعية ، وأنه ليس ما يحول دون استقلال كل عنصر في دولة متميزة . وقد أدرك الشعراء مغزى هذا التتكيل وأشاروا إلى أن ذلك يرجع أولاً وأخيراً إلى نزعتهم القومية الخالصة وأن هذا الانتقام هو ذروة الصراع بين القوميتين الرئيسيتين في الدولة العثمانية . وهذا بشير ميوت يعبر عن ذلك في صدد رثائه لعمر حمد أحد الشهداء الذين بطش بهم السفاح يومذاك (١) :

ذهبوا في حب أمّهم شهداء الفضل والشيم  
 ذنبهم في الدهر أمهم عرب للترك لم تم

(١) ديوان عمر حمد ١٦

ويرد الزهاوي القضية الى جوهرها القومي إذ يقول في قصيدته  
« النائحة » (١) :

لعمر كليس الأمر ذنباً أصابه      قصاص ، ولكن يعرب ومنغول

كما يعبر عن الفكرة نفسها فيما بعد محمد المدناني ذا كراً أولئك الشهداء (٢) :

وما وزرهم إلا إباء نفوسهم      وأنهم عرب فيا حبذا الوزر

وقد ضرب ( أتاتورك ) بعد الحرب الأولى مثلاً صارخاً للعرب وسائر  
شعوب الشرق في الانتفاضات القومية وبناء الدول على أساس قومي حديث ، وفي  
ذلك يقول شكر الله الجر معجباً بذلك البطل القومي (٣) :

ومن كان كالغازي فما ضل ناهج      مناهجه أيان بالشعب يما  
فما أجمل الاسلام بالشرق لومشى      على خطوات ( المصطفى ) مترسما

كما صدر محمد الشريق عن هذا الاتجاه بصوره أوضح في تأثره بالانتفاضة  
القومية التركية والایرانية فقال مخاطباً سعد زغلول (٤) :

إن العروبة يا زغلول قائدنا      فاجهر كما جهر الأتراك والمعجم  
وامدديدك وصافح كل من نطقوا      بالضاد يقبل عليك القوم كلهم

(١) رفائيل بطي : الشعر المصري في العراق ١٨

(٢) الالهيب ٣٢

(٣) الروغد ٣١

(٤) ديوان الثورة ٤٠



والشاعر نفسه يوضح ما رمى اليه ويقول « جهر الترك بالجامعة التركية ...  
وقد سلك الفرس هذا الطريق عينه في نهضتهم الجديدة » .

ثم انطلقت الفكرة القومية من صميم ظروف العرب وحياتهم وراحت  
تنمو في نفوسهم باطراد على هذا الأساس الحديث الذي وجدته في بعض القوميات  
التي عاصرتها وشابهتها في ظروف ولادتها ونشأتها والتي كانت بمثابة  
الجداول التي ترفدها وتزيدها صقلا وجلاء . وقد عبر فوزي المعلوف عن  
هذه الرغبة الملحة التي كانت تعتلج في نفوس العرب وتحفزهم الى قوميتهم العتيدة (١) :

فلتحى قومية كانت لنا نسباً      يضم اشتاتنا ما فاتنا النسب  
ومن يكون بلا قوم يدل بهم      فلا يشرفه دين ولا لقب

كما أدرك حافظ ابراهيم في « عمريته » منذ نهاية الحرب الكبرى أن  
تصدع القومية العربية كان السبب المبائر في انهيار مجد العرب بعد أن تحكمت فيهم  
العناصر الأجنبية (٢) :

واها على دولة بالامس قد ملأت      جوانب الشرق رغداً من أيديها  
والله ما غالها قدماً وكاد لها      واجتث دوحها الا موالها  
لو انها في صميم العرب قد بقيت      لما نعاها على الايام ناعها

وهكذا استعرت المشاعر القومية في نفوس الشعراء على نطاق شامل ،  
وأخذت فكره العروبة تشق طريقها بقوة في الشعر الحديث ، حتى غدت مبدأ

(١) ديوانه ٣٠

(٢) ديوانه ١ : ٧٧

يدين به الادباء وعقيدة يعتقونها وينافحون عنها.. من ذلك ما نجد في قصيدة تصدى بها الرصافي لشكري غانم وبعض اللبنانيين الآخرين الذين لم يتورعوا عن اعلان تبرئهم من العرب والعروبة (١) :

وهل حسبوا ان العروبة في الوري من العر حتى انكروا ذلك المرا

بل غدت العروبة هدفاً مقدماً يستعذب الموت في سبيله كما قال ابو ريشة في صدد اشارته الي نضال بلاده (٢) :

هل ترى فوقها سوى كل حر يقحم الموت في سبيل العروبة

وكان اول ما خاضه الشعر الحديث الذي بشر بفكرة العروبة تلك المارك الجدلية على الصعيد الفكري والعاطفي ضد الطائفية الدينية المستعصية والنزعات الاقليمية المنحرفة . ومع ان معالم الطائفية والتمصب كانت اوضح في لبنان منها في سائر بلاد العرب بنتيجة عوامل استعمارية ورواسب اجتماعية ، فمن الحق ان نقول ايضاً ( كما سيتضح بالتفصيل في فصول قادمة ) ان شعراء لبنان ونحس المسيحيين منهم والذين عاشوا في المهجر كانوا حرباً شديدة على هذا الانحراف القومي ، فقد اتخذوا من القومية العربية عقيدة لهم وراحوا يبدشرون بها بجرارة وايمان ، وفي ذلك يقول محبوب الخوري الشرتوني (٣) :

قالوا تجب العرب قلت اجبهم يقضي الجوار على والارحام

(١) ديوانه ٤١٦

(٢) ديوانه ١٦٠

(٣) ديوانه ٨٢

قالوا لقد بخلوا عليك اجبتهم اهلى وإن ضنوا علي كرام  
قالوا البداوة ، قلت اطهر عنصر صفت القلوب هناك والأجسام  
ومحمد بطل البرية كلها هو للاعارب اجمعين إمام

فالشرقوني يعترف بمحمد اعزاز المسادين به ويعده القائد الاول  
للعرب كافة . كما يعترف الشاعر القروي بعروبه حتى يباع حد  
التقديس (١) :

اني على دين العروبة واقف قلبي على سبحاتها ولساني  
إنجيلي الحب المقيم لأهلها والذود عن حرمتها فرقاني

ولا ريب ان غلبة روح الجدل والمنطق على الفكرة القومية لدي شعراء  
لبنان في اوائل عهدها واتسامها بطابع التحدي في بعض الأحيان يعود الى  
وجود بؤر تنكر العروبة كما تبين لنا ذلك في حديثنا عن النعرة  
الاقليمية ، ولذلك قلنا ان نجد هذا الطابع فيما نظمه سائر شعراء الاقطار  
العربية . وهذه المرحلة من نشوء الفكرة القومية امر طبيعي في الشعر الحديث  
شأن كل دعوة جديدة تحاول ان تشرق طريقها الى الأذهان . ولنا في الدعوة  
الاسلامية خير مثل على ذلك ندسه جلياً في سور القرآن المكية وفي خطب  
الرسول عليه السلام ومواقفه .

ومن اطرف ما سجله الشعر الحديث من مظاهر ازدهار الفكرة القومية  
وتعاضد شأنها ، ان عدداً من الشعراء حاولوا ان يطبعوا الانبياء الرسامين بالطابع  
القومي فضلاً عن رسالتهم الدينية والانسانية المقدسة . من ذلك مثلاً قول ابي  
الفضل الوليد (٢) :

---

(١) ديوانه ٤٢١

(٢) الانفاس المهية ١٣٢

كان الرسول حجازياً بولده      فشرّف الشام لما زار غسانا  
وكان عيسى شامياً فما وطئت      رجلاه ارباض يونانٍ ورومانا

وقد رأينا الشاعر القروي أيضاً ينظم قصيدة قومية يناجي فيها السيد  
المسيح ويعتبره « السوري الأعظم » ثم يقول (١) :

أنت يا ابن الله سوري صميم      أفناس يا ترى أم تنناسي



وبعد أن تخف وطأة الأثر والاقْتداء بالقوميات الأخرى ، وتنحسر موجات  
الطائفية والإقليمية عن المجتمع العربي ، ويبدأ الشعر المعاصر بالتخلص من تلك  
الظواهر السلبية ، يتجه الشعراء إلى إبراز المقومات القومية بروح إيجابية بناءة  
ويأخذون دورهم القيادي في الدعوة إلى الفكرة القومية السليمة على أسس وطيدة  
مستمدة من طبيعة أمتهم العربية ومستوحاة من النظريات الاجتماعية والمفاهيم  
الفكرية الحديثه .

وهذه الاسس والمقومات التي حام حولها الشعراء وجعلوا منها محور  
مضمونهم الشعري تتركز في النواحي التالية :

وحدة الاصل العربي - وحدة اللغة العربية - الماضي المشترك - الآلام  
والآمال المشتركة - الوحدة العربية .

وهذه ليست في جوهرها إلا العناصر الرئيسية للاتجاه القومي العربي  
في الشعر الحديث .

---

(١) ديوانه : ٤٣٩

## الفصل الأول

### وحدة الأصل

العرب من أشد الأمم تمسكاً بالأنساب ورعاية لها، وقد تجلت هذه الظاهرة بشكل بارز في أدبهم القديم وبخاصة في شعر الحماسة والفخر.

ويبدو أن تلك الظاهرة سرت إلى العرب المعاصرين فحاولوا بعثها بشكل جديد في أمتهم باعتبارها إحدى الروابط القومية التي تشيع الثقة والاعتداد في نفوسهم وتوحي إليهم بأنهم أحفاد أولئك الأبطال الذين حملوا شعلة الحضارة قروناً مديدة وكانوا سادة العالم في اقرون الوسطى.

وربما كان الشعر في مقدمة الفنون استجابة لابرار رابطة النسب القومي والاعتزاز بوحدة الأصل وقد رأينا أن القصائد التي عكست ما ظهر في المجتمع العربي من نزعات قومية ضيقة كانت ترتكز في جوهرها على إيجاد رابطة قرابة وشيجة مع الفراعنة أو الفينيقيين أو سواهم ممن اعتبرهم بعض الشعراء أجداداً لهم. والواقع أن طبيعة الاتجاهين واحدة سواء ما كان منها متعلقاً بالانتساب إلى العرب أو بمن سبقهم من الأمم الغابرة.

ومن المسلم به علمياً أن النسب المادي الديموي (١) مع الشعوب القديمة

(١) يعد Gobineau في كتابه «عم المساواة بين الاجناس البشرية» من أبرز دعاة النظرية العرقية التي أخذ بها الالمان وأماموا عليها النازية فيما بعد، وقد ذكر بيير رونوفن «إن علماء الحياة برهنوا منذ زمن طويل على أن فكرة العرق إنما هي ضلال، وأنه لا يوجد في أوربة عرق نقي، وبالتالي أن فكرة العرق في الحقل العلمي ليس لها قيمة» انظر كتابه «تاريخ القرن العشرين» ترجمة الدكتور نور الدين حاطوم ص ٢٩٧.

والأجناس الأصلية لم يعد له اليوم وجود بين البشر نتيجة التمازج الكبير الذي تم بينهم على مر العصور . وعلى هذا ليس من أمة تستطيع اليوم أن تدعى لنفسها قرابة صافية مباشرة مع عرق من العروق أو شعب من الشعوب . وليس ذلك مما يضير الشعور القومي في شيء لأن النسب المعنوي كثيراً ما يفوق النسب المادي بين الجماعات . وقد رأينا الشعوب الناهضة تشيد كياناتها وتبعث قوميتها بالاعتماد على الأواصر الثقافية والروحية والتاريخية .

ومع ذلك فاننا ما زلنا نرى عدداً ولو ضئيلاً من الشعراء المعاصرين يهجون نهج القدماء في الاعتماد على رابطة النسب الحقيقي من بينهم مثلاً الشاعر المصري محمد عبد المطلب الذي « كان عربي النشأة والمولد والبيئة معتزلاً بنسبه هذا كل الاعتراز وكان شديد العصبية لسلف هذه الامة وقوادها وعلماؤها ومؤلفيها » (١) وهو يرجع بنسبه الى جهينة وبيته بها في شعره إذ يقول (٢) :

وأنا ابن الصيد من أنكرني	ينكر الليث إذا ما انتسبا
من أبيين كرام ضربوا	فوق هاتيك المعالي قيبا
وكفاني من فخاري نسبة	جمعت في طرفيها العربا

وهذا علي الجندي ينسج أبياته على هذا المنوال ويزهى بنسبته العربية (٣) :

بني الجزيرة تهفو نحوكم كبد	تهوى على الحضر القيصوم والضالا
لست الغريب في قريتي ولي نسب	إلى ربيعة ما حالت ولا حالا
إن كان كندة أعمامي أتبه بهم	فإن لي في بني شيبان أخوالا

وليس هذا التفاخر من باب المجاز لأن الشاعر نفسه يعلم على قصيدته مؤكداً أن آباءه كنديون وأجداده لأمه من بكر وائل من ربيعة . ومع أن شعراء آخرين منهم محمد العدناني في فلسطين وبعض الشيعة في العراق كانوا حريصين على عقد روابط مماثلة مع آل البيت أو مع سواهم من العرب

(١) عمر الدسوقي : في الادب الحديث ٢ : ٣٠٦

(٣) أغاريد السحر ١٣٥

(٢) المصدر السابق ٢ : ٣٠٨

الأقدمين فان هذه الظاهرة تبقى محدودة في الشعر الحديث لا تعدو النطاق الفردي، وهي بالتالي لا تصاح لأن تكون رابطة قومية اجتماعية تشمل العرب جميعاً. وكل إشارة في الشعر الحديث الى الأجداد أو الأحفاد لا تعدو أن تكون رابطة معنوية برغم ظاهرها المادي كقول حافظ إبراهيم عن سورية ومصر (١) :

أم اللغات غداة الفخر أمهما      وإن سأت عن الآباء فالعرب  
أو قول محمود غنيم (٢) :

إن تسألوا عني الى من أنتمي      فالى رعاة النوق والأغنام  
وحين يقول محمد علي الحوماني مثلاً عن السوريين إنهم (٣) :

عرب الأحساب والدهم      يعرب والجـد قحطان

فهو يعني في الحقيقة نسباً جمعياً استدعته الروح القومية المتوثبة ، وما جعل ( يعرب ) والدأ و ( قحطان ) جداً إلا تعبير أريد به مدلوله الواسع والرابطة المعنوية ؛ إذ أن يعرب وقحطان برغم الشك في ثبوت وجودها التاريخي أصبحا في مخيلة الشعراء مجرد رمز للأصل العربي العريق .

وشبيهه بذلك ما قاله أبو ماضي وقد أشار الى انتساب العرب الى قحطان وما يقابل ذلك من انتساب الترك الى جنكيزخان (٤) :

ومن كان قحطان أباه فانه      له الصدر دون العالمين أو القبر  
وإن بني قحطان إذجد جدم      لأعظام من أن يستنم بهم حر

(٢) ديوانه ٩٧

(١) ديوانه ١ : ٢٦٨

(٣) ديوانه ٢٨

(٤) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١٩٩

أو قول الشاعر العراقي أحمد الهندي مستغنياً لفلسطين (١)

يا لقططان أين تلك الحمية      أين آثار روحنا العربية

وكثيراً ما كان الشعراء يعتبرون أنفسهم ومواطنيهم أحفاداً ليعرب أو قحطان أو عدنان كما فعل خير الدين الزركلي حين عمد إلى استنهاض قومه لمقاومة دخول المستعمرين إلى بلاده باسم الوصاية والانتداب (٢) :

أسليل يعرب طال منك تريث      حتام تلبث لاهياً حيرانا  
إن كنت من عدنان فاسلك نهجه      وإذا جبت فلسطين من عدنانا

ومن هذا القبيل ما نجده من شعر كثير نظمته الشعراء المعاصرون اعتراضاً برابطة النسب العربي ووحدة الأصل كقول الصافي النجفي (٣) :

أنا عربي وحسي بذا      جواباً يعظمه سائلي  
فآبائي الصيد من هاشم      وأخوالي الغر من عامل (٤)

وقول أبي الفضل الوليد مشيراً إلى القرابة بين أهل الشام والعراق (٥) :

الشام أخت للعراق وفيها      نور العروبة للضليل الناشد  
أهلوها أبنا عم كلهم      عرب بآداب لهم وعوائد

(١) الفلستينيات ٣١

(٢) ديوانه ٥٥

(٣) ألحان اللبيب ٢٩

(٤) عامل : جبل في لبنان أكثرية أهله من الشيعة ، وأصل الكلمة عاملة ، وهي قبيلة نزلت تلك المنطقة همرت بهذا الاسم ، والنجفي شاعر شيعي المذهب من العراق .

(٥) نفحات الصبور ٥٦



فالقراية في جميع هذه الايات اقرب الى ان تكون رابطة معنوية برغم ما يؤثره الشعراء من عبارات النسب الحقيقي ، وما يجرون عليه من إطلاق الألفاظ التي تشير الى قرابة الدم والتي تتردد في نطاق الأسرة الواحدة من نحو اعتبار قحطان أو عدنان أو يعرب جداً أو أباً للعرب وكون هؤلاء أحفاداً أو أبناء لهم ، أو نحو اعتبار الشعوب العربية إخوة أو أشقاء أو أبناء عم .. الخ .

ويعد إيلياس فرحات من أشد الشعراء حرصاً على استمرار وحدة الأصل في شبان الجيل الجديد من عرب المهجر الذين فشا فيهم داء التفرنج ، وأبرز ما قاله في هذا الموضوع قصيدة أسماها « نحن عرب وأولادنا إفرنج » (١) :

لا تقولوا مالنا والعرب كي	تضربوهم	مثلاً يا شعراء
إنهم أجدادنا بالرغم من	قائل إنا من العرب براء	
إنهم أجدادنا إن شرفوا	أو دنوا فالدم لا يصبح ماء	
هههم الشوك فهل من وردة	تنكر الشوك لترضي الكبرياء	

ولا نعتقد أن الشاعر يعني بأن القرابة بين العرب المعاصرين وأجدادهم القدماء تقوم فعلاً على رابطة الدم ، فالمرجح أنه أراد بذلك مجرد قوة ارتباط العرب بأسلافهم ، كما أن المثل الشائع الذي مفاده ( أن الدم لا يصبح ماء ) هو الذي أملى عليه هذا التعبير على الصعيد العربي الشامل .

وقد لقي المسيحيون العرب في بعض الظروف والبيئات شيئاً من الحرج بسبب اختلاط الاسلام بالعروبة في الأذهان ، وكان المستعمر يزيد الامر تعقيداً عن طريق بذر بذور الطائفية وإيهام المسيحيين في لبنان وبخاصة (الموارنة) بأنهم ليسوا من العرب ، وكان جميلاً أن تتغلب المنازع القومية الأصيلة على هذه الأباطيل ، بل كان أجمل من ذلك أن نرى الشعراء

المسيحيين أنفسهم في طليعة المعتزين بالعروبة وأوائل دعائها من أمثال رشيد  
 سليم الخوري وإلياس فرحات وفارس الخوري والأخطل الصغير ونقولا فياض  
 ومحبوب الشرتوني وودييع البستاني ونصرة سعيد وكثيرين غيرهم ، وفي ذلك يقول  
 واحد منهم هو اسكندر الخوري البيتجالي الذي يملو بالرابة الوطنية والقومية  
 على كل رابة سواها (١) :

قبل المسيح وأحمد كنا وما زلنا عرب  
 كانت وما زالت لنا أوطاننا أمماً وأب  
 لا دين يجمعنا سوى دين المحبة والنسب

كالم تمنع مسيحية شاعر كبير مثل رشيد سليم الخوري او يرى في اعلام  
 الاسلام خير ذخر للعرب والانتساب اليهم أشرف انتساب :

أزيد أعظم من أبي بكر ومن عمر إذا انتسب الكرام ومن علي

ولا يخفى أن الفساسة مثلا كانوا من القبائل العربية التي بقيت على  
 نصرانيتها وعرفت بصدق عروبتها وأصالتها ، وان المسيحيين في لبنان وفي سواه  
 كانوا بناء النهضة العربية ورواد الوعي القومي .

ومها يكن من امر وحدة الأصل العربي للعرب المعاصرين وسمتها المادية  
 او المعنوية فقد حظيت من الشعراء باهتمام كبير كان عاملا لا مندوحة عنه  
 في بعث الشعور القومي الكامن في النفوس ، وفي إحكام اواصر القربى بين  
 الأحفاد والأجداد . وربما كان الشعر العربي - قديمه وحديثه - فريداً في هذا الامر  
 الذي تجلّى من خلاله حرص العرب على النسب المريق ووحدة الأصل القومي .

(١) العنقود ٦١

## الفصل الثاني اللغة العربية

ورد في تاريخ ابن عساكر الحديث النبوي التالي للرسول محمد عليه السلام:  
« يا ايها الناس إن الرب واحد، والاب واحد، ليست العربية بأحدكم  
من أب ولا أم، وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي » .

وهذا الرأي ينسجم مع النظرية الحديثة للقومية، التي تجعل رابطة اللغة  
في رأس مقومات الأمة. والواقع ان ائمة عديدة اعتنقت الاسلام وكانت العقيدة  
الدينية قاسماً مشتركاً بينها جميعاً. ولكن الصفات المشتركة للامة العربية بقيت  
مقصورة على البلاد التي تتكلم اللغة العربية، في حين احتفظت سائر الامم الاسلامية  
كالترك والفرس والهنود بقومياتها الخاصة ايضاً تبعاً لاحتفاظها بلغاتها.

واللغة وسيلة للتفاهم، وثوق العلاقات الاجتماعية بين الافراد، وتقرب بين  
مفاهيمهم وانماط تفكيرهم، وتحمل اليهم تراث الاجداد، وتودع في نبراتها  
سماتهم المميزة ووجدانهم الجماعي المشترك. وقد قدم لنا التاريخ امثلة كثيرة على  
اندثار امم او انصهارها في امم اخرى نتيجة اندثار لغاتها او اقتباسها لغات اجنبية عنها.

وما من ريب في أن التعاطف بين المتكلمين بلغة واحدة يزداد قوة وإحكاماً ولو كانوا امينين مختلفتين . والاستعمار بذكائه يدرك هذه الحقيقة ويتصدى بلا هوادة لمحاربة اللغة القومية ساعياً بوسائل شتى الى فرض لغته على الامم المستضعفة ومحو كياناتها تمهيداً لدمجها به وابتلاعها . والامة التي تستطيع الاحتفاظ بلغتها إنما تمسك بمفتاح شخصيتها . إن وحدة اللغة تقتضي تقارب الميول وتشابه المنازع تبعاً لوحدة المذهب والثقافة ، لان اللغة في واقعها تجريد للافكار . وكما قال احد علماء الاجتماع « ان التفكير هو التكلم سرّاً ، والتكلم هو التفكير جهرّاً » ،

واللغة العربية فضلاً عن كونها اقوى الدعائم القومية عند العرب فهي ايضاً اقوى عناصر الثقافة العربية . كما تمتاز بأنها لغة عالمية منذ قرون ولغة حضارة إنسانية عريقة . ولقد كانت على الدوام موضع تقديس المسلمين كافة على اختلاف قومياتهم لانها لغة اختارها الله لدينه ونزل بها قرآنه وتكلم بها رسوله . وهي موضع عناية ودراسة الكثيرين في الهند والباكستان واندونيسيا والافغان ، وبحروفها كتبت التركية وما تزال تكتب الفارسية والملايوية والاوردية (١) .

اما الجانب القومي المحض في لغة الضاد فيتجلى في كونها لغة العرب القومية وعماد شخصيتهم التميزية ولسان أجدادهم القدماء منذ ما قبل الاسلام وحاملة تراثهم وناقلة تاريخهم ومعقل كياناتهم ، ومن هنا كانت هي السمة الاولى التي تميز بها جميع العرب مسلمين ومسيحيين من سائر الامم . ومع ذلك فان الجانب الديني الاسلامي في لغة العرب لا يمكن ان ينفصل عن الجانب القومي العربي لأن الرسول نفسه كان عربياً قبل ان يبشر برسالته ولان الاسلام كان دين العرب وهم الذين حملوه الى العالم بلسانهم ، كما ان القرآن كتابهم الاول وحسن لغتهم الامنع .

---

(١) انظر محمد المبارك : الامة العربية ٢٠٤

على أننا إذا استقرينا أكثر ما قيل من شعر حول اللغة العربية من الزاوية القومية بدا لنا ان سمات التفاخر باللسان الضادي وعظمته والتغني ببلاغته وفصاحته كانت غالبية على قصائد الشعراء وبخاصة لدى شعراء الرعيل الأول في عصر الانبعاث من مثل شوقي وحافظ والرصافي ومصطفى صادق الرافعي وأبي الفضل الوليد . وقد عبر أمير الشعراء عن ذلك الجمال العلوي الذي خص الله به لغة الضاد فقال (١) :

إن الذي ملاء اللغات محاسناً جعل الجمال وسره في الضاد

كما كانت أرجوزة شوقي المطولة « دول العرب وعظماء الاسلام » مفعمة بروح الزهو والاعتداد تجاه ما امتازت به العربية من سمات الروعة والأصالة . فقد أشاد أمير الشعراء منذ أبياتها الأولى باللسان العربي وأثره في إقامة حضارة العرب ، كما أشاد خلالها بفصاحة هذا اللسان وبأن الله اختاره لكتابه الكريم . وقد توسع شوقي في مفهوم اللغة العربية وأورده بمعنى تراث العرب وثقافتهم . ولكن لجوءه باستمرار إلى حث العرب على الاعتراف من معينها بعبارات من النوع الطلبي الانشائي جعل أرجوزته تلك في بعض مقاطعها أقرب إلى المواعظ الباردة منها إلى الشعر القومي الحار .

وزى الشيخ عبد الحميد الرافعي يزدهي بعبقرية هذه اللغة ويتغنى بسحرها في نشوة بالغة (٢) :

(١) الشوقيات ١ : ١٣٥

(٢) انيس المقدسي : الانجاعات الادبية ١ : ٩٨

شئف بذكر مفاخر العربان سمي وأنش خاطري وجناني

أما أبو الفضل الوليد فقد كاد هيامه باللغة العربية يبلغ مرتبة الوجد (١):

ألا يا جذا لغة تصبت  
إذا لفظت كألحان المثاني  
فؤادي في الغدو وفي الرواح  
وإن خطت كأزهار الأقالحي  
فما صرف الزمان لها بمأحي  
لتطربني وقلبي لا نفتاح  
طربت لسمعها طفلاً وإني

ويطول بنا الأمر لو رحنا نستقصى ما قيل في موضوع الاعتزاز بلغة العرب وبيانها المشرق، ويكفي أن نشير إلى أن هذه الظاهرة ليست في جوهرها إلا مظهرًا بارزًا للاعتزاز بالعروبة نفسها باعتبار هذه اللغة أقوى أسسها وأهم مقوماتها. ومن العوامل التي ساعدت الشعراء على أن يولوا اللغة العربية اهتمامهم البالغ في هذه المرحلة من تكون الشخصية العربية طول صحبتهم لها وغوصهم على أسرارها وإدراكهم لمكنون جمالها فلا عجب أن يطربوا لسحر نبراتها وينتشوا بجرس ألفاظها لتغدو آخر الأمر جزءاً حياً من كياناتهم ووجودهم ورمزاً أصيلاً لتراثهم وثقافتهم، وموثلاً عذباً لأفكارهم ومشاعرهم.

## ٢

على أن الظروف السياسية والاجتماعية الحادة التي طرأت على العرب خلال الفترة المبكرة من نهضة مجتمعاتهم المتحفز فرضت عليهم أن يخوضوا معركة اللغة القومية في غمار معركتهم الكبرى معركة دعم الكيان العربي

(١) ديوانه : الانفاس الملهبة ٨٣

وتوكيد ذاته وتقرير مصيره . فقد ألت بلغة العرب في هذه المرحلة من حياتهم الحديثة محن شديدة وأزمات حادة كانت خلالها عرضة لهجمات ظالمة شنها عليها أعداؤها وأبناؤها على حد سواء . وكان أول عهدا بذلك في أرض الكنانة حيث كانت النهضة الفكرية والأدبية تزدهر على ضفاف النيل أيما ازدهار، وغدت مسألة الفصحى والعامية في جملة المسائل الكبرى التي كانت مشارب بحث وجدال . فمذ أواخر القرن التاسع عشر (١) حوربت الفصحى حرباً لاهوادة فيها في مصر حين اشتدت الدعوة - تحت ستار البحث والتيسير - الى استبدال العامية بها واتخاذ الحروف اللاتينية لنة للكتابة . وفي ذلك الحين نظم حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة التي نافع فيها عن العربية بجرارة فقال متحدثاً بلسانها (٢) :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي	وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتي	عقمت فلم أجزع لقول عداتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية	وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة	وتسبيق أسماء المخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن	فهل سألوا الغواص عن صدقاتي
أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة	وكم عن اقوام بعز لغات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب	ينادي بوأدى في ربيع حياتي
واسمع للكتاب في مصر ضجة	فاعلم ان الصالحين نعاتي

فمن الواضح ان شاعر النيل يقف طرفاً في تلك المعركة حين ينافح عن

(١) بدأت هذه الدعوة أواخر عام ١٨٨١ حين اقترحت مجلة المنتطف كتابة العلوم بلغة الحديث ودعت رجال الفكر الى بحث اقتراحها ومناقشته . ثم نشر عيسى اسكندر الملووف عام ١٩٠٢ مقالا في الهلال عدد مارس أبان فيه عن جهوده في ضبط لهجات العامية وتعميدها كما دعا الصحف الى استخدامها . وفي الوقت نفسه أصدر « ولور » الانكليزي كتاباً عن لغة القاهرة أثار عاصفة من الجدل ، ثم ترجم وايم ولكوكس الإنجيل الى ما سماه اللغة المصرية عام ١٩٢٦ قأثار عاصفة جديدة ، ثم أثير الموضوع من جديد إثر استبدال أتانورك الحروف اللاتينية بالعربية ، وانتقلت المدوى الى الجمع اللغوي نفسه في مصر .

(٢) ديوانه ١ : ٢٥٣

الفصحى لغة التراث والقومية ، كما تعكس قصيدته في الوقت نفسه بعض  
التهم والآراء الهدامة التي نادى بها ادعياء التجديد .

ولكن الأمر بدأ أشد خطورة بعد ذلك حين تبنى الدعوة في مصر نفر  
من أدبائها بعد خمود ثورة ١٩١٩ الوطنية . فقد انحرف الشعار الوطني ( مصر  
للمصريين ) وآل الى نزعة فرعونية انطاوية متعالية تعرضت معها اللغة العربية  
الى حملة شعواء من قبل أبنائها ، وعلت أصوات تنادي « بضرورة خلق أدب قومي  
يكون مستقلا عن آداب الشعوب الشرقية الأخرى الناطقة بالضاد (١) »  
وأن تغدو اللهجات المحلية لغة الأدب فتقوم على أنقاض العربية لغة مصرية  
وأخرى شامية وثالثة عراقية .. الخ على نحو ما آل اليه أمر اللاتينية حين  
تفتتت الى فرنسية وإيطالية وأسبانية ... وزعم بعضهم أن مصر « ورثت من  
غزاتها الجدد (يعني العرب) الاسلام واللغة ولكنها حافظت على خواصها القومية .. »  
ومصر لم تكن عربية قط (٢) .

وقد اتسم الدفاع عن العربية - باعتبارها أحد المقومات القومية الأساسية -  
بمظهر آخر في مصر حيث خاض الشعراء معركتها ضد التفرنج والتحلل بعد أن  
تفتتت بين بعض الشبان المصريين بتشجيع من المستعمر وأقلامه المسمومة روح  
ازدراء للغة العربية ولكل ما هو عربي ، فراحوا يشيدون بأفضلية لغات الغرب  
ويتباهون بنبراتها ويزعمون أن العربية الفصحى آيلة الى الاضمحلال ، وليس  
بوسعها أن تسير روح العصر وحضارته ، وأن الأجدر اتباع اللهجات العامية  
ودعمها لأنها لغة الحياة (٣) .

(١) من مقالة محمد أمين حسونة في السياسة الاسبوعية ١٩ يوليو ١٩٣٠

(٢) من مقالة محمد عبدالله عنان في ملحق السياسة لإلادي ١٤ اكتوبر ١٩٣٢

(٣) انظر تفصيل ذلك في كتاب محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٢٣٥ ، وما كتبه  
سلامة موسى في أواخر كتابه (اليوم والغد) .



ويعتبر مصطفى صادق الرافعي في طبيعة حماة العربية في نثره وشعره ومن  
بعض ما قاله في هذا الموضوع قصيدته « اللغة العربية والشرق » ومنها :

أم يكيد لها من نسلها العقب      ولا تقيصة إلا ما جرى النسب  
كانت لهم سببا في كل مكرمة      وهم لنكبتها من دهرها سبب  
كان الزمان لنا واللسن جامعة      فقد غدونا له والأمر منقلب  
إذا اللغات ازدهت يوما فقد خمنت      للعرب أي فخر بينها الكتب

ثم يندد محمود غنيم بالذين بهرهم كل ما هو غربي وتنكروا لقوميتهم  
ولغتهم فعادوا لأشركيين ولا غربيين وذلك في قصيدة أسماها « قومي بين الشرق  
والغرب » وقال فيها (١) :

أبناء عمى من نزار ويعرب      ليسوا بأعراب ولا أعجم  
لا تأمنوا المستعمرين فكم لهم      حرب تقنع وجهها بسلام  
حرب على لغة البلاد وعادها      ليست تشن بمدفع وحسام  
لا أعرف العربي يلوي فكه      إن هم يوماً فكه بكلام  
إن فاه تسمع لكنة محقوتة      من فيه ( سكسونية ) الأنتام  
لفظاً من الفصحى وآخر نايبا      كالقار حمزواً بكأس مدام  
لن يستعيد العرب سائف مجدهم      ولسانهم غرض لكل سهام  
إن يرفعوا ما انتقض من بنيانهم      فالضاد أول حائط ودعام

والجديد في هذه الابيات التي نظمت على أثر استفحال موجة التحلل  
والميوعة بين الشبان في أعقاب الحرب الأولى ، أن الشاعر استطاع أن يدرك

(٢) ديوانه ٩٧ : ١٠١

حقيقة مرآمي الحملة على اللغة العربية ، وأنها كانت جزءاً من أساليب الاستعمار  
وحرهم المقنعة ضد العرب ولغتهم .

وقد قارن على الجارم بين ماضي العربية الزاهر وما تعانیه في حاضرهما من  
كيد ثم حمل بشدة على هذه الزمرة الأئيمة فقال (١) :

وعانت العجمة الحقاء نائرة      على ابنة البید في جيش من الرهب  
يقوده كل ولاغ أخى إحن      مضمخ بدماء العرب محتضب

ومن الواضح أن سبب هذا الدفاع الحار عن اللغة العربية من قبل الشعراء  
والكتاب لا يقتصر على كونها لغة القرآن ووسيلة نقل التراث التليد فحسب ،  
بل يتعدى ذلك إلى كونها أقوى رابطة تشد العرب بعضهم إلى بعض ، وتجعل منهم  
أمة قوية تتبوأ مكانها على وجه الأرض ، فالتحول عنها إلى لغة أخرى أو  
استبدال اللغات العامية بها كان يعني في حقيقة الأمر فقد أقوى الاواصر  
الواشجة ، وبالتالي انهيار المجتمع العربي أو انصهاره في مجتمع آخر ، أو تفتته إلى  
مجتمعات عديدة تتباين لهجاتها العامية مع الزمن حتى تفتقد مع أهلها آخر الأمر  
أواصر النسب .

ولعل هذه الغيرة على اللغة العربية التي تجلت لدى شعراء مصر بالدرجة  
الأولى كانت من أهم الأسباب التي حفظت لذلك القطر عربته من النزعات  
المتطفلة ، ولم يكن يضارع هذه القصائد حرارة وغيرة على العربية إلا ما دبحته  
أقلام كتاب كبار من أمثال مصطفى صادق الرافعي ومي زيادة وأحمد حسن الزيات  
ومصطفى لافي المنفلوطي واسعاف النشاشيبي وسواهم في هذا المضمار . وكان  
مصر قد عوضت بذلك عن بطئها - خلال فترة من تاريخها الحديث - في  
المضمار القومي ، فهي منذ القدم ملاذ الفصحى . « ولما كانت وحدهما تمتاز عن بلاد

(١) ديوانه ٣ : ٥٥

العرب الاخرى في أواخر العهد العثماني بكون اللغة العربية فيها اللغة الرسمية ، في حين كانت التركية هي اللغة الرسمية حتى في الولايات العربية فقد كان العرب يتطلعون الى مصر ويغبطونها على هذه النعمة ويحاولون انفسالها عن الدولة العثمانية الذي اكسب اللغة العربية ما تستحقه من المكانة ، وقد ظلت بعد الحرب الأولى في نظر العرب كعبة الفصحى ومحنة الفكر والادب في العالم العربي (١) .

### ٣

ولعل أبرز معركة حقيقية في الشرق العربي خاضتها اللغة العربية على أساس كونها في مقدمة مقومات القومية العربية ، ثباتها أمام محاولات التتريك التي قام بها حكام الآستانة قبيل الحرب الكبرى وأثناءها . وكان التعرض للعربية في مقدمة الاسباب التي دفعت بالكثيرين من نباء العرب المواليين للعثمانيين الى أن ينفضوا من حولهم . ومن أشهر هؤلاء الشيخ فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية والشيخ عبد الحميد الرافعي الذي يقول مفتخراً بلغته وإشراق بيانها ومعرضاً بمن يكيدون لها (٢) :

لغة بفضل جمالها وجلالها	شهدت شواهد محكم القرآن
قل للالي جهلوا مكاتنها وقد	كادوا لها في السر والاعلان
عاديتهم ما تجهلون ولم يعب	قدر الورود كراهة الجعلان
والله يأبى أن تذلل فبشروا	من رام ذلتها بكل هوان

وقد صح ما تنبأ به الشاعر فكان الهوان نصيب الترك الذين راموا إذلال العربية لان الله يأبى أن تذلل . ومن الملاحظ أن في هذه الايات غيرة شديدة على

(١) انظر ساطع المصري في آراء واحاديث في القومية العربية ١٣ - ١٤

(٢) أنيس المقدسي ؛ الاتجاهات الادبية ١ : ٩٨

اللغة العربية صدرت عن بواعث دينية وقومية معاً وهذا طبيعي لانها لغة العرب ولسان القرآن. وهذه البواعث نفسها هي التي أملت على أمين ناصر الدين قوله (١):

نحن الألى بلسانهم قد أنزلت آي الكتاب وذلك الإلهام

حين تصدى للرد على اقترارات جريدة (إقدام) التركية التي كان دأبها التنديد بالعرب ولعنتهم . وفي ذلك يقول أيضاً أبو الفضل الوليد معترفاً بلغة العروبة والاسلام (٢):

كفاها أنها الله اصطفاها لقرآن تبليج كالصباح

وقد عبر فؤاد الخطيب عن مخنة الائمة العربية يومذاك مستنكراً سياسة التتريك الجائرة (٣):

جاروا على لغة القرآن فانصدعت له القلوب وضج البيت والحرم  
فالقديس باكية والشام شاكية وفي الحجاز يكاد الركن ينحطم

بهذا المنظار الديني المقدس نظر عدد من الشعراء العرب وبخاصة في المراحل الاولى من تطور الشعور القومي الى اللغة العربية حين تعرضت لكيد الترك . وقد اعتبروا الدفاع عنها دفاعاً عن الاسلام أيضاً ، ولم تكن مناصرتهم للغة العرب إلا مناصرة قومية في الوقت نفسه . ويمكن القول إن هذه الظاهرة أي المناصفة عن اللغة العربية تعد جديدة في الشعر القومي أملت لها سياسة الاتحاديين العنصرية الخرقاء.

## ٤

على أن لغة العرب لم تلبث أن تعرضت في بلاد الشام نفسها زمن الاحتلال

(١) الإلهام - ٩٠

(٢) الانفاس المتهبة ٨٣

(٣) ديوانه ٢٥

لعاصفة هدامة أخرى وبخاصة في لبنان منبت الشدياق واليازجيين وآل البستاني وزيدان وسواهم ممن تقاتلوا في خدمة العربية وآدابها، فمد أن انحر الحكم العثماني عن بلاد الشام وأصبحت في قبضة المحتلين الجدد غداً لبنان مصدراً لأفكار غربية على يد فئة عاقبة من أبنائه، المقيمين منهم والمهاجرين. من ذلك ما زعمته لجنة من أدباء المهجر (١) في بيان أصدرته « بأن السوريين ليسوا بعرب، واللغة العربية التي يتكلمون بها اضطرهم الفاتحون الى استعمالها بدلاً من اللغتين الآرامية الوطنية واليونانية اللتين كانتا اللسان الشائع في البلاد السورية » كما طلع آخر في الوقت نفسه (٢) بنعرة مماثلة زاعماً « أن السوريين واللبنانيين ليسوا بعرب وإن تكلموا بالعربية »، « وفي بسيرت ولبنان قام نفر من الشعوبيين يدعون الناس الى الطلب من حكومتهم أن تجعل اللغة الفرنسية رسمية في سائر محاكمها ودوائرها » (٣). وكارد الفعل لدى الشعراء متوقفاً فراحوا ينددون الى جانب الكتاب والسياسيين بتلك النعرة الهدامة وينافحون عن الفصحى بجرارة. وقد نظم خليل مردم بك قصيدة في هذا الشأن أسماها « واعربيتاه » نذب فيها بلوعة وأسى لئمة الأجداد، وعمد الى إنطاق اللغة بلسانها على نحو ما فعل حافظ إبراهيم من قبل في قصيدته المشهورة التي نافع فيها عن العربية الفصحى ومن ذلك قوله (٤):

(١) نعتي بها لجنة تحرير سورية ولبنان التي تحدثنا عنها من قبل في صدد الدعوة الفينيقية المحلية في لبنان، وقد أعلنت هذه الراء في مذكرة رسمية قدمتها الي مؤتمر الصلح. انظر عدد جريدة السائح النيويوركية - تموز ١٩١٩، والدكتور الكفافي ١٣٠، والدكتور عبدالكريم الاشتهر: النثر وفنونه في المهجر الشمالي ١: ١٥٤

(٢) هو شكري خانم الذي سبق ذكره في صدد الدعوة الفينيقية أيضاً، وهو مؤلف مسرحية « عمتره » بالفرنسية. نشر مقالة في إحدى صحف باريس إبان العهد الاستقلالي الفيصلي في دمشق تبرأ فيها من العرب والعروبة، وقد نددت الاوساط الوطنية بنعريته وعقبوقه وفي جملتها معروف الرصافي في قصيدته « صبح الاماني » أي العهد الوطني الجديد، انظر ديوانه ص ٤١٧.

(٣) انظر ديوان قسطنكي الحمصي، الهامش ١٠٩

(٤) ديوانه ١٦٢

هجروا من الكلم الصحاح سخافة      واستبدلوا بعرايها أعلاجها  
لم يتركوها بعد ذاك وشأنها      بل أجهزوا كي يطفئوا وهاجها  
وهاً لا آساد فمئذ نكاتهم      قصرت يدي عن أن تذودنعاجها  
صمدت لعادي الدهر أطول مدة      لو لم يقدر فرعه أبراجها

الى أن يقول مشيداً بمكانة اللغة في البناء القومي :

واضرب بطرفك هل ترى من أمة      عقدت على هام المجرة تاجها  
إلا ولغة المقام المجتبي      جعلوا الى هام السرى معراجها

وكانت قصيدة قسطاكي الحمصي الحلبي التي أسماها « البدوية » ورد بها على شعوبي لبنان من أقوى ما نظم في ذلك الحين . وفيها يشيد بحسان تلك « البدوية » التي آثر أن يسميها « ليلي » . وقد سلك الى غايته سبيل الرمز فقال :

بالله يا نسيمات الرند والبان      من نجد جئان أم من روض غسان  
وهل لثمان من (ليلي) بمسما      إني عليها غيور أي غيران  
الى البداوة منسوب منابتها      وإن نميت فهل فخر كعدنان  
وثوبها يقبل الأزياء ما اختلفت      وليس يحلقه تكرار أزمان  
حروفها لمعان لا تطاولها      في حسنها بنت يونان ورومان  
ألفاظها درر ، تركيبها سور      آياتها غرر ، في كل قرآن  
غزيرة الفضل لم يجحد محاسنها      إلا جهول بايجاز وتبيان  
لها الفصاحة تعزى أينا وجدت      شهودها مثل قس أو كسحبان  
وفي البلاغة هل خود تضارعها      وأصلها صاعد يسمو لقحطان  
وبعض خدامها عبد الحميد ومن      تلاه من أصفهاني (١) وجرجاني

(١) اي عبد الحميد الكاتب وأبو العرج الاصفهاني وعبد القادر الجرجاني

وغيرهم من ملوك الفضل آخرهم  
 بلا بل الشعر غنتها بدائعها  
 ما ضرها أمنها والحسن عابدها  
 رب النهى اليازجي (١) الكوكب الثاني  
 على عجائب أوزان وألحان  
 لها حواسد من أهل وجيران

ويضي الشاعر على هذا النحو مشيداً بالفصحى، حتى يوفي على غايته، ثم يلتفت  
 الى معاول الهدم في لبنان فيقول:

يا أهل لبنان ماذا العهد كان بكم  
 أنكرتم اليوم (ناصيفاً) وأسرته  
 يا أهل لبنان قد أصحمت آذاني  
 نبشتم قبر (شدياق) (٢) (وبستاني)

ثم يختم قصيدته بالتعبير عن ثقته بصمود العربية وبقائهما وعن إيمانه  
 بعروبة لبنان الراسخة مطمئناً الى أن أولئك المارقين لا يثقلون وجهه الحقيقي:

قم يا أخوا الود لا تعضب لما أثموا  
 ليلك آمنة ما دام من رهنوا  
 فليس لبنان ذا بل بعض لبنان  
 عهدهم عندنا من خير أعوان

وجلى أن الشاعر الحلبي يباهي في أبياته بأصل العربية العريق، ويتحدث  
 عنها حديث الصب المستهام الذي يغار عليها ويزهى بسحر جمالها وعذب كلالها،  
 فهو لا يستغرب بعد ذلك أن يكثر حسادها والكائدون لها. كما نستشف من  
 خلال أبيات القصيدة ظلالاً لبعض التهم والافتراءات التي كان يرددها آنذاك  
 أعداء الفصحى، والشاعر يدحضها ويعرب عن إيمانه الراسخ بأنها لغة حية  
 متطورة تصلح أداة لتفاهم في كل زمان، وأن كثر العصور لا يبلي جدتها  
 ولا يذهب برونقها؛ ألم تكن لغة حضارة الامويين والعباسيين وناقلة تراث  
 اليونان في عهد المأمون وحاملة لواء العلم والمدنية في عهد الناصر بالاندلس . . . ؟

(١) هو الشيخ ناصيف اليازجي أو ابنه ابراهيم وكلاهما لغوى كبير .  
 (٢) احمد فارس الشدياق وبطرس البستاني وناصيف اليازجي من أعلام النهضة في لبنان .

والملاحظ أن نظم هذه القصيدة والقصيدة التي سبقتها لمردم بك وأمثالهما كان في وقت واحد تقريباً وهو السنوات الأولى التي أعقبت الحرب الكبرى وبخاصة ما بين عامي ١٩٢٠ - ١٩٢١ وهذه هي الفترة نفسها التي ظهرت خلالها تلك الآراء الهدامة تجاه العربية الفصحى في بعض أجزاء الشام وما يعد امتداداً فكرياً لها في المهجر . ويمكن أن تعد المطالبة بجعل الفرنسية اللغة الرسمية في لبنان وصدور بيان لجنة أدباء المهجر وعدهم العربية لغة دخيلة على سكان البلاد ، وظهور مقالة شكري غانم التي زعم فيها أن العربية لم تكن لغة السوريين وإنما اضطروهم الي استعمالها الفاتحون ، وماشاكل هذه الآراء ... مظاهر موجة واحدة طغت واستفحل أمرها فترة من الزمن في مصر والشام ثم لم تلبث أن انحسرت بعد حين .

ومن جهة أخرى اتسمت المناقحة عن الفصحى بطابع آخر في بلاد الشام التي كانت تعد مصر رائدة شعوب العرب المكافحة نحو التحرر والنهوض . فقد هال السوريين استفحال النعرات التي ترمي الي سلخ أرض الكنانة عن عروبتها ، وزحزحتها عن الفصحى ، وحز في نفوس أبناءها صدور ذلك النشاز من موئل الفصحى وملاذها . فقد انبرى عدد من الشعراء لمخاطبة أشقائهم في مصر بلهجة المعاتب المشفق . وهذا أحمد الشريقي يناجي سعد زغلول ويناشده الاعتصام بالفصحى ويقول (١) :

يا رمز مصر وحسب العرب جامعة	هذا اللسان وتاريخ به العظم
امدد يديك وصافح كل من نطقوا	بالضاد يقبل عليك القوم كاهم
يا مصر يا كعبة الفصحى وموئلها	لأنت للشام في آملها حرم

كما نافح شفيق جبرى في قصيدته التي ألقاها تكريماً لحافظ إبراهيم

(١) ديوان الثورة ٤٠



حين زار الشام عن تلك الروابط القومية المشتركة التي تتمثل في اللغة العربية وآدابها ، وتشدد العرب بعضهم الى بعض ولو كانوا منتشرين في أقاصي الارض (١) :

تضمننا لغة لم يمح رونقها	زحف السنين بالأم وأشجان
لولا قوافل بوادي النيل ننشدها	في غوطة الشام أو في أرز لبنان
لقطعت بيننا الارحام واضطربت	بنا الوسوس في وصل وهجران
لكن مصر وان هشت وإن عبست	ركن العروبة للقاصي وللداني

ولم تلبث الاصوات الناشزة في مصر أن خفتت شأنها في لبنان ، وانحسرت موجة الاقليمية عن عروبة راسخة ، وكان صدور مجلة الرسالة مظهرأ لازدهار الاتجاه القومي في مصر ، وحين أهل عليها عام جديد أشاد محمود غنيم بدورها في تقريب الافكار بين العرب فقال (٢) :

مشت مثل جان دارك بين العرب	تشدد عراهم بأقوى سبب
تبشر بالضاد بين بنينا	وأكرم بحرمة هذا النسب
وما وحد الجمع مثل اللسان	ولا اتحد الجمع إلا غلب
إذا اتحد الفكر في معشر	تجمع من شمله ما انشعب
قد انتظمت أمم الضاد طرأ	فكانت كعقد وكانوا كحب
فذا كاتب من أعالي الفرات	وذا من دمشق وذا من حلب

وقد وجد عرب المهجر في تلك البيئة الاعجمية التي قدر لهم أن يعيشوا فيها ، وضعاً مشابهاً لما كانت تعانيه اعمتهم القومية في الشرق ففاضلوا عنها بقوة وإيمان على الرغم من ضعف وسائلهم وقلة عددهم وقسوة ظروف الحياة

(١) ذكرى الشاعرين ١٩١

(٢) ديوانه ٢٢٨

عليهم. وثمة آيات لا يلبس فرحات تنعى على النشء العربي الجديد في المهجر تقرُّبُه  
وتحلِّله من رُوابط قوميته وهي تنبض غيرة على العربية (١) :

وصلتنا بذوبنا لغة كل حيوان حقير عالم  
لم تصلنا بيننا الظرفاء بلغاه وبنونا جهلاء  
إن نقل قولاً فصيحاً بينهم رددوه بلسان البيغاء  
ومضوا تحدجنا أعينهم وعلى الثغر ابتسامات ازدراء  
خالطوا العجم فصاروا مثلهم دأبهم للعرب إضمار العداء  
نحن غرقى في خضم إنمنا لغة الضاد سفين للنجاء

وكان في طبيعة مظاهر حنين المهجرين الى أرض وطنهم شوق الى  
العروبة يبرى أجسامهم ويجعلهم شديدي الاحساس بغربتهم . فالشاعر  
القروي لا تسليه تلك الجموع الغفيرة التي تضطرب حوله ولا المدن المحتشدة  
بأهلها لانه لا يسمع منها أنغام لغته العذبة لغة الام والاهل والوطن ،  
إنه يشكو تلك الحال في مغتربه (٢) :

حولي أعاجم يوطنون فما للضاد عند لسانهم قدر  
ناس ولكن لا أنيس بهم ومدنية لكنها فقير

ومن الطبيعي أن يكون افتقاد المهجرين لغة الوطن في تلك البلاد  
العربية من أقوى أسباب حرصهم على الابقاء عليها ، ولطفتهم على سماع  
نبرات الشجية . ومن طريف ما قاله الشاعر القروي معبراً عن هـواه في حب  
العربية ، تلك الايات في متفرنج عربي (٣) :

(١) ديوانه ١٩٧

(٢) انظر جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الامريكية ٢٥

(٣) الديوان ٣٩٠

أضحك ما يضحكني ، مستعجبم يسبني بلفظة يسبها  
وحقها إن لم أكن آجبه ساحتة لأنني (١) أحبها

والظاهرة الحميدة أن صدى هذه الافكار الضارة كان خافتاً في الشعر ،  
حتى إننا لم نعثر على شاعر يدعو الى العامية كما لم تقع على قصيدة تندد  
بالفصحى . وكأن الشعر يعكس باستمرار ضمير الامة ومنازعتها الاصلية  
دون أن ينحرف في مضمونه مع النزوات الطارئة والمجادلات الصاخبة . وكل  
ما صدر على الشعراء في تلك العمرة مناداتهم بالتجديد ودعوتهم الى تطوير اللغة  
وضرورة ملاءمتها لروح العصر، وكان حافظ إبراهيم يساير هذا الاتجاه في  
مثل قوله (٢) :

تغيرت الدنيا وقد كان أهلها يرون متون العيس ألين مضجع  
ونحن كما غنى الاوائل لم نزل نغني بأرماع وبيض وأدرع

ونظم بعد ذلك قصيدة استهلها بوصف القطار بدلا من وصف الراحلة  
ظناً منه ان ذلك يجعله في عداد المحدثين (٣) . ولقد كان خليل مطران أكثر  
فهماً لرسالة التجديد واطلاعاً على المذاهب الادبية والاتجاهات الفكرية لدى الغرب  
في قوله (٤) :

لن ترجع العربية الفصحى الى ما كان منها في الزمان الاقدم

(١) هذا لموقف من القروي اشبه شيء بما اورده أحد نقادنا القدماء عن ظاهرة اجتماع  
المتمة الفنية بالالم النفسي ، حين ذكر قصة عربي كان يستمع الى شاعر يهجو ، فقد أخذته  
النشوة لجودة القصيدة واستبد به الالم لوطأة معانيها على نفسه .

(٢) ديوانه ١ : ١٢٩

(٣) انظر القصيدة في ديوانه ١ : ٢٨٣ ومطلعها :

صفحة البرق أو مضت في الغمام أم شهاب يشق جوف الظلام

ما لم يعد ذلك الزمان وأهله      والمعاد والاخلاق حتى جرهم  
إن التجدد للسان حياته      ومن الذي يحيه غير المقدم

كما حمل أحمد زكي أبو شادي لواء التجديد وصدق التعبير عن النفس في  
أشعاره ثم في مجلته ( أبو لو ) إذ قال (١) :

علام نهرتي لوفاء جيلى      بلفظ/ أو بمعنى أو دليل  
ولست أعيش في قرن تقضى      ولا في غير ذا الوطن الجميل  
فلفظي ما يصيغ بيان قومي      وحسي حسهم أبداً زميلي

## ٥

أما كون اللغة الضادية جامعة اللسان وأحد المقومات الرئيسية للشعور  
القومي ، والرابطة الأساسية بين الشعوب العربية ، فقد عبر الشعراء عن  
ذلك الجانب تعبيراً واعياً يفوق ما كان منهم تجاه المقومات الأخرى للقومية  
العربية . ففي اعتقاد معروف الرصافي أن لغة الضادا أكبر رابطة قومية بين  
العرب (٢) :

وتجمعنا جوامع كبريات      وأكبرهن سيده اللغات

ونحن نستشف في ديوان شوقي « دول العرب وعطاء الاسلام » ،  
تخطيطاً مبسطاً لعناصر القومية العربية؛ إذ وضع أمير الشعراء لجنة العرب

(١) ديوانه ٣ : ٣١

(٢) ديوانه ٥٦٥

في رأس تلك العناصر فقال (١) :

رب لسان جمع الاقواما وكان كالجنس لهم قواما

وقد نجد في الشعر القومي عنصر اللغة مصاحباً عنصر العقيدة الاسلامية في بعض الاعيان وبخاصة لدى الجيل المتقدم من الشعراء من مثل شوقي وحافظ والرصافي والزهاوي والكاظمي . فما قاله معروف الرصافي (٢) :

إذا القوم عمتهم أمور ثلاثة لسان وأوطان وبالله إيمان  
فأبي اعتقاد مانع من أخوة بها قال انجيل كما قال قرآن

ويعود الرصافي الى ذكر عنصر العقيدة الدينية مقروناً بأصرة اللغة في قصيدته « بين تونس وبغداد » (٣) :

أتونس إن في بغداد قوما ترف قلوبهم لك بالوداد  
ويجمعهم وإياك انتساب الى من خص منطلقهم بضاد  
وما ضر البعاد اذا تدانت أواصر من لسان واعتقاد

ولكن أصرة اللغة في تكون الشعور القومي بدأت تستقل بنفسها في الشعر الحديث مع تتابع الايام لاسباب عديدة ، منها انهيار نظام الخلافة العثمانية، وتأثر الشعراء الشباب بالنظريات الاجتماعية ونظم الدول الاوروبية التي كانت جميعاً تتناول المسائل القومية في منأى عن الدين . وتبدو هذه الظاهرة الجديدة بطبيعة الحال لدى الشعراء المسيحيين الذين لا يستشعرون سوى العروبة ولغتها رابطة تجمعهم مع العرب المسلمين . وهذا حلیم دموس يشيد بدور اللغة في بناء كيان الامة فيقول (٤) :

(١) دول العرب وعظاء الامم

(٢) ديوانه ١٣١

(٣) ديوانه ١٣٠

(٤) المثلث والثاني ١٠٤

وأتم يا بني قومي أناشدكم بمن به عز النجيد وقرآن  
صونوا حمى اللغة الفصحى فليس لكم

من دونها وطن يعلو له شان

وهو يرى بحق ان اللغة العربية هي الرابطة الكبرى التي تؤلف بين  
المتكلمين بها على اختلاف عقائدهم (١) :

ستظل رابطة تؤلف بيننا فبى الرجاء لناطق بالضاد

كما يصدر عن ذلك أبو الفضل الوليد في مهجره (٢) :

ما بيننا نسب فيه لنا شرف وهذه اللغة الزهراء برهان  
عيسى وأحمد في بلواها اجتماعا والناطقون بحرف الضاد اخوان

وكان من أجمل ما قاله أنيس الخوري المقدسي من ربوع لبنان (٣) :

ان فرق الايمان بين جموعنا فلساننا العربي خير موحد  
قربت به الاقطار وهي بعيدة وتوحدت من بعد فت في اليد

وبرغم عزوف فوزي العلوف عن الشعر القومي وإشاره العيش في جو  
رومانسي حالم فانه لم يكن معزولا عن شؤون الحياة والمجتمع في فنه الرفيع ،  
ان لغة الضاد في اعتقاده أقوى أسرة قومية نشد العرب بعضهم الى بعض (٤) :

فلتحبي قومية كانت لنا نسباً يضم أشتاتنا ما فاتنا النسب

(١) المثلث والثاني ١٠٣٢

(٢) الانفاس المهية ٧٥

(٣) الاتجاهات الادبية ١ : ١٠٢

(٤) ديوانه ٣٠

تالله لا زرتقي الا متى اتحدت      تلك المآذن في الاوطان والقبب  
ولتستعد لغة الضاد التي دعيت      أم اللغات شباباً برده قشب  
ان لم نكن كنا في أصلنا عرباً      فنحن تحت لواها كنا عرب

كل هذه الايات والمطوعات تم عن ادراك قومي سليم واجلال لشأن اللغة وأهميتها في احكام عرى الوحدة بين العرب على اختلاف عقائدهم . وفي مقابل هذا الشعور القومي الفيض نجد قصائد كثيرة مماثلة مما نظمه سائر الشعراء العرب من المسلمين الذين حرصوا بدافع من تسامحهم الديني على إبقاء اللغة عنصراً قومياً مستقلاً عن عنصر العقيدة الاسلامية في المضمار القومي ، وهذا مصطفى النلايني يقول وقد عاش في بيئة لبنان ذات الحساسية الطائفية (١) :

ما في الديار وإن لجوا سوى عرب      من عهد آدم سل آثارهم تجب  
إن فرقهم ديانات فقد جمعت      أهواءهم لغة الأجداد في سبب  
كا يرى بدوي الجبل الشاعر السوري في لسان الضاد الجامعة الكبرى  
لشعوب العرب وخير عاصم لكيانهم القومي تجاه الدخلاء الغاصبين (٢) :

كل الربوع ربوع العرب لي وطن      ما بين مبتعد منها ومقرب  
للضاد ترجع أنساب مفرقة      فالضاد أفضل أم برة وأب  
تفني العصور وتبقى الضاد خالدة      شجى بخلق غريب الدار مغتصب

وثمة نشيد وطني ينسب الى فخري البارودي سار على كل لسان إبان الاحتلال الفرنسي لسورية يشيد بجامعة اللسان بين العرب على اختلاف أماكنهم وتعدد دياناتهم ، ومن مقاطعه :

(١) ديوانه ١٠٠

(٢) ديوانه ١٧٣

فلا حد يرقنا ولا دين بفرقنا  
لسان الضاد يجمعنا بنفسان وعدنان

وحين قامت جامعة الدول العربية أشاد خليل مطران بفضل اللغة في إقامة ذلك الصرح القومي ، وقال مخاطباً زعماء العرب (١) :

يا سادة العرب من صيابة نجب أوتوا الرياسات أو أرباب تيجان  
تضمهم في سبيل الضاد جامعة كل بها لآخيه خير معوان

وهكذا عبر الشعراء بتأثير ظروف وبواعث معينة عن مدى تعلقهم بالعربية باعتبارها مظهرراً فملاً للشخصية العربية . إلا أن الجانب السلبي كان يغلب بصورة عامة على ما مر بنا من أشعار حول هذا الموضوع سواء ما كان منه مباحة بأصالتها وتغنياً بسحرها وإعجازها أو ما كان دفاعاً ومناضلة عن اللغة القومية ، أو ما كان أخيراً تنديداً وتقريباً لرماتها والعاقين من أبنائها .

وهكذا يتضح لنا أن رابطة اللغة حظيت في الشعر الحديث بمكانة لا تدانيها رابطة أخرى على الصعيد القومي . لقد كانت في نظر الشعراء العلاج الفعال للطائفة المذهبية والتعصب الديني ، كما كانت الجامعة للشمل المبدد ، والطريق الطبيعي المؤدي إلى وحدة العرب ، وأخيراً الدرع الواقية من النزعات المنحرفة والأفكار الضارة ومن شر كل معتد أثيم .

(١) ديونه ٤ : ٣٥٧



# الفصل الرابع

## الماضي المشترك

١

من طبيعة الأمم أنها في فترات نهوضها تلوذ بماضيها ، وتستوحي أمجادها السالفة ، وتعيش على نشوة ذكرياتها الغابرة ، والنهضة العربية الحديثة شأنها في ذلك شأن النهضة الأوربية قبلها كانت ترمى الى بعث الماضي العريق ، وإحياء التراث الغابر ، واستعادة الأجداد السالفة . وقد قيض للعرب ماض زاهر وحضارة راسخة الأصول بوأتهم مكانة مرموقة بين الامم في تاريخ البشرية . فحين يرجع المؤرخ القهقري عبر القرون السحيقة يمثل أمامه العرب أمة من أعرق الامم وأقواها ؛ فقد أقاموا فيما بين النهرين حضارات غابرة أعقبتها عبر الزمن مدنيات زاهرة في اليمن والبتراء وتدمر والحيرة « وكان ظهور العرب في خلال هذه الفترات التاريخية الطويلة كالينابيع تظهر في بقاع الارض وكأنهم يطلمون على الزمن من وراء حجب الغيب » (١) ثم كان لهم منذ ظهور الاسلام أمجاد لم يعرف نظيرها عصر ولم يجتمع مثلها لأمة .

« إن موضع الفرد من أسرته ورهطه ودولته وأمته ، وموضعه في العالم إنما تحدده ظروف البيئة الزمنية التي وجد فيها . ولذا فان القومية هي ذاكرة قبل كل شيء ، وبتعبير آخر إن التاريخ هو ذاكرة المجتمع ، حياتنا صيرورة

(١) محمد المبارك : الامة العربية في معركة تحقيق الذات ١٦٦

مستمرة ، هي نهر له منبع ومصب ولا يمكن ان يستغني المصب عن المنبع . كل شيء في الحياة هو تسلسل (١) .

ومنذ القدم عرف العربي بروحه المحافظة ، وحرصه على الاحتفاظ بنسبه ، واعتزازه بتواصله . ولقد أخذ العرب في هذا العصر يعيرون تاريخهم وماضيهم اهماماً بالغاً ، فهم اليوم تواقون الى استعادة تلك العهود المشرقة وبعث الامجاد الرائعة . « وليس التاريخ عند العرب ماضياً بعيداً ميتاً يستعيدونه عندما يشاؤون ، وينسونه عندما يريدون ، ويتدارسونه في مظانه عندما تدفعهم الحاجة الى حفظه وتذكره ، بل هو بينهم شديد القرب منهم بحيث يمكن أن يقال ان العرب يعيشون تاريخهم . وفي الحقيقة أنهم يذكرون أمجادهم ويحسونها كأنها جزء عضوي من وجودهم .. وكل عربي يعرف الكثير عن النبي محمد وعن عمر وعلي والحسين ومعاوية وخالد والرشيد وصلاح الدين وعنتره ...

ويرفد التاريخ العربي القديم تاريخ الحركات الشعبية الثورية ، وتاريخ النهضة القومية في الآداب والعلوم منذ مطلع القرن التاسع عشر . كما أصبح التاريخ المعاصر جزءاً من التاريخ القومي للعرب ، يعتزون به ويتأثرون بسير أبطاله (٢) .

وهكذا كان التاريخ العربي الحافل قاسماً مشتركاً بين العرب ، ألفين مشاعراً في شتى أقطارهم المتباعدة ؛ « فقد واجهوا دائماً مصيراً واحداً ، وأدوار الانحطاط والازدهار كانت تشملهم في فترات واحدة ، وكان الخليفة في أغلب الادوار واحداً . وحين وقعت البلاد تحت الحكم العثماني وقعت جميعها دفعة واحدة ، وحين انحسر عنها لاقت جميعها المصير الواحد وأصبحت فريسة للاستعمار وعندما بدأت النهضة الحديثة في العالم العربي سارت في وقت واحد وفي اتجاه واحد ، وحين عزمت القومية العربية على التحرر والاستقلال هبت في وقت واحد (٣) .

ان نمو الشعور الذاتي وازدياد الوعي الفكري لدى العرب منذ أوائل

١ الدكتور عزة النص ، مجلة الاداب ، نيسان ١٩٦٠ ص ٢

٢ نبيه أمين فارس ومحمد توفيق حسين : هذا العالم العربي ١٥

٣ محمد منيف الرزاز : معالم الحياة العربية الجديدة ١٤٨

القرن العشرين كان لها الاثر الاول في انشطار الدولة العثمانية بعنصرها الرئيسي الى قوميتين بارزتين . فقد اتضحت ملامح الشخصية العربية والشخصية التركية وأخذت كل منها تتميز عن الاخرى . وكان أبرز مظاهر هذا الشعور الذاتي المتنامي لدى العرب اعتزازهم بماضيهم وافتخارهم بتاريخهم . وكان ذلك سبباً في التأمل والتفكير في هذا الماضي وتمييز الصفحات الجيدة منه ، والتفتيش عن مواطن القوة وأسباب النجاح والتقدم في ثنائه . « وأصبح للعرب مصدران يستمدون منها القوة : أحدهما خارجي يجذونه في نماذج الامم الاوربية ، وثانيها داخلي وهو تاريخهم وحضارتهم . وكان هذا المصدر الثاني يتزايد قوة ويتسع أفقاً » (١) .

ولقد كان للأدب وللشعر بوجه خاص أثر فعال في ربط العرب بماضيهم وإحياء غابرهم . وهذه ظاهرة طبيعية في أدب كل أمة تمتاز مرحلة البحث . والشعراء في هذه المرحلة الحديثة من حياة العرب كانوا اذا كره أمتهم وضميرها الحي الخلاق ، صاغوا من قرائحهم تماثيل لا بطالهم في قصائدهم وأحلوا أمجادها سويداء قلوبهم ، حتى صار جهم لجودهم وجداً ، واكبارهم لغابرهم تقديساً ، ومن هنا كان ماضي أمتهم الحافل بأعراق الاجاد ماثلاً على الدونم في نفوسهم ، حياً وهاجاً في قصائدهم . ولم يكن من الطبيعي لدى أمة تشق طريقها من جديد نحو حياة كريمة أن يهدر كتابها وشعراؤها تاريخ حقب مديدة حافلة بأروع الذكريات ، وأن يبدو في فترة النهوض تلك الطاقة الكامنة في النفوس شأن الشعورية ، بل الطبيعي أن تبعث حية ماثلة تعيد الى النفوس اليانسة أو الشاكرة تقمها ، وتعمر قلوب الاجيال الصاعدة ايماناً بمستقبلها .

إن كل يقظة قومية حقيقية لا يمكن ان تنطلق من الصفر . ولقد امتدت دوحة القومية العربية مجذوها بعيداً في الماضي التليد وكان لها من نتيجة رسالتها السامية وحضارتها الاصيلة كيان راسخ متميز .

(١) انظر محمد المبارك : الامة العربية في معركة تحقيق الذات ٥٢

كل هذه العوامل التي اتسم بها ماضي العرب وحضارتهم وتراثهم كان لا بد لها من أن تؤثر في حاضرهم وفي حياتهم الراهنة وأن تتجلى قوية على أقلام كتابهم وألسنة شعرائهم .

## ٢

إن الشاعر العربي الحديث بحكم فترة البعث القومي التي يعيشها وتبعاً لثقافته الوثيقة الاتصال بتراث العرب وماضيهم كان أشد وعياً لعنصر التاريخ في المضمار القومي وأكثر لصوقاً به . ونحن نجد مثلاً في أبيات محمد الشربجي ما يشير إلى أهمية التاريخ العربي المشترك واعتباره إلى جانب اللغة المشتركة عاملاً أساسياً ومقوماً هاماً في تكوين الشعور القومي إذ يقول (١) :

ياناطق الضاد إن جزت الشآم غدا  
عرج على مصر حيث المجد والكرم  
وانزل هناك باخوان غطارفة  
ظلالهم مدها التاريخ والرحم  
ثم يقول مخاطباً سعد زغلول :

يارمز مصر وحسب العرب جامعة  
هذا اللسان وتاريخ به العظم

ولسنا نعتقد أن ورود لفظ ( التاريخ ) في بيتين متتالين على أنه عنصر القومية أمر عارض ساقته الصدفة ، إذ المرجح أن هذا الشاعر لم يكن - كما لم يكن سواء من الشعراء - في نجوة من التأثر بالنظريات الاجتماعية والاجتماعات القومية التي كانت وما زالت لها الخطوة في نفوس المثقفين ، وما يؤكده ذلك ورود عامل اللغة ثم عامل التاريخ معاً في البيت الأخير وهما في نظر الباحثين الاجتماعيين دعامتان هامتان من دعائم القومية .

وقد وعى الشعر الحديث زبدة التاريخ العربي الحافل واستوحى أروع

(١) ديوان الثورة ٤٠

آياته من أمجاده السالفة التي رأى فيها حافزاً قوياً على النهوض . وكان شعراء العصر الحديث في هذه الفترة من النهوض القومي مشدودين بقوة الى أمجاد العرب الغابرة يشيدون بعظمتها ويتغنون بسحرها على نحو عاطفي محض لا يتمدى في كثير من الاحيان هذه المرحلة الى تمحيص ذلك الماضي والانطلاق منه نحو واقع عربي وطيد .

ويدو أن هالة محببة الى النفوس ترسم حول ذكريات الأفراد والأمم كلها أوغلت في القدم ، وقد وجدت هذه الذكريات المتمثلة في ماضي العرب الحيد صدرأ فسيحاً في الشعر الحديث ، إذ تغنى الشعراء بالعهود السالفة ما طاب لهم التغني ، ونفخوا الحياة في السنين الخالية ، وبعثوا الحرارة في الغابر التليد . وبذلك أسهموا إسهاماً فعالاً في تكوين الوجدان الجماعي المشترك للامة العربية .

وكان ما نظمه الشعراء في هذه الفترة من العصر الحديث شعراً كثيراً في مقدمته ما قيل في عطاء العرب وأعلام تاريخهم ، وعلى رأسهم الرسول محمد عليه السلام ثم خلفائه الراشدين ومشاهير خلفاء بني أمية والعباس وكبار القواد والغاتحين وعمالقة الفكر والأدب .

ولا مرأ في أن أحمد شوقي يعد رائد الشعراء وسيد هذا الفن في الشعر الحديث ؛ فقد برع في استلهام الماضي التليد واستنطاق الأجداد الغابرة على نحو لم يسبق له مثيل . وأبرز ما يطالعنا في هذا المجال مطولته الرائعة « كبار الحوادث في وادي النيل » . وقد نظمها في مستهل شبابه وقبل أن تغرب شمس القرن التاسع عشر . ولعل فترة إقامة شوقي طوال سني الحرب الأولى منفياً بالأندلس أخصب مرحلة في نظم قصائده التاريخية أو التي تستوحى ماضي العرب ، على قلة احتفاله بنظم الشعر آنئذ ، وذلك مثل أرجوزته المطولة « دول العرب وعظاء الاسلام » و « أندلسيته » التي يعارض فيها ابن زيدون ، وموشحه

« صقر قريش » والقصيدة السينية التي يعارض فيها البحري . لقد كان شوقي في محنة وكان وطنه في محنة أيضاً ، ومن طبيعة النفوس وكذلك الأمم أنها تهفو الي ماضيها وتلوذ بفارها لتستعين برصيد أمجادها على حاضرها بمشكلاته المستعصية . « التفت شاعرنا حوله في الأندلس فرأى أن أيام العرب والمسلمين في تلك الديار أصبحت حلاً من الأحلام ومرتعاً للذكرى ، وآثاراً تبعث في النفس الأسى . وامتد الشاعر يبصره الى الشرق فرأى سباتاً ولهواً يبعثان اللوعة . أفلا يستطيع أن يخلد ذكرى البطولة العريضة ، ويعرض على الافئدة صوراً من مجد الأجداد عل فيها لهم الغزاء من الحاضر ، والأمل في المستقبل ؟ إن حينه الى عزة العرب والمسلمين التي ذكرته بها آثارهم يدفعه الى أن ينقل لهم سير عظماهم » (١) وقد تناول في أرجوزته تلك أبرز رجالات العرب والاسلام فابتدأ بأبي بكر ثم انتقل الى عمر وأشاد بفتوحه ، ومضى بعدها الى عثمان وعلي حتى اذا بلغ خالد بن الوليد أشاد ببطولته وانتصاره على الروم حتى أحمل أعمال ( هانيبال ) القائد القرطاجي وعبوره الألب بجيوشه . فهو يقول عنه (٢) :

فكان في السماوة الرئبالا      لا تذكر الألب وهانيبالا  
أقبل سيف الله يزجي خيله      ويل هرقل منه ثم ويله

وينتقل بعد ذلك الى عمرو بن العاص وفتحه لمصر ونزوله بالفسطاط ، ثم الى معاوية وبعده الى عبد الرحمن الداخل الذي يكن له إعجاباً خاصاً فيخصه بموشحه « صقر قريش » . وما يزال كذلك حتى يتناول مجد العباسيين ويشيد بيأس المنصور الى أن يبلغ مجد الفاطميين ويشيد بالمعز . ويتهى به الأمر عند حديثه

(١) أنظر ماهر حسن فهمي في كتابه شوقي وشعره الاسلامي ١٩٣

(٢) دول العرب وعظما الاسلام ٦٩

عن الأيوبيين فيمجد بطولة صلاح الدين ويندد بالصليبيين الغزاة الذين جاءوا يهدمون ما أقامه العرب والمسلمون .

ولا يظن أحد أن شوقي في قصائده هذه إنما كان يعمد الى مجرد نظم الأحداث التاريخية وسردها ، فلامير الشعراء إيمان كبير بمجدوى التاريخ وفضله على الأمة وفي ذلك يقول (١) :

عالم بالتاريخ واجعل صحفه من كتاب الله في الاجلال قابا

وهو حين نظم أرجوزته في الأندلس كانت نفسه مفعمة بهذه الروح فهو يستلها بقوله :

حتى اراد الله ان نظمتُ من سير الرجال ما استعظمت  
علما بما يبعث في الاحداث غرائب الاعمال والاحداث

وفي « أندلسية » شوقي التي نسج أبياتها وحاك قوافيها على منوال قصيدة ابن زيدون النونية زاه يتغنى بأمجاد العرب في الأندلس ويذكر المعتمد بن عباد مترحماً على تلك العهود الخالية .

وعلى الرغم من احتفال أمير الشعراء بماضي الامة ونظمه الكثير من الروائع في هذا الشأن فان نظره الغالبة الى هذا الماضي كانت تتسم بروح الاعتاض والاعتبار اكثر مما تتسم بالطابع الاجتماعي والقومي ، فهو مفتون أبداً باستخلاص العبرة والمغزى من أحداث التاريخ وتجارب الماضي . كما أنه في سنينه التي يذكر فيها العرب الاجداد ويبكي عن الإمويين ويستنطق

(١) الشوقيات ٢ : ١٨

آثارهم في الاندلس يمز في نفسه رحيل العرب ويتخيلهم خارجين من الفردوس  
المفقود كموكب الدفن خرساً . ثم يستخلص من هذا الوقف عبرة بالغة  
ويرجو أن يفيد العرب من ذلك الدرس القاسي ، ويهيب بهم أن يتلفتوا  
الى ماضيهم الحافل بالتجارب ، والماضي كثر للعظات ؛ إنه يحتم قصيدته  
بقوله (١) :

حسبهم هذه الطول عظات      من جديد على الدهور ودوس  
وإذا فاتك التفات الى الما      ضى فقد غاب عنك وجه التأسي

وقد صدر حافظ إبراهيم في الفترة نفسها عن مثل هذا الاعتزاز بأحد  
أعلام العرب والاسلام حين نظم عمريته الرائعة عام ١٩١٨ وهي تقرب من مائتي  
بيت ، وقد ختمها أيضاً بقوله (٢) :

هذي مناقبه في عهد دولته      للشاهدين وللاءعقاب أحكيها  
لعل في أمة الاسلام نابتة      تجلو لحاضرها مرآة ماضيها  
حتى ترى بعض ما شادت أوائلها      من الصروح وما عاناه بانيتها  
وحسبها أن ترى ما كان من (عمر)      حتى ينبه منها عين غافيتها

فالماضي عند حافظ نبراس للحاضر وفي تجارب الاجداد خير ما يفيد  
الاحفاد ، وما ابن الخطاب إلا نموذج رائع للحاكم العربي الذي تتحرق  
الجماهير شوقاً الى مثله .

وقد حذا محمد عبد المطالب حذو حافظ بعد أكثر من عام فألقى قصيدته

---

(١) الشوقيات ٢ : ٦١

(٢) ديوانه ١ : ٧٧



(العلوية) التي زادت على ثلاثمائة بيت وفيها إشادة بالغة بفجر الإسلام وبسجايها  
الامام علي .

وكثيرة هي القصائد التي تناولت أعلام العرب الماضين على هذا النحو  
ووجدت فيهم السمات التي ينسدها العرب ؛ من ذلك قصيدة « صقر قريش »  
لخير الدين الزركلي ، و « و خالد بن الوليد » لعمر أبي ريشة . وكان اهتمام  
جماهير العرب بأمر هذه القصائد مظهرأ من الحنين الى تلك التمازج البشرية الخالدة ؛  
إذ ليس ما يهز الروح القومية مثل استعادة سير العظماء ، وكما يقول أنور  
القطار (١) :

نشوة الذكريات أفعل في الانفس من نشوة ابنه العنقود  
والبطولات شعلة الامل الساطع في ظلمة الليالي السود

والظاهرة البارزة في مثل هذه القصائد انها لم تكن تتغنى بالماضي لذاته ،  
فكثيراً ما حرص الشاعر العربي في هذا الصدد على ربط الماضي بمحاضر أمته وواقعها  
بدافع من غيرته القومية كما فعل عمر أبو ريشة في قصيدته « محمد » التي جعلها  
مقدمة للحمة النبي ؛ فهو بعد أن يبعث في نفوسنا نشوة الماضي العطر بحديثه عن  
عظمة الرسول وعن غزواته يقول (٢) :

يا عروس الصحراء ما نبت الحجى      يد على غير راحة الصحراء  
فأعيدي مجد العروبة واسقي      من سناء محاجر النبراء  
قد ترف الحياة بعد ذبول      ويلين الزمان بعد جفاء

وشبيه بذلك أيضاً ما نجده في قصيدة لأنور القطار عنوانها « جيش أسامة » ؛  
ففيها يشيد بأول جيش عربي في الاسلام ، وبطولة قائده الشاب ثم يقول (٣) :

(٢) ديوانه ١١٢

(١) في ظلال الايام ١٠٠

(٣) في ظلال الايام ١٠٠

ثم دال الزمان من ناسه العر - ففرت سيوفهم في العمود  
واستكانت الى الوري فعلها  
صرخ الجرح بالمواج ثوري  
ارجمي يا مجادة الفاتح السم  
صدأ الدهر من طويل الهجود  
وأهاب الأسي بعيني جودي  
ح ويا عزة الأبين عودي

وهكذا كان الماضي الزاهر في هاتين القصيدتين وفي سواهما من القصائد المشابهة سبيلاً مهداً للمعالجة حاضر الأمة والثورة على واقعها، ومنطلقاً ركيناً للشاعر نحو الغاية المنشودة التي تتركز في بعث العرب من جديد.

ولم تكن المهرجانات الادبية التي جرى المعاصرون على إقامتها إحياءً لذكرى اعلام العرب كالتنبي والبحتري والغزالي والمعري والبارودي والرصافي وشوقي وحافظ ومطران والكواكبي.. سوى مظاهرات شعرية قومية حافلة، تستلهم الماضي البعيد والقريب لتنفخ روح القوة في الحاضر وتبعث على الثقة بالمستقبل.

وثمة قصائد كثيرة لا تكاد تحصى نظمها الشعراء أيضاً إحياءً لذكرى الوقعات الحاسمة في تاريخ العرب، من ذلك ما نجد في أرجوزة « دول العرب وعظاء الاسلام » و « سقوط غرناطة » لأحمد شوقي، وفي « الاياداة الاسلامية » لأحمد محرم الذي يتغنى فيها بأبجاء العرب الأولى في ظل الاسلام وفي مقدمتها غزوات الرسول عليه السلام، وكذلك في قصيدة « ثورة بدر » لمحمود حسن إسماعيل، و « يوم حطين » لعبد المحسن الكاظمي، و « طارق ابن زياد » لعلي محمود طه.. الخ.

ومن الجلي أن تناول مثل هذه الموضوعات المستمدة من تاريخ العرب لم يكن الغرض منه في أذهان الشعراء مجرد السرد والتسجيل، فكتب التاريخ المطولة تغني عن ذلك وتفوقه دقة وتفصيلاً.

ومع أن بعض الشعراء لم يربطوا في قصائدهم بين ما كان عليه العرب في ماضيهم وما هم عليه في حاضرهم فإن روح الاعتزاز كانت تطل باستمرار من

خلال قصائدهم ، وتم عن حنين طاغ الى العهود الزاهية ، وشعور قومي فياض  
تجاه الماضي المشرق . ونجد مصداقاً لهذا الرأي في قصيدة « الامة العربية »  
لمعروف الرصافي يقول فيها (١) :

العرب أكبر أمة مشهورة  
فالمجد ماثور بكل صراحة  
وهم الالى خضعت لهم أمم الورى  
والروم قدنزلت لهم عن ملكها  
بفتوحها وعلومها وبيانها  
عن قيسها أبداً وعن قحطانها  
من تركها طراً الى أسبانها  
والفرس عما شيد من إيوانها

ومن هذا القبيل قول مصطفى الغلاييني مشيداً بأبائه العرب (٢) :  
سل الركن عنهم والحطيم وزمرما  
وسائل بهم مصر المعالى وتونسا  
وسل إن جهلت العرب أندلساً وما  
ولا نستطيع إلا أن نزهى مع أمين ناصر الدين في قوله (٣) :

كفى العرب فخراً أن منهم محمداً  
وأن له الشأو الذي ليس يلاحق

وأن نهتز طرباً مع بدوى الجبل بنشوة الماضي التليد وصفحات تاريخنا  
المجيد (٤) :

قف على اليرموك واخشع جائياً  
ها هنا مئوى الصناديد الالى  
دوخوا الارض ببعض المشرفية  
وطووا حمر البنود الفارسية  
أنت نبراس الهدى والوطنية  
يا قبورا محيت واندرست

(١) ديوانه ١٣٩

(٢) ديوانه ١٠٥

(٣) الالهام ٢٠٠

(٤) ديوانه ١٠٥

وتتمثل روح الاعتزاز بأجداد العرب السالفة قوية في قصيدة طويلة للشاعر العراقي محمد حبيب العبيدي ، وهو يستعرض من خلالها أبرز معالم السيادة العربية بنشوة وزهو بالغبين ، ومن ذلك قوله (١) :

وئجى أباة الضيم من عهد تبع	إذ الناس غربان وئجى نسورها
بدا النور من بطحاء مكة ساطعاً	وضاعت به من أرض يثرب دورها
فمزق إيواناً لكسرى مشيداً	وأحمد نيراناً شديداً زفيرها
وأجفل منه قيصر فوق عرشه	وذلت له بصرى ودكت قصورها
عبرنا لأفريقاء وهي منيعة	يعز على قوم سوانا عبورها
فقرطبة في الغرب تزهو نجومها	وفي الشرق بندا تضيء بدورها
خلقنا بسيف العدل سيف حضارة	يشعشع حتى الآن في الكون نورها
سلوا أئماً سارت على ضوء رشدنا	ألم تك قبلا مظلمات عبورها

والشاعر إذ يفخر بقومه منذ عهد تبع في اليمن السعيدة وبانطلاقهم بعد ذلك برسالتهم الى خارج الجزيرة وحملهم شعلة الحضارة الزاهرة قروناً ، لا يكتفي بأن ينظر الى هذه الاجماد الغابرة نظرتة الى أحداث مضت وانقضت فحسب ، فالماضي لديه وثيق الصلة بحاضر العرب وهو تواق الى أن يعيد قومه سيرتهم الاولى لذلك يقول بعد تلك الايات :

أما آن أن تجميا معالم مجدنا وتشر موتانا وينفخ صورها  
وكان كل ظفر يحققه العرب في صراعهم مع الطغيان والاستعمار يجسد  
التهليل والاستبشار لادى الشعراء الذين يرون فيه اقتراباً من أجماد العرب السالفة  
وبعثاً لمكانتهم السامية . وهذا حبيب اسطفان يعكس لنا موجة التفاؤل التي  
تمسكت العرب باستعادة الماضي الحميد عندما قام الحكم العربي المستقل في دمشق  
لاول مرة بعد تسلط تركي دام أربعة قرون (٢) :

(١) انيس المقدسي : الواطف القومية في الشعر الحديث ، نصوص مخطوطة ٢٤

(٢) انظر صبري الاشر : المختار .

دمشق بها ذكرى أمية خلدت  
وفي القدس أنوار المسيح مضيئة  
وأم القرى بيت الاعراب مكة  
أقام لها التوحيد ديناً مشرفاً

وبفداد ذكرى الرشيد مخلد  
تتار بها أقصى الشعوب وترشد  
لها الشرف العالي القديم الموطن  
وأنتب مجد العرب فيها محمد

أما خليل مردم بك فقد هزته تلك المناسبة القومية التي كانت ثمرة الثورة العربية الكبرى ، ووجد في دخول الجيش العربي الى دمشق صورة حية لفتوحات العربية السالفة ، فامتلاءت نفسه اعتزازاً وأطلق على قصيدته اسم « الفتح العربي » ونما قاله فيها وقد أخذته نشوة الماضي وأسرته (١) :

مالي أرى القوم بعد الحزن في طرب  
عادت وشائخ فبر بعد ما انصرفت  
ليك داعي أمير المؤمنين على  
لله جيش أمين الله منتصراً

هل عاد سالف مجد العرب للعرب  
عن بعضها عصرأ موصولة النسب  
بذل النفوس وغالى الاهل والنسب  
يدني جيوش العدا من موردا العطب

فهذه الايات وما توحيه في النفس من أجواء وتشيعه من ظلال لا تبدو لشاعرنا وهو يخاطب الملك فيصل بقدر ما تبدو وكأنها لشاعر عربي قديم يناجي خليفة المسادين . ولا ريب أن الشاعر قصد الى النسخ على منوال أبي تمام بعد أن ذكره الحاضر بالغابر فحن اليه وعانق روح الشاعر العباسي واذا هو يتمثل فيصلا صنوا للمعتصم وتبدو له دمشق صورة لعمورية . وما أشبه اليلة بالبارحة .

ويعبر أبو الفضل الوليد عن نشوته البالغة بسحر ماضي العرب وروعة أمجادهم فيقول (٢) :

أنا فتى عربي بين أضلعه  
تاريخ قوم هو الانوار والسحب

(١) ديوانه ١٤٣

(٢) الانقاس الملهبة ٩١

قد رلحته أحداث الحمى طرباً  
نفسى تلتظت بحب العرب فاشتعلت  
كما تننى لهبات الصبأ القصب  
بها النفوس الى العلياء تصطب

وكم ازدهى الشعراء المعاصرون بالخصال السامية التي تحلى بها أجدادهم  
العرب كما فعل بشارة الخوري إذ قال (١) :

سائل العلياء عنا والزمانا هل خفرنا ذمة مذ عرفانا  
المروءات التي عاشت بنا لم تزل تجري سعيراً في دمانا

وإذا ما استقرينا الاناشيد الوطنية التي سارت على أسنة الجماهير العربية  
وأهلبت فيهم الحماسة ، فاننا نجد التغي بالماضي وسحره عنصراً فعالاً في  
مضمونها . من ذلك مثلاً النشيد الذي نظمه خليل مردم وقد غدا النشيد  
القومي في سورية . ومما جاء في أحد مقاطعه قوله (٢) :

نفوس أباة وماض مجيد وروح الاضاحي رقيب عتيد  
فنا الوليد ومنا الرشيد فلم لا نسود ولم لا نشيد

ومعظم الشعراء لم يكتفوا بالعبرة والحكمة من تاريخهم بل اتخذوا من  
أحداثه ووقائعه حافزاً للنهوض وبعثاً على النضال ، وتاريخ العرب حافل ، فيه  
حدة وفيه ثورة . وأبيات محمد رضا الشبيبي التي تندد باحتلال الحلفاء بلاد الشام  
والراق تصور بجلاء وعي العرب لماضيهم وقردهم على واقمهم وذلك في قوله (٣) :

(١) الهوى والشباب ١٦٠

(٢) ديوانه ٢٦٩٤

(٣) ديوانه ٣٣

هيجن طردن من الرجال كراماً  
 عريمة فكانهن جياذ  
 خنا ذمام الفاتحين وعهدهم  
 ما هكذا تستنجب الاولاد  
 انا بما نجني وهم فيما جنوا  
 بش البنون ونعمت الاجداد  
 اني يذكرني الشهامة عنتر  
 فينا ووالد عنتر شداد  
 ويهزني عصر العراق تسوسه  
 لحم وآل محرق وإياد

ويلوذ عمر يحيى بالاجداد الفطارفة يستمد منهم البأس لوطنه المقهور  
 فيقول (١) :

أيها الناشد مجداً تالداً  
 هل تمثيت على شط الوار  
 هل ذكرت النافقي الندب الذي  
 هام بالعليا وغى واستطار  
 عنعنات العرب لا تحفل بها  
 فابن عبد الله للعرب شعار  
 ما تعلمنا وهذا خالد  
 رافع المجد بأن رضى الصغار

كما يجد الشاعر القروي في جهاد أحرار فلسطين صورة من بطولات  
 العرب في فجر تاريخهم تبعث في نفسه الزهو حيث يقول (٢) :

فكل فتاة في فلسطين خولة  
 وكل غلام في فلسطين عنتر

وقد أخذ يستقر في روع عدد من الشعراء أن في تذكروا أمجاد الماضي  
 ما يمين على علاج واقع العرب المحزن ، وأن التاريخ وتجاربه خير ما يثير السبيل  
 الى الحاضر والمستقبل . وهذا محمد الفراتي يقول في قصيدته « تلفت نحو  
 ماضيك » (٣) :

(١) البراعم ١١٢

(٢) ديوانه ٣٦٢

(٣) ديوانه ٢١٢

أطبق الجفن على الجفن ملياً وتفكر  
وتلفت نحو ماضيك طويلاً وتذكر  
فمسي أن تهتك الذكرى حجاب الظلمات  
فترى ماضيك جذلان جميل الشوات  
باسماً يرنو الى آمالك الغر العذاب



ولم يعد رتايخ العرب مجرد أحداث ووقائع يتغنى بها الشعراء فحسب ، بل أصبح رسالة يرفعون رايتها ويشرون بها بايمان وإخلاص ويرون فيها قوة دافعة الى الامام تزيدهم ثقة وإيماناً ، وهذا محمود غنيم ينعى على بعض العرب جهلهم بماضيهم وإعراضهم عنه ويرى ذلك من أسباب تأخرهم ، وأن الغريبين أنفسهم إنما أقاموا نهضتهم على أساس من ذلك الماضي العريق المشترك (١) :

استرشد الغرب بالماضي فأرشده	ونحن كان لنا ماضٍ نسيناه
إننا مشينا وراء الغرب نقبس من	ضياءه فأصابتنا شظاياها
باللهسل خلف بحر الروم عن عرب	بالامس كانوا هنا واليوم قد تاهوا
آين الرشيد وقد طاف الغمام به	فحين جاوز بغداداً تحدها
ماضٍ تمشي على أنقاضه أممهم	وتستمد القوى من وحي ذكرها

ويبدو أن المعارك التي خاضها العرب ضد المستعمرين كانت تزيدهم وعياً لقضيتهم واعتداداً بماضيهم وثقة بمستقبلهم وبهذه . الروح المتوثبة ترى نمطاً آخر من الشعر التأم في الماضي والحاضر بمنفوان وإباء نجدهما في قول إلياس قنصل (٢) :

(١) ديوانه ٧٨

(٢) السهام ٤١



أرضى بالهوان ومُحن قوم  
أرهبنا الحديد وقد بنينا  
ملاءنا صفحة التاريخ فخرًا  
بجد السيف مجدًا مشمخرا

وقد أصبح تاريخ العرب ماثلاً بروعته في واقع المجتمع العربي الحديث ،  
وأخذ يؤثر تأثيراً فعالاً في حياتهم القومية ، حتى غدا الحديث عن بعث الامة  
العربية ديدن الشعراء . وقد عبر أجد الطرابلسي عن هذا الشعور المتفائل  
بقوله (١) :

تلكم جزيرتكم يا عرب باسمه  
سيروا لئليها نعيد البعث ثانية  
ترنو اليكم وتمحو أي تخبنا  
وغلاء الارض من عدل وعمران  
أليس منا الالى قادوا جحافلهم  
وأخضوا الارض من فرس ورومان

كما نرى الشاعر نفسه يعبر عن هذه الظاهرة أيضاً في قصيدة أخرى  
عنوانها « أمة تبعث » (٢) . وقد بلغ إيمان بعض الشعراء وتفائلهم بازدهار  
المجتمع العربي حداً جعلهم لا يشكون في استعادة المسكنة التي كان عليها أجدادهم ،  
وهذا أحمد محرم يتحدث عن فلسطين بلهجة الواثق المطمئن (٣) :

يا آل يعرب من يرني خالداً  
من شاء منكم فليكنه ولا يقل  
يزجي الخيس ويستحث القنبا  
ذهب القديم ، فانه لن يذهب  
السرباق والزمان مجد  
والسيف ما فقد المضاء ولا نبا

ونجد هذا الاتجاه أبرز ما يكون في القول القاطع الجازم لمحمد الفراتي  
في قصيدته « أيها الاحفاد » (٤) :

- 
- (١) مجلة الرسالة ، السنة الثانية ص ٩٠٦  
(٢) مجلة الرسالة ، السنة الرابعة ص ٢٥٠  
(٣) ديوانه ٢١٠ - ٢١٨  
(٤) ديوانه ١٨٢

يا دهر ما التاريخ غير رواية بالرغم منك فصولها ستعاد

وإذ يغدو تراث العرب ماثلاً في الأذهان حياً في النفوس الى هذا الحد الذي تجلّى في الشعر الحديث ، فإن الشعور القومي يكتسب عمقاً ومضاء في معركة التحرر يحدوه في ذلك ذخراً لا ينضب وقوة دافعة من روح الماضي والايان بالمستقبل .

وهكذا كان الشعراء في هذه الفترة من النهوض القومي - فترة ما بين الحربين العالميتين - مشدودين بقوة الى أجداد العرب الغابرة يشيدون بعظمتها ويتغنون بسجورها في نشوة بالمة . وقد دأب الرعييل الاول منهم بوجه خاص على بعث ذلك الغابر التليد في نفوس جيلهم القلق المتحفز الذي كان يجهد في تبين معالم شخصيته الغائمة .

### ٣

على أنه كان لتعلق الشعراء العرب بماضيهم في هذه المرحلة من حياتهم الحديثة وجه آخر هو نذب الأجداد السالفة والترحم على الاجساد العظام وبكاء العهود المنصرمة الزاهية . فقد جبههم الواقع المرير بسقوط أوطانهم فرائس بين مخالب المستعمرين ، وسرعان ما تبددت أحلامهم في بعث دولة عربية كبرى ، فانتكفؤوا على أنفسهم يندبون حظهم العاثر ويلوذون بماضيهم المجيد يعوضون به عن محنة أمتهم . وأكثر ما كان هذا الوجه الفاتم يتجلّى إبان النكبات او خلال الازمات أو فترات اليأس التي كانت تخيم على العرب إثر نضالهم العاثر . وقد بدا ذلك مبكراً لدى عدد من شعراء مصر مثل أحمد محرم ومحمد عبد المطلب وبخاصة إبان الحرب الاولى ، كما تجلّى هذا الشعور بعد ذلك

لدى شعراء الشام إثر انهيار الحكم الفيصلي وتدفق جحافل المستعمرين على البلاد حتى اصطبغ في ذلك الحين بصبغة اليأس القاتمة . وهذا ما ساعد على اشتداد أزر الحركة الروماتيكية في الادب الحديث خلال تلك الفترة ، تخفيل مردم بك يعبر عن تلك الظاهرة من خلال مناجاته لطيف لمياء التي (١) :

تذكرت قومها أبناء يعرب إذ كانوا أعز ملوك الارض سلطانا  
سادوا الممالك من هند لأندلس محكين بها عدلاً وإحسانا  
فرقرقت أدمعاً أضحي بصيبيها روض الأماني بعد الجذب فينانا

من كل ذلك يتبين لنا أن الاتجاه الى الماضي العربي المشترك سواء أكان بالتغني بالاجداد السالفة أم بالسكاء عليها غدا مرحلة طبيعية في فترة اضطراب كيان العرب القومي ولقي تجاوباً وهوى في نفوس شعرائهم في ذلك الحين .

أما ظاهرة الفخر والاعتزاز - وكانت الغالبة - فقد اتسمت بطابع عاطفي وأخذت في استمرارها تم عن سلبية لا طائل منها بعد مرحلة البعث ، إن لم تغد ضارة ، فهي لم تعد قادرة بمفردها على اقامة الكيان القومي الذي لا بد من وجود عناصر أخرى واقعية فيه . ولقد بلغ استمرار النزوع الى الماضي لدى عدد من الشعراء مدى أصبح معه خطراً على الاتجاه القومي ذاته بعد أن أخذ يزيد عن حده ويتقلب الى ضده ؛ إذ أن استرسال الشعراء في تفاخرهم بالاجداد السالفة وتغنيهم المتماذي بالاجداد العطارفة وبكاءهم العهود الزاهية الى حد إهمالهم شؤون حاضرهم وواقع أممتهم ، كل ذلك جعلهم في شبه عزلة عن الحاضر وأحداثه . وربما كان ذلك منهم عن وعي أو غير وعي نتيجة هربهم الى زوايا الذكريات الغابرة يأمنون بها ويتعززون عن واقع حياتهم وحياتهم أممتهم ، حتى غدا الماضي لديهم غاية في ذاته ، في حين أنه لا يعدو في الاصل أن يكون عوناً للامة في نهوضها ، وحافظاً على تبحررها .

إن العنصرين اللذين اعتمد العرب عليهما في تكوين قوميتهم أي العنصر الداخلي المتمثل في التراث والتاريخ ، والخارجي المتمثل في مفاهيم العرب الحديثة ونظرياتهم وتاريخ قومياتهم ، هذان العنصران اللذان يتم أحدهما الآخر أخذاً بيدوان في كثير من الاحيان كتيارين متعارضين ينافي أحدهما الآخر . وقد آل الامر أحياناً الى الغلو في الاعتماد على المصدر الخارجي بلغ حد الشعوبية أو الاقليمية ، كما آل من جهة أخرى الى غلو مماثل في الاعتماد على الخصائص الموروثة بلغ حد الجمود .

أما الشعر القومي فقد كان في هذه المرحلة من حياة العرب يضيق بصور عامة بآراء المتطلعين الى أنظمة المجتمعات الغربية في الحكم والحياة ويشفق من طغيانها على مقومات العرب الاصلية . وقد يكون لهذا الخذر تجاه الآراء الوافدة والمقومات الغربية ما يبرره في مرحلة البعث والتكوين القومي . لقد كان من الطبيعي أن يصدر تجاه ذلك رد فعل يستنكر إغراق الشعراء في النزوع الى كهوف الماضي وتعاميمهم عن واقع الحياة الراهن وأحداثها الماثلة . حتى لقد استمرت بين رجال الفكر والادب نيران معركة تجلت في كثير من الكتب والمقالات والبحوث وبخاصة في المجال الاجتماعي . واذ كان الامر لم يبلغ تلك الحدة . في المجال القومي حين كان الماضي القديم يد المشاعر الوطنية بنسخ الثقة والايان فان صدى ذلك الجدل انتقل في بعض جوانبه الى الشعر . ونحن نجد في عدد من القصائد مظهراً محدوداً لهذه المعركة على الصعيد القومي والفكري ، ومن ذلك أن الشاعر فوزي المعلوف أنشد في حفل أدبي أقيم بالمهجر قصيدة مطلعها (١) :

خل البداوة رحبها وحسامها      والجاهلية نوقها وخيامها

وفيها أنكر كل فضل لتقديم . ثم أنشد إلياس فرحات على المنبر نفسه قصيدة عارضه فيها بهذه الابيات وحامى فيها عن مبدأ الماضي المشترك أحد العناصر الاساسية للقومية (٢) :

حي البداوة نوقها وخيامها  
حيتك أشباح القديم وسامت  
قد تبغ النفس الطموح أشدها  
لولا الجذور الطمئنة في الثرى  
والجاهلية ربحها وحسامها  
فمن العدالة أن ترد سلامها  
ويظل يذكرها الولاء فظامها  
ما كانت الأغصان ترفع هامها

فالشاعر يأبى الانسلاخ من القديم والتبرؤ منه مهما بيد ضئيل الشأن والأثر  
لأنه الأصل . والأصل تتبعه الفروع ..

وربما كانت صيحة الرصافي أقوى ما قيل في هذا الشأن ، وذلك في قصيدته  
« نحن والماضي » التي يكاد يدعو فيها الى قطع الصلة بالماضي والاهتمام بالمستقبل  
وحده (١) :

أرى مستقبل الأيام أولى  
فما بلغ المقاصد غير ساع  
فوجه وجه عزمك نحو آت  
وهل إن كان حاضرنا شقياً  
تقدم أيها العربي شوطاً  
وأسس في بنائك كل مجد  
ففسر العالمين ذوو خمول  
وخير الناس ذو حسب قديم  
فدعني والفخار بمجد قوم  
بمطمح من يحاول أن يسودا  
يردد في غد نظراً سديدا  
ولا تلتفت الى الماضين جيذا  
نسود بكون ماضينا سعيذا  
فان أمامك العيش الرغيدا  
طريف واترك المجد التليدا  
إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا  
أقام لنفسه حسباً جديدا  
مضى الزمن القديم بهم حميدا

وهو يندد بحيرة العرب وجمودهم أو تلهيهم بأطياف الذكريات فيقول من  
قصيدة أخرى (٢) :

تراهم جميعاً بين حيران واجم  
وآخر يطري ماضياً من نخاره

(١) ديوانه ٣٤

(٢) ديوانه ٣٦

وكذلك يعبر محمد رضا الشبيبي عن هذا الشعور المرير تجاه استنامة العرب  
الى أمجادهم الغابرة فيقول (١) :

عس الزمان أو ابتسم	قلب يحز به الألم
تأبى مجارة الأمم	يا أمة من جهلها
أبدأً تفأخر بالقدم	ذلت حديثاً أمة
طول التباهي بالرسم	وأحل منها رمة

وشبيهه بذلك أيضاً ما يقوله حسن البحيري إذ ينكر على قومه تلك الغفلة،  
والزمن يسير حديثاً بالأمم (٢) :

أين منا نور عصر حاضر	أين نحن اليوم من سير الزمن
تتغنى بحياة الغابر	نحن من ماضي الليالي في الدجن
فغفونا عن عدو ساهر	شاقنا من عيشنا حلم الوسن

ونجد مظهرأ آخر لرد الفعل العنيف الذي أخذ يفتح عيون الشعراء على واقع  
أمتهم العربي في قول محمود غنيم الذي طالما اعتر نفسه بالأجاد السالفة (٣) :

لا در در امرىء يطرى أوائله خراً ويطرق إن ساءلته ماهو

وفي قصيدة محمد عبد الغني حسن التي نظمها إثر قيام جامعة الدول  
العربية (٤) :

للمرء خفر في خفار المولد	يا شرق قد دام الزمان ولم يعد
فيم افتخارك بالقديم الأبعد	قل للمفاخر في الحياة بأصله
إن لم يقس بالحاضر المتولد	ما قيمة الماضي الدفين ومجده
فيه لماض غائب لم يشهد	هذا زمان لا تقام كرامة

(٢) ابتسام الضحي ١١٧

(٤) من نبع الحياة ٥٧

(١) ديوانه ٩٤

(٣) ديوانه ٧٨

ومها يكن من أمر ، فإن رد فعل كهذا كان لا بد منه في سبيل تقويم انحراف بعض مقومات القومية العربية عن طريقها السوي وفي سبيل الحد من طغيان الماضي على الحاضر والذكريات على الواقع .

« وما ينبغي إدراكه أن من أبرز سمات الثقافة الحية تأصلها بماضيها الإيجابي ، فحري بها أن تظل واعية لماضيها مستمدة من هذا الماضي القوي والايان ، ومنمية الارث الذي يتناقله مجتمعنا جيلا بعد جيل . على أن إيمانها هذا لا يؤدي بها الى الانخداع لان إيمانها بالعقل أشد وأقوى ... ولان الثقافة الحية ثقافة متطلعة الى الامام ، جواة الآفاق مناورة في ميادين العقل والروح لا تأخذ من الماضي إلا ما يوحى ويسند » (٢) .

وبحق ما رآه الدكتور عزة النص (٢) من أن « عبادة الاجداد وتقديس كل قديم والحفاظ على معالم القرون الاولى في ظيرة العصور الحديثة كل ذلك قاد أمة الصين الى الانهيار .. والواقع أن في كل حضارة أسساً خالدة وأخرى زائلة ، والمهم في بناء القومية تمييز العمدة الثابتة عن المظاهر المتغيرة . ولعل من خير ما نستوحي من الماضي تلك الطاقة المعنوية التي دفعت المصلحين الى الاصلاح والمجددين الى التجديد . من أبطالنا الشجعان نستلهم شجاعتهم لا أساليبهم في الطعان ، ومن علمائنا الافذاذ نستمد قدرتهم على البحث والغوص لا ما وصلوا اليه بالفعل ، من الماضين تبقى لنا حماسة نبيلة وهيجان خلاق » وقد قال موريس باريس (٣) « إن من واجباتنا بل من ضروريات حياتنا أن نحب أمواتنا ؛ فأية قوة تنبعث عنهم ؟ أيها الاموات كم أتم أحياء ! »

وجدير بشعرائنا أن يجعلوا من تراثنا العريق وأجدادنا الغابرة ذخراً زكن اليه ، وشعلة نهتدي بنورها وأساساً وطيداً نشيد فوقه مستقبلاً باسم . ولن نرضى لهذا التراث وتلك الاججاد أن تكون لنا قوقعة ندور في داخلها

(١) انظر قسطنطين زريق . مجلة الآداب ، نيسان ١٩٥٤

(٢) مجلة الآداب البيروتية ، عدد نيسان ( أبريل ) ١٩٦٠ ، ص ٢

(٣) انظر المرجع السابق .

وأن تغدو لدينا وزراً ننوء بأعبائه . زيد أن تكون قوميتنا رحيمة إيجابية تبنى  
خير الانسانية وتسهم في تقدم المجتمع البشري ، ولن نكتفي بعد اليوم بأن يردد  
شعراً أو أقوالهم المكرورة بأن أرضنا مهبط النبوات ومصدر الاديان ، أو يتهموا  
بأننا الجسر الذي يصل الشرق بالغرب وتعبير عليه حضارات الامم .

إن استقراء الشعر القومي الحديث يسمح لنا بأن نلاحظ بصورة عامة أن  
ماضي العرب المشرق كان خير نبراس يعشون الى نوره في إبان كفاحهم ، ويسيرون  
بهديه في أحلك أيام نضالهم ، ولم يكن تغني الشعراء بجيش أسامة وأبي عبيدة أو  
بطولة خالد وطارق وصلاح الدين ، أو بوقعات بدر واليرموك والقادسية وطين  
إلا انعكاساً لما استقر في نفوسهم من رغبات عارمة واماني طاغية ايام الاحتلال في  
ان يغدو لامتهم جيش قوي يكون لهم درعاً حصينة تجاه الظالمين ، ومعرفة  
فاصلة تنجلي عن طرد الغزاة المستعمرين . وهذا التاريخ المشترك هو الذي كان  
يمد الشعوب العربية بروح الثقة والايان والفاؤل التي عبر عنها الشعراء  
اقوى تعبير . ولم يكن ماضي الاجداد إلا الذاكرة الحية للعرب عاشت في نفوسهم  
خالدة ، وكانت في حقيقتها مظهراً فعالاً لمشاعرهم المتوثبة ، وركناً هاماً في بناء  
شخصيتهم القومية وإقامة مجتمع متقدم متحرر يضاهي ما كان عليه الاجداد من  
شأن نابه بين الامم .

على ان الشعر المعاصر لم يتجه الى التاريخ الحديث بمثل القوة التي وجدناها  
في اتجاهه الى التاريخ القديم . ويبدو ان ذلك يعود الى سببين : الاول كون  
العرب يوشكون ان يجتازوا مرحلة البعث التي طال امرها عليهم ، والثاني ان هذا  
الماضي القريب ما زال يفتقر الى تلك الهالة من القداسة والتبجيل التي وجدناها حول  
تاريخ العرب القديم والتي لا بد ان ترسم حول كل تاريخ ، وتزداد اتساعاً كلما  
اوغل في القدم .

وإننا نجد الشعر العربي اليوم ينجح لابرز التاريخ القريب وتخليد أحداثه  
الحاسمة . وهذا التاريخ على قصر أمده وقرب العهد به ينطوي على عناصر الحياة



ويعكس وثبة العرب الرائعة ، من ذلك مثلاً لجوء أحمد زكي أبي شادي الى  
بعث إحدى المناسبات القومية الكبرى حين أعاد الى الأذهان ذكرى انتفاضة  
مشرقة خاضها المصريون ضد الانكليز وانتصر واعليهم عام ١٨٠٧ في معركة رشيد ،  
وذلك في مطولته الشعرية التي أخرجها في كتاب مستقل حمل اسم « مفخرة  
رشيد » . ولسنا بصدد الحكم على مدى توفيق الشاعر في محاولته خلق الجو  
الملحمي أو مدى إيجاء أبياته في محاولته تلك ، ولكننا نقول إنه ميدان جديد  
اقتحمه أبو شادي بتأثير ملح من الروح القومية التي غمرت الشعر الحديث  
بقوة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، ومن هذا القيل كثير من قصائد  
الذكرى التي يعمد الى نظمها الشعراء من حين الى آخر في انتفاضات العرب  
الحديثة وفي أحداثهم القومية البارزة ، من نحو ما قيل من شعر حماسي كثير في شهداء  
أيار وثورات مصر وسورية والعراق والجزائر وما تمخض عن ذلك من بطولات .

وجمل القول إن تيار البعث الشامل قد استغرق نفوس العرب في العصر  
الحديث ، وكان الشعراء في طليعة من حمل رسالته وبشر به . وقد أخذ عنصر  
الزمان الخالد في هذا الوجود يطوي صفحات النضال العربي الحديث وفيها في  
كهوفه مضيئاً إياها بذلك الى السفر العربي العظيم ، وما نضال العرب في عصورهم  
الحديثة إلا رافد حي لذلك التاريخ الحافل ، شارك مشاركة فعالة في تكوين  
الشعور القومي المعاصر . ولقد وجد الشعراء في ذلك التاريخ الحديث مادة حية ذات  
أهمية بالغة في التعبير عن الوجدان العربي الراهن .

## الفصل الرابع

### المطامح والآلام المشتركة

إذا كان للماضي المشترك ذلك التأثير البالغ في حياة العرب القومية المعاصرة كما أوضحنا ذلك آنفاً من أقوال شعرائهم فمن الطبيعي أن يكون لحاضرهم وواقع حياتهم ووحدة مصيرهم تأثير فعال يسهم إلى حد كبير في صهر مشاعرهم القومية ويؤلف بين قلوبهم ويوحد أهدافهم . وليس هذا الحاضر في حقيقته إلا امتداداً لذلك الماضي ، وحلقة أخيرة من سلسلته الطويلة ، كما أن هذا الحاضر ليس إلا جزءاً من ذلك الماضي المتطاوّل الذي يمتد إليه بجذوره . وسيبقى هذا حال الزمان ما بقيت الحياة متطورة نامية متجددة ، وما دام قول شاعرنا قائماً :

إن هذا القديم كان جديداً وسيضحي هذا الجديد قديماً

ومن الطبيعي أن يكون الشاعر وأي فنان شديد الارتباط بواقعه وبمجتمعه وحياة أمته . ولهذا نجد الشعر الحديث يعبر بقوة وحرارة عن حياة العرب الحاضرة الخافلة بالأحداث لأن الشعراء أصبحوا يحيون واقع أمّتهم ويعيشون تجربتها الحية ، وكأن الأمر كما يقول أحد النقاد الفرنسيين « إن الآلام القديمة تعني ، أما الحديثة فتصرخ » .

وقد مرت بالعرب في حياتهم الحديثة ظروف متشابهة من الآلام المشتركة

التي تتمثل في ابتلائهم بالاستبداد والاستعمار والجوع والفقر ، كما جمعهم  
الأقدار حول أهداف مشتركة واحدة تتركز في نشدان العدالة الاجتماعية والرخاء  
الاقتصادي والتحرر والديمقراطية والوحدة ...

وكل ما نطق به الشعراء حول ثورات العرب وانتفاضاتهم الحديثة في  
مختلف أقطارهم ضد الاستبداد والاستعمار في سبيل التحرر ليس في حقيقته إلا  
التعبير الرائع عن انصهار العرب في بوتقة قومية واحدة .

١

وليس كالألام والنوائب ما يضم الشمل المبدد ويلم الشعث المفرق . وقد  
عبر الشعراء عن هذا العامل القومي بأسلوب مباشر فضلاً عما ذكرناه من تعبيرهم  
عن حياة أمتهم وحاضرها المكافح . ولعل أولى درجات هذا التعبير ذلك التجاوب  
العاطفي العميق الذي نلمسه قوياً فيما نظمه الشعراء من قصائد شاطروا فيها كل  
شعب عربي منكوب آلامه وأحزانه وشاركوه في أمانيه وآماله . ومن أوائل ما  
يطلع علينا من هذا الشعر أبيات حافظ المشهورة التي يقول فيها (١) :

إذا ألت بوادي النيل نازلة      باتت لها راسيات الشام تضطرب  
وإن دعا في ترى الأهرام ذو ألم      أجابه في ذرا لبنان منتحب

وعندما شملت المصائب شعوب العرب ، وعمتها الآلام ، أصبح من الواضح  
أن الشاعر العربي لم يعد يتغنى بمشاعر شعبه فحسب بل أخذ يغني مشاعر العرب  
جميعاً . ويعتبر أحمد شوقي خير مثل على ذلك ، إذ ما كادت سحب الحرب  
الكبرى تنجاب عن العالم حتى تحول عن القصر والخديوي والسلطان والأتراك وبادر  
الى التعبير عن مصر والشعب ثم عن العرب أجمعين . « ولم ينطق عن الروح الوطنية  
لمصر وحدها بل حلق بقيثارته في جو العالم العربي كله ، فقبل هذه الحرب كان

(١) ديوانه ١ : ٢٦٨ وقد نظمها عام ١٩٠٨ .

يذكر العروبة على هامش مدائح في الترك أو في الرسول الكريم ، أما اليوم وفي هذه الحقبة فإنه يتغنى بالنزعات الوطنية والقومية الطارئة على هذه الشعوب . ويقف من العرب موقفه من مصر فهو يتغنى بأبجادهما الماضية ، وهو يتغنى بشوراتهم الحاضرة ، وهو يحس إحساساً قوياً بأن مصر والشام والعراق وغيرها من البلاد العربية أسرة واحدة » (١) وعلى هذا النحو أخذت ربة شعري شوقي تغني العرب أناشيد وولديتهم وحريلتهم ، وتصور لهم آمالهم في مستقبل هنيء ، « وكان له من القدرة في التعبير ما جعله يبدع معاصريه في كل ناحية لسها ، بل ما جعل العرب أنفسهم يعدون بعض قصائده كأنها مصاحفهم » (٢) وفي مقدمة ما نظمه في دمشق منذ عام ١٩٢٥ مصوراً مشاعر السوريين ضد الاستعمار الفرنسي قصيدته النونية التي مطلعها :

قم ناج جلق وانشدرسم من بانوا      مشت على الرسم أحداث وأزمان  
وقصيدته القافية التي مطلعها :

سلام من صبا بردى أرق      ودمع لا يكفكف يا دمشق

وفضلاً عن أن هذه القصائد تعد في ذاتها مظهرًا فعلياً للتجاوب مع آمال السوريين والامهم ، فإننا نجد في عدد من أبياتها ما يشير مباشرة وبوضوح الى عامل الألم المشترك الذي اعتبرناه من العناصر المكونة لقومية العرب الحديثة، فهو يقول (٣):

ونحن في الشرق والفصحى بنورحم      ونحن في الجرح والآلام إخوان  
كما يقول في قصيده أخرى (٤) :

بني البلد الشقيق عزاء جار      أهاب بدمعه شجن فسلال  
وما زلنا إذا دعت الرزايا      كأرحم ما يكون البيت آلا

وربما كانت قصيدة شوقي التي نظمها بمناسبة تكريم العرب له عام ١٩٢٧ ومبايعته أميراً للشعراء ، في مقدمة قصائده التي تجلت فيها دناءة الألم المشترك بين

(١) الدكتور شوقي ضيف : شوقي شاعر العصر الحديث ١٥٦

(٢) الصدر السابق ، انظر ١٥٩ - ١٦٠ (٤) الشوقيات ٢ : ١٢٣

(٤) الشوقيات ٢ : ٢٢٧

الشعوب العربية اهتماماً زائداً ، بل لا تكاد تضارعها في ذلك قصيدة أخرى ،  
وفيهما يقول (١) :

يا عسكاً ظا تألف الشرق فيه	من فلسطينه الى بغدادنه
رب جار تلفتت مصر توليه	سؤال الكريم عن جيرانه
بعثتني معزياً بماقي	وطني أو مهناً بلسانه
كان شعري الغناء في فرح	الشرق وكان العزاء في أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح	وأن نلتقي على أشجانه
كلما أن بالعراق جريح	لمس الشرق جنبه في عمانه
وعلينا كما عليكم قيود	تتنزى الليوث في قضبانه
نحن في الفكر بالديار سواء	كلنا مشفق على أوطانه

ولا ريب أن ذلك المهرجان الادبي كان مظهرة قومية رائعة وصورة حية  
لتزوع العرب نحو الالفة والاتحاد ، وإرهاصاً لفكرة الجامعة العربية التي اشتدت  
الدعوة اليها بعد عصر أمير الشعراء .

وتتجلى ظاهرة الالم المشترك بين العرب لدى سائر الشعراء في مختلف  
اقطارهم من ذلك أبيات لعبد المحسن الكاظمي يقول فيها (٢) :

أحن إذا قيد العراق وانخي	وأشوق إن قيد الشام وأزفر
وأطرق إن قيد الحجاز على جوى	وأعجب اما قيد مصر وأبهر
جميع بلاد العرب في القدر واحد	إذا وزنوا البلدان يوماً وقدورا

على أن هذا التعاطف كان يشتد إبان الازمات والمحن التي تلم بالعرب من  
حين الى حين . فعندما نكبت دمشق بقذائف الفرنسيين على أثر ثورة سورية  
عام ١٩٢٥ تجلى حزن الشعراء على عاصمة الامويين وتعاطفهم معها في مأساتها الى مدي

(١) الشوقيات ٢ : ٢٤٠

(٢) ديوانه المجموعة الثانية ٢٥١

لم يبلغه في حدث آخر من قبل . ويكفي أن نشير الى أن فاتحة شعر شوقي في الاتجاه العربي انطلقت منذ ذلك الحين على النحو الذي سبق أن رأيناه . وهذا معروف الرصافي يعكس ما اعتلج في نفس العرب تجاه الفيحاء آنذاك من أسى فيقول (١):

إذا هي مدت في الدجنة صوتها      تميد له في الغوطتين غصون  
وتلهب منه في الفضاء شرارة      فتبصرها في الرافدين عيون  
وتهبو له في ساحل النيل هبوة      أبو الهول منها واجد وحزين

وقد جمع محمود الجبوبي عناصر القومية من لغة ودين ومصاب مشترك على صعيد واحد في قوله (٢) :

سواء نحن في لغة ودين      كما أنا سواء في المصاب

ونجد لدى محمد مهدي الجواهري تعاطفاً كبيراً مع آلام العرب الذين وحدت الجراح مشاعرهم فهو يقول مخاطباً أهل يافا في فلسطين (٣) :

ثقوا أنا توحدنا هموم      مشاركة ويجمعنا مصاب  
تشع كريمة في كل طرف      عراقي ، طيوفكم العذاب  
وسائلة دما في كل قلب      عراقي جروحكم الرغاب  
يزكينا من الماضي تراث      وفي مستقبل جذل نصاب

وهذا عزيز فهمي يعبر من ارض الكنانة عن التعاطف الشديد بين العرب على اختلاف ديارهم فيقول (٤) :

(١) ديوانه ٤٥٤

(٢) ديوانه ٧٢

(٣) ديوانه ١٨٨

(٤) ديوانه ٧٦

ألسنا جميعاً أمة وحضارة  
 إذا أن شامي تنبه هاجع  
 غفونا جميعاً وانتبهنا فجاءة  
 تفرقنا أرض ويجمعنا عهد  
 بمصر وفي بغداد والتفتت نجد  
 كأننا على وعد وقد أنجز الوعد

وهذا البيت الثاني لعزير فهمي يذكرنا بروح حافظ إبراهيم في بائيته «سورية ومصر» التي سبق أن أوردنا بعض أبياتها في مستهل هذا الفصل . وقد حظي تعبير حافظ على بساطته بشهرة ذائعة وغداً محبباً الى الجمهور وأثيراً لدى الشعراء لأنه عبر بصدق عن عواطف الود والتآخي المتبادل في نفوس الشعوب العربية على اختلاف ديارها ، وعلى هذا المنوال نسج قول علي الجارم عن ظاهرة الأمل المشترك الذي صهر أمته حين قامت جامعة الدول العربية (١) :

تذوب حشاشات العواصم حسرة  
 ولو صدعت في سفح لبنان صخرة  
 ولو بردى أنت لخطب مياهه  
 إذا دميت من كف بغداد إصبع  
 لك ذرا الأهرام هذا التصدع  
 لسالت بوادي النيل للنيل أدمع

والمعنى نفسه يكاد يمثل أمامنا في قول محمد عبد الغني حسن (٢) :

إذا تغنى بمصر ببلبل غرد  
 وإن شككت مصر من سوء ألم بها  
 بنا من الوجدان والآلام ما بكم  
 سمعت بالشام ألحان المغنيننا  
 سمعت من سرورات القدس شاكيننا  
 فالوجد يشجيكم حيناً ويشجيننا

## ٢

أما عنصر الأمل المشترك فلا نستشفه إلا من خلال الآلام والآسي التي حلت بالشعوب العربية .

(٢) من نبع الحياة ٩٦

(١) ديوانه ٤ : ٤١

فالواقع أن الخطوب الجسام التي نزلت بالعرب منذ قيام الحرب العالمية الأولى عملت على ازدياد التقارب بينهم ، وأن الاستعمار الذي أصاب كرامتهم ومشاعرهم القومية بجرح بليغ قد أَلف بينهم ولم شعّتهم ووحيد آمالهم . وكان الشعراء قبل الناسة والزعماء ، لسان الشعوب ورسل التقارب والالفة والوحدة . وهذا محمد عبدالغني حسن يقول في ذلك أيضاً (١) :

قد وحدث بيننا الآلام موجعة وألفت بيننا الآمال والطلب  
وجمّعنا الجراح الحمر دامية وللجراحات فيما بيننا نسب

ونجد هذه الظاهرة قوية لدى كثير من شعراء سورية الذين كانوا شديدي الاحساس بما يمر بالعرب من أحداث وما ينزل بهم من خطوب ، من ذلك قول أحمّد الطرابلسي مستبشراً بالغد المشرق بعد أن ابتلي العرب زمناً بالاستعمار (٢) :

وحدثنا مواعج القيد حيناً فارقبوا اليوم وحدة التحرر

كما نجد ما يضيء هذا الاستبشار أيضاً في قول عمر أبي ريشة والاحتلال في أوج طغيانه (٣) :

هذه أمّتي وهذي مغانيها - تجر السواد في الاعياد  
كلها لاح بارق في سماها أطفأته ريح الزمان العادي  
جمعتها هوج الليالي على الجر ح كما تجمع الندامي شوادي  
والرزاياكم قربت بين أشتا ت بداد وأمنيّات بداد

وهذا الشاعر يمثل في قصائده العنفوان القومي والارادة التي لا تقهر ، فهو متفائل أبداً ينبط النور من الظلام والماء من الصخر واليسر من العسر .

(١) من نبع الحياة ٩١٥

(٢) مجلة الرسالة ، السنة السابعة ص ١٠٦

(٣) ديوانه ١١٢



وقد ازداد الشعراء ثقة وأملاً بمستقبل أمتهم وتحررها خلال سني الحرب  
 الاخيرة إذ بدأ للشعوب المستضعفة أن الاوان قد حان لتقطف ثمرات  
 نضالها . وكانت سورية أول بلد عربي انتزع حريته من براثن المستعمر  
 إثر انجلاء غيوم الحرب القاتمة . ونجد أبا ريشة أيضاً يعبر عن تلك المنى  
 المعسولة التي ذاق الشعب حلاوتها بعد لهفة شديدة وأيام مريرة ، وهو في أبياته  
 هذه يبلغ حد مباركة الخطوب ، ويشير الى أنه لولا تلك الآلام لما تحققت  
 هذه الآمال (١) :

لمت الآلام منا شملنا      وعت ما بيننا من سبب  
 فاذا مصر أغاني جلق      وإذا بغداد نجوى يثرب  
 بورك الخطب فكم لف على      سهمه أشتات شعب طيب

وفي أواخر أعوام الحرب الاخيرة حين أهل عام السلام على العالم المذبذب  
 قال محمود غنيم أبياته المعنمة بالآمال والمنى (٢) :

يا أيها العام المطل تحية      من خير سكان بخير بقاع  
 أمل العروبة فيك أعرض جانباً      من سؤدد تبكي عليه مضاع  
 أمل تكاد تحس وقع ديبه      بين القلوب منافذ الاسماع

وبمشيئة الله وإرادة الشعوب تحققت هذه الآمال وتقلص ظل الاستعمار  
 البغيض عن قسم كبير من بلاد العرب التي أخذت القطر تلو القطر، تنعم بالتحرر .

والملاحظ أن هذا الاتجاه في الشعر القومي الذي ينزع الي تصوير الآلام  
 المشتركة وواقع الامة العربية حظي باهتمام الجيل الجديد من الشعراء ، إذ أن  
 عنصر الشباب مشدود بقوة الى المجتمع ، يتجاوب مع واقع حياته ويتفاعل مع  
 وجدان أمته . في حين كان الجيل الاسبق من أمثال شوقي وحافظ ومحرم

(٢) صرخة في واد ٣٥

(١) ديوانه ١٤٥

وعبدالمطلب والزهاوي والكاظمي والوليد والغلابيني وسواهم أكثر اهتماماً بالماضي المجيد والتاريخ العريق ، أو أنهم كانوا يتأرجحون بين هذين الاتجاهين . وهذا طبيعي في فترة تاريخية معينة من حياة العرب يعتمدون فيها على قوة البعث القومي وأصالته .. وهذا الاتجاه الذي أخذ الشعراء يصرون عنه بصورة مطردة منذ السنين الأخيرة التي سبقت الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، والذي يقيم الشعور القومي على أساس الآلام والآمال المشتركة ووحدة الهدف والمصير أخذ يغلب على الشعر المعاصر تبعاً لغلبة الطابع الاجتماعي على الفنون بصورة عامة ، وتبعاً لانسجام هذا الاتجاه مع النظريات الحديثة في القومية التي تجعل للعناصر الواقعية مثل وحدة المصير والهدف المشترك ، المقام الأول في تكوين الشعور القومي .



من خلال ما تقدم من بحث عناصر القومية ومقوماتها في الشعر المعاصر ، نلاحظ أن الشعراء لم يقصدوا في معظم ما نظموه من قصائد ومقطوعات الى ذكر هذه العناصر بشكل مباشر ، ولم يكن هدفهم سردها أو حصرها أو توضيحها لان ذلك من شأن النثر ويتنافى مع طبيعة الشعر وضيق قوافيه وأوزانه . واكثر ما مر بنا من الشواهد يدل على السمة العفوية التلقائية التي كان يصدر عنها الشعراء في التعبير عن تلك المقومات والعناصر التي تشكل الشعور القومي ، وهذا ما يفسر لنا قلة الاشعار التي عمد فيها اصحابها الى إبراز العناصر القومية مجتمعة في قصيدة أو مقطوعة واحدة . على أن أثر الدراسات الفكرية والابحاث الاجتماعية أخذ يبدو لدى عدد من الشعراء المعاصرين الذين تسلحوا بالثقافة والمعرفة بعد ان كان من سبقهم من شعراء الجيل الماضي يكتفون بمحاولة إتقان متون اللغة واستيعاب الفاظها وتنميق عبارتها .

وربما كان عباس محمود العقاد رائد الاتجاه الجديد ، وهو مع عزوفه عن معالجة الشعر القومي وبعده عن تيار العروبة بصورة عامة قد ترك

لنا في ديوانه « وحي الاربعةين » قصيدة تعد فريدة بالنسبة الى موضوعنا وقد نظمها في عيد الاستقلال السوري عام ١٩٣٠ ومنها قوله (١) :

إنا بنو وطن	تقرب بينه	سيناء في قدسية	وجلال
الشمس تجمع في المطالع	بيننا	والارض في حرم الجوار	الغالي
ومعالم التاريخ	في كتب وفي	عقب وفي نصب	وفي اطلال
ولسان صدق في اللغات	تألفت	فيه القلوب	تألف الاقوال
شكواكم شكواى	او سلواكم	سلواى او اشغالكم	اشغالي
ومطالب الغازين	في بيدائكم	كمطالي	ومالككم
		كمالي	

فقد اتى الشاعر تقريبا على جميع مقومات القومية العربية حين تحدث عن اشتراك العرب في الارض والتاريخ والنصب والآثار واللغة والعواطف والافكار والآلام والمصائب والامال والاهداف والمصير . ولا يبعد ان يكون العقاد قد وضع تخطيطا مسبقاً لافكاره وعرف ماذا ينبغي عليه قوله قبل ان ينظم ابياته هذه وكأني به في ذلك ، يقبل على نظم قصيدته بروح تامل اقباله على تدييح مقالته .

كما تقع على ما يشبه ذلك في ابيات لخليل مردم بك يقول فيها (٢) :

تألي الاواصر من قربي	ومن لغة	إلا الوفاق فكيف	اليوم مختلف
إن المصائب والاحزان	تجمعنا	والسعي والامل	الفينان والهدف

فقد اتى الشاعر في هذين البيتين على معظم المقومات القومية بين العرب حين ذكر اشتراك شعوبهم في صلات القرابة واللغة والالام والمطامح والاهداف ...

وإذا ما انتهينا الى هذه المرحلة من استجلاء مقومات القومية العربية في الشعر الحديث نكون قد رصدنا عناصر المفهوم القومي لدى الشعراء .

ومن الطبيعي أن يكون الجانب العاطفي من المفهوم القومي أكثر بروزاً من العنصر الذهني والواقعي في الشعر لأن الشعر لغة العاطفة والشعور . ونحن لا نكاد نجد في الشعر الحديث اهتماماً بسائر العناصر المكونة للقومية مثل المصالح المادية المشتركة ووحدة الأرض وغير ذلك مما أזור عنه بسبب طابعه العلمي المحض . كما أن الشعراء في تناولهم هذه المقومات استطاعوا أن يمزجوها بجراره انفعالهم وأصالة شعورهم فخرجت تنبض بالحياة ...

## الفصل الخامس الوحدة العربية

١

كان الوطن العربي واحداً منذ عصر الراشدين ، حضرته دمشق أو بغداد أو القاهرة . فالتبني مثلاً نشأ في الكوفة وقضى حياته متنقلاً بين حلب وأنطاكية ودمشق والقاهرة ، وابن خلدون عاش شطراً من حياته في المغرب وشطراً آخر في مصر .. وما عرف العرب التجزئة إلا في أحلك عهودهم . ولم تكن الدويلات المتنافرة في الماضي إلا نتيجة عوامل سياسية فرضها الزعماء والقواد دون أن يقيموا أي اعتبار لرغبات مجتمعاتهم آنذاك ومع هذا فقد كانت الحدود مصطنعة تتراوح بين مد وجزر بحسب ازدياد نفوذ الحكام أو ضعفه ، وما أسرع ما كانت تمحى بمجرد انهيار ذلك النفوذ . وحتى في العهد العثماني الذي دام نحواً من أربعة قرون كانت أقطار العرب وحدة متماسكة يتنقل بينها العربي كيفما شاء . أما ألفاظ أردني ولبناني وفلسطيني وسوري .. فلم تعرف إلا بعد الحرب العالمية الأولى حين فرض الاستعمار التجزئة على بلاد العرب وأقام بينها حدوداً مصطنعة (١) .

---

(١) انظر محمد منيف الرزاز في محاضرة له عن القومية ألقاها في الكويت .

« لقد تمت بين سكان البلاد العربية عوامل الوحدة والانسجام بشكل لم يتم لأكثر بلاد العالم إذ لم تقتصر هذه الوحدة وذلك الترابط والانسجام على ناحية اللغة أو الأصل أو الجنس أو الثقافة أو المعتقدات ، بل اجتمع ذلك كله وتظاهرت هذه العوامل كلها لتكوين المجتمع العربي وجعله وحدة اجتماعية حية خصبة منتجة فعالة » (١)

إن القومية في جوهرها - رابطة تجمع أبناء الأمة الواحدة ، وهي تستلزم قيام دولة مستقلة متحررة ذات شخصية وسيادة تتآلف فيها مختلف عناصرها وطوائفها وأديانها وطبقاتها وأقاليمها ... فالقومية بذلك سد قوي أمام العدوان الخارجي وسياج منيع ضد التفرق الداخلي والنزعات الوطنية الضيقة . وتعد الثورة العربية الكبرى التي قامت إبان الحرب الأولى أول تعبير عملي شامل عن هذه المنازعة المضطربة في نفوس العرب ، فقد كانت في جوهرها ترمي إلى تحرير العرب وجمع شملهم في دولة كبيرة واحدة . ولم ينظر العرب آنذاك إلى هذا الهدف نظرهم إلى وضع جديد ، وإنما كانوا يرون فيه إعادة للأمر إلى نصابه ، إذ من الطبيعي أن يتحد العرب لا أن يتفرقوا . ولكن هذا الحلم الكبير سرعان ما تبدد بليجوء المستعمرين إلى احتلال البلاد وتجزئتها دويلات عديدة منفصلة . وقد حز ذلك كثيراً في نفوس العرب وكان شعراؤهم خير مرآة تعكس لنا شعور المرارة والحمية . ولعل شعراء الشام كانوا أشد إحساساً من سائر الشعراء العرب بوطأة هذا التقسيم الذي خطه الحلفاء سرّاً خلال الحرب العالمية الأولى . ويعده خير الدين الزركلي في مقدمة من ناضلوا في سبيل القضية العربية ، ونافحوا عن وحدتها ، من ذلك قوله حين تكشففت نوايا الحلفاء تجاه بلاده (٢) :

فيم الونى وديار الشام تقسم      أين العهود التي لم ترع والدمم  
ما بال بغداد لم تنبس بها شفة      وما لبيروت لم يخفق بها علم

وقد عبر أبو الفضل الوائليد من وراء البحار عن شعور الأسي تجاه الوطن

المزق بقوله : (٣)

(١) محمد المبارك ، الأمة العربية ١٨ .

(٢) ديوانه ١٥

(٣) نفحات الصور ٦٣

قلبي تقسم وجداً من تقسمهم لكن حيي وحيد غير منقسم

وكانت آيات خليل مردم من أصدق ما تجلي فيه شعور الاستنكار الذي  
شمل العرب آنذاك ، فهو يقول والأسى يملأ قلبه (١) :

فيم التقاطع والأرحام واشجة	والدار جامعة والملتقى أمم
الله في قطع أرحام وفصم عرى	عهدي بهاهوي وثقى ليس تنفصم
ماذا عسى أنكرت من جلق حلب	بل ما عسى أهل لبنان يريهم
بلادنا ويد التقسيم تقلقها	كأنها رقعة ينتابها جلم
أكل حاضرة دار للملكة	أبعاد ما بينهن الفتر والبصم

كما ندّد إلياس قنصل من مهجره أيضاً بهذه الحدود التي خطها المستعمر في  
قلب الوطن العربي وأقام على أطرافها دويلات وحكومات (٢) :

دويلات تفرقها حدود	مزيفة أقيمت ثم قصرا
وتجمعها العروبة وهوي روح	مقدسة بها الخلد استقرا

وحين انعقدت آمال العرب على فيصل بن الحسين بطل الثورة العربية ، في  
توحيد وطنهم الممزق ولم شعئهم المفرق أعرب شاعر العراق محمود الجبوبي  
عن تلك الأماني العذاب بقوله (٣) :

بشرت بالفوز قومي العرب مذعقت	عليك يا فخرها آمالها العرب
فانهض لتوحيدها واجمع مواطنها	كما يضم بنيه التائبين أب
حقق كبار أمان أنت باعثها	الى اتحاد هو الآمال والأرب

(١) جريدة الف باء الدمشقية السنة الأولى . العدد ١٧٧ وانظر أيضاً ديوانه ١١٦

(٢) السهام ٤١

(٣) ديوانه ٧٠

إن النزوع نحو التكتل بين أفراد الشعب الذين يتكلمون لغة واحدة ويعيشون في أرض واحدة وتربّطهم عادات متشابهة وثقافة مشتركة ظاهرة طبيعية في حياة المجتمعات البشرية « وكلما عرضت ظروف عاقت هذا الوضع الطبيعي وبدلته ظهرت دوافع نفسية وتيارات اجتماعية لارجاعه الى اصله . ولذلك فإن الأمم التي قسم شعبها وأرضها لسبب من الاسباب أو احتلت وغلبت على أمرها لا بد أن يدفعها دافع طبيعي الى الوحدة والتحرر والاستقلال » (١)

وقد كان وجدان الشعراء في هذا العصر نابعاً من هذه الحقيقة ؛ فقد أدركوا جيداً أن أزهي عهودهم في الماضي كانت إبّان وحدتهم ولذلك كان شعورهم بالتجزئة قوياً حاداً .

وقد بدا جلياً في أعقاب تجزئة المستعمرين لبلاد العرب أن الأمة لا ترضى عن التحرر ووحدة الشمل بديلاً . إلا أن الدعوة الى الوحدة الشاملة التي لم تفتقر في أي وقت على ألسنة الكتاب والشعراء وبخاصة في الشام والعراق أخذت تبدو عاطفية عسيرة المنال ، وكان منطق الأمور وتطورها يستدعي نظرة أكثر واقعية في ظل تلك الظروف والملابسات حتى لا يفدو الأمر مجرد شعار أو نداء فيحسب . وبهذا المنظار كان خليل مردم بك يواجه قضية قومه (٢) :

فكيف ترجّي جمع (قيس ويعرب)      وشملك يا هذا شئت مفرق  
وكيف ترجّي وحدة عربية      ومن دون (راشيا) (٣) حدود ويرق

والواقع أن العرب بعد أن ابتلوا بالتجزئة إثر دخول المستعمرين بلادهم

(٢) ديوانه ٢٧٢

(١) محمد المبارك : الأمة العربية ٣٨

(٣) « راسيا قضاء سوري في الأصل سلخ عن سورية أيام الانتداب وألحق بالجمهورية اللبنانية » : الشاعر .



وأقسامها غدوا يتلفون على ضم ما انفرط من عقدهم ، فكان كل قطر يمن الى  
وصال جاره ، وكل شلو ممزق يترع الى التقرب من صنوه والاتحاد به ، لأن هذا  
الاتحاد إن هو الا مرحلة في سبيل الوحدة الكبرى ، وخطوة نحو اقامة الوطن  
العربي الكبير .

ويعبر بدوي الجبل عن هذه الرغبة الملحة في تلاقي الشقيقتين سوروية  
ولبنان بعد أن حال دون ذلك الدخيل الأجنبي فيقول : (١)

لبنان والغوطة الخضراء ضمها      ما شئت من أدب عال ومن نسب  
ما في اتحادها تالله من عجب      هذا الفراق لعمرى منتهى العجب

أما المهجريون الذين غادروا لبنان واستقروهم المقام في أمريكا فلم يكونوا  
يترددون في اعتبار أنفسهم سوريين سواء في أحاديثهم أو في صحفهم أو خطبهم أو  
أشعارهم ، وكان تأخيمهم في تلك الأرض النائية نموذجاً لوحدة القطرين .

ومن جهة أخرى كان ثمة تجاوب مماثل بين شعب الشام وشعب العراق  
الذين رسم ( سايكس وبيكو ) الحدود بينها أيضاً على الورق ، ثم خطتها دولتنا  
الاستعمارية فوق رمال عربية كانت الرياح تعصف بها صباح مساء معلنة وحدة  
القطرين وسائر أقطار العرب ، وقد عبر بدوي الجبل كذلك عن هذه  
الحقيقة بقوله (٢) :

ليس بين العراق والشام حد      هدم الله ما بنوا من حدود

كما ندد محمد مهدي الجواهري بعث الاستعمار في أرض الوطن وفصله  
بين الشام والعراق ، في حين أن الطبيعة هي التي أجرت بينها الفرات العذب  
وجعلتها ينهلان من منبع واحد (٣) :

(١) ديوانه ١٧٣

(٢) ديوانه ٣٩

(٣) ديوانه ٣ : ٨٥

ثقي دمشق فلا حد ولا سمة  
تقصيك عن أرض بغداد ودجلتها  
ولا خطوط كعقب الطفل تبتدع  
أما الفرات فنبع بيننا شرع

وما الشام والعراق لدى أبي الفضل الوليد إلا أختان ربطت بينهما  
آصرة العروبة (١) :

الشام أخت للعراق وفيها  
أهلوها أبناء عم كلهم  
نور العروبة للضليل الناشد  
عرب بأداب لهم وعوائد

وكذلك يعبر محمد رضا الشيبلي عن شعوره وشعور كل عربي حين يغادر  
بلده الى بلد عربي مجاور فيقول (٢) :

وما أنا في أرض الشام بمشتم  
ها وطن فرد وقد فرقوها  
ولا أنا في أرض العراق بمعرق  
رمى الله بالثشيت شمل المفرق

وبمثل هذا التجاوب كان الشعراء يعبرون عن عاطفة الأخوة بين المصريين  
والعراقيين . وأكثر ما كان ذلك يحدث حين يتراور أبناء الشعبين ويلتقون ،  
إذ تنطلق مشاعر الاخوة الكامنة متدفقة نبيلة ، كما تجلى ذلك في أبيات لعزير فهمي  
يعرب فيها عن حبه الدفين وحب المصريين جميعاً لاخوتهم في بلاد الرافدين (٣) ؛

أهلا لقيناكم فما حنت ركا  
إنا لتجمعنا بكم أقوى العرى  
ويزيدكم حبا إلينا أننا  
ويكاد من شوق إليكم يلتقي  
بغداد إني قد رضيتك موطناً  
بنا على ضجر الى أوطان  
والامس أبقاها على الازمان  
في الجرح والآلام مشتركان  
لولا التخوم النيل والنهران  
مصر وأنت اليوم لي وطنان

(١) نغحات الصور ٥٦

(٢) ديوانه ٤٢

(٣) ديوانه ٢٩

وؤد عزف شعراء مصر والسودان أُلحان الإخاء بين شعبيهم ، ونادوا  
بوحدة وادي النيل في كل مناسبة قومية . وهذا أمير الشعراء شوقي يرى أن  
القطرين ليسا إلا عضوين لجسم واحد فهو يحذر من فصلها إذ يقول (١) :

احذروا من قسمة النيل فيا ضيعة الوادي إذا النيل انشطر

وكان محمد الاسمر متلهفاً على وحدة شعب وادي النيل وهو في ذلك  
يعكس رغبات الملايين في مصر والسودان ، حتى انه خص السودان الشقيق بقسم  
من ديوانه . ومن قصائده في هذا الصدد قوله (٢) :

نحن الشقيقان الوفاً يان على مر الزمن  
ونحن مذكنا ، له إن لم نكن له فن  
قلوبنا وحدها في السر منا والعلن

وهو يدعو بجمرة الى وحدة القطرين ويناجي أبناء وادي النيل بقوله (٣) :

جن ربي عن الشريك فما يجري سوى ما يشاءه ويريد  
يا بني النيل (منبعاً) و(مصعباً) وحدوه ، فديننا التوحيد

أما التجاوب بين الشام ومصر وحنين كل شعب فيها الى وصال الآخر  
فقد كان قوياً وعميقاً عبر عنه شعراء القطرين منذ فجر النهضة الحديثة ، وتجلى في  
قول حافظ ابراهيم قبل أكثر من خمسين عاماً إذ قال (٤) :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلا وهناك المجد والحسب  
هذي يدي عن بني مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب

(١) الشوقيات ٢ : ٢٠٢

(٢) ديوانه ٢١٨

(٣) ديوانه ٢١٦

(٤) ديوانه ١ : ٢٦٨

وعندما زار لبنان شاعر النيل نفع أهله بتحيةة الاخاء الخالص في قصيدته  
« تحية الشام » قال فيها (١) :

لي موطن في ربوع النيل أعظمه      ولي هنا في حماكم موطن ثاني

وقد تملك الشعراء السوريين هوى لا حد له تجاه مصر إذ كان العرب  
قاطبة وبخاصة السوريون يتطلعون الى أرض الكنانة ويجلونها محل الزعامة في قيادة  
العرب وتحقيق أمانهم المنشودة في التحرر والاتحاد ، وهم لم ينسوا أنها كانت  
ملجأ لاحرارهم وسائر احرار العرب في أيام محنتهم ، ومنبراً حراً لنشر آرائهم  
التحررة والتبشير برسالتهم القومية . ولم يسكد يتخلف عن الاشادة بروابط  
الاخاء بين البلدين شاعر عالج الشعر القومي . وكان في مقدمة الذين بشروا  
بفجر الوحدة في أحلك الاوقات وابان الاحتلال الفرنسي خير الدين الزركلي  
وشفيق جبري وخليل مردم ومحمد البزم ومحمد الفراتي ومحمد الشريقي  
وأحمد الطرابلسي وسواهم من الشعراء . وقد عبر شفيق جبري عن هذا  
الشعور الفياض منذ أن ثارت مصر ثورتها الشاملة عام ١٩١٩ (٢) :

بين الكنانة والشام أواصر      مشدودة كأواصر الارحام  
ما هاج في ظل المقطم هائج      إلا سرت أصدأؤه في الشام

وحين زار أمير الشعراء دمشق عام ١٩٢٥ تدفقت مشاعر شفيق جبري  
بصدق وحرارة قل أن نجد لها نظيراً عند شاعر آخر (٣) :

تلك الاواصر لم تزل معقولة      من عهد عمرو لم يحل عقالها  
كيفان تضطرب العروبة فيها      حتى تجول على السنين بحالها

(١) ديوانه ١ : ١٣٤ (٢) صبري الاشير : المختار ٤

(٣) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج ٥ ، ج ٨ ، ص ٣٨٨ .

وإذا الشدائد بالكفانة أهدت      وثبت دمشق فقطعت وصلها  
لو تشكي مصر أذى بشالها      بترت ربوع الغوطتين شمالها

ومما يدل على هذا الهوى العميق في نفس الشاعر نحو مصر أنه عاد إلى  
تصوير عواطفه الملحة حين زار حافظ إبراهيم دمشق عام ١٩٢٩ فقال (١) :

إذا بكت جنبات النيل من ألم      بكت دمشق بدمع منه هتان  
أواصر بيان العرب محكمة      النيل والشام في الآلام صنوان

ونحن نقع على المشاعر نفسها لدى خليل مردم حتى كأن مصر عادة  
يتلف الجميع على وصلها (٢) :

مصر العزيزة والشام على الولا      إلفان ضمها هوى وغرام  
من عهد عمرو لم تحل عظيمة      في مصر إلا شاركتها الشام

وكذلك يرى محمد الفراقي أن مصر والشام أختان وكأنه يستنكر  
انشطارهما فيقول (٣) :

أمة الشام والشام قديماً      أخت مصر المبارك العمور

وتعد قصيدة محمد الشريقي من أبرز ما قيل في وحدة الشعبين المصري  
والسوري منذ بضع وثلاثين سنة ومن أبياتها قوله (٤) :

أ إلى مصر أم إلى الشام تصبو      والشقيقان واحد في وصاله  
وطن العرب خافه كل عات      أغرق الفاتحين بحر رماله

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج ٩ ، ج ٦ . ص ٣٧١

(٢) جريدة الف باء الدمشقية عدد ٥ آب ١٩٢٥ ، وانظر ديوانه ٢٥٩ .

(٣) ديوانه ١٩

(٤) ديوان الثورة ٩٢ .

مصر والشام فرعه الوارف الظل - وأهل القطرين من أشباله  
 مصر والشام مشرقان لشمس ضاء منها الزمان في إقباله  
 مصر والشام لن تموتا وإن جا ر علينا الدخيل يوم نزاله  
 مصر والشام مطلعان لفجر عربي غطى على أصله  
 نهضا يبعثان عصراً قديماً في جديد حاكا على منواله  
 مصر والشام دوحتان لشعب صانه الله ، مد في أطلاله

كل هذه المشاعر الفياضة ، والتجاوب العميق تجاه مصر لم تكن  
 في الحقيقة إلا إرهادا بالتيار القومي الجارف الذي شمل الشعبين بعد ذلك وآل  
 الى وحدة القطرين كفاتحة مباركة لوحدة العرب الشاملة .

### ٣

على أن الوحدة الشاملة والدولة الكبرى كانت هدف العرب الأول  
 وأمنيتهم الغالية ، وهي رغبة أصيلة في نفوسهم لم ترحمهم عنها نواب الدهر  
 ومكائد المستعمرين ، وقد تجلى ذلك أشد ما يكون منهم إبان الحرب  
 الأولى ، في ثورتهم العربية الكبرى ، ثم في غضبتهم المضرية الشاملة على  
 تجزئة بلادهم واستنكار إقامة الحدود بينهم كما تبين ذلك من خلال قصائد  
 الشعراء ومقطوعاتهم . والحق أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا يتحدثون عن  
 السوري والبناني والمصري والجزائري والعراقي إلا كما يتحدثون عن  
 الحلبي والبيروتي والاسكندري والوهراني والموصلي .. وكما قال حسن  
 البحيري (١) :

(١) اقسام الضحى ٧١

لا يعرف العربي في الأحداث - بالمصري والسوري واللبناني  
فالشرق تجمعه العروبة عروة أدنت أقاصي مصر من بغداد

لقد كان اجتماع شمل العرب الممزق حلاً يداعب أخيلة الشعراء وهذا  
ما جعل إلياس فرحات يقول (١) :

إن مر الموت يحلو في سبيل الاتحاد

وعندما بلغ أرض البرازيل أول سفير لمصر بادر « شكر الله الجر » إليه  
يسأله بلهفة المشوق المستهام وكأنه يرى فيه نفحة من بلاده وقومه (٢) :

كيف حال العراق بل كيف مصر      كيف لبنانتنا وكيف الشام  
أترها لدى صروف الليالي      لم يزل دأب أهلها الانقسام  
لو تطيق الرجوع طرنا اشتياقا      لبلاد هي المنى والمرام

فالشاعر بجنينه الطاغى الى وطنه يرى في بلاد العرب المتعددة وطناً  
واحداً أو أعضاء في أسرة واحدة ، إنه يستفسر عنها الواحد بعد الآخر  
ويأسى لتقاطعها .

وهكذا كانت تتجلى لهفة الشاعر العربي على رؤية بلاده متحدة ولو كان  
في أقاصي الأرض .

وثمة تعبير جميل عن نزوع العرب الى الوحدة الشاملة لدى حلیم دموس  
الذي وفق في تصوير عواطفه القومية من خلال تصويره لطبيعة بلاده  
الساحرة حيث يقول (٣) :

(١) ديوانه ١٦٦

(٢) الروافد ١٤

(٣) الثالث والثاني ١٣٢

وتقارب الأرواح ليس يضيره  
أفأرايت الشمس وهي بعيدة  
أنا كيف سرت أرى الأنام أحتي  
بردى كدجلة والفرات محبة  
وأرى الرصافة في العراق وكرخها  
والفوطيتين وكرم وادي زحلة  
وحفيف هذا الأرز في لبنانه  
بين الديار تباعد الاجساد  
تهدي الشعاع لأنجد ووهاد  
والقوم قومي والبلاد بلادي  
والنيل كالأردن طي فؤادي  
كالصالحية مرقد العبّاد  
كنخيل مصر في ظلال الوادي  
كحفيف ذاك النخل في بغداد

ومع أن مضمون القصيدة لا يخرج في جوهره عما قصد إليه الشاعر في بيته الأول فاننا نلذ لوقع هذه الأماكن من بلاد العرب على أسماعنا . وقد طاب للشاعر العزف على وتر الوحدة العربية والترنم بذكر بلدان العرب وبسحر طبيعتها بعد أن أضفى عليها من روحه وفنه ... وهذا الجانب الشعوري والعاطفي كان السمة البارزة للتزوع نحو الوحدة الشاملة لدى الشعراء العرب بصورة عامه . ونحن نجد هذه الروح أيضاً لدى الشاعر القروي الذي كان يعيش تجربة الوحدة العربية بجوارحه ، فهو يعبر عن تعلقه بها بما يشبه لهفة المتصوفة إذ يقول (١) :

هبوني عيداً يجعل العرب أمة  
وسيروا بجثماني على دين برهم  
سلام على كفر يوحد بيننا  
وأهلاً وسهلاً بعده بجهم

وما أروع تصويره لوحدة مشاعر العرب برغم تجزئة بلادهم واختلاف ديارهم حين قال (٢) :

وما ضرنا ان لم يك العرب وحدة  
وأصابع كف المرء في العد خمسة  
وقد وحدتنا في الجهاد المقاصد  
ولكنها في مقبض السيف واحد

(١) ديوانه ٣١٥

(٢) ديوانه ٤٣٩



وقد رأى أجد الطرابلسي في وحدة النضال والآلام المشتركة بشيراً  
بالوحدة العربية المنشودة فراح يقول بلهجة الواثق المطمئن (١) :

وحدة العرب مزقت حجب الليل - وشعت ملء الفضاء المنير  
عرب نحن ما نذل لباغ مستبيح ولا ندين بنير  
وحدثنا مواجع القيد حيناً فارقبوا اليوم وحدة التحرير

والظاهرة التي يسجلها الشعر العربي باعتزاز أن سياسة الأمر الواقع  
التي استمر المحتلون في تطبيقها على بلاد العرب وإصرارهم على تثبيت الحدود  
بينهم لم تستطع أن تنال من نفوس أبناء الشعوب العربية ، فقد ظلوا على الدوام  
يرون في تجزئة بلادهم تقطيعاً لأوصال أمتهم . وقد تجلّى هذا الشعور - وياً على  
أسنة الشعراء ، من ذلك قول حسن البحيري (٢) :

لئن فرقنا أكف الخطوب دياراً تقاسمها المقاسم  
فإن لنا في طوايا القلوب لشملاً تأصل في كل دم

ولعل فيما قاله محمد مهدي الجواهري في الأبيات التالية نفحة صادقة  
من الشعور القومي الفياض الذي يشعر به كل عربي يغادر بلده الى بلد  
آخر شقيق ، فهو يصور مشاعره إثر ارتحاله من العراق الى فلسطين  
بقوله (٣) :

أقلنتي من الزوراء ريح الى يافا وحلق بي عقاب  
وراح اللد منبسطاً عليه من الزهرات يانعة خضاب

(١) مجلة الرسالة ، السنة السابعة ص ١٠٦٠ .

(٢) ابتسام الضحي ٦٢

(٣) ديوانه ١٨٨

وقلت وما أحير سوى عتاب      ولست بعارف لمن العتاب  
 أحقاً بيننا اختلفت حدود      وما اختلف الطريق ولا التراب  
 ولا افتقرت وجوه عن وجوه      ولا الضاد الفصيح ولا الكتاب  
 لأن حم الوداع فضقت ذرعاً      به واشتف مهجتي الذهب  
 فمن أهلي الى أهلي رجوع      رمن وطني الى وطني إياب

## ٤

أما الدولة العربية الموحدة فقد كانت مشيئة شعوب تؤمن بأنها أمة  
 واحدة ومن حقها أن تعيش في وطن واحد. ويبدو أن صورة الدولة العربية  
 الكبرى التي أقامها العرب في أوج ازدهارهم والتي امتدت من حدود الصين الى  
 شاطئ الأطلسي لم تكن تبرح مخيلة الشعراء، وقد انبعثت هذه الفكرة قوية إبان  
 الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها حين تفجر الشعور القومي في نفوس العرب.  
 ولم تكن الثورة العربية الكبرى في الواقع إلا مظهراً فعلياً لهذه الرغبة الملحة.  
 وهذا أبو الفضل الوليد يعبر عن تلك المشاعر التي استمدها من علم الثورة آنذاك  
 بقوله (١):

لك الفتوح التي في الصين آخرها      وفي المحيط شهدت الموج يلتطم  
 من الحجاز الى أرض الشام الى      أرض العراق لك الآفاق تبتم

كما عبر عبد المحسن الكاظمي عن هذه الاماني باقامة الوطن الكبير الذي  
 يأمل العربي أن يتنقل في ربوعه أنى أراد (٢):

(١) الاقاس الملهمية ١٢٠

(٢) ديوانه : المجموعة الأولى ١٧٠

حبذا يوم يشتم المعرقونا      حبذا يوم يتهم المنجدونا  
حبذا يوم يصبح العرب طرا      في جميع البلاد متحدينا

وكان العرب منذ أوائل هذا القرن يرجون الخلاص من نير العثمانيين  
ويطمحون الى تأسيس دولة عربية تضم الاقطار التي كانت خاضعة لسلطة الآستانة.  
وإذا كانت الظروف السياسية قد اقتضت أن يسعى العرب يومئذ الى وحدة تضم  
عدداً معيناً من أقطارهم فليس معنى ذلك أن الشعراء اعتبروا هذه المرحلة غاية  
في ذاتها ، فهم لم يكونوا ليرضوا عن الوحدة الشاملة بديلاً ، وحدة تضم العرب  
قاطبة وتستعيد أيام الامويين والعباسيين . وكان في طبيعة من تقنوا بهذا الامل أبو  
الفضل الوليد أيضاً ، فقد عبر من مهجره القصي عن استبشار لا حد له باستعادة  
عهد المأمون والرشيد إثر نشوب الثورة العربية إبان الحرب العالمية الاولى في  
قصيدة أسماها « الدولة العربية » (١) :

الله اكبر عادت دولة العرب      بشرى لهارون والمأمون في الترب  
دمشق حنت الى بغداد واضطربت      مصر التي هي دار العلم والأدب

وفي تسمية الشاعر نفسه إحدى قصائده القومية باسم « الاموية » دليل على  
على إلحاح صورة تلك الدولة العربية التي شادها الاجداد ، على نفسه .

وفي قصيدة أخرى يعبر أبو الفضل أيضاً عن هذا الهوى العميق الذي  
يكثفه نحو العروبة ودولتها المنشودة التي ملكت عليه مشاعره فيقول (٢) :

نعم موطني لبنان لكن مولدي      به عربي كالولي من السحب  
فلا قوم إلا العرب لي وأنا لهم      على البؤس والنعاء والسلم والحرب

(١) الانفاس الملهبة ٨٥

(٢) الانفاس الملهبة ٣

فأعظم وأكرم بالتحاد ونسبة      الى دولة تمتد في الشرق والغرب  
وما هي إلا أمة عربية      دماً ولساناً ليس تفصل بالترب

وكان الشيخ فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية في طليعة الداعين الى  
توحيد شمل العرب في دولة واحدة مرهوبة الجانب ، حتى لقد انكر أن تقوم  
هذه الدول الصغيرة على أشلاء الوطن الممزق بتدبير من المستعمر ، وبخاصة  
بعد أن اتجه السببان في كل قطر الى تقديس هذه الحدود الموضوعية في صلب  
الوطن العربي ، وقد أشار الى ذلك في قوله منذ أوائل عهده بالنضال (١) :

ولقد برئت اليك من وطنية      ليست تتجاوز موطن الميلاد

وقل أن نجد لشاعر إلياس فرحات نظيراً في تصويره الرائع لهذا الوطن  
العربي الكبير الذي يخفق له فؤاده بقوة من وراء البحار (٢) :

أرى موطناً كالنسر يبدو خياله      على الارض ثبتاً وهو في الغيب طائر  
جناحه مصر والعراق وصدرة -      الشأم وجموع الجزيرة سائر  
يذود جناحه عن الجسم كله      وتفدي جناحيه الضلوع الحرائر

وفي تشبيه دولة العرب المنشودة بالنسر وأقطارها بأعضائه تعبير رائع عن  
وحدة العرب في وطنهم الكبير .. وكذلك نستمتع من المهجر الي منساجة نسيب  
عريضة شاعر الحنين وهو يصور مشاعره تجاه بلاد العرب التي انصهرت أجزاءها  
في قلبه فخرجت على لسانه متحدة متأخية (٣) :

الأهل أهلي وأطلال الحمى وطني      وساكنو الربع أترابي وأقراني

(١) ديوانه ٦٤ .

(٢) ديوانه ١٣٢

(٣) ديوانه ٢٤٥

لاحد عندي إن جارت حدودهم الشام شامي ومصر أخت لبنان  
 وفي فلسطين أقداسي وعاطفتي في نجد، والقبلة السمحاء إيماني  
 لي العروبة أمشي في مخارفيها من العراق الى ما بعد وهران

وثمة نشيد حماسي ينسب الي فخري البارودي طالما ترنم بنبراته الشبان  
 العرب ، وانتشوا بألحان الوحدة العربية التي انسابت من مقاطعه ، ومنه :

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان  
 ومن مصر الى يمن الى نجد قطوان  
 فلا حد يمزقنا ولا دين يفرقنا  
 لسان الضاد يجمعنا بغسان وعدنان

فقد هزج الطلاب بهذه القوافي في مظاهراتهم اللاهبة ضد الفرنسيين في  
 سورية وسارت على لسان كل مناضل حتى غدت نشيداً جماهيرياً قومياً .

وفي خلال هذه الحرب الأخيرة يتعاضم الشعور القومي في النفوس ويتحفز  
 العرب لأخذ مكانهم اللائق بين الأمم من جديد ، فقد راحوا يترقبون انتهاء  
 التطاحن الرهيب بين الدول الكبرى بلهفة ، ويرقبون من وراء دخان المعارك  
 ذلك الفجر الجديد الذي أخذت ملامحه في الظهور . وتكون ولادة جامعة الدول  
 العربية في أواخر هذه الحرب أولى ثمرات الوعي العربي ، إذ استبذر الشعراء  
 بهذا الحدث وطفقوا يتغنون به ويعتبرونه عيداً قومياً ، وهذا أحمد محرم الذي  
 كان أحد شعراء الجامعة الاسلامية يبادر الى احتضان الجامعة ويقول :

أمم العروبة جاء يومك فاعلمي والى مكانك فانفضي وتقديمي  
 ضمي القوى وتجمعي في وحدة عربية تحمي اللواء وتحتمي

انظر الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية عن ديوان مخطوط للشاعر ٢ : ١٧٥ .

أمم العروبة جد جدك فانظمي  
لك أن تسودي تحت رايتك التي  
من عقدك المنشور ما لم ينظم  
خفقت لها الدنيا فسودي واساهي

كاتفم هذه العواطف القومية شاعراً مثل علي الجارم كان بعيداً عن تناول  
مثل هذه الموضوعات في شعره فيهلل لتلك المناسبة القومية بقوله (١) :

لقد كان حلاً أن نرى الشرق وحدة  
فليست حدود الارض تفصل بيننا  
ولكن من الأحلام ما يتوقع  
لنا الشرق حد والعروبة موقع

وبرغم أن العرب كانوا يتوقون الى اتحاد أشد إحصاماً من جامعة تضم  
دولهم فحسب ، فقد عم الاتهاج النفوس يوم توقيع الميثاق من قبل الدول يومذاك  
ورأى فيه العرب خطوة نحو الوحدة المنشودة وفاقحة عهد جديد في حياة العرب ،  
وقد انعكس ذلك كله جلياً في نفوس الشعراء وبدا في قصائدهم بأسمى معانيه .

ومما لا ريب فيه أن هذه الوحدة العربية التي طالما تفتى بها الشعر الحديث  
والمعاصر وفاق العرب الى تحقيقها ، لم تكن رغبة شعب واحد في قطر من أقطار  
الوطن العربي ، وهي ليست أيضاً رغبة آنية طارئة تنشط في يوم لتموت بعده ،  
وإنما هي أمل كل عربي واع يسكن هذا الوطن من أقصاه الى أقصاه . وكان  
هذا الشعور يزداد عمقاً وقوة كلما لزداد الشعب إدراكاً لأهدافه ، وترمساً  
بقضيته . وما تعبير الشعراء البليغ عن ترابط أجزاء البلاد العربية إلا مظهر  
بارز لرغبة جماهير العرب الاصيلة وشعورهم المنطلق في النزوع نحو الوحدة الشاملة.  
على أن هذا التجاوب لم يبلغ مداه إلا اثر نكبة فلسطين التي اكتوى العرب  
بنارها في أعقاب الحرب العالمية الثانية فجرحت كرامتهم وهزت كياناتهم  
وأنضجت وعيهم .

ومع أن العرب كانوا يرسفون في القيد ويصارعون الاستعمار فان خوضهم

---

(١) ديوانه ٤ : ٤١

معركة التحرر والمصير الضارية لم يكن ليصرفهم قط عن قضية توحيد أقطارهم بل إنهم وجدوا في وحدتهم ضماناً لاستقلالهم وتحررهم ، وقد رأينا الشعراء ينادون بهذا الهدف المزدوج : التحرر والوحدة وهم في أحلك ساعات صراع الأمة مع الاحتلال . حتى إذا ما انحسر الطغيان وتقلص ظله انطلقوا يبشرون بالوحدة الكبرى بإيمان لا حد له .

مما سبق يمكننا أن نخلص إلى القول إن سائر المقومات القومية الأخرى لتيار العروبة ، من وحدة في الأصل وفي اللغة ، واشترك في التاريخ والذكريات والآلام ، كانت في الواقع بمثابة روافد غزيرة للنزوع إلى الوحدة أمم العرب ومحور حياتهم القومية بعد تحررهم ، كما كانت الدعوة إليها والتبشير بها ديسدن شعرائهم المعاصرين في شتى أوطانهم ومهاجرهم .



والآن يجدر بنا أن نسأل أخيراً عن مدى قوة هذا الاتجاه العربي أو ضعفه في مختلف بلاد العرب وبالتالي لدى شعراء الأقطار العربية ، وهل تدفق تيار العروبة في جميع الامكنة والازمنة على صعيد واحد متماثل ؟

إنه من الطبيعي أن تتفاوت هذه المنازع العربية شدة وضعفاً ، ووضوحاً وغموضاً ، تبعاً لاختلاف العوامل التاريخية والاجتماعية والسياسية بين الشعوب العربية نفسها ، فالواقع أن ثمة ظاهرة جليلة تعرض للمتتبع الباحث من خلال رصده لانطلاق تيار القومية العربية وتدفعه في الشعر العربي الحديث ، وبخاصة خلال فترة ما بين الحربين العالميتين ، وهي أن النزعة العربية على اختلاف مقوماتها تجلت أوضح ما تكون - كما دلت الشواهد آنفاً - في ربوع الشام وما يعد امتداداً لها في المهجر ثم في ارض الرافدين بصورة عامة . فقد كان الشعراء في هزم

الربوع العربية يعزفون ألحانهم القومية على وترين اثنين معاً : التحرر الوطني والاستقلال من جهة والمصير العربي المشترك والوحدة العربية المنشودة من جهة أخرى .

ولكن الامر لم يكن يسير على هذا النسق في أرض الكنانة . ولو طرحنا جانباً النزعة الفرعونية التي طغت حيناً على أذهان المصريين ووسمت بعض مناحي حياتهم الفكرية والثقافية بدا لنا ان فكرة « مصر أولاً » أو « مصر للمصريين » قد استأثرت باهتمام الشعب المصري واستغرقت نشاطه ، كما أن دوحه العروبة لم تورق إلا راقها المنشود على ضفاف النيل برغم جذورها العميقة الاصيلية خلال قرون طويلة من تاريخ العرب الحافل وأمجادهم العريقة . ولعل من أسباب التخلف في الوعي العربي آنذاك يعود الى منافسة أفكار أخرى طارئة لفكرة العروبة ، يضاف الى ذلك انشغال مصر المبكر بتضيتها الاولى قضية التحرر الوطني ، فضلاً عن أن كيان مصر ظل سليماً لم يمس بتجزئة أو انقسام على الرغم من جثوم الاحتلال فوقه أمداً طويلاً . أما الامر في بلاد الشام مثلاً فقد كان مختلفاً إذ كادت هذه البلاد تخلو من الافكار الشائبة التي ترتكز الى فلسفة قومية خاصة ونعرة إقليمية متميزة كما أن تاريخها القريب افترق عن تاريخ مصر من حيث جثوم الحكم العثماني أمداً طويلاً فوقها وانحساره المبكر عن أرض الكنانة ، ثم اقتحام المستعمرين لبلاد الشام والعراق آخر الامر وتماديهم في تجزئتها وتفتيتها وسلخ بعض اقسامها عنها .

ومن هنا كان شعراء مصر يعكسون مشاعر شعبهم ويتجاوبون مع آماله بالتحرر والاستقلال فحسب دون ادراك واضح لوحدة المصير العربي فيما حولهم من شعوب العرب . وقد ظهرت بوادر هذا التجاوب أول الامر لدى بعض الشعراء



المصريين حين عدوا عرب الشام والعراق مجرد جيران ، أي لا تجمع بينهم وبين المصريين أكثر من رابطة الجوار والقرب المكاني شأن أي دولة اجنبية شرقية متاخمة . وعلى ذلك لا تتضح لنا ملامح نضال العرب في مختلف ديارهم من دواوين الشعراء المصريين إلا في احوال قليلة أو بمقدار ما يضمهم إطار الدين المشترك في جملة ما يشمله من الشعوب الشرقية أو المسلمة . فالدعوة الى الوحدة العربية مثلا ظلت أمداً غير قليل خافتة خامدة على ضفاف النيل ، ولم يكن يصدر الشعراء عن شيء بارز منها الا في اعقاب ثورة ١٩١٩ اذا استثنينا رائعة حافظ ابراهيم التي نظمها عام ١٩٠٨ والتي يقول فيها (١) :

إذا ألت بوادي النيل نازلة      باتت لها راسيات الشام تضطرب

فحنن لا نكاد نقع على قصائد نظمها المصريون قبل الحرب العالمية الاولى تشارك الشاميين والعراقيين أساهم من وطأة الاستبداد العثماني ، كما ان إعدام جمال باشا عشرات الزعماء العرب في ساحات دمشق وبيروت لم يحرك مشاعر أحد في مصر ، برغم ما كان يتمتع به المصريون آنذاك من حرية في القول . وحين نشبت الثورة العربية الكبرى في الحجاز وامتدت الى الشام والعراق لم يحدث لها صدى في مصر ، أما القلائل الذين عرضوا لها بالذكر فقد انكروها ونددوا بزعيمها ، وكان لهم بعض العذر في ذلك لانها تحالفت مع عدوتهم انكلترا . وعندما اجتاحت جحافل المستعمرين سواحل الشام واقتحمت السبل نحو حاضرة الامويين على اشلاء المجاهدين العزل بزعامة يوسف العظمة في ميسلون مر ذلك الحدث الجسيم بغالية المصريين وبشعرائهم بوجه خاص مرور العابر حتى لكأن شيئاً لم يقع وأن شعباً لم يقهر وبلاداً لم تستعمر . أما القليل الذي قيل رثاء ليوسف العظمة فقد

(١) انظر القصيدة في ديوانه ١ : ٢٦٨

صدر بعد سنوات طويلة في ذكرى تلك الواقعة التاريخية . وشبهه بذلك ما كان يجتاح العراق من أحداث . في حين كان شعراء الشام والعراق شديدي الحساسية والتتبع لاحداث مصر . ولا شك اننا ندخل في حسابنا ضعف الصحافة العراقية والشامية مقابل انتشار الصحف المصرية في الشرق العربي حاملة معها صوراً متوالية للحياة السياسية والاجتماعية في وادي النيل .

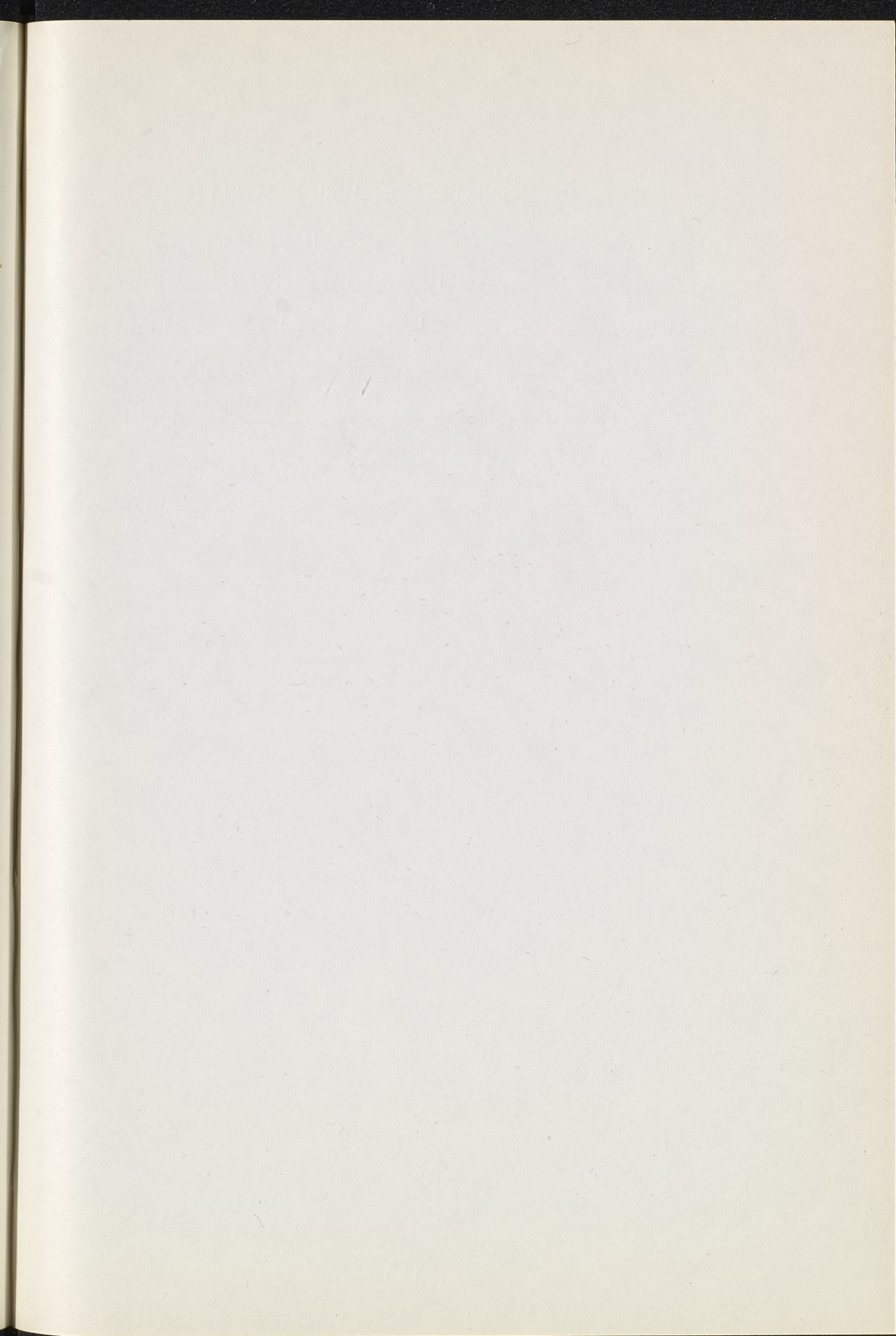
على ان وقع الاحداث العربية اخذ يظهر قويا في نفس احمد شوقي وبخاصة منذ نشوب الثورة السورية عام ١٩٢٥ ، فقد كان تجاوبه معها رائعا اثلج قلوب العرب يومذاك .

ومع ذلك بقي الغموض يلف كثيراً من المنازع العربية في مصر برغم صدقها وإخلاصها وانطلاق المشاعر القومية الاصيلة من مكامنها بعد ان طردت عنها الافكار الشائبة كما تطرد النار الخبث من الحديد ، فقد رأينا غلبة المفهوم الاسلامي حيناً او الشرقي حيناً آخر على المفهوم العربي واختلاطه به في أذهان الكثيرين من شعراء مصر . ومن مظاهر اضطراب التيار العربي على ضفاف النيل أيضاً اعتبار بعض المفكرين والادباء والشعراء ان العرب امم متعددة على نحو ما بدا لنا في شعر حافظ ابراهيم واحمد محرم ومحمد عبد المطلب وعلي الجارم حتى إننا نجد هذا المفهوم قد ورد عام ١٩٤٤ في خطاب رئيس وزراء مصر في معرض تأسيس جامعة الدول العربية (١) ، بل في كثير من اقوال عبدالرحمن عزام اول امين عام للجامعة .

---

(١) انظر النص الرسمي لخطاب مصطفى النحاس رئيس وفد مصر في حفلة افتتاح اللجنة التحضيرية لبروتوكول الاسكندرية الذي مهد لقيام جامعة الدول العربية اذ قال : « يطيب لي أن أشيد بما يربط بين الامم العربية في مختلف البقاع من صلات أخوية .. »

على أن الحال أخذ في التبدل سريعاً خلال الاعوام الأخيرة إثر ازدياد الوعي القومي في نفوس العرب قاطبة بعد أن شحذها النضال . كما كان لانتشار الصحافة والاذاعة وتبادل الكتب والوفود فضل لا يحجد وبخاصة منذ بدء الحرب العالمية الثانية وتأسيس جامعة الدول العربية . لقد أخذ ظل الاستعمار البغيض ينحسر عن اشرق العربي ولاح للعرب فجر التحرر ، حتى اذا ما نعموا بالاستقلال بعد خوضهم معركة الاحتلال تلفتوا ينشدون التقارب بينهم في شتى الميادين في معركة أخرى هي معركة المصير المشترك والوحدة المنشودة .



## الباب الثالث

# مَوْضُوعَا الشَّعْرِ الْقَوْمِيَّ

مناضلة الاستعمار	الفصل الاول
التنديد بالاستبداد وفساد الحكم	الفصل الثاني
الاستهزاء والحض على الثورة	الفصل الثالث
التضامن والاخاء	الفصل الرابع
البطولة والفداء	الفصل الخامس

سألتها - لينا

تتبعها الخشنة البرصية

## الفصل الأول

### مناضلة الاحتمال

قصة العرب مع المستعمرين ملحمة دامية تعاقبت أحداثها الرهيبة على أرضهم ولما تم فصولا حتى هذا اليوم ، وطبيعي أن يجد موضوع الاستعمار الذي اقتحم حياة العرب قاطبة عشرات السنين صدها البالغ في الشعر الحديث ويندو من أبرز جوانب أدبنا القومي .

وعلى الرغم من أن العهد العثماني لا يختلف كثيراً فيما جره على العرب من شرور عن عهود الاستعمار والانتداب والوصاية ، فإن ثمة فارقاً أيديولوجياً بينها لا يمكن إغفاله . ففي حين كان الحكم العثماني يقوم على التسوية بين جميع القوميات التي تتألف منها الدولة وبخاصة العرب والترك الذين ينضون تحت راية واحدة هي الراية العثمانية ، كان الغزو الاستعماري يرتكز إلى فلسفة غريبة تبرر سياسة العدوان وتحل اعتداء القوي على الضعيف وترغم لنفسها حق تمدن الشعوب المستضعفة ولو اقتضى الأمر اللجوء إلى الحديد والنار .

والواقع أن نشوء بعض القوميات في الغرب وبخاصة لدى الدول الصناعية الكبرى يختلف اختلافاً جوهرياً عن نشوئها في الشرق . فما حدث أن تلك القوميات اندفعت خارج قارعتها بعد الانقلاب الصناعي باحثة عن أسواق لها في الشرق . ثم شعرت بعد ذلك بحاجة ماسة لوضع مذهب يبرر غاياتها ووسائلها فكانت الرأسمالية

التي تمخض عنها النظام الاستعماري . لقد حمل عدد من القوميات الغربية بذرة العدوان في ذاته حين جعل القومييه مذهباً اجتماعياً وأخلاقياً شاملاً للوجود لا يأتيه باطل ولا يتطرق اليه شك ، ولم يلبث أن أورث أصحابه صلفاً مستهجنأ وعصبية ذميمة ، وغدت تلك القوميات قوميات متعالية متباغضة انزلت فيما بينها الى حروب طاحنة كانت جميعها في الوقت نفسه وبالاعلى حرية الشعوب الآمنة في الشرق . ولقد كان أقطار المغرب العربي الفريسة الأولى للمستعمرين دون سائر أجزاء الوطن ، وذلك بسبب قربها من أوروبا وبعدها في الوقت نفسه عن مراكز قوة الدولة العثمانية وعاصمتها . وكانت هذه الدولة على ضعفها وفساد حكمها الدرع المنيع التي صانت البلاد العربية من كيد المستعمرين أمداً طويلا . ومع ذلك استطاع الانكليز بمساعدة حكام مصر أن ينفذوا الى أرض الكنانة إثر ثورة عرابي ، وراحوا بعدها يتطلعون الى العراق الغني بالنفط . وكانت فرنسا لا تحفي مطامعها في بلاد الشام خلال القرن التاسع عشر ، وتدعي أنها حامية الكاثوليك في لبنان . ثم وجد الحلفاء في الحرب الكبرى الأولى فرصة لتحقيق أطماعهم المشتركة فاجتمعوا خلالها سرأً واقتسموا بينهم الشام والعراق ، ثم منحت بريطانيا فلسطين لليهود لتكون وطناً قومياً لهم . كل ذلك والعرب لا يدرون من الأمر شيئاً . ولم يقف المستعمرون عند هذا الحد بل راحوا يستغلون استياء العرب من استبداد الترك واخذوا يشجعونهم على الانتفاض ضد الدولة العثمانية ويكيلون لهم أجزل الوعود في التحرر والسيادة .

ولم تكن نتيجة الثورة العربية الكبرى التي قامت ضد الترك وتحالفت مع الحلفاء سوى خدعة استعمارية كبرى ذهب العرب ضحيتها بسبب « سذاجة زعمائهم وإيمانهم الصبباني في تصريحات الساسة الغربيين وبياناتهم (١) » . وهكذا تسلس

---

(١) نجلاء عز الدين : العالم العربي ٢١٣



المستعمرون الى بلاد العرب من قلب ثورتهم الكبرى فأصبح الحلفاء الشرفاء محتلين والأصدقاء الخالص مستعمرين ، وكان جرح لكرامة العرب كبير عبر عنه شعراؤهم أجلى تعبير ، وفي ذلك يقول خليل مردم ونار الحماسة تتأجج في قلبه (١) :

ما حررت من قيود الترك أنفسنا حتى نكون لغير الترك عبدانا  
تأبى دماء زكيات لقد سفكت وأنفس بالحمى زابلن أبدانا  
أن يستباح ذراع من مواطننا في سهل سيناء أو في حزن لبنانا

ويمكن القول إن شطراً كبيراً من الشعر القومي الذي قيل في هذا الصدد إنما اتجه الى التنديد بأساليب الختل وأحاييل الوعود التي كانت أبرز ما ساس به الاستعمار البلاد المستضعفة ، وقد غدا كل شاعر عربي آنذاك يحس في قرارة نفسه بأنه وأمتة ضحية الخداع والتضليل . وسيتجلى لنا هذا الشعور المرير لدى كثير من الشعراء ، من ذلك ما قاله محبوب الخوري الشرتوني في قصيدته « دمعة على العرب » (٢) :

قالوا إذا ما الحرب أغمد سيفها للعرب من درك العثار قيام  
فاذا بأضواء البروق كـواذب وإذا بمرسد السحاب جهام

وقد عبر أيضاً أمين ناصر الدين عن شعور الخيبة المرير الذي تملك العرب في أعقاب تلك الحرب فقال (٣) :

ولما بشروا بالصلح قلنا لكل رزية نزلت زوال  
وأملنا النجاة فما رجونا سوى أمر حقيقته خيال  
وما نفع العهود مسطرات إذا كانت تناقضها الفعال

وحين توفي الحسين بن علي زعيم الثورة العربية تجدد في مرثي الشعراء الشعور المرير تجاه الغدر الاستعماري . وقد أشار خليل مطران الى ذلك ومن على الحلفاء بمؤازرة العرب لهم حيث قال (٤) :

(٢) ديوانه ٨٢  
(٤) ديوانه ٤ : ٩٢

(١) ديوانه ١٤٩  
(٣) الالهام ٨٣

أين الذي سجلوه في رسائلهم      ورددوه من الأيمان في الخطب  
لولا معونة ذاك الخلف لا تقبلوا      دون الذي أملاه شر منقلب

ولم يختلف ما قيل في تمجيد فيصل بن الحسين أو في رثائه عن مثل هذا  
التنديد بوعود المستعمرين وأحبابهم . فالشاعر إلياس قنصل يناجيه من وراء البحار  
ويشير الى تواطؤ فرنسا والانكليز وإرسالهم ( غورو ) الى سورية لاحتلالها  
والاطاحة بالحكم العربي فيها (١) :

نصت سياستهم على أن يغدورا      وايت رغم خداعهم أن تغدرا  
وأغنتهم فسوا ولو ذكروا لما      بعثوا الى الفيحاء ذاك الأعسرا

ومن أبرز القصائد التي قيلت في هذا الصدد مرتبة الاخطال الصغير التي  
أنشدها في ذكرى فيصل أيضاً وهي مفعمة بشعور الأسي (٢) :

حدثونا عن الحقوق فلما      كبر النصر أحوجتنا التراجم  
نفحتنا بها الحروب سلاما      ورمانا بها السلام أداهم  
بل إننا نلهم لدى الشاعر نفسه بعد سنين أثراً آخر لهذا الجرح البليغ  
الذي خلفه المستعمرون في قلوب العرب ، وذلك في قصيدته التي نظمها على  
أثر استفحال الخطب في فلسطين وقد حيل بينه وبين القائمها (٣) :

قل ( لجونبول ) إذا عاتبته      سوف تدعوننا ولكن لا ترانا  
قد شفيينا غلة في صدره      وعطشنا فانظروا ماذا سقانا  
يوم نادانا فليينا النداء      وتركنا نهيمة الدين ورانا  
ذنبنا والدهر في صرعته      أن وفينا لاخي الود وخانا

وبرغم لهجة الاعتدال في هذه الايات فهي تشير الى أن العرب في ثورتهم  
الكبرى وفي محالفتهم الانكليز قد سلوا سيوفهم في وجه السلطان المسلم وانقضوا على

(١) السهام ٥٤ ، ويريد بالأعسر « غورو » الذي أصيبت ذراعه في الحرب

(٢) أنيس المقدسي : العواطف القومية في الادب العربي ٣٠٠

(٣) الهوى والشباب ١٥٦ . وكان الشاعر قد اعددها لينشدها في احتفال هيأته مدينة حمص

سنة ١٩٣٧ انتصاراً لفلسطين ولكن السلطات الفرنسية حالت دون ذلك .

دولة الخلافة ضارين برابطة الدين المشترك عرض الحائط في سبيل تحررهم فاذا هم يجزون جزاء سنار .

وكان أبو الفضل الوليد في إشارته الى هذا الامر شديداً على دول الغرب كما كان شأنه في أكثر شعره ، وهو أيضاً يشيد بفضل العرب عليهم ويقول (١) :

قد حالفوه وظفروه بالعدا حتى استبد وكان أضرى آسد  
فعليه لعنتهم ولعنة نسلهم ما دام أ كذب واعد ومواعد

أما مبادئ الرئيس الأمريكي (ولسون) التي ارتكزت على حق تقرير المصير للأمم المستضعفة فقد حسب فيها العرب الذين أغرقهم طوفان الاستعمار منجاة لهم بعد أن طلعت عليهم بوجهها التبيل ، حتى إن عدداً غير قليل من الشعراء انتشروا بها فلم يترددوا في مدح أمريكا وسياستها ورئيسها وكان منهم عبد المحسن الكاظمي وإلياس فرحات ومسعود سماحة وغيرهم (٢) . وسرعان ما تبين للعرب أن ما بدا لهم ماء ليس إلا سرايا . ولذلك كان رد الفعل شديداً لدى الشعراء عبروا عنه بمرارة إثر تلقي شعوبهم تلك الضربة الجديدة من حيث لا يحتسبون ، وكان مما قاله خير الدين الزركلي (٣) :

وعود ولسن كم أضللت من فئة لأنت أشأم ما سيست به الأمم  
أيدعون حقوقاً في مواطننا والين أقبح ما يطوى عليه فم

وكان طبيعياً أن يكون شعور فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية أشد مرارة بعد أن صحب بنفسه مراحل انتصارات العرب في ثورتهم الى جانب الحلفاء ، فهو يشير الى مبادئ ولسن بسخرية حادة (٤) :

نسخ الوصايا العشر من الواحها وحوى (الكتاب) وزاحم التنزيلا

(١) نقضات الصور ٥٦

(٢) انظر ديوان الكاظمي المجموعة الأولى ٢٢٤ ، وديوان فرحات ١١٧

(٣) ديوانه ١٥ (٤) ديوانه ٥٤٤

واتى بأربع عشرة انتظمت معا  
 مشيت الشعوب الي الشعوب واکبرت  
 وتوسمت فيه المسيح وأبصرت  
 حتى إذا انكشف القناع تحققت  
 ورأت ( مسيأة ) يساوم ( أشعبا )  
 وحيأ يرتل بكرة وأصيلا  
 ما كان منه وهلات تهليلا  
 في قوله التوراة والانجيلا  
 أن السياسة لم تزل تضليلا  
 سلب الممالك عرضها والطولا

ونجد صدى نكول الرئيس ولسن عن مبادئه واستجابته لهوى حلفائه في  
 آيات لمعروف الرصافي يعبر فيها عن خيبه العراقيين وسائر العرب (١) :

رجل قد تمكب الحق قوسا  
 قال حرية الانام هي الغاية  
 فاشرب الورى إليه وظنوا  
 ثم خابت ظنونهم فيه لما  
 ومن البطل ظل يرمي السهاما  
 لي في الوغى ففر الاناما  
 أنهم سوف يبلغون المراما  
 مر في الجـ و خلباً وجهاما

أما المصريون الذين طال أمد الاستعمار عليهم فقد قاموا بثورتهم عام  
 ١٩١٩ بعد ما تبين لهم إصرار الانكليز على احتلال بلادهم وكانوا يعتقدون  
 على وعود ولسن آمالاً عراضاً، وهذا محمد عبد المطلب يخاطب الغربيين والثورة في  
 بلاده على أشدها (٢) :

يا ناشري علم السلام ألم تروا  
 ما العدل ما حرية الامم التي  
 ما عهد ولسن أين ولسن هل درى  
 للسلم في أرجاء مصر مجالا  
 سارت رسائلكم بها أرسالا  
 أنا بمصر نكابد الاهوالا

وكان من الطبيعي ان يفقد العرب بعد ذلك كل ما تبقي لهم من ثقة  
 بالغرب منذ ذلك الحين . ولذلك نجد ان لهجة الشعراء اخذت تتسم بالحدة

(٢) ديوانه ١٩٢٣

(١) ديوانه ٤ : ٤٣٥

وتلوح بالثار لكرامة العرب المهذرة . وما يدعو الى الاعتزاز أن الشراء الذين حملوا لواء مكافحة المستعمرين جهدوا في أداء رسالتهم نحو أمتهم بأيمان وإخلاص ، ولم يكتف بعضهم بتحذير الأمة من وعود الدخلاء ، بل أخذوا على عاتقهم تبصير الحكام بحقائق الأمور وتحذيرهم من الوقوع في أحابيل السياسة، من ذلك مثلاً ما ذكره محمد الفراتي في ديوانه من أن الملك فيصلاً أصدر إرادة سنسية بتسليم دير الزور الى الانكليز . فأرسل اليه الشاعر يومذاك قصيده يقول فيها<sup>(١)</sup>:

لا تتخضع بأساليب ينمقها	منهم غوي يحاكي رسمها الحما
اين العهود وما منوا وما زعموا	كانت وعوداً فأمسى حبلها انصرما
قالوا الشعوب لقد قمنا لننقذها	من المهاوي فكانت بينهم قسما
بعض العلباع لها من جنسها مثل	لا تأمن الذئب أن يرعى لك الغنما

وكذلك يتجه الشاعر القروي الى فيصل بقصيدة مماثلة يحذره فيها من كيد المستعمرين وقد أزمع السفر الى عاصمة الانكليز لمفاوضتهم<sup>(٢)</sup> :

نصحتك لا تمدد الى أبرص يداً	ولو أمطرت كفاه درأ منضدا
لأمر يلاقيك الفرنسي باسمها	فزد حذراً ما زاد ذئب توددا
تراه صحيح الجسم وهو سقيمه	كما تكسب الحمى الخدود توردا
لئن وعدونا بالجلء عن الحمى	فقد ضربوا يوم القيامة موعدا

وقد عرف المصريون من أمر مراوغة انكلترا ما لا يعرفه سواهم من العرب إذ أنهم ما برحوا منذ عام ١٨٨٢ يتلقون الوعود الكاذبة بالجلء عن البلاد ، ولذلك نرى حافظ إبراهيم يصور ببراعة مكر المحتلين ويحذر سعد زغلول من أحابيلهم حين أزمع السفر لمفاوضتهم ، على نحو ما خاطب به الفراتي والقروي الملك فيصلاً ، فهو يقول<sup>(٣)</sup> :

(٢) ديوانه ٣٤٣

(١) ديوانه ١٠١

(٣) ديوانه ١ : ١٠٢

لا تقرب ( التامين ) واحذر ورده      مهها بدا لك أنه معسول  
الكيد مزوج بأصفي مائه      واختل قيه مذوَّب مصقول  
كم وارد يا ( سعد ) قبلك ماءه      قد عاد منه وفي الفؤاد غليل

وأشار شوقي الى أن سورية ومصر كانتا ضحية الاستعمار وأحاييله (١) :

وهل نلنا كلانا اليوم إلا عراقيب المواعد والمطالا

وكما أن ثورة مصر عام ١٩١٩ كانت ترجع في أسبابها الى نكت الانكليز  
عهودهم ونقضهم موائيقهم ، كان الشأن في العراق إذ قامت ثورتهم الكبرى عام  
١٩٢٠ بعدما تبين لهم عزم المحتلين على إدامة بقائهم في ربوع الرافدين  
خلافاً لما كانوا قد أعلنوه على لسان قائدهم إبان الحرب . وفي ذلك يقول  
جميل صدقي الزهاوى بحق (٢) :

ما كان قبله هذا الشعب من خطل      حتى اطمأن ففرته المواعيد

وقد عبر محمد الهاشمي عن ضيق العراقيين والعرب جميعاً بسياسة الختل  
والمطل ، في قصيدة أسماها « قد سئمتنا الوعود » وقال فيها (٣) :

قد سئمتنا الوعود وهي خداع      ومللنا الايعاد والتهديدا  
وانجلى الشك وانتهى كل سر      كان بالغش بابه مسدودا  
أين تلك الآمال ما بلغوها      يوم شدوا جيلا بها ممدودا

على أن الشعراء الذين دأبوا على فضح أساليب المستعمر وكشف أحاييله  
عمدوا من ناحية أخرى الى التشهير بأساليب الختل والتضليل التي كان يصطنعها

(٢) الاوشال ٢٤٩

(١) الشوقيات ٢٢٧

(٣) عبرات الغريب ١١٧

الفرنسيون مع مسيحي الشام مثل ادعائهم أنهم حماة لهم من طغيان المساهين . وكان كثير من مسيحي لبنان يثقون بفرنسة ثقة عمياء لأسباب دينية بحجة بعد أن عانوا الولايات في العهد العثماني من جراء التعصب وفساد الحكم ، وكان أن فطن من جهة أخرى معظم الشعراء الى حقيقة الوجه الاستعماري المستر وراء الصليب . وقد عبر أبو الفضل الوليد عن حقد ذنين على فرنسة التي أنأخت باستعمارها على كثير من شعوب العرب فقال (١) :

هذي العداوة بيننا أبدية      تسكينها يدعو الى التحريك  
من عهد من تمذوا الصليب شعارهم      للهب والتقتيل والتهتيك  
حتى اجتياح المغرب الباكي على      أبناؤه من ميت ونهيك

وقد انبرى كثيرون من الشعراء المسيحيين في الشام والمهجر الى كشف زيف مزاعم المستعمرين الذين تسلموا من ورائها الى ربوع لبنان وسائر الشرق العربي ، ومن هؤلاء اسكندر الخوري البيتجالي الذي يقول (٢) :

أتوا باسم الصليب وهم براء      من اسم لطحوه مجرمينا  
وما تمذوا الصليب لهم شعاراً      وما كانوا به مستنصرينا  
هي الاطباع يا قومي دعهم      الى عمل أباه المرسلونا

ويمكن القول إن أكثر الشعراء الذين عاشوا في ظل الاستعمار أو عاصروه نسجوا أشعارهم من نسيج الشك وسوء الظن في كل مسلك يسلكه ، وكان لهذا الاتجاه اثره في السلبية الشديدة التي تسلم بها العرب في علاقتهم بالاحتلالين ، والحذر الدائم منهم . وليس بمستغرب بعد كل هذا التاريخ الحافل بالأكاذيب ، وبعد الذي عاناه العرب من سياسة المظل والتسويق والختل والخذاع أن يستقر سوء الظن في نفوس العرب تجاه كل ما يصدر عن المستعمر . فعندما نشبت

الحرب العالمية الثانية « قال إلياس فرحات يتهم على الانكليز حين دعوا شباب  
العرب الى التطوع معهم » (١) :

يحل السكسون في استعدادهم      للوغي أن يأخذوا منا جنودا  
طمئنتوهم أننا من أمة      تحفظ الود ولا تنسى العهودا  
كيف ننساهم ونسى أنهم      أخذوا النفط وأعطونا اليهودا

وإذا كان العرب قد دعوا كثيراً من جراء أفاعيل المستعمرين فقد اكسبهم  
ذلك أيضاً الكثير من صفات الوعي والحذر والبصر التي بدت جلية على السنة  
شعرائهم ، في احتفاظهم بتفاؤلهم وثقتهم بالمستقبل الباسم . وقد عبر عن هذه  
الروح قبيل الحرب الأخيرة الشاعر محمد مهدي الجواهري بقوله (٢) :

لئن تكن خدع ساءت عواقبها      فكم أنارت طريقاً مظلاماً خدع  
وبهذه الروح سار العرب قدماً وبخطا ثابتة نحو تحررهم المنشود .

## ٢

أما الخرافة التي أسهم الشعر الحديث في تبديدها من الانذهان فهي أن  
المستعمرين استطاعوا أن يوهموا بعض السذج بما زعموه لأنفسهم من رقي يريدون  
أن يجعلوه في الشرق المتخلف . وكانت مبادئ الثورة الفرنسية وكفاح الفرنسيين  
مقياساً لدي بعض السوريين قاسوا به سياسة هذه الدولة الباغية ووثقوا بها ، وإلى  
هؤلاء يشير أبو الفضل الوليد بقوله (٣) :

زعم الذين تعشقوك ضلالة      أن الهدى والحق عند بنيك  
نظروا الى أقلام كتاب وما      نظروا الي أسيف جلاديك

(١) جورج صيدح : ابننا وادباؤنا في المهجر ١٤٥

(٢) تفحات الصور ٩١

(٣) ديوانه ٨٥



كما يعبر أبو ماضي عن ظاهرة الانسياق وراء ذلك السراب بقوله (١) :

أطربتنا الاقلام لما تعنتت      بالمساواة بيننا والاياء  
فسكرنا بها فلها صحونا      ما وجدنا بها سوى أسماء

ويشير فؤاد الخطيب الي تنكر فرنسة لمبادئها التي كانت مناراً للشعوب فيقول (٢)

إن حطموا (البستيل) فيك تحرراً      فسلي العروبة كم بنوا (بستيلا)

ويجرح الرصافي للسخرية بهذه المبادئ المزعومة وبرسالة التمدن التي ادعي  
العرب حملها والعشير بها على غرار قول أديب اسحق الذي مر بنا في «البواكير» (٣) :

وكم قد سمعنا ساسة العرب تدعي      بأشياء من بطلانها ضحك الحق  
فهم منعوا رق الاسير وإنما      أجازوا لهم أن يشمل الامم الرق

وعلى هذا الغرار أيضاً يتدد بدوي الجبل بالمختلين (٤) :

أيعدون قتل شعب حلالا      ويعدون قتل فرد حراما  
عشوا بالنظام جوراً وقالوا      قد أتيناكم لنحبي النظاما

وربما كانت أبيات العلامة مصطفى الغلاييني من أدق ما يصور طبائع  
المستعمرين وأساليبهم في الختل والتضليل وتشدقهم بالمثل الانسانية ومبادئ الحرية  
والمساواة والعدالة (٥) :

يقولون « إنسانية وتمدن      وتحرير أقوام » وفي العنق الربق  
فما وعدهم إلا وعيد ولم يكن      لهم في ميادين الوفا مرة سبق  
خلفهم خلف ، ووعدهم هبا      وقولهم إفك ، وعهدهم خرق

(١) زهير ميرزا : إيليا ابو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١٢٠

(٢) ديوانه ٥٤٢ (٣) ديوان الرصافي ٤١٥

(٤) ديوانه ١٥٣ (٥) ديوانه ٦٦ .

وأما أنماط الاستعمار المتعددة التي دأب الأجنبي على تطبيقها في بلاد العرب فقد كانت واحدة في جوهرها لا تعدو إذلال الشعوب وسلب خيراتهما، ووأد حرياتهما . ونظراً لما تحلى به العرب من وعي تحاشى المحتلون وسم وجودهم في بلادهم بأنه احتلال أو استعمار ، فقد فزعوا الى أسماء أخرى حسبوها أخف وطأة ، من ذلك نظام الحماية الذي فرضوه على مصر ، ونظام الانتداب الذي ابتدعوه أثناء الحرب الأولى وفرضوه على بلاد الشام والعراق برغم أنف شعوبها ، مدعين أن مهمتهم توجيهية ولا تعدو أن تكون وصاية إلى أمد قصير ريثما يتمرس المواطنون بشؤون الحكم .

ومن يستقر دواوين الشعراء والمجموعات الشعرية التي صدرت في الشرق العربي بين الحربين العالميتين يلاحظ أن أكثر ما قيل في التنديد بهذه الأنماط المتعددة من النظام الاستعماري تكاد تتركز في سورية ، وذلك لأن الانكليز استطاعوا الى حد كبير أن يصرفوا الرأي العام في مصر والعراق عن جوهر قضيته الى قضايا الانتخابات والبرلمانات والأحزاب والمفاوضات .. حيث انجرفت طائفة من الشعراء بتلك الموجة ، وظلت طائفة أخرى تهوم في عالمها الرومانسي الحالم بعيدة عن واقع أمته المضطرب . وكان الحاكم الاجنبي في البلدين يمسك بزمام الامور من وراء ستار ، ويعتمد على أسرة حاكمة ونظام ملكي يضمن للمحتلين شيئاً من الاطمئنان الذي كانوا يطمحون اليه .

إلا أن سورية كانت أشبه ببركان نائر لا يكاد يهدأ حتى يقذف بحممه من جديد ، وذلك منذ أن وطئت أقدام ( غورو ) دمشق الفيحاء . وحينما تمادت فرنسا في غيها وبلغت الذروة في بطشها بقصفها دمشق بيران مدافعها عام ١٩٢٥ إثر نشوب الثورة السورية تفجرت قرائح الشعراء نقمة و غضباً على هذا الانتداب ودولته الباغية ، وهذا محمد الشريقي يتصدى للاحتلين يومذاك بقوله (١) :

---

(١) ديوان الثورة ٤٠

رسل التمدن ، والأجرام مثلبة  
الصخر أ كثر عطفاً من قيادتكم  
ليس يصلح للأحكام مجرم  
منه العيون ومنكم هذه الحمم  
بل أنت والله أسمى حين تنتقم  
(ساراي) اذ كرتنا (تيمور) منتقما

وفي هذه النكبة نفسها يقول خير الدين الزركلي ساخرأً برقي الغرب  
المزعوم (١) :

الظلم في عرفهم عدل ومرحمة  
ماذا يعدون من فخر ، أفتكهم  
والامر بالباطل المنبوذ تشريع  
بالمطفلات يواريهن تقنيع

ويهزأ محمد الفراتي على هذا المنوال بمدينة الدولة المنتدبة بعد ان هالته  
مأساة دمشق فيقول (٢) :

هتكت حرائرها نفت أحرارها  
هذا تمدنك الحديث فهاته  
لم تبق شباناً هناك وشيئا  
من قلب باريس لنا مجلوبا

كما يتهم الشاعر القروي برسالة الغرب، المزعومة في قوله (٣) :

زعموا الشام بحاجة لمجدد  
نعم المجدد مدفع ومسدس

وكان من أجمل ما نظم في تصوير فظائع الفرنسيين إبان الثورة السورية  
وفي التهم بدولة الحرية المزعومة وانتدابها البغيض قصيدة لنسيب عريضة الشاعر  
المهجري أسماها « موكب الجثث » ومما قاله فيها (٤) :

صليل سلاح وقرع طبول  
وفوق النياق حماة القبيل  
وجند قساة تسوق المحول  
تدلوا قتيلا بجنب قتييل

(٢) ديوانه ١٤٦

(٤) ديوانه ٢٠٢

(١) ديوان الثورة ٣٨

(٣) ديوانه ١٩٨

دمشق انظري شهداء الفداء      على النوق صرعى ولا من رداء  
لقد فاز ساداتنا الاوصياء      وداس حقوق الورى الاقوياء

فيا لانتداب على قاصر  
ونصر على أعزل بائر  
ودعوى رقي بلا آخر

وفي الفترة نفسها كان محمد اليزم أحد شعراء دمشق يرى بعينيه جرائم  
الفرنسيين فيقول متوعداً (١) :

أبناء ( غلية ) لا كان انتدابكم      فقد أسال دماء العرب غدرانا  
لا ترهقوا العرب، فالعرب الكرام      لهم ان أرهقوا وثبة الضرعام غضبانا

وهكذا سقط قناع الانتداب واتسع نطاق الحملة عليه الى سائر العالم العربي  
في لبنان وفلسطين والعراق ومصر .. وهذا مصطفى الفلايبي يخاطب المستعمرين  
من سفح لبنان بقوله (٢) :

لا تخدعوننا بألفاظ إذا سمعت      تحلو وان نختبرها مر معناها  
فما ( الحماية ) إلا السهم يقصدنا      وما ( الوصاية ) إلا النار نصلهاها

كإشير وديع البستاني من ربوع فلسطين المقدسة الى هذه الحقيقة الصارخة  
وهي أن الحلفاء هم الذين فرضوا أنفسهم وصاة أو متديين أو حماة في بلاد العرب (٣) :

وأنكرنا وصايتهم علينا      وقد جعلوا بوادرها اغتصابا  
ولم نقديهم في الامر فينا      وقد حكوا وسموه انتدابا  
ودسوا السهم في الدستور دساً      فما ذقنا الطعام ولا الشرابا

(٢) ديوانه ٧٥

(١) ديوان الثورة ٣٠

(٣) الفلسطينيات ١٥٣

وكان الكاظمي والرسافي في مقدمة شعراء العراق الذين ناضلوا المستعمرين  
بلا هوادة ونددوا بانتدابهم في الشام والعراق . ويتساءل عبد المحسن الكاظمي عن  
معنى هذا الانتداب بقوله (١) :

أذا انتداب أم اغتصاب      عاد به حقنا هضيا  
لا تلزمونا بكم فلسنا      نرى لكم بيننا لزوما  
هل دام في الارض حكم شعب      إذا أبقى الشعب أن يدوما

أما الرسافي فقد حمل بجرأة على الانتداب وكمه أفواه الوطنيين في  
العراق وقال (٢) :

يا أهل لندن ما أرضت سياستكم      أهل العراق لا بدواً ولا حضرا  
إن انتدابكم في قلب موطننا      جرح نداويه لكن لم يزل غديرا  
لم يكفه أنه للحكم معتصب      حتى غدا يقتل الآراء والفكرا

ولعل من أجمل القصائد التي وفقت في تصوير اساليب المستعمر  
وختله ودأبه على إدامة بقائه في بلاد العرب قصيدة الشاعر الدمشقي خليل مردم  
ففيها يحكي قصة ذلك الدخيل الوقح بما يشبه اسلوب الرمز (٣) :

أنتي ضيفاً فأصبح رب بيت      يحكم بالقطين وبالعيال  
وسمى نفسه قسراً وصياً      عليّ مفوضاً في كل حال  
ومنتدب عليّ برغم أنفي      ولست بقاصر يوم النزال  
وباعد بين إخوان وأهل      فلجوا في التقاطع والتقالي  
وشاركني فكان الغرم حظي      وخصص بالغنيمة والنوال  
ومن حب السلام حوى ملاحني      ليكفيني ممارسة القتال

(٢) ديوانه ٣٢٤

(١) ديوان الثورة ٥٦

(٣) ديوانه ١٣٧

وكم في عن الشكوى لكيلا  
 وأخرجني فأخرجني فلما  
 دعاني للتفاهم بعد أخذ  
 فطوقني بأدهي من أفاعي  
 وهش وبش مبتسماً فيا من  
 وواعدني الى أجل مسمى  
 تقبلت القليل النزر منه  
 وما خلت القليل يظل وعداً  
 يسير بغية يوماً مقالي  
 رأي بالمنية لا أبالي  
 ورد واختلاف واقتتال  
 وشديدي على حد النصال  
 رأي ذنباً تبسم للسخال  
 يكون قضاؤه عهد انتقال  
 وقلت : النقص مرقة الكمال  
 يكدر بالتمل والمطال

### ٣

ويفضي بنا حديث الوصاية والحماية والانتداب الى ما استتبع ذلك من  
 سياسة المعاهدات والاحلاف الجائرة التي كان المستعمرون حريصين على عقدها  
 مع الحكومات التي ينصبونها . ولم يكن موقف الشعراء تجاه هذه القيود ليغايير  
 موقفهم الثابت تجاه الاستعمار نفسه . إلا أن الامر في هذا المجال كان يتطلب  
 وعياً وحصافة ونظراً ثاقباً ، إذ كثيراً ما استطاعت هذه المعاهدت تضليل الناس  
 وإيهامهم ببدول المستعمر عن تسلطه . ويعتبر الشعراء بحق الطليعة الواعية للشعوب  
 فقد تصدوا بلا هوادة لفضح أساليب الاحتلال وما كان يعتمد إليه بذكاء من  
 حين الى آخر من تمويه الحقائق على العرب في سبيل استمرار بقائه في أرضهم . وهذا  
 علي الجندي يشير الى كثرة تلك المعاهدات ونتائجها المؤلمة على وطنه مصر فيقول (١) :

في كل يوم لنا (معاهدة) نعود منها بصفقة الغبن

على أنه مما يلاحظ في العراق أن التنديد بالمعاهدات والاحلاف قد  
 استأثر بجانب كبير من الشعر القومي . فقد كان المستعمر ناعم اللبس ولم يحاول إلا

(١) اغاريد السحر ٩٧

في ساعات اليأس أن يستفز مشاعر الشعب خلافاً لما كانت تتورط به فرنسة في سورية من طيش . وربما كان معروف الرصافي ومحمد مهدي الجواهري وجميل صدقي الزهاوي أبطال هذا الميدان ، ومن ذلك قصيدة للرصافي يقول فيها (١) :

خلقتم لنا من كل عهد مموه      قيوداً بها استقلاننا يتقيد  
إلى أن عند الاستقلالنا ضحكة الوري      به ساخر كل امرئ ومندد

وبسخريته اللاذعة يصور لنا الرصافي أيضاً واحدة من تلك المعاهدات التي كانت تحاول الايقاع بحرية الشعب ، وكان الشاعر في طبيعة من عارضوها تحت قبة البرلمان العراقي الذي كان عضواً فيه حيناً من الزمن (٢) :

نسروا المعاهدة التي في طيها      قيد يعض بأرجل الآمال  
قد أبلعوننا حبة استعبادنا      لكن مموهة بالاستقلال  
والعهد بين الانكليز وبيننا      كالعهد بين الشاة والرئال

وتتجلى في أبيات الزهاوي مشاعر الضيق بهذه الشرك المنصوبة (٣) :

الشعب بالقيد الثقيل مكبل      حتى يكاد إذا تحرك يقعد  
تلغى معاهدة وأخرى تعقد      والشعب يستفتي لها ويهدد

أما الجواهري فكان بارعاً في تصوير حالة العرب المؤلمة مع المحتل الماكر في ظل مشاريعه ومعاهداته وذلك في قوله (٤) :

و «تصريح» يطمطه قوي      كلوح الطين إذ يدحوه داح  
و«حلف» لست أدري من ذهول      أعن جد يدبر أم مزاح  
ولست نعارف أبداً حليفاً      يهدده حليف باكتساح  
«نطوف ما نطوف ثم ناوى      إلى بيت» أقيم على اقتراح  
ينخرج ألف وجه من حديث      ويخلق ألف معنى لاصطلاح

ولكن كل هذه الأنماط المبتكرة من الاستعمار في بلاد العرب لم تكن

(١) ديوانه ٤٧١  
(٢) ديوانه ٥١٢  
(٣) الأوشال ١١١  
(٤) ديوانه ١ : ١٨٣

لتبلغ ما كان عليه الأمر في فلسطين من استعمار مركب جثم على صدر البلاد  
 فزعزع كيائها وهدأ أركانها ، وجعل أهلها يعانون الويلات . وقد حظيت أحداث  
 فلسطين باهتمام متزايد على مر السنين من قبل العرب وشعرائهم بلغ أوجه في  
 العالم العربي إثر النكبة بعد الحرب العالمية الثانية وكان الاستعمار في هذه الديار  
 المقدسة رأس الأفعى وأصل البلاء . وهذا نسيب عريضة يشير من مهجره  
 الى تواطؤ المحتلين الانكليز مع الدخلاء الصهيونيين في أبشع ما عرفته الانسانية من  
 ظلم ، حيث يشير الى وعد الانكليز لليهود ووعودهم للعرب (١) :

ذبحتم فلسطين يا ويمنا      أبحتم حماها لمستزقه  
 أكانت مواعيدهم حكمة      وكانت مواعيدنا زندقة

وقد استطاع شاعر فلسطين ابراهيم طوقان أن يبرز هذا التواطؤ اللئيم  
 بين الاستعمار والصهيونية ويكشف عن أخس أساليب هذين العدوين الماكرين في  
 البطش بالعرب (٢) :

لنا خصمان ذو حول وطول      وآخر ذو احتيال واقتناص  
 توأصوا بينهم فأتى وبالا      وإذلالا لنا ذاك التواصي  
 مناهج للابادة واضحات      وبالحسنى تنقذ والرصاص

## ٤

أما الجشع الاستعماري الذي كان الدافع الحقيقي لاحتلال بلاد العرب  
 وامتصاص خيراتها فقد فطن إليه بعض الشعراء وإن كان كثير منهم لم يعبره  
 الاهتمام الذي يستحق لأن الشعراء كانوا يشارون بالمشاهد العاطفية والمحسوسة  
 أكثر من أي شيء آخر ، مثل المصادمات والقتل والجرح والتدمير وما الى ذلك  
 على نحو ما وجدنا من شعر كثير قيل إثر قذف الفرنسيين دمشق بالقنابل . وفي

(٢) ديوانه ٨٧

(١) ديوانه ٢٦٠



طليعة من عنوا بابرز البؤس وابتزاز المستعمرين أموال الوطن شاعر فلسطين  
ابراهيم طوقان الذي قرع بصره ناقوس الخطر تجاه أساليب اليهود في الاستيلاء  
على أراضي العرب ، ومما قاله يخاطب الانكليز (١) :

منذ احتلتم وشؤم العيش يرهقنا فقراً وجوراً وإتعاساً وإفساداً

ويعد الرصافي فارس هذا الميدان في العراق لاتصال موضوع الجشع  
الاستعماري بموضوع البؤس الاجتماعي الذي برع في معالجته شاعر الرافدين . ففي  
الآيات التالية يتصدى الاستعمار ويعمد الى تعرية زبائنه مما كانوا يحاولون به  
إيهام الشعوب من نحو قدرتهم على نشر الرخاء بينها وتحسين حالتها الاقتصادية المتخلفة ،  
ويضرب لذلك مثلاً بارزاً فيما كانت تعانيه الهند من فقر وبؤس فيقول (٢) :

دع اللوم واسمع ما أقول فاني	قتلت طباع ( التيمسيين ) بالبحر
كأنهم والناس عث وصوفة	وهل يستقيم الصوف في طيه العث
زر الهند إن رمت العيان فكم ترى	على الأرض من غير هناك ومن شعث
وهم سلبوا أرض العراق سميتها	ولم يتركوا فيها منلاً سوى العث

وقد نحا محمد الفراتي هذا النحو في تصوير جشع المستعمرين فعرض مظاهره  
في عدد من البلاد المستضعفة على مسامع الملك فيصل الذي كانت ثقته بالانكليز  
تم عن سداجة بالغة (٣) :

ماذا على أمة قامت تدافع عن	حق لها كان قبل اليوم مهتماً
رأت عدواً لدوداً ملحماً قرماً	مستقلاً طامعاً مستعمرأً نهماً
لا الهند تشبهه لا السند تقنعه	أضحى لنصف بلاد الله ملتها
سل الفرات وسل بغداد ما فعلت	أيدي الطغاة بأهلها سل الهرما
سل الهند وسل الافغان سل عدناً	تحطك عدماً، سل الاكراد والعجا

(٢) ديوانه ٤٧٠

(١) ديوانه ٨٥

(٣) ديوانه ٦٥

مصائب صوتها الانكليز على رؤوسهم تقذف الويلات والجمها  
فالارض لله لا للطامعين وإن داموا ستمسى بها أشلاؤهم ربما  
يرون أنفسهم فيها ملائكة مكرمين لذلك استعبدوا الامما

والحق أننا قدما نجد قصيدة كهذه وفق فيها صاحبها الى تصوير جشع  
الاستعمار على حقيقته هذا التصوير الشامل ، فهو العدو اللدود للماحم القرم  
المستقبل الطامع المستعمر النهم ، وهو الذي ابتاع بلاداً وأمماً وطني على نصف  
العالم دون أن يشبع أو يقنع ، وهو أخيراً المتغارس الصاف ، المتعالي على  
البشر لا يرى في إذلال الامم واستعباد الشعوب سوى حق طبيعي له .

وقريب من هذه الابيات ما نجده لمحمد الاسمر في قصيدة له يصور فيها  
تكالب الانكليز على ثروات وادي النيل إذ يقول (١) :

تشكو المجاعة بالوادي عشيرته والاجني به يشكو من التخم  
لو لم تكن رمماً في الناس ما ظفرت بنا عصائب للغربان والرخم  
حطت جيعاً فلما اتخمت نهضت كيا تغاير فما اسطاعت فلم تقم  
فهي الغداة بوادي النيل جائمة مقيمة أشبه الاشياء بالهرم

وواضح مدى توفيق الاسمر في تصوير جشع المحتلين وتشبيهم بمصر حتى  
كأنهم شاركوا الهرم في لصوقهم بأرضها وعدم ترزحهم عنها .

وقد أدى تعدد دول الاستعمار وتزاحمها على امتصاص دماء الشعوب الى  
تباين ظاهري في أساليب حكمها ، مما ولد في بعض الازدهان فكرة خاطئة  
كان من مظاهرها اغترار بعض العرب في بيئات المهجر والشام وتحديثهم في  
أمور المفاضلة بين أنواع الاستعمار ، حتى خيل للسذج منهم أن الانكليز  
يفضلون الفرنسيين في هذا المضمار . إلا أن طائفة من الشعراء وبخاصة في المهجر

(١) ديوانه ٣٤

كالقروي وفرحات والوليد كانوا حرباً على هذه الافكار السمومة على نحو ما حذر  
منه القروي (١) :

لا تبدلوا (أسداً بديك) إنه إن كان ذا نجساً فهذا أنجس  
لكليهما في الشرق واستعمارهما قلب كعوسجة وجلد أملس

فالشاعر يرى طبيعة الاستعمار واحدة مهما تكن الدولة التي تمثلها . وقد نحمد  
محمود أبو الوفا الى تجسيد الاستعمار نفسه في هذه الصورة فقال (١) :

فلو صور الشيطان مرآة وجهه لما اختار الاسحنة استعمار

## ٥

وكما كانت لهجة العنف دأب الشعراء في مخاطبة المستعمرين كانت السخرية  
المرّة لدى من يجيدها منهم أكثر جدوى وتأثيراً في التنديد بهم ، والكشف عن  
مخازيهم ، وكان حافظ والرصافي وطوقان في طبيعة من أوتوا تلك الموهبة من  
الشعراء ، وتعتبر قصيدة حافظ التي نظمها سرّاً إبّان ثورة ١٩١٩ في مصر من  
أشهر هذه القصائد ، فقد ندد فيها بقوات الاحتلال التي تصدت بنيرانها لمظاهرة  
سلامية قامت بها نساء القاهرة بسخرية لاذعه ، وبلغ من ذبوع أمرها أن وزعت  
بالخفاء على الجماهير الثائرة ومنها قوله (٣) :

خرج الغواني يحتججن وبت أرقب جمعته  
يمشين في كنف الوقار وقد أبّن شعورهنه

(٢) اشواق ١٠٤

(١) ديوانه ٣٠٢

(٣) ديوانه ٢ : ٨٧

وإذا بجيش مقبل ، والخيل مطلقة الاعنة  
وإذا الجنود سيوفها ، قد صوبت لنحورهنه  
وإذا المدافع والبنادق والصوارم والاسنة  
والخيل والفرسان قد ضربت نطاقا حولهنه  
والورد والريحان في ذاك النهار سلاحهنه  
فتطاحن الجيوش ساعات تشيب لها الاجنة  
فتضعع النسوان والنسوان ليس لهن منة  
ثم انهزمن مشتتات الشمل نحو قصورهنه  
فلهنأ الجيش الفخور بنصره وبكسرهنه

هذه القصيدة الساخرة التي لم يجرؤ صاحبها على نسبتها اليه إلا بعد مضي  
عشرة أعوام على نظمها (١) جمعت السهولة والتدفق في أسلوبها وإيقاع بحرهما  
الراقص بالإضافة الى هذه الالهجة الساخرة المبتوثة في أبياتها . كان التهمك من  
طبيعة حافظ ومزاجه لجأ اليه في قصيدته بعدما رأى من أساليب القمع الرهيبة ،  
فتفجرت نفسه على الطغيان سخرية مرة لاذعة . والقصيدة بعد ذلك ترتبط بحدث  
فريد في تاريخ مصر والشرق العربي اذ أن خروج النساء في مظاهرة الى الشارع  
لاول مرة في حياها العرب الحديثة نقطة تحول في انطلاق المرأة العربية نحو  
التحرر والنور بعد أن طال عليها الامد في عزلتها ...

أما ابراهيم طوقان شاعر فلسطين فيضحك بملء شذقيه من رسالة التمدن  
التي يزعم المستعمر حملها ، وشر البلية ما يضحك (٢) :

قد شهدنا لهدمكم بالعدالة	وختمنا لجندكم بالبسالة
وعرفنا بكم صديقاً وفيّاً	كيف نسي انتدابيه واحتلاله
وخجلنا من لطفكم يوم قلتم	وعد بلفور نافذ لا محالة

(٢) ديوانه ٧٦

(١) انظر مقدمة الديوان ص ٨ للاستاذ احمد امين

كل (أفضالكم) على الرأس والعيد      ن وليست في حاجة لدلالة  
غير أن الطريق طالت علينا      وعليكم فإلنا والاطالة  
أجلاء عن البلاد تريدو      ن فنجلو أم محقنا والازالة

وقد أصاب طوقان المرمي في عبارته الساخرة التي انتزعها من صميم  
تعبير الشاميين إذ قال « كل أفضالكم على الرأس والعين .. »

وتعد أخيراً قصيدة الرصافي المشهورة « الحرية في نظر المستعمرين » التي  
ينسج فيها على هذا المنوال الساخر في رأس ما صور به الشعراء حقيقة الاستعمار  
وأساليبه في البلاد المحتلة ومنها قوله (١) :

يا قوم لا تتكلموا	إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا	ما فاز إلا النوم
أما السياسة فاتركوا	أبدأً وإلا تندموا
من شاء منك أن يعيد	ش اليوم وهو مكرم
فليمس لا سمع ولا	بصر لديه ولا فم
وإذا ظلمتم فاضحكوا	طرباً ولا تتظلموا
وإذا أهتم فاشكروا	وإذا لطمتم فابسموا
إن قيل هذا شهدكم	مر فقولوا علقم
أو قيل إن نهاركم	ليل فقولوا مظلم
أو قيل إن بلادكم	يا قوم سوف تقسم
فتحمدوا وتشكروا	وترنخوا وترغوا

(١) ديوانه ٤٥٠

والحق إن الرصافي بهذه الابيات قد بلغ ذروة الفن الرفيع في سحره  
اللاذعة وكان من مقومات قصيدته في ذلك انسياب عباراته سهلة متدفقة ، وبحره  
المجزوء ، ثم جملة القصيرة المقتضبة التي تعتمد في الغالب على الأمر والنهي ، إلا أن  
هذه البراعة في قلب المعاني والافكار الى مفاهيمها المعكوسة وإلباسها ثوباً من الجد  
الظاهر هو الذي أكسبها بالدرجة الأولى تلك المنزلة الفنية .



وهكذا استغرق كفاح الاستعمار تجربة العرب السياسية وحياتهم  
القومية الحديثة في شتى ديارهم . وقد أسهم الشعراء مع شعوبهم في تعريته  
وإسقاط اقتنعه قناعاً قناعاً . لقد عرضوه احتلالاً سافراً ثم انتداباً مموهاً ثم معاهدات  
ثم أخلاقاً ، ومع ذلك لم يكن بوسعهم أن يخدع العرب طويلاً ، وإن خدع  
منهم الكثيرين ، فكانوا مطالباه وصرعاه . لقد كانت التجربة المريرة قصيرة العمر  
ولكنها حافلة عميقة كثيرة العبر .

ومن محصلة ما سبق نخلص الى التنويه بالدور الفعال الذي قام به الشعراء  
في المعركة الكبرى التي خاضها العرب ضد الاستعمار ، إذ أن الشعور بالظلم أول  
مراحل التمرد والثورة ، وليس كرواد الفكر من بوسعه إيقاف العقول وتثنيه  
النيام وحث الهمم على النضال . وقد تجلت في قصائد الشعراء الأولى  
انطباعات غدر المستعمرين وأحاييلهم في نفوس العرب ، ثم انتقلوا من مرحلة  
الانفعال الى صعيد التبصير والتحذير وتفنيده أساليب الاحتلال وكشف  
نواياه ، وفضح زيف مدنيته ومدى تسلطه وجشعه ، كما نددوا بزبانيته وحملوا على  
قادته وكانوا في ذلك يؤثرون شدة المهجة في كثير من الاحيان ويجنحون للسخر  
منها في بعض الأحيان الأخرى .

وقد أسهمت هذه القصائد والمقطوعات وأمثالها في تعميق الشعور بالخطر لدى الجماهير وتبصير العرب بما يحيق بهم من مكر وسوء ، كما ساعدت على تكوين الوجدان الجماعي العربي عن طريق تركيز الوعي السياسي والأفكار والمفاهيم الاجتماعية في بؤرة واحدة تتجمع فيها الطاقة الشعورية للأمة لتتسلط بعد ذلك بلا هوادة على العدو الماكر . ولا ريب أنه بفضل هذا الوعي السليم الذي عبرت عنه هذه الأشعار وسواها مما كتبه الكتاب من مقالات وما القاه الخطباء من خطاب غدا فجر التحرر مرتقباً وكانت العاقبة للعرب .

## الفصل الثاني

# التنديد بالاستبداد وفساد الحكم

منذ كان في الحياة خير وشر ونور وظلام كانت حرية وكانت عبودية. وحين أطلق عمر بن الخطاب صيحته المدوية « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » غدا في طليعة رواد التحرر وأعداء الاستبداد في أمة العرب .

وإذا كان الانسان بطبيعته نزوعاً الى التحرر نفوراً من الاستعباد فان رجل الفكر أو الفن لا غنى له عن نسات الحرية ، لأنها جزء أصيل من شخصيته المتميزة وما ينبثق عنه من آثار رفيعة وأفكار نيرة . ولهذا كان الادباء والمفكرون روادا لحرية النفس الانسانية وكرامتها لقوا في سبيل رسالتهم كل عنت وأذى . وكثيرون هم شهداؤها الذين سيقوا الى مذبحها وصلبوا على خشبتها .

وإن كان موضوع التنديد بالخونة والمستبدين والطفاة يعتبر ظاهرة جديدة في الشعر العربي الحديث فان شاعراً عربياً كبيراً هو أبو العلاء المعري كان بحق الرائد الاول في هذا الموضوع حين ندد في لزومياته بالطغيان والجور ، وبالفاستدين من الرؤساء والحكام ، وفتح بذلك باباً آخر من أبواب خلوده .

إن مبادئ المساواة والديموقراطية متأصلة في نفس العربي منذ القـدم



فقسوة البيئة الصحراوية ، واضطرار جميع العرب الى الكفاح على قدم المساواة في سبيل العيش أدى الى انعدام الفروق الطبقة بينهم . وقد حافظ العرب بعد الاسلام على هذه الصفات التي غدت جزءاً من تقاليدهم فكانوا ينتقدون الحكام والقواد والخلفاء ويخاطبونهم كما يخاطبون أفراداً عاديين من بينهم .

ولم تدخل على العرب مظاهر تبجيل الحاكم وتقديسه الا في فترات الضعف حين تفشت لديهم عادات الدخيل من الفرس والروم وأخيراً من العثمانيين .

وما زال العربي الاصيل في هذا العصر يتسم بشيء من صفات الاجداد ويعتقد بصحة قولهم بأن « سيد القوم خادمهم » فهو يتسقط أخبار الحاكم ويحصى عليه سلوكه وتصرفاته ويؤاخذه على هفواته ولا يطبق انحرافه عن جادة العدل . ومن هنا كان مجتمعنا العربي في نضال مستمر مع حكامه . وقد تجلّى ذلك بأبرز مظاهره في الشعر الحديث . ويبدو أن شعراءنا في هذا العصر - وأكثرهم كانوا يسرون على النهج التقليدي - جنحوا الى حوك قصائدهم على غرار ما عرف به الاقدمون في عهدي بني أمية والعباسيين من صراحة وجرأة ونزوع الى التحرر والمساواة وابعاء للضمير واستنكار للظلم .

## ١

ولا ريب أن رائد أحرار الفكر ومناهضي الاستبداد في العصور العربية الحديثة هو عبدالرحمن الكواكبي الذي كان كتابه ( طبائع الاستبداد ) الصيحة المدوية التي زعزت أركان الطغيان ، واللبنة الكبرى في صرح التحرر القومي .

وقد عرف العصر الحديث عدداً من الطغاة المستبدين في رأسهم السلطان عبد الحميد الثاني ، إذ كان العرب في ظل حكمه الاسود يعيشون في محنة ، وقل من استطاع أن يجهر ضده برأى ، حتى بدا في ذلك الحين أن الشعب أشبه بالمستقع الآسن أو الشاة الذبيح يتعاقب عليه غاشم إثر غاشم ،

ويتداوله جزار بعد جزار ، وقد وفق ولي الدين يكن الذي كان في طليعة الثائرين  
على الاستبداد الى تصوير حالة العرب آنذاك بقوله (١) :

صحا كل شعب واسترد حقوقه      فياليت يصحو شعبك المتناوم  
هو الشعب أفنى دهره وهو خادم      وليس له فيمن تولوه خادم  
يقلب من عهد لعهد على الاذى      إذا زال عنه غائم جد غائم

ثم هبت نسائم الحرية على العرب ولكن الى حين ، في فترة إعلان الدستور ،  
وغدا من العسير عليهم بعد ذلك أن يحيوا بدونها . إذ ما كاد الاتحاديون التترك  
يتسلمون زمام الامر حتى استبدوا بالعرب وراحوا يعملون على تتركهم أو ابادتهم .  
وكان اندلاع الحرب العالمية الاولى خير فرصة اهتبلها أولئك الطورانيون للبطش  
بهم . فما كاد جمال باشا يصل الى الشام مطلق اليد في شؤونها حتى أخذ ينسكل  
بالاحرار ويفتك بأقرب أعوانه ، ثم ارتكب جريمته الشنعاء بتعليق عشرات من  
زعماء العرب على أعواد المشانق في ساحات دمشق وبيروت ، وغدا في صبيحة ذلك  
اليوم الطاغية الاول والسفاح الاكبر .

وقد أثار هذا العمل الاخرق حفائظ العرب وقيل في صدره شعر كثير  
طوال أعوام مديدة بعده . وكانت تند من ثنايا العيون الدامعة ومن خلال القوافي  
الواجدة أنات شجية تستنكر الظلم والجور والظفيان ، وهذا أمين  
ناصر الدين يقول (٢) :

شعب يضام وغائم لا يرحم      ونوائب تقشى الوليد فيهرم  
ودم يطل على الترى ومشانق      بجبالها وصل القضاء المبرم  
أجمال لا والله لست بمسلم      كذب الذي قد قال إنك مسلم  
لم يبرح الاسلام يأمر أهله      بالرفق مذ بعث النبي الاعظم  
وزت بك الاحقاد أفضع زوة      فبطشت منتقماً ولم تك ترحم

(٢) الالهام ٥٧

(١) ديوانه ١٩

وقل أن نجد شاعراً عاش تلك الفترة أو ما بعدها دون أن يدلي بقوافيه في هذا الحدث ويندد بطغيان السفاح ، ويكفي أن نشير الى أن هذا الارهاب كان السبب المباشر الذي أشعل شمارة الثورة العربية الكبرى ضد الحكم التركي بعد أسابيع معدودات . وتعد قصيدة « النائحة » لجميل صدقي الزهاوى من أبرز ما قيل في رثاء الشهداء العرب والتنديد بجهال باشا وطيغانه .

## ٢

قد يكون موضوع الاستبداد والظلم والفساد الحكم الموضوع الاول الذي عرفه الشعر القومي الثائر في هذه الفترة من الحرب الاولى وقبل ابتلاء العرب بالاستعمار . وإذا كان العرب قد عرفوا عدداً من المستبدين في تاريخهم الحديث فان هؤلاء المستبدين لم يكن لهم في الواقع من سند سوى نفر من حولهم ينصرونهم في ظغيبانهم . ولم يكن استمرار حكمهم بسبب من قوتهم بقدر ما كان نتيجة ضعف شعوبهم وضالة وعيها ، وكثيراً ما كانت الانتفاضات الشعبية تطيح بهم وتجعلهم أثراً بعد عين . إلا أن دخول الاستعمار على هذا النطاق الواسع الضاري الى سائر بلاد العرب في أعقاب ثورتهم الكبرى حمل في ثناياه الظلم والاضطهاد ، وغدا للاستبداد منذ ذلك الحين وجه جديد تجلى في فساد جهاز الحكم كله دون أن يرتكز ذلك الى ظغيبان فرد واحد . ويبدو أن المحتلين عمدوا لإمعاناً في المكر وتطبيقاً لبعض نصوص صك الانتداب أو المعاهدات الجائرة الى تنصيب بعض الحكام من العرب أمليين من ورائهم أن يكونوا الأقدامهم في البلاد ويهدئوا من ثائرة الشعوب .

ويمكن اعتبار بعض أعضاء الأسرة الهاشمية التي حكمت الحجاز ثم سورية والعراق والأردن الركيزة الأولى التي اعتمد عليها الاستعمار البريطاني في الشرق العربي . ومع أن الشريف حسين قائد الثورة العربية كان يعد بطلا في نظر كثير من العرب أول الامر ، فان غالبية المصريين وطائفة من

بلاد الشام نفسها نظروا إليه بمنظار آخر منذ أن ثار على الخلافة التركية ومخالف مع أعدائهم الانكليز ، ثم أخذت هالة البطولة تنحسر من حوله بعد أن تكشفت للعرب مطامعه الشخصية . ولئن عز على كثير من العرب الذين تجلت مشاعرهم على السنة شعرائهم أن يفجعوا بسياسة زعيمهم وآثروا التماس العذر له إن فئة أخرى من الشعراء صدعت بالحق دون أن تأخذها فيه لومة لائم . ومما لم يرق لهم آنذاك إصرار الحسين على استخلاص الخلافة لنفسه والعرب في أوج صراعهم مع الاحتلال ، وقد كان لا يتردد في كسب تأييد الانكليز لبلوغ هذه الغاية . وممن انبرى الى التشديد بمسلكه هذا شاعر دمشق خير الدين الزركلي بجرأته المعهودة (١) :

طال انقيادك للخصوم وأنت أدري ما الخصوم  
الانكليز وما أراك بأمرهم غير العليم  
ما في جموعهم وإن حذبوا عليك سوى غيرهم  
عجبا لمن طلب الخلافة والخلافة في النجوم

ومع أن عهد فيصل بن الحسين في الشام كان يعتبر ذهبياً بلغت في أثنائه العواطف القومية أوجها ، فقد تكشفت سياسة ذلك الملك - الذي قدر له أن يعيش في ظروف عصيبة - عن بعض الأخطاء التي ما زال المؤرخون مختلفي الرأي تجاهها سواء إبان ملكه في الشام أم في العراق بعد ذلك ، ولكن فئات كثيرة من الشعب وفي جملتهم الشعراء كانوا فيما يبدو يشفقون من الاساءة الى ذلك الزعيم العربي ومن تشويه ذلك الرمز القومي . والواقع ان قلائل هم الشعراء الذين استطاعوا التعرض لفيصل ولسياسته بالانتقاد ومنهم الشاعر محمد

---

(١) ديوانه ٧٢

الفراقي الذي أخذ في تحذيره بلهجة المنذر حين أشيع أنه يزعم تسليم مدينة دير الزور إلى الانكليز (١). كما خاطبه في قصيدة أخرى بجرأة وصرامة عرف بها سكان تلك المدينة وما حولها من البادية، حيث قال (٢):

تكافنا ما لا يطاق احتماله	فليس لنا عفوا على حمله صبر
لكالموت أن تطغى علينا عصابة	مطالبهم فينا الخيانة والغدر
لئن قادنا شوق لربك حثه	عفاف وأقدام فما قادنا الأسر
إذا أنت لم تنصف بعدك بيننا	تطائر فيما بين أحقادنا الشر

فالفراقي في هذه الايات يعبر عن إرادة العرب الحرة ويأبى أن يساوم رجل على عرش له في سورية ويدفع ثمنه قطعة من وطنهم الغالي، أما التهديد والوعيد فلم يكن بوسع الشاعر أن يصدر عنها لو لم يستمد اليأس من شعبه الواعي يومذاك. ومع أن خليل مردم بك في طليعة الشعراء الذين تغنوا بالعهـد الفيصلي الوطني بدمشق بعد دحر فلول الترك منها فقد ساورتها الريب فيمن ساورتهم تجاه مسلك الملك الهاشمي وسياسته إذ توجه بقصيدته « إلى فيصل » قائلا (٣):

إلى فيصل لا يثلم الله حده	قوارص قول دونها كل مخذم
إذا بلغته أخرج الهم صدره	وقبض وجه العابس المتجهم
أفيصل إن سلمت مقدار ذرة	مياسرة من حقننا لا نسلم
نفضنا يدنا منك لا عن تباعض	وكنا بكل معك من كل محرم

و حين عوض فيصل عن عرشه في الشام عرشاً في العراق ظهر من أمره ما ظهر وتلقفه شعراء نابهون كان معروف الرصافي في رأسهم، وفي الرصافي جرأة وفي طبعه إباء. ومع اعترافنا بوجود خلاف شخصي بين الرصافي

(١) انظر ديوانه والهامش فيه ٦٥

(٢) ديوانه ١٥٣

(٣) ديوانه ٢٩

وفیصل زاد الهوة بينهما اتساعاً فلا مندوحة عن القول إن الرصافي كان مدفوعاً  
 أيضاً بنزوعه الاصيل الى التحرر؛ إذ لم يرق له هذا الحكم بعد ثورة عراقية  
 شاملة جرت فيها الدماء أنهاراً وأزهقت الارواح آلافاً . لقد نظم قصيدة جريئة في ذلك  
 الحين بعث بها الى جريدة ( الإهرام ) وقال فيها (١) :

لنا ملك وليس له رعايا	وأوطان وليس لها حدود
وأجناد وليس لهم سلاح	ومملكة وليس لها نقود
أيكفيننا من الدولات أنا	تعلق في الديار لنا البنود
وأنا بعد ذلك في افتقار	الى ما الاجنبي به يوجد
كلاب للاجانب هم ولكن	على أبناء جلدتهم أسود

ولاريب أن هذه الالهجة الحادة قد تبدو غريبة بالنسبة الى كثير مما عهدناه  
 لدى الشعراء الذين تغاضوا عن أخطاء فيصل وظلوا يعتبرونه بطل الثورة العربية  
 الكبرى ورمزاً للوطنية . ولم يكن الشاعر العراقي محمد صالح بحر العلوم ليقل  
 حدة عن الرصافي ، فهو من أشد من عرفهم العراق من الشعراء تصدياً لحكامه  
 الطواغيت ، ومن ذلك قوله يخاطب الملك فيصل أيضاً في قصيدة سماها  
 « العبودية والاعلال » (٢) :

أبأثواب الرعاة البالية	قد تعودت ارتداء السندس
أم على جانب بئر البادية	كنت تسقي عذب ماء التيمس
أنا قدمت الدماء الزاكية	فتأخرت بتاج الدنس

وإذا كان فيصل قد حرص على تحرير العرب ولجأ الى مداراة الانكليز

(١) الأهرام عدد ٢٧ نوفمبر ١٩٢٢ . ولم أعر على قصيدته هذه في ديوانه .

(٢) ديوانه ١٢

في سبيل انتزاع ما يمكن انتزاعه من الحقوق ، فان أخاه عبدالله بن الحسين أمير الأردن ثم ملكها لم يظهر مثل ذلك الحرص على مصالح العرب في علاقاته مع بريطانيا ، فقد كان أكبر عون لتلك الدولة المستعمرة في بلاده . وربما كان خير الدين الزركلي الذي اتصل به حيناً من الزمن وعرف من أمره ما عرف ، في طبيعة من تجرؤوا عليه من الشعراء ؛ فهو يعبر عن خيبة آمال الأحرار فيه بعد أن لاذوا به والتفوا حوله ومن بينهم الشاعر نفسه في أعقاب انهيار الحكم الفيصلي في دمشق واضطهاد الفرنسيين له (١) :

لا التاج ينفعه ولا استقلاله      إن لم يحل وثاقه وعقاله  
ظلموه فاستبقوا الى وكناته      فسهوله محتلة وجباله  
وطن تراحت الخطوب يبابه      وجفاه من عقدت بهم آماله

ثم يشير الزركلي في قصيدة أخرى الى مسلك عبدالله ومحاباته لليهود منذ ذلك الحين فيقول مخاطباً أباه الحسين بعد أن ندد به (٢) :

هذا وليندك في (الرقيم) يعيث في أهل الرقيم  
يجبو (يهوداً) ما حبوت وليس غيرك من ملوم  
خسر وارضى (موسى) الكليم فتاب عن موسى الكليم  
شر الممالك ما يساس سياسة البغي الوخيم  
ما في العروش على الجهالة والغباء بمستقيم

ويشتد الزركلي على ذلك الحاكم الذي باع شعبه في سبيل كرسية (٣) :

عجائب الأردن ما تنقضي      تلحق أخراها بأولها  
ما كان إلا عبد طاغوته      من حسبه (يعبد الله)

(١) ديوانه ٥٢

(٢) ديوانه ٧٢ وأصحاب الرقيم أهل الكهف وقيل كانوا في الأردن .

(٣) ديوانه ٤٨

ثم يحمل على مهزلة الاستقلال المزعوم الذي أتى به الأمير بلاده (١) :

عمان كانت أمس ، يلهفى على      آمال أمس ، المائل المرتادا  
لاذت بعد الله فانقادت وما      حسبته لاذ بغيرها فانقادا  
حمل الصفاذ لها وقال تحري      لو رام تحريراً رمى الأصفاذا  
من كان أقصى همه (شطنجه)      كانت (بيادقه) له أجنادا  
ما كان الاستقلال ما آتاهم      من لندن بل كان الاستعبادا

والى جانب الزركلى كان شاعر الاردن عبدالله وهي التل أبرز من  
تصدى الامير وحكمه الرجعي حتى لقي في سبيل ذلك السجن والتشرد والاضطهاد  
فهو يشير الى ذلك العرش وتلك البطانة بقوله (٢) :

أرأيت كيف العرش حف بربه المستزقون  
فاتته معرفة الأمين فضل معرفه الخوون  
والتاج أضيع ما يكون مؤيداً بمنافقين

وغدا التنديد بالملوك وفسادهم ديدن عدد من الشعراء الذين تحلوا  
بالاخلاص والجرأة . وقد ربط علامة العراق الشيخ محمد الحسين آل كاشف  
الغطاء بين مآرب المستعمرين وتصرفات بعض ملوك العرب وكيف كانوا أداة طبيعة  
في أيديهم لتفتيت وحدة شعوبهم فقال (٣) :

واستخدموا ملوكنا      لضربنا ولا عجب  
هم نصبوا عرشاً لهم      في كل شعب فانشعب

كما عبر أديب التقى الشاعر الدمشقي عن حنق العرب تجاه كثرة

(١) ديوانه ٦٣ ، وفي البيت الرابع إشارة الى براعة الملك عبد الله بلعبة الشطرنج

(٢) عشيات وادي الياض ١٦

(٣) انظر عبدالكريم الدجيلي : الشعر العراقي الحديث ٦٤



العروش وفساد من فوقها بحيث أصبح لزاماً على الشعوب أن تناضل بلا هوادة في  
جهتين وتقاتل عدوين لدودين (١) :

في كل يوم لنا عرش تشيده      على المطامع أيد أجنبيات  
ماذا تفيد ملوك تحتها عرش      جميعها بين أيدي القوم آلات  
إني سئمت صدى الألقاب في بلد      يكاد يعوزها ماء وأقوات

وهذا الوصف الذي يصور حالة العرب إثر الاحتلال وظهور المتزعمين فيهم  
على أشلاء بلادهم الممزقة يذكرنا بأبيات الشاعر العربي في تصوير ما آلت إليه  
الاندلس من ضعف بالغ مما أضع ذلك الفردوس :

مما يزهديني في أرض أندلس      ألقاب معتمد فيها ومعتصد  
ألقاب مملكة في غير موضعها      كالمهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد

ولعل قصيدة شاعر فلسطين عبدالكريم الكرمي في طليعة القصائد الجريئة  
التي تصدت للملوك العرب قبل النكبة ونددت بتخاذلهم تجاه الصراع الدامي بين العرب  
واليهود في الأراضي المقدسة ؛ فقد نظمها ( أبو سلمى ) إثر الانتفاضات المتلاحقة في  
فلسطين وأكثر أبياتها سار على الالسن :

أشتر على لهب القصيد      شكوى العبيد الى العبيد  
شكوى يرددها الزما      ن غداً إلى أبد الايبيد

ثم يلتفت الى الملوك ويسلقهم الواحد بعد الآخر بلسانه الحديد :

دكت عروش زينو      ها بالسلاسل والوعود  
إني لارسلها مجلـ      جلة إلى الملك السعودي  
وأبو طلال في ربا      عمان يحلم بالحدود  
أقعد فلست أخوا العلا      والمجد ، وانعم بالقعود  
واحكم على الشطر نجلي      س على الفيالق والجنود

عرج على اليمن السعيد      د وليس باليمن السعيد  
واذكر إماماً لا يزا      ل يعيش في دنيا ثمود

ثم يخاطب ملك مصر ( فاروق ) الذي اصطنع مظاهر التقى وأرسل  
لحيته ليضل بها شعبه :

دع سبحة التضييل واخذ      لمع عنك كاذبة البرود  
أحسبت أن الملك بالتب      سبيح يطلب والورود  
إيه ملوك العرب لا      كنتم ملوكا في الوجود  
قوموا اسمعوا من كل نا      حية يصيح دم الشهيد  
قوموا انظروا الوطن الذي      ح من الوريد إلى الوريد

وما من ريب في أن استفحال روح التمرد في النفوس وبلوغها لدى فئة  
من الشعراء هذا الحد الخطير إيذان بانهباء العروش الفاسدة وإطاحة الشعوب  
بحكامها الطغاة .

ويمكن القول بمد ذلك إن المحتلين حرصوا على إظهار أنفسهم بظهر  
يختلف عما كان عليه الترك أيام حكمهم للعرب ، من ذلك أنهم كانوا يطلقون  
حرية القول بمقدار عن رغبة حيناً وعن رهبة في أكثر الاحيان ، وقد  
عمدوا استكمالاً لهذه المظاهر الى اصطناع طائفة من المترجمين وإقامتهم على  
رأس حكومات ترتدي ثياب الوطنية والحرية والديمقراطية ليكونوا لهم عوناً في  
تمكين استعمارهم ، وقناعاً يسترون بهم جرائمهم ، ولم يترددوا في إعلان  
اللساتير وإقامة المجالس التمثيلية وإجراء الانتخابات النيابية إمعاناً منهم في  
حبك مهزلة الحكم .

وكان على الاحرار ورجال الفكر وحملة القلم أن يبادروا الى كشف

الزيف وإظهار الحق ، وأن يحاربوا أيضاً في جهتين ويقاوموا عدوين للدوين  
يساند أحدهما الآخر . وكانت حملة بعض الشعراء على الاذئاب وأعوان المستعمرين  
ضارية . ويجدر بنا أن نحاول رصد المدى الذي بلغه الشعراء في تجربتهم على  
الحكام في أقطار الشرق العربي ، وبخاصة في مصر والعراق حيث كان يسود  
النظام الملكي وتستتر أحابيل المستعمر وراء فئة من الحكام المحليين ، بالإضافة الى  
كثرة عدد الشعراء في هذين القطرين مما يساعد على استجلاء هذا العنصر في  
الاتجاه القومي السائد .

ونحن نجد لدى حافظ إبراهيم قصيدة رائعة ندد فيها بالاستعمار والاستبداد  
على السواء ، ولكن متى كان ذلك ؟ الواقع أنه بعد أن أُحيل الى المعاش ، وغدا  
مناً عن أسر الوظيفة ، ولم يبق لديه ما يخشى عليه ، فهو إذ يخاطب  
الانكليز بقوله (١) :

إنا جمعنا للجهاد صفوفنا سنموت أو نحيا ونحن كرام

لا يلبث أن يقول في رئيس الوزراء يومذاك ( اسماعيل صدقي ) والغبيظ  
الذي ظل كظلياً في نفسه أمداً طويلاً يتفجر صواعق على الطاغية :

ودعا عليك الله في محرابه والشيخ والقسيس والخاخام  
لاهمّ أحي ضميره ليذوقها غصصاً وتنسف نفسه الآلام

على أن أكثر ما نظمه الشعراء في هذا الموضوع لم يكن من اليسير أن  
يجري على هذا التوال . وقد مر بنا أن التنديد بمبد الحميد أو بجمال باشا وسواها  
من الطغاة لم يكن من الممكن صدوره عن النفوس إلا في منأى عن يد الظلم .  
ومن الطبيعي أن تغلي نفوس الشعراء وسائر حملة الاقلام كالمرجل دون أن تستطيع

(١) ديوانه ٢ : ١٠٥

التعبير بحرية عما يحتلج في أعماقها من مشاعر النعمة والغضب ، وقد كان التعميم في القول منفذاً تنطلق منه هذه المشاعر دون أن ترتد الى نحور أصحابها ، على نحو ما نجد للشاعر أحمد زكي أبي شادي بعد انقضاء فترة على خمود ثورة ١٩١٩ في مصر (١) :

أسفي على الناسين فرض وفائهم      يوم الوفاء لخدمة الأوطان  
القاعدين على الأرائك ضلة      الغافلين الخاسري الوجدان  
المومياء أجل في تقدننا      من هذه الاشباح والأكفان

ويعتبر محمد الأسمر في مقدمة الشعراء الذين عنوا بمعالجة أمور الحكم في مصر ، وكان يتحلى بصراحة وجرأة في شعره ، فهو يصور تلك الحكومات التي كانت تحكم بمشيئة المحتلين خير تصوير إذ يقول (٢) :

وزارات يراح بها ويفدى      فقل للحالمين بها رويدا  
دمي خزف وألواح زجاج      وإن لاحت حدائد أو أشدا  
إذا يد سانديها أغفلتها      تبدى أمرها فيما تبدى  
هوت فاذا بها متحطحات      ولولبت من الفولاذ سردا  
وكل سفينة نزلت ببحر      أطاعت موجه جزرا ومدا

فلا استعمار في رأي الأسمر هو الذي كان يمد الحكومات المصرية المتلاحقة بنسف الحياة ، فهي من دونه لا حول لها ولا قوة ، والشاعر نفسه يندد في قصيدة أخرى - نظمها قبل الحرب الاخيرة - بفوضى الحكم في مصر إذ يقول بلسان شعبه (٣) :

تروح وزارة وتجيء أخرى      ومصر تقلب النظرات حيرى  
تسيم فلا ترى إلا بروقاً      كواذب ربما أمطرن جمرأ

(١) مصريات ٢٣

(٢) ديوانه ٥٧

(٣) ديوانه ٤١

فيا وزراء مصر بكل عهد      لقد مل الرواية شعب مصر

وإذا رحنا نلتمس الجراءة في انتقاد أنظمة الحكم الفاسدة لدى شعراء العراق أدهشنا اهتمامهم الشديد بهذا الموضوع وإكثارهم من النظم فيه ، وكان الروح الثائرة المتمردة لأسلافهم الخوارج قد تجمعت فيهم . وتتجلى لنا هذه الظاهرة خلال قصائد كثيرة لجميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي ومحمد صالح بحر العلوم ومحمد مهدي الجواهري ومحمد باقر الشبيبي ومحمد رضا الشبيبي وخيري الهنداوي وغيرهم من شعراء العراق . مما ينم عن مبلغ ما كان يعانيه العراق في ظل حكمه البائدين . ويعد الرصافي بحق فارس هذا الميدان ، صدر عنه بفهم عميق ، وكان كالطود الأثيم لا ينحني أمام الطغاة ولا تلين لة تجاه المفسدين قناة وله من القصائد في هذا الشأن ما يعد وحده ثورة عاتية على أجهزة الحكم الغاشم في العراق (١) :

وإذا تسأل عما هو في بغداد كائن  
فهو حكم مشرقى الضرع غربي الملاين  
وطبي الاسم لكن إنكليزي الشناشن  
عربي اعجمي معرب الابهجة راطن  
فيه للايعاز من لندن بالأمر مكامن  
قد ملكنا كل شيء نحن في الظاهر لكن  
نحن في الباطن لا نملك تحريكك الساكن

وها هوذا نفسه يصور إحدى تلك الحكومات التي كانت أشبه شيء  
بخضراء الدمن وضعت على وجهها قناعاً وطنياً أبي الرصافي إلا أن يهتكه عنها يظهر  
حقيقة أمرها أمام الملاء ، فهو يقول بأسلوبه اللاذع المعبود (٢) :

(٢) ديوانه ٤٥١

(١) ديوانه ٤٣٨

في الكرخ من بغداد مرت بنا  
 تحتلب الناس بأوضاعها  
 قد وضعت تاجاً على رأسها  
 قال جليسي يوم مرت بنا  
 قلت له : تلك لأوطاننا  
 تحسبها حسناء من زيها  
 ظاهرها فيه لنا رحمة  
 يوماً فتاة من ذوات الحجاب  
 وكل ما يصدر منها خلاب  
 يلمع في الظاهر لمع الشهاب  
 من هذه الغادة ذات الحجاب  
 حكومة جاد بها الانتداب  
 وما سوى (جنبول) تحت الثياب  
 والويل في باطنها والعذاب

وما نغان شاعراً عربياً آخر باغ هذا المدي من التوفيق الذي بلنه الرصافي  
 في وصف إحدى هذه الحكومات الصورية ، وهو شديد الحرص على الكشف  
 عن الصلة الواشجة بين حكام العراق وبين المستعمرين بجرأة بالغة دون أن  
 تأخذه في الحق لومة لأثم . ونجده يسم وزارات العهد البائد بالخيانة السافرة في  
 أبيات أخرى منها قوله (١) :

إن الوزارة لا أباك عندنا      ثوب يفصل في معامل (لندنا)  
 لا يرتديه سوى امريء أضحى له      طبعاً وداد الانكليز وديدنا

وثمة قصيدة أخرى له أطلق عليها اسم « الوزارة المذبذبة » التي جاءت  
 لتحكم العراق بعد أحداث دامية وأزمة شديدة وهو يجري فيها على مألوف أسلوبه  
 اللاذع في تصوير الوزراء الجدد تصويراً مفعماً بالسخرية المرة وفيها يقول (٢) :

أهل بغداد أفيقوا      من من كرى هذى الفرارة  
 إن ديك الدهر قد با      ض بغداد وزارة  
 حبت للوطني ال      حر أن يهجر داره

ل بها قط وفاره	فكأن الحكيم والعد
ر على ظهر الوزراه	كم وزير هو كاللوز
يل في عجز الجماره	ووزير ملحق كالذ
ت على الحق الاغاره	أدركوا الحق فقدشه
قوم واسأل مستشاره	لا تسل عنه وزير ال
مل من غير إشاره	فوزير القوم لا يع
غير كرسي الوزراه	وهو لا يملك أمراً
بلغ الشهر سراره	يأخذ الراتب إما
د خراب أم عماره	ثم لا يعرف من به

وقد بلغ الرصافي في هذه الصور مستوى فنياً رفيعاً يجيل للقارئ معها أن الشاعر لم يترك في هذا المجال زيادة لمستزيد. وبخاصة حين يقارن الوزارة بيضة الديك إمعاناً في العجب من أمرها ، ثم تشببه الحكيم والعدل بالقط والفارة ، وجعله الوزير التابع ذنباً للحجارة - إلى آخر ذلك من الصور والتشبيهات التي كانت تجعل كل بيت من أبيات القصيدة سهماً ينطلق إلى نفوس أولئك الحكام فيصمى . « ومن الطبيعي أن يستقبل الرصافي هذا العهد بالسخط والتشاؤم ... إذ أن شاعراً من شعراء الحرية والوطنية كالرصافي إن كان يتطلع إلى انقلاب أو تغيير في الأوضاع فإن هذا الانقلاب ينبغي أن يهدف إلى استبدال الحرية بالعبودية ، والاستقلال بالاحتلال ، لا أن تنجو البلاد من احتلال لتقع بين برائن احتلال احتلال شر منه وعدو غريب لا تصله به وشيجة من وشائج العقيدة أو التاريخ » (١) ولذلك صدر عن مثل هذه الحماسة والحدة في مهاجمة الحكيم البائد آنذاك .

(١) بدوي طبانة : معروف الرصافي ١٣٢

وإذا ما انتقلنا إلى طائفة أخرى من شعراء العراق فاننا نعيش في أجواء  
مماثلة لدى شاعر عرف بجرأته البالغة على الفساد والاقطاع وهو محمد صالح بحر  
العلوم الذي بقول وقد أفدح في بيته الأول (١) :

حكومة واطأها الانتداب	فأولدت عرش العراق البليد
وقام فيها منجل الانتخاب	يحصد رأس العربي الجيـد
فاختلقت مملكة من تراب	فظن بعض أنها من حديد
وانتهت من يد الاعتصاب	ما تركت أذنان (عبد الحميد)

أما محمد باقر الشبيبي أحد العاملين في ثورة العراق الكبرى عام ١٩٢٠ فقد  
كان حرباً على المستعمرين وأذنانهم ومن مشهور قوله (٢) :

قالوا استقلت في العراق حكومة	فعمجت إذ قالوا ولم يتأكدوا
أحكومة والاستشارة ربهـا	وحكومة فيها المشاور يعبد
المستشار هو الذي شرب الطلا	فعلام يا هذا الوزير تعربد

وفي بيته الأخير طرافة محببة مفادها أن ما يوعز به المستشار ينعكس  
جلياً على الوزير ، فاذا ما شرب المستشار الحمره وجد الوزير نفسه ملزماً  
بأن يعربد .

وكما ندد الرصافي في قصائده السابقة بالاستعمار والاستبداد دون أن يرى  
فارقاً جوهرياً بينها ، نسج محمد مهدي الجواهري قصائده على هذا المنوال في تعبيره  
عن تجربة عرضت له حين أزمع السفر من العراق إلى لبنان وحالت السلطات في  
بيته وبين الزيارة (٣) :

خلت أني فررت من جو بغداد وطغيان جورها الالهـاب

(١) ديوانه ١٠٧

(٢) علي الخاقاني : شعراء الغرى

(٣) ديوانه ٢ : ١٩٠



ومن البغي والتعسف والذلل فظيماً محكماً في الرقاب  
خلت أنى نجوت من بطشة عات وخائن كذاب  
ومن الزاحفين كالود هوناً تحت رجلي مستعمر غلاب  
افيقى الاحرار مناومنكم بين سوط الدخيل والارهاب

وهكذا أبان الجواهري عن طبيعة الحكم الفاسد الذي كان في كل من  
لبنان والعراق مما يعد دليلاً على تماثل الاوضاع الداخلية في ظل الاستعمار سواء  
كان بريطانيا أم فرنسياً .

ولم يكن من المأمول أن تتغير الأمور تغيراً جوهرياً في ظل جيوش  
الاحتلال في سائر بلاد العرب ففي الأردن ذلك البلد الصغير تصدى لنظام  
الحكم عدد من الشعراء على قلتهم من نحو مانجده في أبيات لمصطفى وهي التل  
تذكرنا بقصيدة « الوزارة المذنبية » للرصافي التي مرت بنا قبل صفحات قليلة  
ومما قاله فيها (١) :

أما البلية فهي في تلك التي تدعى وزاره  
حشروا بها المختار والبغليين ثم ابن الحماره  
والله لو يبعوا بسوق الخيل ما يبعوا يباره  
يا شارين على الأذى والصابرين على المراره  
حتام لا تتململون فلا يقال هم الحجاره  
الناس من لو أرهقوا ، شنوا على الارهاق غاره  
« العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الاشاره »

فالشاعر الذي عاش حياة بوهيمية مضطربة كان يندفع ثأراً على وضع  
بلادته المؤسف ، ولا يتردد من أجل ذلك في أن يقذع في القول دون أن يحسب  
حساباً لنفي أو لسجن .

---

(١) عرار : البدوي المثلث ٢٠٩ .

ومما سبق من استعراض مواقف الشعراء تجاه حكاهم نلاحظ أن مصر لم تحظ بطائفة من الشعراء الذين عرفوا بالجرأة كما كان الشأن في العراق ، ولم يقيض لها شاعر من هذا الطراز الذي وجدناه في الرصافي . فقد ابتعدت طائفة من الشعراء عن مثل هذه الموضوعات كما كان الشأن في أكثر شعراء مدرسة ( أبولو ) كما أن شوقي وحافظ وسواهما كانوا يؤثرون الاعتدال في أكثر مواقفهم ولم يصدروا عن مثل ذلك الالتزام في الرأي والحجة في القول على النحو الذي وجدناه لدى شعراء العراق بصورة عامة .

## ٤

وأما البرلمانات الصورية والانتخابات التمثيلية المزيفة التي كان المفوضون السامون أو المعتمدون الأجانب حريصين على إقامتها ، وإلهاء الشعب بما يجري فيها من مبهاترات ، فقد لقيت نقداً لاذعاً من الشعراء كان جزءاً من حملتهم الشاملة على أجهزة الحكم الفاسدة ومظاهر السيادة الكاذبة . وعندما تخضت مداورات الانكليز ومؤامراتهم عن إقامة أول برلمان في مصر عام ١٩٢٤ انبرى نفر من الشعراء لإعلان سحقهم على يوم افتتاحه والتشديد بأعضائه . وكان في مقدمتهم أحمد محرم الذي يمكن اعتباره من معارضي الحكم القائم آنذاك بزعامة سعد زغلول ، ومما قاله يومئذ (١) :

يقولون نواب ودار نيابة	وملك ودستور من الحق واضح
وحكام عدل شائع ووزارة	هي الشعب أو روح من الشعب صالح
وساوس أقوام مهادير ملهم	من الرأي هاد أو من اللب ناصح
أسائل نفسي وهي ولهي من الأسى	أرائك ملك ما أرى أم مذابح

ومن أشد ما نظمته محمد الأسمر على النواب في مصر قوله في الأبيات التالية

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٣٩٦ عن ديوان مخطوط للشاعر .

يُخاطبهم على نحو طريف وغريب معاً (١) :

حطموا الأغلال عن أمنكم      وازأروا بالحق فيمن زأرا  
لا تموتوا هرة محبوسة      بل أسوداً غاضبات للشرى  
واخلعوا الأرسان لستم حمراً      واطرحوا النير فليستم بقرا

فهو فيما يبدو يحاول أن يهز بعنف ضمائر أولئك النواب الذين لا يعرفون من اجتماعاتهم سوى رفع الأصبع وهز الرأس دون أن ينسوا بيذت شفة ، وهو يعجب من قبولهم عن طيب خاطر تلك الأرسان والانيار شأنهم شأن الحجر أو البقر ... والشاعر مولع بهذا النمط من الصور التي تعتمد على تشبيه البشر بصفات من عالم الحيوان ، وبالإضافة إلى ذكره في المقطوعة السابقة الهرة المحبوسة والاسود الغاضبة والحجر والبقر ، ينحو هذا النحو أيضاً في قصيدة أخرى عنوانها « قبل الحكم وبعده » إذ يشبه فيها أولئك النواب أو الحكام بطائفة من الحيوانات ويشير إلى أنهم يملئون الدنيا جمعمة ثم يصابون بعد أن يبلغوا قاعة المجلس بالبكم (٢) :

ألا ما لبعض الناس أصبح (باقلا)      وقد كان قبل اليوم (سجبان وائل)  
أيسمعنا زأر الاسود وينثنى      فيفعل فعل الصاهلات الجوافل  
أقلب طر في حيث كنت فلا أرى      سوى قنفذ أو ذئب ليل مخاتل

ويصور عبدالكريم الدجيلي مدى ضعف النائب في برلمان العراق الذي وضعه في أعين الشعب رفع لانكليز له (٣) :

أيها النائب لا تح      فل بمن قال وقيدلا  
قد هز زناك حساما      فوجدناك كليلا  
وسبرناك عميلا      فوجدناك أصيلا

(١) ديوانه ٣٧

(٢) ديوانه ١٢١ ؛ وياقل مضرب المثل بالعي ؛ وسجبان من أفصح العرب في الجاهلية

(٣) عبدالكريم الدجيلي : الشعر العراقي الحديث عن ديوان له مخطوط ١١٧ .

أما أحمد الصافي النجفي فهو يعرض لنا بحوار رشيق مسئلة تلك المجالس  
النيابية في نفوس الشعب فيقول (١) :

قال لي صاحبي هلم الى  
قلت بالامس زرتهم وفؤادي  
قال كرر له الرواح لتلقن  
قلت هيئات لا أعود فحسي  
المجلس فاليوم أعظم الجلسات  
مفعم منه في أذى الذكريات  
لك سلوى عن هذه الازمات  
رؤية الموت مرة في حياتي

والحق إن هذا التأفف من مهازل الحكم كان على كل لسان في الشرق  
العربي ، فقد كانت الانتخابات في راس تلك المهازل ، تقيم البلاد وتقدمها ثم  
تتمحض بعد ذلك عن :

تمايل ينحتها الانتداب وتعرض في قاعة المجلس  
كما يقول محمد علي اليعقوبي (٢) . أو كما يقول ناجي القسطيني ساخرأ (٣) :

قلنا لكم ألف مرة الانتخابات حرة  
ويشير أديب حلب قسطاكي الحمصي الى أولئك النواب في سورية الذين  
كانوا يتصدرون قاعة المجلس تحت حراب الفرنسيين فيقول (٤) :

نوابنا نواب كلهم على لحي منتخبهم قضوا  
ثمة ميزانية ليس من تصديقها بد أبوا أو رضوا

على أن أبيات خليل مردم تبقى من أطرف ما وصفت به هيئة أولئك  
النواب من الذلة والمسكنة وهم في طريقهم الى تسلم مقاعدهم في قاعة المجلس (٥) :

---

(١) الهواجس ١٣٢ (٢) ديوانه ٧٠

(٣) عبدالكريم الدجيلي : الشعر العراقي الحديث ١٨

(٤) ديوانه ١١٥ (٥) ديوانه ١١٥

البرلمان وهزل أُنَّاك حديثه  
 نقولوا اليه ناكسين رؤوسهم  
 ملك الحياء عليهم أبصارهم  
 عكفت زواياه على أُنَّامهم  
 وحديث من فيه من النوم  
 نقل الجبان لساحة الأعدام  
 فعيونهم بمواطيء الأقدام  
 من لي براهيم للأُنَّام

أما شعراء المهجر الذين اتسح لهم في مغتربهم من حرية القول ما لم يتسح  
 لاخوانهم في مواطنهم من انتماد وتنديد بأحوال البلاد السياسية فلا نجد لهم في  
 هذا الموضوع إلا اليسير نظراً لطابعه المحلي ، على خلاف ما كان الامر لديهم تجاه  
 الاستعمار ، وثمة أبيات للشاعر القروي نظمها في مجلس نيابي اصطنعه الفرنسيون  
 وزوروا فيه إرادة شعب لبنان يقول فيها (١) :

وطن تحيرت العبيد لذه  
 جاد المفوض بالعليق فمحموا  
 لا تسلقوهم باللام فانهم  
 في كل كرسي تسند نائب  
 وأذل منه رئيسه والمجلس  
 وثى عليهم بالشكيم فألسوا  
 جلسوا وهل نخبوا الكيلا يجلسوا  
 متكف أعمى أصم أخرس

ونما يؤكد تجاوز جماهير الشعب مع أمثال هذه القصائد وأنها تنطق  
 بلسانهم وتعبّر عن مكنون أنفسهم أن هذه الايات ، وسواها للقروي ،  
 كانت تصل في رسائل خصوصية لبعض أصدقائه في بيروت ، وهؤلاء  
 يطعمونها سرّاً في نشرات ثم يذمونها الى باعة الصحف لكي يبيعوها في غفلة  
 من رجال الشرطة (٢) :

## ٥

على أن الوعي المتنامي في نفوس الشعراء وفهمهم القومي الصحيح  
 المتزايد وبخاصة في أعقاب الثورات القومية التي قامت بها شعوبهم وأخضعها

(١) ديوانه ٣٠٥

(١١) انظر جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر ٣٤١

المستعمرون بعد ذلك ، جعلهم يركزون حملتهم بشدة على الطبقة الجديدة الحاكمة التي اصطنعها المستعمرون من أهل البلاد تمويهاً للحقائق وتجنباً لغضب الشعوب . واستقر في النفوس بنتيجة ذلك أنه لولا الذين يمكنون للاستعمار في وطنهم ويكونون له عوناً على قومهم لكان بوسع الأمة أن تتجه بقوتها كاملة الى المحتلّين وتتخلص منهم . وقد فطنت طائفة من أولئك الشعراء الى الصلة الوثقى بين المستبدين والمستعمرين ، والى التلازم بين فساد الحكم والاحتلال حتى كأنها طرفان في عصا أو وجهان لقطعة من النقود .

وهذا الشاعر القروي يشير بحساسة الدور الذي قام به بعض المترجمين في لبنان حين يسروا على جيوش فرنسة أمر احتلال بلادهم أثناء الحرب العالمية الاولى فراح يخاطبهم بقوله (١) :

ويا ناعمين بذل القيود      ويا سادة في هوان العبيد  
أمن أجل تقيل رجل العميد      وبري الذقون لفرط السجود  
غدرتم بشعب وبعتم وطن

وحين اقتطع الفرنسيون جزءاً من سورية وهولاء الاسكندرون وقدموة لقمة سائمة الى تركيا ، أعلن الشعب غضبته على الاحتلال ودولة الانتداب ، وقل من فطن يومذاك الى تهاون الزعماء في تلك القضية وتقصيرهم في كشف ما كان يدبر في الخفاء ، ومع هذا نرى شاعر العاصي عمر يحمي يتجه بشدة الى لوم هؤلاء الحكام (٢) :

بكوا فقد اللواء لنا رياء      وهم طعنوا البلاد وضيعوه  
أضاعوه لكي تبقى الكراسي      فيالدم يضيعه ذووه  
فصفق الرئيس ولا تعارض      وإن ينطق فقل : لافض فوه

(١) ديوانه ٢٩٥

(٢) صبري الأشتر : المختار من الشعر في سورية ٢٦

وقد ثما علي الحندي هذا النحو إذ وجد أن علة الشرق المزمته حمق  
سياسته وأنه لا لوم على الذئب إن وجد الرعاة أنفسهم لاهين عن أرضهم (١) :

زمانة الشرق حمق ساسته      وأعيت الطب آفة الزمن  
لا تلم الليث إن رأى إبلا      رعاته غارقون في الوسن  
فأعمل الناب في فرائسه      أحق باللوم حارس الوطن

ومن هذا القبيل ما نظمه خيرى الهنداوي الشاعر العراقي حين ألقى  
القوم في سوء حالة البلاد على الحكام الفاسدين قبل أن يلقيه على المحتلين فقال  
يخاطب الشعب (٢) :

ما الغرب أول ظالم لك بالذي      يأتيه بل أبناءك الظلام  
قد أهملوك وأنت معقل عزهم      فاستهوتك بوطنه الاقدام  
وكما قال عمر أبو ريشه :

لا يلام الذئب في عدوانه      إن يك الراعي عدو الغنم  
ورأى عمر بهاء الاميري أن أصل الداء يكن في هذه الطائفة المترعمه  
وكانه يدعو الى محققها (٣) :

ضل شعب يسوسه غير كفاء      ويقود المنافقون زمامه  
كيف تحيا البلاد والحكم فوضى      ورءوس البلاد صرعى زعامه

ومع كل ما وجدناه من سوء الظن في قادة العرب السابقين ، فإن إيمان  
الشعراء بالشعب كان وطيداً ، فحين يزهي عمر أبو ريشة بأبجاد العرب يناجي خالد  
بن الوليد بقوله (٢) :

قم تلفت تر الجنود كما كا      نوا منار الاباء والعنقوان  
ما تخلوا عن الجهاد ولكن      قادهم كل خائن وجبان

(١) أغاريد السحر ٩٧ (٢) رفاثيل بطي : الأدب العصري في العراق ١٧٣

(٣) من : « رجال و اشباه » ديوان مخطوط للشاعر (٤) ديوانه ٢٣١

فالخير في نظر الشاعر ما زال موجوداً في الآخرين كما كان في الأوائل .

ولم يكن ثمة مفر أمام الأقلام الحرة من أن تشتد على هذه الطبقة الحاكمة الجديدة التي عمل المستعمر على خلقها ودعمها . فقد استفحل أمر الحكام الذين كانوا حرباً على قومهم وشوماً على وطنهم ، وأخذ الجيل المتحفز يرى في مثل هؤلاء خطراً كبيراً على قضية البلاد ، وينسب إليهم كثيراً مما يحمق بالوطن من نكبات ، وقد تجلّى هذا الشعور الحاد لدى فئة من الشعراء الشبان كان منهم وجيه البارودي الذي يعبر عما يجيش في صدور الشاميين من حقد على تلك الزمرة المتواطئة مع الأجنبي (١) :

يقولون هذا أمير البلاد	جميع العباد له خاضعون
أراه ومن حوله في النعيم	يروغ العدو وهم غافلون
تجوع البلاد وهم متحمون	ويكي الفقير وهم يضحكون
هم الناكثون هم الخائنون	هم الآثون هم المجرمون
وكل جرى أتى مخلصاً	يناضل حامت عليه الظنون

ولا ريب أن هذه الأبيات زفرة حرّى من نفوس الشبان الثائرين الذين كان يحز في نفوسهم أن تحتكر الوطنية طائفة من محترفي السياسة وتحرص على إبعاد كل مخلص وشريف عن دفة الحكم .

والحق أن الزعامة المخلصة والقيادة الحكيمة كانت في الشرق العربي أندر من الكبريت الأحمر ، حتى غدا كثير من المقالات والخطب يحرص على ذكر صفة الاخلاص الى جانب أسماء الساسة إمعاناً في تقييدهم . والى هذه الظاهرة المتفشية في ظل الاحتلال يشير فؤاد الخطيب بقوله (٢) :

يقال زعيم ثم ينعت مخلصاً	فهل أصبح الاخلاص إحدى العجائب
وهل ندرت تلك السجيه أوعفت	فتذكر في التاريخ ضربة لازب

(٢) ديوانه ٦١٨

(١) بيني وبين الغواني ١٨



وهكذا بدا واضحاً للطليعة الواعية في بلاد العرب أن النكبات التي تحل  
بأمتهم لا يمكن أن تكون جميعاً من صنع الاستعمار بمفرده . إذ كان لأعدائه دور  
فعال في إنجاح خططهم وتنفيذ مآربهم ولذلك فطن أكثر من عرفنا من الشعراء  
في أثناء البحث الى هذا الشر المزدوج .

## ٦

والواقع أن اتجاهاً جديداً أخذ يظهر بصورة متنامية في الشعر الحديث في  
فترة متأخرة نسبياً ، حين أخذت طائفة من الشعراء الشبان تتوجه بالوم الى  
الشعب نفسه مصدر القوة ، وتخصر فيه بصراحة وجرأة تبعات فساد الحكم الذي  
ضرب أطنابه في بلاد العرب طويلاً ، وكان الشعراء يؤمنون بالقول المأثور « كما  
تكونوا يولى عليكم » . ولعل من أسبق الشعراء الى هذا الاتجاه خليل مطران في  
مطولته ( نيرون ) ، ففي أبياتها تنديد غير مباشر بحكم الفرد وتقرير للشعب الذي  
حمله الى سدة الحكم من ذلك قوله (١) :

هو بالسبة من نيرون أخرى	ذلك الشعب الذي آتاه نصراً
وجثوا بين يديه فاشمخرا	قزمة هم نصبوه عالياً
صار طاعوناً عليهم أو أضرا	منحوه من قواهم ما به
لم يخف بطش الألى ولوه أمرا	إنما يبطش ذو الأمر إذا
أمة لو كهبرته ارتد كهرا	من يلم نيرون إنى لأئم
قيصر قيل له أم قيل كسرى	كل قوم خالقو نيروهم

فهذه الايات الرائعة لمطران تنطوي على روح ثورية متمردة ، وكأنها  
تحض الشعب على الانتفاض على الطغاة لأنه هو الذي مكثهم منه حين رفعهم وهو  
وحده القادر على الاطاحة بهم .

(١) ديوانه ٣ : ٥٠ . القاها في بيروت ١٩٢٤

غير أن الصراحة كانت طابع أكثر ما نظمه الشعراء في هذا الصدد ،  
إذ أخذوا يصدعون بالحق ويجنحون للأسلوب المباشر بعد أن لم يعد التلميح مجدياً .  
وأكثر هؤلاء الشعراء كانوا من الشبان الذين قبيض لهم أن يعيشوا في غمرة  
الاحداث ويكونوا من طلائع الجيل العربي الثائر من نحو إبراهيم طوقان الذي  
يقول في هذا الصدد (١) :

فالى متى يا ابن البلاد وأنت تؤخذ بالسياسة  
والى متى زعماء قومك يخلبونك بالكياسة  
ولكم احطنا خائناً منهم بهالات القداسة  
ولكم اضاع حقوقنا الرجل الموكل بالحراسة  
والله ليس هناك إلا كل قناص الرئاسة

ويعبر عباس محمود العقاد عن هذه الحقيقة المؤلمة حين جعل نفسه أحد من  
تقع عليهم تبعات الحكم الفاسد وكأنه لمن بذلك لافراد الامة قاطبة (٢) :

وقد أسأمتنا رعاة تساق      فأين الرعاة وأين الغنم  
فماذا أقول لهذا الجبين      وما عابه عائب أو وصم  
ومماذا أقول لهذي اليمين      وإنى بها قد صنعت الصنم

وقد نحا أحمد زكي أبو شادي هذا النحو أيضاً إذ قال (٣) :

شكوت كما تشكون من زعمائنا      وقد كثروا لكن مآثرهم قلت  
فهل اشكونا من تهاون أمة      وهل هي خافت في المعارك أم ملت  
أينتقد القواد والجند محجهم      عن الحرب أم هذى موازيننا اختلت

(٢) عابر سبيل ٧٣

(١) ديونه ٥٧

(٣) فوق العباب ٦

وينتقد مسعود سماحة من مهجره القصى خضوع قومه لتلك الفئة الباغية  
من الحكام وينكر عليهم خنوعهم وذلك إثر زيارته للشام حيث قال (١) :

مشت القرون وكل شعب قد مشى      معها وقومك واقفون ونوم  
يعنون عن صغر لكل زعامة      الموت تحت السوط منها أرحم  
لم ترتفع كف لصفعة غاشم      فيهم ولم ينطق بتهديد فم

وكذلك يليق عمر بهاء الدين الاميري اللوم على الامة في أنها لم تأخذ على  
أيدي حكامها ولهذا استبدوا بها (١) :

لا تلوموا غير كفاء      وسد الامر إليه  
لا أرى في الناس من يطو      ي عن الغم يديه

ولعل عمر أبا ريشة الذي عرف بجرأته في الحق وفي مواجهته واقع الامة  
من أبرز الشعراء الذين ساروا في هذا الاتجاه ، وأبياته التالية في هذا الشأن من  
أجمل الشعر ، فهو يخاطب الشعب الذي يتن تحت وطأة الخيانة والتآمر بعبارات  
مريرة تلتهم بروح الثورة (٣) :

يا شعب لا تشك الأداة ولا تطل فيها نواحك  
لو لم تكن بيديك مجروحاً لضمدنا جراحك  
أنت انتقيت رجال أمرك وارتقت بهم صلاحك  
فاذا بهم يرخون فوق خسيس دنياهم وشاحك  
أيسيل صدرك من جراحتهم وتعطيهم سلاحك

وبهذه الروح استطاع الشعر أن يخوض المعركة ضد من باعوا أنفسهم

(١) ديوانه ٢٠

(٢) « في بلادي ديوان مخطوط للشاعر

(٣) ديوانه ٢٤٧

للإجنبي واتبعوا شهواتهم . وليس ما مر بنا من أشعار في الواقع سوى غمط جديد  
من الشعر فجرته المآسي التي عاناها العرب في ظل حكامهم .



ومما سبق يتبين لنا أن أكثر من عالجوا موضوع الاستبداد وفساد الحكم  
من الشعراء كانوا في مصر والعراق والأردن ، وذلك تبعاً لوجود النظام الملكي في  
هذه البلاد وما كان يستتبعه من بطانة فاسدة في الغالب ، إذ أن قصر مهمة حكم  
البلاد وتصريف شؤونها على ملك واحد مدى الحياة وإبقاء هذا الحق في أسرته  
الحاكمة كان يساعد على استفحال الفساد وسريانه بالتالي إلى سائر أجهزة الحكم .  
بالإضافة إلى أن أكثر هؤلاء الملوك إنما جلسوا على عروش أقمها لهم المستعمر ،  
وطبيعي أن يكونوا مدينين لهم بها ، وأن يدفعوا لهم الثمن من كرامتهم  
وحرية شعبيهم .

ومن جهة أخرى فإننا نلاحظ قلة ما نظمه شعراء المهجر في هذا الموضوع  
على الرغم من اهتمام طائفة كبيرة منهم بمعالجة الشعر القومي بصورة عامه . ولعل  
ذلك يرجع إلى اعتمادهم عن العيش في غمرة الجو الداخلي ، وعن رائحة الفساد  
فيه ، يضاف إلى هذا السبب قلة احتفال الصحف عادة بنشر أنباء الأحداث المحلية  
وتفصيلاتها ، بالنسبة إلى ما كانت عليه من اهتمامها بالقضايا الباشرة ذات الطابع  
الخارجي والتي تنطوي على أصداء عنيفة . ومن هنا كانت حملة المهجريين على  
الاحتلال تستأثر بمعظم اهتمامهم .

والواقع أن أساليب الشعراء لم تكن تجري دائماً على النمط الذي رأيناه  
فيما مر بنا من قصائد ومقطوعات ، ولا ريب أن كثيرين من الشعراء اضطروا إلى  
التزام الصمت إشاراً لسلامتهم من بطش الطغاة وبخاصة في بعض الفترات الحرجة  
كفترة الحرب العالمية الأولى التي عاش العرب خلالها في ظل الأحكام  
العرفية سواء في مصر أو في العراق حتي « إن أحداً من الشعراء

( خارج الحجاز ) لم يجروا على أن يندب أحرار العرب الذين شنقهم جمال باشا إلا بعد جلاء الترك عن بلادهم » (١) وكثيرون هم الشعراء الذين كبحوا جماح قرائحهم في فترات أخرى .

ومع أن الشعراء ذوي الطابع الرومانسي الذين نبه شأنهم في السنوات العشر التي أعقبت الحرب الأولى عرفوا بعزوفهم عن تناول موضوعات اجتماعية وقومية محددة فانهم عبروا بشكل غير مباشر عن سخطهم على أحوال مجتمعهم ، وكثيراً ما كان هذا التعبير سلبياً ؛ فالرومانسي ذو النفس القلقة ينجح أبدأ للفرار من واقعه ويهاجر بخياله الى أجواء جديدة يحلم بها ، فاما أن يلوذ بالطبيعة ينشد في رحابها العزاء وإما أن يسكن الى ماضي ينعم فيه بالسوان . وكم وجدنا من الشعراء من يجمعهم دون أن يفصح ويناجي عندليباً أو غزالاً يئته ما بنفسه من سخط على السلطان واستنكار للجور . وقد كان الرومانسيون في الغرب « يشتدون في سخطهم واستنكارهم بمثل السلطان في مجتمعهم من ملوك وقسس وحكام وقضاة . وطالما هاجموا الكنيسة الكاثوليكية في تدخلها المعوق للحرية ، (٢) ومن قبل نادى روسو رائد الرومانسيين في كتاب العقد الاجتماعي بالارادة العامة ليقضي على سلطان الملك . كما عرف سائر الرومانسيين ببغضهم للملوك والظلمة وكان هو جو يسميهم ضبعاً وخنازير وغموراً . (٣)

والحرية في جميع مجاليها - في المجتمع وفي السياسة وفي الفن - قوام الرومانسية ومن هنا لم يكن الشعراء والكتاب الذين صدروا عنها على وفاق مع السلطات الحاكمة في مجتمعاتهم ، فقد كان ديدنهم السخط والنقمة أبدأ . وما من من ريب في أنه كان لرواد الحركة الرومانسية الغربية وبخاصة أدباء الثورة

(١) أنيس المقدسي : العواطف القومية في الادب العربي الحديث ، محاضرات مخطوطة

(٢) محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ١٠٨

(٣) انظر المرجع السابق ١٠٩

الفرنسية تأثير في نزوع أدبنا الحديث نحو التحرر ، كما كان لرواد النهضة العربية مثل عبدالرحمن الكواكبي وأديب إسحق وجمال الدين الأفغاني تأثير مباشر وفعال في إيجاد هذا النزاع الثوري لدى شعرائنا الذاتيين . وكان ضغط الحكام على حرية الفكر والتعبير من أشد البواعث على اشتداد المنازع الرومانسية في أدبنا الحديث.

وثمة طائفة من الشعراء احتالت للامر فلبجأت الى تنكير عواطفها وتقويه مقاصدها في اساليب غير مباشرة أقرب الى الرمز أو الطابع القصصي ، على نحو ما مر بنا في أبيات الشاعر خليل مطران المستمدة من مطبوعته « نرون » إذ اختار القصص التاريخي أو الخيالي وسيلة لتبني الحرية والبطولة والتمرد على الظلم وإظهار قحة الاستبداد » (١)

كما نجد لجميل صدقي الزهاوي قصيدة مشابهة اسمها « ثورة في الجحيم » نظمها في استبداد الحكام وندد بهم خلالها تنديداً غير مباشر ، وهي أشبه بملحمة وبلغت أبياتها ( ٤٣٥ ) بيتاً . وقد أجرى على ألسنة الفلاسفة والشعراء والكتّاب الذين كانوا في الجحيم عبارات الثورة والتبرم والسخط تجاه ما يلقون من معاملة ..

على أن أكثر ما مر بنا خلال هذا الفصل من أشعار اتخذ التعبير المباشر وسيلة الى طرق هذا الموضوع ، وكانت سمة الوضوح والصرامة بارزة فيه . ومع ذلك فإن شطراً كبيراً من تلك الأشعار تعتمد فيه أصحابه إغفال الاسماء والوقائع وجنحوا للتعميم وعدم الاشارة الى حدود الزمان والمكان والمناسبة أو إلقاء ضوء على الملابسات التي دعت الشاعر الى بث أفكاره في قصيدته . وربما كان ذلك منهم ابتعاداً عن سطحية الحياة اليومية وإشراكاً لشمول الفكرة ، وتجنباً لما يلحقه التخصيص في القصيدة من أذى بالشاعر .

---

(١) الدكتور محمد مندور : خليل مطران ٢٤

كل ذلك يشير الى أن الشاعر العربي لم يكن بوسعه دائماً أن يتكلم بجلء  
إرادته ويمبر بانطلاق عن كل مايعن له . فقد كانت حرية الفكر في الشرق العربي  
عرضة لمحن شتى في كل حين .

وجملة القول إن هذا الشعور الحاد الذي غمر جماهير العرب في شتى أقطارهم  
تجاه الطغيان والاستبداد وفساد الحكم وسوء الادارة ، وتجلى بقوة على السنة  
شعرائها لم يكن إلا إيذاناً بالانتفاضة الحاسمة في سبيل التحرر من الاستعمار رأس  
الافعى ، وتطهير الوطن من رجسه وبقاياها من المرتزقة وأصنام السياسة وعبيد  
الكرسي .

وكما أيقن الشعراء من انبثاق فجر التحرر من الاستعمار فقد آمنوا باقتراب  
أجل الاستبداد وفوضى الحكم وتفاءلوا بالحرية والازدهار في أحلك عهودالظلام  
وكانهم قد عبروا على لسان الجواهري عن الثقة بمستقبل العرب والاطمئنان اليه  
حين قال (١) :

لا بد أن يثب الزمان وينثي      حكم الطفلة مقلم الاظفار  
والنصر أبدا للشعوب .

---

(١) ديوانه ١٢٠

## الفصل الثاني

# استنهاض الهمم والحض على الثورة

١

لعل من أبرز ظواهر الادب الحديث انسامه بالواقعية والالتزام . فقد أخذ الاديب العربي منذ انبثاق فجر النهضة الحديثة يحس بأن ثمة ما يربطه وأدبه بمجتمعه القلق المتحفز ، وما زال هذا الاحساس يعمق ويقوى حتى آل آخر الامر الى شعور واع في نفس الاديب بأن أدبه جزء من مجموع النشاط الفكري لمجتمعه ، وأنه ليس بوسعه أن يكون بمعزل عما يحيق بقومه ويهدد كيان وطنه ، وبذلك غدا الاديب مسؤولاً تجاه أمته يعبر عن نوازعها ، ويتجاوب مع أحداثها . ولم يكن ازدهار الشعر القومي في هذا العصر إلا نتيجة لايمان الشعراء العرب برسالتهم نحو أمتهم و يقينهم بأن لها عليهم حقا .

ومن هنا حمل كثير من الشعراء تبعات هذه الرسالة ، وكان إيقاظ الغافلين وتنبيه النيام ، واستنهاض الهمم والحض على الثورة من أبرز موضوعات الشعر القومي الحديث .



وإذا كان الشاعر العربي قد صدر في شعره عن هذا الاتجاه منذ العصر الجاهلي في استنفار قبيلته من أجل الحفاظ على شرفها والذود عن حياضها فان الشاعر اليوم أخذ يؤثر السير في هذا الطريق من جديد ، وقد كان الشيخ إبراهيم اليازجي رائد الشعراء المعاصرين في قصائده المشهورة (١) التي كانت الصيحة المدوية في آذان العرب .

لكن الارهاب الحميدي من جهة وضعف الوعي القومي في نفوس شعراء القرن الماضي من جهة أخرى ، وسم كثيراً من الأشعار آنذاك بطابع التزلف والولاء .

وما إن هبت على العرب نسائم الحرية إثر إعلان الدستور العثماني حتى عادت الثقة الى نفوسهم وبدوا وكأنهم وجدوا ذاتهم من جديد بعد أن افتقدوها قروناً .

إلا أن محاولة الترك الاستئثار بالحكم وأساليبهم الجائرة ، أثارت حفيظة أحرار العرب فأخذوا يعلنون على ألسنة فئمة من كتابهم وشعرائهم تدميرهم وسخطهم ، ويهيمون بقومهم الى النهوض في سبيل انتزاع حقوقهم ، وصون لغتهم ووطنهم وقوميتهم .

وكانت مهمة الشعر شاقة ، لأن شرطاً كبيراً من العرب لم يكن آنذاك ليتقبل فكرة التصدي للترك بله الثورة عليهم ، إذ كانت الرابطة العثمانية ما تزال تلقي تأييدهم ، كما كانت الجامعة الاسلامية تحظى باحترام كبير . وغدا تبعاً لذلك من العسير استبدال الرابطة القومية بهذه المشاعر . يضاف الى ذلك عامل هام حال بين الشعراء وبين النظم في المضمار ، ذلك هو سطوة النظام الاستبدادي الذي كتب

---

(١) انظر « بواكير الشعر القومي » في مدخل هذا الكتاب

على اولئك الشعراء ان يعيشوا في ظلّه البغيض مع شعوبهم المقهورة . ومن هنا كان مجال القول رحيماً أمام شعراء المهجر الذين كانوا في نجوة من الاحكام العرفية التي أناخت بكلكلها على قومهم . بالاضافة الى الآفاق الجديدة المتحررة التي عاشوا في اجوائها في بيئتهم المفتوحة الجديدة . وكثير منهم كان في شعره ينطوي على الثورة والتمرد تجاه الحكم العثماني وأساليبه البالية . ومما قوى هذا الاتجاه لديهم كون الكثيرين منهم من المسيحيين الذين وجدوا في خضوع قومهم وبخاصة في لبنان لسلطة دولة تغايرهم في العقيدة وفي القومية أمراً شاذاً وغريباً لا يجوز السكوت عنه . وكان جورج عساف من رواد هذه الطائفة الثائرة وقد أطلق صرخته المدوية في قصيدة له يحض فيها على الثورة ويقول (١) :

جف المداد فك أنادي أمة      معصوبة العينين كالعريان  
هبوا فقد طالت ليالي بؤسكم      والشمس مشرقة على الاكوان  
لولا تجاذلكم لما بتم بلا      عز ولا ملك ولا سلطان

وفي مقدمة الاصوات التي ارتفعت في المهاجر أيضاً صوت أبي الفضل الوليد وإيليا أبي ماضي وقد أكثرا من القول في هذا الموضوع وكان الوليد عنيفاً في ثورته حين دعا الى امتشاق الحسام ضد الترك وانتزاع الحقوق منهم في انتفاضة قومية عاصفة (٢) :

هبوا بني أمي وصيحوا صيحة      يصحو العراق لها ويصحو الشام  
والله لا عدل ولا حرية      حتى يجرد بيننا الصمصام  
كونوا أسوداً فالذئاب عداتنا      حتام أتم عندهم أغنام

(١) انظر جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية ١٢٧

(٢) الأنفاس الملهبة ٣٨

وقفوا نمزق بالسيوف حجابهم      حثام تُعبد عندنا الأصنام  
ما حرر الاقوام إلا ثورة      فيها تعانقت الطيبي والمهام

وأبو ماضي كان حديث عهد بالهجرة الى العالم الجديد وما يزال قلبه رهين  
وطنه ، فهو يتشوف الامل من خلال الحرب الكبرى ، ويحث قومه على الانتفاض  
في وجه الترك وقد عيل صبره (١) :

يا لقومي بلغ السيل الزبي      واستطال البغي واستشرى الفساد  
كتب السيف، اقرأوا ما كتبنا      لا ينال المجد إلا بالجهاد

وقد أرادها أبو ماضي ثورة قومية حاسمة على غرار ثورات شعوب البلقان  
التي لم يكن كثير من الترك والعرب يرون فيها سوى حركات هدامة وغير مشروعة.  
وكان مما قاله آنئذ مناشداً قومه الثورة (٢) :

لو تعقلون عملتم لخلاصكم      من دولة القينات والخصيان  
ثوروا عليهم واطلبوا الاستقلالكم      وتشبهوا بالصرب واليونان

ومع أن معروف الرصافي كان من دعاة الجامعة الاسلامية الحريصين على  
إدامة عرى الاخاء والمودة بين الترك والعرب ، والابقاء على الدولة العثمانية عزيزة  
الجانب تجاه مطامع الغرب ، فهو لم يجد بداً من التحول عن موقفه الى التنديد بهم  
وزرع بذور الثورة في نفوس العراقيين وسائر العرب ضدهم ، فقد نفذ يديه  
من عودة غلاة الترك من جماعة الاتحاديين عن مسلكهم ، ولم يكن وحيداً في  
هذا التحول وإنما شاركه فيه كثيرون من شعراء الشام والعراق ، منهم جميل

(١) زهير ميرزا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر ١٥٦

(٢) المصدر السابق ١٩٣

صدقي الزهاوي وفؤاد الخطيب وعبد الرحمن الراجعي وأمين ناصر الدين وسواهم .  
وكا كان الرصافي يحرص قومه ضد الطغيان الحميدي ويعمل على الاطاحة به تراه  
يستأنف القول في أولئك المستبدين الجدد (١) :

كأنا لهم شاء فهم يجلبونا      وكم مخضوا أوطاننا مخضه الزق  
سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا      وشيب وشبان على ضمير بلق

وانطلق في الشام صوت الشيخ عبد الحميد الراجعي الذي انقلب على  
الترك أيضاً فقال يحث قومه على النهوض ومستلهماً عنفوان المتنبي :

لا تصلح الدنيا ولا ناسها      ما لم يل الأقوام أجناسها  
هبوا بني العرب لإلام الكرى      وقد دهى الآمال دهاسها

وكان ثمة شاعر شاب التزم في حياته وفي شعره النضال من أجل  
تحرير قومه من البطش والاستبداد ذلك هو الشهيد عمر حمد ، ومما قاله مستنفرأ  
قومه للجهاد (٢) :

بني العرب كم أَدعو ولم ألق بينكم      صدى لدعائي أو مجيئاً لتسالي  
أنادي بني قومي الى المجد والعلا      وأدعوم دهرى صباحي وآصالي  
مضى ذلك العهد المعزز وانقضى      ولسنأزى في عهدنا غير إذلال  
خذوا بيد الأوطان يا خير فتية      وردوا لها ما كان من مجدها الخالي

ومما قاله أيضاً في ديوانه الصغير (٢) :

يا عرب قام القائمون وما برحتم نائمينا  
يا أيها العرب انتبها حسبكم تتغافلونا

(٢) ديوانه ٢٤

(١) ديوانه ٣٩٩

(٣) ديوانه ١٨

أشبهتم شعراءكم في كل واد هائمينا  
لهفى على شعب له خضع الا كاسر صاغرينا  
لهفى على أبناء من ساقوا الملوك مصفدينا

وهذه الأبيات تنم عن روح المرارة التي كانت تملأ نفس الشاعر تجاه ما كان عليه قومه من ضعف وتقاعس وغفلة . ثم كانت القافلة الأولى من شهداء الحرية وفي جملتهم الشاعر نفسه ، وإذاهي مأساة أخرى تنزل بالقوم الى جانب أهوال الحرب ، ويصحو العرب جميعا على صيحة الجرح . ومنذ ذلك اليوم أي السادس من أيار ( مايو ) عام ١٩١٦ شملت الدعوة الى النهوض والحض على الثورة والثأر الجانب الأكبر من الشعر القومي .

والواقع أن كثيراً من هذا الشعر الثائر الذي كان يحض على الانتفاض في وجه الترك مبشوث في القصائد التي قيلت رثاء لأولئك الشهداء وتفجعاً عليهم ، فقد ثارت نائرة الشاعر القروي على قومه حين بلغت أبناء إعدام الأحرار فراح يقول بعد أن بكاهم (١) :

يا للجبانة بل يا للخيانة من	شعب حيال حبال الغاشم ارتعدا
يا شعب لبنان بات الصبر مفضحة	ألا نفاذ الصبر أجره نفدا
هل علقوا عن بلاد الصين فاضطربت	وأنت لا قام ( صين ) ولا قعدا
أين الحماسة يا لبنان قد بردت	كالثلج والدم يا لبنان قد جمدا

كما كان ارتداد الفعل لدى أمين ناصر الدين تجاه الفاجعة في قصيدته ( جزار سورية ) فهو يحض قومه على الثأر ويهيب بهم أن يثوروا في وجه الطغاة بقوله (٢) :

شعب يضام وغاشم لا يرحم ونوائب تغشى الوليد فيهرم

(٢) الالهام ٥٧

(١) ديوانه ٢٧٥

ودم يطل على الثرى ومشانق  
 هل بعد ذلك لتجلد موضع  
 بجبالها وصل القضاء المبرم  
 إن كان فيكم من يحس ويفهم  
 والله لو ناب الذي قد نابكم  
 بعض السوائم لا ننتت تتظلم  
 هذي دماء بنيكم مسفوكه  
 أفليس يجري في عروقكم دم  
 فالشاعر ثائر حانق تفجرت نفسه غيظاً على تقاعس العرب تجاه الظلم حتى  
 بلغ في مخاطبتهم هذا المدى .  
 وهكذا حمل الشعر القومي يومئذ بذور انتفاضة العرب في ثورتهم  
 الكبرى عام ١٩١٦ .

## ٢

ولكن الحرب العالمية الأولى تكشفت عن خدعة كبرى كان العرب  
 ضحيتها وما زالوا يعانون من جرائها حتى اليوم . واذا وجدنا طائفة من الشعراء  
 قد أغضت عما ارتكبه الترك من مظالم تجاه العرب خشية التصدع في صفوف  
 المسلمين وإشفاقاً على الامبراطورية العثمانية من الانهيار فانهم منذ ذلك اليوم قد  
 واجهوا عدواً أجنبياً جشعاً يحتل أرضهم ويذل قومهم ، ويختلف عنهم في  
 الدين والقومية واللغة والطباع ، ولهذا قصدوا لمحاربتة والتنديد به  
 بكل قواهم .

وبوقوع الشام والعراق في قبضة الحلفاء التأمت قضايا البلاد العربية في  
 قضية واحدة وغدا الشعراء لا يفرقون في قصائدهم بين مستعمر وآخر . وهذا  
 معروف الرصافي ينبه قومه الى الخطر الجديد ويقول (١) :

(١) ديوانه ٣٦

لك الخير هل للشرق يقظة ناهض  
فقد طال نوم القوم بين دياره  
ألم تر أن الغرب أصلت سيفه  
عليهم وهم لاهون تحت غراره  
أما آن للساhein أن يأهوا له  
وقد أصبحوا في قبضة من إيساره

كذلك يتجه عبد المحسن الكاظمي وهو مقيم في مصر الى العرب جميعاً  
يستنهضهم لقتال المستعمر مها يكن وجهه واسمه (١) :

سيروا نذب عن الحمى وزد عنه المستبدا  
نحمي حمى أوطاننا ونصونها غوراً ونجداً  
سيروا قوادد للمني أو نبلغ الأوطان قصدا  
إن لم تكن تجدي الحياة بمزها فالوت أجدى

ومع أن خير الدين الزركلي كان ينعم وقومه بالاستقلال في سورية  
خلال فترة قصيرة بعد انتهاء الحرب الاولي والثورة العربية الكبرى ، فقد حز في  
نفسه أن يكون سائر الوطن العربي فريسة بين مخالب المحتلين فلم يهنأ بما هو فيه  
وراح يحث أهل العراق ولبنان على طرد الغاصبين ويعلن مسخه على مشروعاتهم  
الآئمة بقوله (٢) :

فيم الونى وديار الشام تقسم اين العهود التي لم ترع والذمم  
ما بال بغداد لم تنس بها شفة وما لبيروت لم يخفق بها علم

ويأبى شفيق جبيري على شعب العراق أن يكون دون مصر حمية بعد  
ثورتها على الاحتلال عام ١٩١٩ ، فيحفز همته على الكفاح ويحضه على الثورة  
قائلاً (٣) :

(١) ديوانه : المجموعة الاولي ٢٣٤

(٢) ديوانه ١٥

(٣) صبري الاشر : المختار من الشعر في سورية ٤

ما للعراق خوت عزائم أهله فاستسلموا لمشيئة الحكام  
هلا آتاه حديث ثورة أمة في مصر قد أنفت من الاحجام  
ثارت شعوب الارض بعد خضوعها ان الخضوع تقيصة الانام

ولكن العراق لم ينم وإنما كان يقظان يترب ، إذ لم تمض شهور حتى  
اندلعت فيه ثورة شعبية عاصفة سنة ١٩٢٠ فانطلقت أصوات شعرائه تحض على  
الجهاد ومنهم عبد الغني الخصري الذي قال مستنفرأً (١) :

الجهاد الجهاد أبناء قحطاً ن وأحفاد يعرب وإياد  
حفزت وثبة العراق شعوباً ركمت للقيود والأصفاد

وقد أتبع لعبد المحسن الكاظمي آنذاك أن يتدد بن يحتلون بلاده وهو  
بعيد عن شعبه في مصر فقال يستنهض قومه (٢) :

أيها السيف قولك اليوم فصل أرمهم كيف يحكم الحاكمونا  
أرهم فعلك الذي إن رأوه طأطأوا هامهم له مرغمينا

وكان محمد مهدي الجواهري الذي حمل لواء الشعر القومي في العراق  
بعد قيام ثورته الأولى وقعها دائماً على حث قومه على الثورة من جديد ضد  
الاستعمار الذي كان ينشر جنوره يوماً بعد يوم في البلاد ، ومما قاله في خلال  
تلك الفترة - فترة اليأس - أبيات يعلن فيها سخطه على إخلاد قومه الى التخاذل  
ويستنهضهم للجهاد (٣) ؛

أقر على الضيم الشباب ولم يثر وأخلد لا يسدي النصيحة أشيب  
كأن لم يكن في الرافدين مغامر وحتى كأن لم يبق فيه مجرب  
أعقماً وأمات البلاد ولودة وإنك يا أم القراتين أنيب

(١) رقائيل بطي . الشعر العصري في العراق النربي ١٢

(٢) ديوانه : المجموعة الاولى ١٦٣

(٣) ديوانه ١٤٥



كما صاح محمد صالح بحر العلوم بأبناء وطنه للذود عن استقلالهم والثورة  
من جديد على أعدائهم (١) :

بني وطني هبوا لاسعاد أمة      عليها رواق الانتداب مخيم  
بني وطني جدوا لاسعاد أمة      مخاصمها في حقها يتنعم

ولم يكن موقف شعراء الشام من قوات الاحتلال يختلف في جوهره  
عن موقف شعراء العراق أو مصر لأنهم جميعاً يصعدون في تناجهم عن ضمير  
أمتهم الحي وعن نزوعها نحو التحرر ، فكان الاستهزاء والحض على الجهاد  
دأبهم منذ أن وطئت جحافل ( غورو ) أرض لبنان وسورية . من ذلك ما قاله  
الشيخ مصطفى الغلاييني يومئذ (١) :

إلى النهوض إلى كسر القيود إلى      رفع البنود إلى ما يطلب الشمم  
هبوا فأمتكم أمست على خطر      جارت عليها الاعادي جور متقمم  
وذمة العرب والايام شاهدة      لنضرم من الوغي في السهل والظلم  
حتى يخلوا بلاد العرب أجمعها      من ساحل الروم حتى ساحل العجم

والملاحظ أن الشاعر يستنفر قومه الى الجهاد لتحرير الوطن العربي  
الكبير الذي استباحه المستعمرون دون أن يشير الى اجتياح غورو أرض  
لبنان ، فالنظرة الشاملة رائده ، وبلاد العرب لديه وحدة من حيث قضيتها  
ومصيرها ، وهي عنده أيضاً تواجه عدوا واحداً مهما تختلف أسماؤه . وبرغم أن  
بيروت غدت محتلة فالغلاييني لا يستهزئ أهل لبنان وحدهم بل يستهزئ العرب كافة لأن  
لبنان أو ساحل سورية إنما هو عضو في جسد العرب .

ثم أمدت الثورة الكبرى التي اندلعت في سورية عام ١٩٢٥ الشعراء بوقودها فتأججت المشاعر القومية في النفوس . وكان على الشعراء أن يخوضوا المعركة بأشعارهم يذكون بها الهمم ويحفزون العزائم . وعندما أصبحت دمشق طعماً ليران الفرنسيين هب الشعر القومي كالإيث زاده الجرح ضراوة يستنهض الشعب الي الجهاد . ومثل لتلك الظاهرة الادبية بأبيات لعز الدين التنوخي يقول فيها (١) :

يا عرب حتام القرار على الاذي      ودياركم قد غلها ما غلها  
أو تجينون على الفرنجة بعدما      سامتكم إرهاقها ونكالها  
لستم لطحطان إذا لم تثاروا      لبلادكم وتقتلوا قتالها

والملاحظ أن التنوخي شأنه شأن الغلاييني وكثير من الشعراء ، لم يبق في نطاق الاحداث المحلية بل تناولها على الصعيد القومي العام وراح يستنفر العرب كافة .

وفي الوقت نفسه كان المهجريون العرب يعيشون أحداث ووطنهم بقلوبهم ويتلهفون على تحرره ، فقد دأب أبو الفضل الوليد وإيليا أبو ماضي ورشيد سليم الخوري وإلياس فرحات وسواهم على استنهاض قومهم في كل مناسبة ، وكثيراً ما عمدوا الى استشارة حمية لبنان الذي كان ينهمك بجزازاته الطائفية وخلافاته السياسية ، ويفغل عن عدوه الحقيقي ، ومما قاله القروي في هذا الصدد مخاطباً (شبول الارز) (٢) :

أهيب بهم فلا ألقى سميماً      كأني المنادي والمنادي  
شبول الارزبات الحلم عجزا      وبعض الصبر موت إن تهادى  
فكونوا النار تحرق أوقدى في      عيون البطل إن كنتم رمادا

وحين اقتطع المستعمر لواء اسكندرون من سورية في غفلة من أهلها

(٢) ديوانه ٢١٧

(١) ديوان الثورة ٧٢

ورؤسائها وسله الى تركيا ثار الشعراء في جملة من ثاروا آتئذ وكان الحض على استعادة الجزء السليب قوياً يومذاك ، ولكن انقضاء الامر بسرعة وبتكم ثم انهاك السوريين وسائر الشعوب العربية بمكافحة الاحتلال كل في بلده جعل نطاق القول محدوداً حول هذا الحدث إذا قيس بسواه من الاحداث القومية الاخرى ، ولأبيات عمر يحيى في اقتطاع ذلك اللواء العربي مغزى بعيد لانها قرعت يومئذ ناقوس الخطر ونهت النيام على ما يراى بهم ، من ذلك قوله (١) !

أبعد الثورة الحمراء يرضى      بنونا أن يفارقهم بنوه  
أفيقوا إن يضع فلسوف يأتي      زمان فيه يتلوه أخوه

وكان هذا القول الذي حذر فيه الشاعر قومه كان نذيراً بما يجيئه المستعمر من شر للعرب تجسد في أبرز صورته في مأساة فلسطين بعد ذلك ..

على أنه ما من قضية عرفها العرب في عصرهم هذا وأثارت معاني الاستنهاض والحفز في الشعر الحديث مثل قضية فلسطين التي اثارت أحداثها اهتمام العرب جميعاً . وقد تجلّى ذلك بوضوح على ألسنة شعرائهم في مختلف ديارهم . وهذه الظاهرة الاديبة تعكس بجلاء ، الوجدان اجماعى للعرب قاطبة في تجاوزهم المشترك تجاه ما يعانیه إخوانهم في تلك البقعة المقدسة

وتغدو أحداث فلسطين الدامية ملء دنيا العرب وشغلهم الشاغل ، وينظم فيها الشعراء ما ينظمون ، ويكتب حولها الكتاب ما يكتبون ، غير أن طابع الاستنفار الشامل والروح العربية البارزة كان السمة الاولى التي عرف بها ذلك النتاج الاديبي بصورة عامة . ويكفي أن نمثل لهذه الظاهرة الهامة بما نظمته شعراء

---

(١) صبري الاشر : المختار من الشعر في سورية ٢٦

العراق في هذا الشأن فنشير الي ديوان حمل اسم ( الفلسطينيين ) وحوي  
مختارات من قصائد اقتصرت على موضوع فلسطين وحده ، نذكر من بينهم محمود  
الجبوبي وعبدالغني الخضري وأحمد رضا الهندي وعلي الهاشمي وعبد المنعم الفرطوي  
وعلي البازي وعلي الشريقي ومحمد باقر سماكة ومحمد مهدي الجواهري وغيرهم ،  
ومن ذلك مثلاً قول أحمد رضا الهندي (١) :

يا لقحطان ابن تلك الحميه	أين آثار روحنا العريية
أين ذاك الحماس والشرف البا	ذخ مجداً لهاشم وأميه
أين عرب الحجاز أين العرا	ق ألا أين الشهامة السوريه
أين عيسى المسيح يرأف بالناس	س وأين المواقف الأحمدية

فالشاعر يستثير حمية العرب ويستغيث بمجدهم الاول قحطان ، كما يفتقد  
فيهم حماسة بني هاشم وبني أمية ، ويرى أن واجب الذود عن فلسطين يشمل  
شعوب العرب جميعاً في الحجاز والعراق والشام ، وفي كل أرض عربية ،  
بل إنه يعدو ذلك الي الاستغاثة برأفة أتباع المسيح وحمية أشياع محمد وكأنه  
يستنهض البشر كافة ويلوذ بعاطفتهم الانسانية على اختلاف عقائدهم  
الدينية .

ويضم محمود الجبوبي صوته الي تلك النداءات الحارة ، حاضاً قومه على  
مساعدة المجاهدين في فلسطين بقوله (٢) :

لبوا نداء فلسطين فقد بعثت	صوت استغاثتها دون الوري لكم
هذي فلسطينكم هل تهدأون إذا	أمست برغم أنوف العرب تقنسم
حمية العرب لا ترضى وعزتها	بأن يحل مكان السادة الخدم

(٢) الفلسطينيين ٦٢

(١) الفلسطينيين ٣١

ولم يكن نشر كثير من هذه القصائد في الجرائد اليومية والمجلات الدورية سوى تعبير آني عن تلك الحمية الفائرة في نفوس العرب تجلت على أسنة شعرائهم في نداءات شعرية صادقة على نحو ما نجد في قصيدة للشاعر الدمشقي أجد الطرابلسي يقول فيها على صفحات الرسالة المصرية (١) :

يا عرب هيا فانصروا موطننا      للعرب هاج الحقد أفراده  
هناك شعب عربي المهوى      يحاول الغاصب إنفاده  
يسوسة الخسف بأغلاله      ويدعي بالنار إرشاده

فالشاعر يستنهض العرب ويحضهم على نصره شعب عربي شقيق ، وهو لا يعدد أسماء الشعوب العربية بما فيهم شعب فلسطين ، فالوطن فرد الأمة واحدة وجوهر الاستعمار والصهيونية واحد أيضاً أشار الشاعر إليه بكلمة الغاصب .  
وحين بلغت أحداث فلسطين أوج احتدامها نظم شاعر دمشق خليل مردم قصيدة على صفحات ( القبس ) الدمشقية عبر فيها باستجابته الآنية عن دوافع الاستنهاض مشوبة بروح مريرة من الخيبة والسخط والتقريع ومما قاله يومذاك (٢) :

بني العروبة كم من صيحة ذهبت      لو يستتار بها الموتى إذن ثاروا  
هتم على كل شعب من تخاذلكم      شأن العبيد وبقي الناس أحرار  
إخوانكم في فلسطين تنالهم      بالسوء والعسف أنياب وأظفار

وهكذا كان أكثر ما قيل في أحداث فلسطين متسماً بروح الاستنفار والاستنهاض وبث الحمية والقوة في النفوس ، كما أن ذلك الشعر لم يكن من جهة أخرى يحاطب فلسطين وحدها أو شعباً آخر بعينه ، وإنما كان يتجه الى الأمة العربية وشعوبها قاطبة .

أما مصر التي كانت أسبق بلاد الشرق العربي وقوعاً في قبضة المحتلين فقد عمد شعراؤها منذ أواخر القرن التاسع عشر الى التنديد بالمحتلين بلهجة

(١) السنة الثالثة ص ١٢٣٣ دمشق .

(٢) جريدة القبس الدمشقية العدد ١٤٢١ سنة ١٩٣٨ .

تشتد حيناً وتضعف حيناً آخر . وإذا حاولنا استقصاء ما نظموه قبيل ثورة ١٩١٩ التي كانت في حقيقتها امتداداً وبعثاً لثورة عرابي فاننا لا نكاد نقع على الكثير من قصائد الحث والاستنهاض في التمهيد لتلك الانتفاضة الشعبية ، في حين أن شعراً غير قليل نظمه شعراء العرب في الشام والعراق قبيل الثورة العربية الكبرى والثورة السورية وثورات فلسطين في حث العرب على الجهاد واستنهاض همهم وعزائمهم . ومرد ذلك الى أسباب متعددة ، منها أن الافواه قد كتمت خلال سني الحرب الاولى وهي التي سبقت عام الثورة فلم يعد من يستطيع التعبير عن رأيه في ظل الادارة العرفية وسيف الارهاب المصلى . كما أنه لم يقيض لمصر كما قيض للشام جالية أدبية كبيرة في أرض المهجر بوسع قرائحها أن تنطلق بما لم يكن في وسع شعراء الوطن أن يقولوه ، وكان أحمد شوقي في منفاه بعيداً عن الوطن وأحداثه حتى اندلاع ثورة عام ١٩١٩ . ومن هنا كان أكثر ما قيل من شعر في مصر آنذاك شعراً منفعلاً قبل أن يكون فاعلاً ، يتأثر أكثر مما يؤثر . وتعتبر قصائد محمد عبد المطلب مثلاً التي يصف فيها فظائع الانكاز في أنحاء الريف المصري وقرآه (١) وقصيدة حافظ إبراهيم النونية وبعض ما نظمه محمد الأسمر وسواه خير مثال على ذلك . وعلى هذا يمكن القول إن دور الشعراء المباشر في مصر كان ضئيلاً في التمهيد لثورتها، وأن تلك الانتفاضة كانت من صنع الشعب قبل كل شيء . ومما قاله محمد الأسمر في غمرة الصراع بين الشعب المصري والاستعمار في أعقاب الحرب الأولى (٢) :

فتى الشرق إن الغرب أدلى بمخبل      وناب فلا تهتز بينهما جينا  
خذوا حذر كم إن الخطوب روايض      وشيدوا لكم ركنين إن هدمت ركنا

(١) انظر ديوانه ص ١٩٣ و ص ٢٨٣

(٢) تغريدات الصباح ٢٠

والواقع أن المحتلين في مصر استطاعوا بدهائمهم أن يصرفوا الشعب بعد ذلك الى حين عن جوهر قضيته وجعلوه يولي تناحر الزعماء والأحزاب اهتمامه الأول . وقد انعكس ذلك بجلاء في الأدب ونجم عنه ما يمكن أن يقارب الشعر السياسي الذي كان ينظم على هامش القضايا الوطنية الكبرى . ثم طغى التيار الرومانسي فانعزل كثير من الشعراء عن واقع أمتهم وآثروا معالجة الشعر الوجداني . وكانت مدرسة ( أبولو ) مظهراً لهذا التيار في مصر ، وبوفاة شوقي وحافظ وعبد المطلب حدث ما يشبه الفراغ في الشعر بصورة عامة وفي الشعر القومي والاجتماعي بوجه خاص ، فلم يستطع أحد من الشعراء بعدهم أن يتغنى بمشاعر قومه ويتجاوب مع آمالهم وآلامهم ويسدي إليهم الرأي والنصح بمثل ما كانوا عليه . وتبعاً لذلك قل شعر الاستمهاض والحض على الكفاح .

ومن العجب أن نرى عدداً من القصائد المفعمة بالثورة والنفصال تصدر عن طائفة من الشعراء الذين عرفوا بانسياقهم مع التيار الرومانسي في مصر مثل محمود أبي الوفا في إحدى قصائده التي أسماها ، الاسد السجين « (١) :

ألا يا ليث لست أقول صبرا      فقد جربت هذا الصبر دهرًا  
فلم ينعف وزاد العيش مرا      ولكن إن قدرت و كنت حرا  
خطم كل هاتيك القيود

ففي ثنايا هذه الأشطر القليلة تضطرب جمرات الثورة ويلتمع لهيب التمرد . وقد تلفع نداء أبي الوفا بثوب ضبابي رمزي في عنوان قصيدته وفي مناجاته الليث ، ومن وراء ذلك كله يلوح شبح الارهاب وكبت الحرية في نفوس المصريين خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأخيرة ، وفي هذه الفترة وإبان انتفاضات الشعب المصري عام ١٩٣٥ طلع علينا حسن كامل الصيرفي بقصيدة تنكاد تكون يتيمة في ديوانه قال فيها (٢) :

(٢) الشروق ١٩

(١) أشواق ٥٦

وأرجع عزمها وأعد قواها	تحرك من سباتك يا فتاها
فواها للأي إذا تلاهى	فقد طغت الخطوب على حماها
فحقك في بلادك بات يرفض	تحرك يا أبي الضيم وانفض
إذا ما الأسد ديس على حماها	وأي جفون مسلوبين تغمض
وحقك نهبة في كف طامع	بلادك لقمة في عين جائع
فقم وأزح عن النيل السفاهة	وأنت مع المذلة جد قابع
ولا تقل المدافع فوق عزمي	ولا تقل السوف سيوف خصمي
نفوسهم ترى الجلى هواها	فان مصر معمود لقوم
ولا تمف الصواعق والحتوفا	تقدم بالأمانى الصفوفا
وأشعل نارها وأثر لظاهها	وأوجد من عزمة السيوفا

والسيد المظلم المبرق وألها في قلبه بالبحر حبل

فمن ان مشرقها لما في مصر

المراد زخم ، فلما عر يريد ما ثور ، عاصفة لا تبني ولا تدر .

واهميد بمددك تعكس تطوراً كبيراً في مفهوم الشعر عند شاعر ذاتي رومانسي « بعد أن انطلقت نفسه من سجنها وأصبحت قادرة على أن تنفعل بما هو خارج عنها . ففي هذا النشيد تحمس بجمرة الروح الثورية التي اشتعلت في ذلك العام في مصر واستطاعت أن تنفذ الى روح الشاعر (١) :

### ٣

وكثيراً ما كان شعر المناسبات طريقاً الى معالجة القضايا الأساسية الوطن وبخاصة ما يتصل منها بالتاريخ العربي الزاهر ، إذ يلجأ الشاعر

(١) الدكتور محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ، الحلقة الثانية ١٢٧ .



في الأناج إلى ربط ماغي العرب بمخارم والقارئة بينها ، ثم بعد إلى استنفار  
 الشعب للذود عن كرامته وحشته على إدراك مجد آباءه ، حتى إن الشاعر الحدث  
 قد يعتمد أحياناً الابتعاد بضمون أبياته عن أصل موضوعه في سبيل هذا الهدى  
 ونحن نجد هذه الظاهره أبرز ما تكون في مناسبات دخول عام حجة  
 عيد أو مصادفة ذكرى فريمية أو دينية ، ومن هذا القبيل ما بقره  
 « ذكرى المولد » (١) :

يا صحابي ومعشري وقبيلي	آن أن تستفيق تلك الصوارم
فلمنعوها غمودها وكراها	واستثيروا بها دفين العزائم
وانفضوا عنكم الرقاد وهبوا	لم تلن هذه الحياة لناهم
قد ضججتنا من البكاء كأننا	قد سلبتنا النواح هذى الجمائم

ويبدو أن الشاعر لم يشف كل ما في نفسه من حرقة على استكانة قومه  
 فتراه يعود بعد مناجاة الرسول واقتفاده مجد العرب إلى إلهاب نيران الثورة في  
 النفوس بقوله :

أوقدوها حمراء تلتهم الأف	ق فتشوي بها انطى والسائم
وامنحوها دماءكم تنزى	واهبروها أرواحكم والجمائم
واماكم الأرض أتم سادة الار	ض وأنتم بنو الموت والجمائم

وهكذا كان جانب من الشعر القومي الحدث يمر بمرحلة التروية  
 على درجات تتفاوت بين الشدة واين تبعاً لظروف البيئة التي كان  
 يحيا في ظلها الشعراء وبحسب أمزجتهم ومدى مجاوبها مع الاحداث ، وكان

(١) ديوانه في ظلال الأيام ٩٤

من الشعر ما اقتصر على التنبيه والتحذير ، أو تعدى ذلك الى الحث والاستنهاض أو ما بلغ أخيراً حد التمرد والثورة .

وقد ظل موضوع استنفار العرب وحضهم على الثورة والنار يحظى باهتمام أدباء الشرق العربي طوال العهد الاستعماري ، وهذه الظاهرة في الادب الحديث تشير الى ريادة الشعر للوجدان الجماعي في نفوس العرب وإسهامه في زرع بذور الوعي القومي والتمهيد للانتفاضات الشعبية في العالم العربي . ولئن اختلفت الآراء حول مدى تأثير الشعر في توجيه ضمير الامة وإثارة مشاعرها القومية ، فليس بوسع أحد أن ينكر الدور القيادي للادب في هذا المجال . ولا ريب أن المستوى الفني للقصيدة هو الذي يحدد مدى هذا التأثير ؛ إذ أن شعراً غير قليل مما نظم في موضوع الاستنهاض والاستنفار كان يعتمد على صيغ الامر والنهي والاسلوب المباشر مما يقربه أحياناً من الوعظ والارشاد ويفقده الكثير من الرواء .

## الفصل الرابع

### التضامن والأخاء

لم يكن الاجنبي يأمل في التمكين لجيوشه في بلاد العرب إلا عن طريق بذر الشقاق والتعصب في النفوس ، واتخاذ من مبدأ « فرق تسد » محوراً سياسسته في إضعاف عناصر الامة وتفتيت مقاومتها للاستعمار .

وقد طرأت على العرب في تاريخهم الحديث آفات الشقاق والخلاف والتعصب الاعمى في السياسة والدين . واذا كانت العصبية القبلية لدى العرب في الماضي والتطاحن على الحكم بعد ذلك في طليعة العوامل التي أطمعت فيهم الفرنج وأدت الي تصدع أركان الدولة العربية ، فان التعصب الديني والتحزب السياسي كان لهما في تاريخ العرب الحديث أسوأ الاثر في سيرهم الحثيث نحو التحرر والاتحاد .

أما الشعر الحديث الذي أخذ يبدى اهتماماً متزايداً بأوضاع العرب القومية والاجتماعية فقد أخذ يعبر بقوة عن وجدانهم الجماعي ويعكس على صفحته الجميلة منازع نفوسهم ومناحي تفكيرهم حية نابضة .

وثمة عنصران في هذا الموضوع : الشقاق السياسي ، والتعصب الديني ،

ولهما يرتدان في الوقع الى جوهر واحد هو التفرقة التي كانت تنخر كالسوس في  
كيان الامة وتفت في عضدها بلا هوادة ..

١

وإذا بادرنا الى استجلاء مظاهر الشقاق والخلاف في أمر السياسة وحول  
شؤون الحكم من خلال الشعر الحديث الذي نظم في فترة ما بين الحربين  
العالميتين بصورة خاصة وبدأنا مثلاً بتاريخ مصر في هذه الحقبة الحديثة  
« نجد أنه يدعو الى الرثاء حقاً؛ فلم يستطع المصريون في أحلك الاوقات أن  
يتحدوا، وظل بأسهم بينهم شديداً، وظلوا في كل حال رحماء على الاعداء  
متباغين بينهم. كانوا قبل الحرب الاولى شيعاً وكذلك ظلوا من بعدها. ولم  
يتحدوا إلا عند بدء ثورة ١٩١٩ ولم يدم اتحادهم إلا قليلاً، فلقد دب اليهم  
الخلاف والشقاق قبل أن تنتهي الثورة (١) » ولم يقر للشعب المصري قرار إلا  
بعد جلاء المستعمر الذي استطاع أن يطيل أمد بقائه عن طريق نجاحه في إشاعة  
الفرقة والشقاق في صفوف الامة.

وقد انبرى الشعر يقرع ناقوس الخطر وينعى على القوم خلفهم وتناحرهم  
حتى كثرت القول في هذا الشأن. ومن ذلك مقاله خلال الحرب الاولى أحمد محرم (٢):

أرى الناس في مصر شتى القلوب وإن جمعتهم عوادي النوب  
فكل له وجهة تستراد وكل له شأنه والأرب  
وبعض يمد جبال الرجاء وبعض يري اليأس حقاً وجب

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢ : ٣٦٣

(٢) المصدر السابق ٢ : ١٠ عن ديوان مخطوط للشاعر .

لثم انقضت أعوام الحرب وعرفت مصر في أعقابها ثورة شاملة تجسلي فيها التضامن بأروع مظاهره وأسمائها في صفوف الشعب . ولكن الامر لم يلبث على هذا الحال طويلا حتى أخذ في التدهور ، إذ اتسمت الحياة الحزبية بعد تلك الثورة بجدة ومهاترات مؤسفة بين قادتها . وقد انعكس ذلك الامر لدى طائفة من الشعراء فانساق في تيار الخلف والتسنايد ، إلا أن سائر الشعراء لم يترددوا - تجاه الحالة السائدة في البلاد - في إعلان سخطهم واستنكارهم فيما نظموه من قصائد آنذاك . وفي مقدمتهم أحمد شوقي الذي دعا بحرارة الى نبذ التنافر والخصام وحث على التضامن والاخاء في عدد من قصائده . ومن مشهور ما قال آنئذ قصيدته التي نظمها في ذكرى مصطفى كامل وندد فيها بالترفة والتطاحن الحزبي (١) :

إلام الخلف بينكم إلاما	وهذي الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيده بعضكم لبعض	وتبدون العداوة والخصاما
شبيتم بينكم في القطر ناراً	على محتله كانت سلاما
وليننا الامر حزبا بعد حزب	فلم نك مصليحين ولا كراما
وسسنا الأمر حين خلا إلينا	بأهواء النفوس فما استقاما
تراميتم فقال الناس : قوم	إلى الخذلان أمرهم ترامي
وكانت مصر أول من أصبتم	فلم تحص الجراح ولا الكلاما

وما هذه الايات إلا زفرة صادقة انطلقت من قلب أمير الشعراء مفعمة بالاسى والمرارة لما كان عليه قومه ، وهي تنقل لنا صدى ذلك الجو المشحون بالكراهيه والاقسام بين صفوف الامة وزعمائها على حد سواء . لقد كان في الدساتير والمعاهدات والانتخابات وما الى ذلك من الامور التي يحسن المستعمر

(١) الشوقيات ١ : ٢٦٢

المباكر طبخها وتقديمها مبعث خلافات وانقسامات كبيرة ، من ذلك أن الدستور الذي أمل فيه المصريون الخير لم يكن في حقيقته إلا سراياً ولم يصيبوا من ورائه سوى الشر ، وقد فتح ثغرة في نفوسهم حين راحوا تجاهه بين مادم وقادم . كل ذلك انعكس في نفس شوقي فاتجه بالقول الى قومه يتحدث عن أمر ذلك الدستور والأسى يملأ قلبه (١) :

لا تجعلوه هوى وخلفاً بينكم	ومجر دنيا للنفوس ومتجراً
قد كان وجه الرأي أن نبقي يداً	وزرى وراء جنودها إنكلترا
فاذا أتتنا بالصفوف كثيرة	جئنا بصف واحد لن يكسرا
حظ رجونا الخير من إقباله	عاش المفرق فيه حتى أدبرا

وقد كثر القول خلال تلك الفترة من حياة مصر السياسية حول الخصومات والاختلافات التي استفحل أمرها بين الزعماء حتى سرت عنيفة حادة الى صفوف الأمة . ومن مظاهر هذا السخط الذي عم الشعب تجاه أحزاب مصر ومتزعميها وما أورثوه إياه من شقاق قول محمد الاسمر (٢) :

خصام وصلح كل يوم وحالة	إلى عبث الاطفال واللهو أقرب
بني وطني إن البرية كلها	تجد وأحزاب الكنيسة تلعب

والواقع أن حدة الخلف كانت تخف حيناً لتشتد حيناً آخر ، ولكن حالة البلاد وأزمات الحكم وتناحر القادة على خسيس المنعم ... كل ذلك كان يضرب أطنابه في مصر . ولذلك لم تكن معاني الشعراء لتتغير كثيراً في هذا المجال برغم تعاقب السنين . وكما وجدنا أبيات محرم وشوقي تعلن تبرمها بالفرقة

(١) الشوقيات ١ : ١٨١

(٢) ديوانه ٤١

والخصام أثناء الحرب الاولى أو بعدها نجد الشعراء فيما بعد ظلوا ينسجون على هذا  
النوال حتى رأينا على الجندي مثلاً يقول في أواخر الحرب العالمية الثانية (١) :

وأحزاب تريد الحكم م لولا الحكم لم تكن  
وأشياء منافقة تثير عواطف الفتن  
ومحتل يلاعبنا لعاب الموج للسفن

ومن خلال هذه الصيحات المفعمة غيرة على الوطن وإشفاقاً على الامة  
يمكن القول إن المستعمر قد أفلح الى حد كبير في بلوغ أهدافه بعد أن أشاع  
الانقسام في صفوف الامة وجعلها تتلهى عن جوهر قضيتها بتوافه الامور  
وقشور الحكم. وهذا الشعور الساخط الذي تجلب بصورته الواعية على  
أسنة الكتاب والشعراء والذي كان أمره يتفاقم بطراد ، غدا في طليعة الاسباب  
التي أطاحت بالنظام الرجعي آخر الامر في مصر .

أما في العراق فلم يبلغ التطاحن والانقسام هذا المدى الذي بلغه في مصر  
بفضل التفاف الناس حول الملك فيصل أول الامر ثم حول ابنه غازي . ومن جهة  
أخرى فان ضعف الصحافة بصورة عامة و فقدان حرية التعبير في كثير من الاحيان  
جعل نطاق الخلاف محدوداً دون أن تذكى ناره الصحف والمنابر على نحو ما كان  
يحدث في مصر ، وبالتالي بقى صدى ذلك في الشعر ضئيلاً . والواقع أن هذا  
الاعتدال النسبي في الجو السياسي بصورة عامة كان يخفى وراءه ما هو  
أدهى وأمر ؛ إذ كمت الافواه وأخذ المعارضون بالشدّة ، والتقى المتزعمون  
على صعيد المغنم . وبرغم ذلك كانت أرض الرافدين تميد بحكامها من حين الى  
آخر ، ثم ينقلب الناس شيعاً وأحزاباً وتغدو الامة مشتتة الاهواء ، إذ حيثما

(١) أغاريد البحر ١٨٨ - ١٩٥

حل المستعمر حلت معه الفرقة والارزاء . وقد أشار جميل صدقي الزهاوي الى  
تلك الحال فقال (١) :

ويل لمملكة قضى إهمالها      من أهلها أن يفشل استقلالها  
ولأمة بعد الوفاق تحالفت      فنقطعت لخلافها أوصالها  
من كل عاصمة الرشيد وأهلها      لم يبق إلا طيفها وخيالها

وكان الامر أكثر تعقيداً في فلسطين حيث الاستعمار المركب يعيش في  
الارض فسادا ، وعدوان لدودان يتواطآن ، والعرب عن كل ذلك لاهون .  
لقد عبر إبراهيم طوقان عن شعور مرير مفعم بالاسى تجاه تفتت طاقات الامة  
وتلهي قادتها بالعرض الزائل وخسيس المنعم ، فهو بصدد رثائه موسى كاظم  
الحسيني أحد زعماء فلسطين يلتفت الى ثابطة قومه بلهجة مفعمة بالغيرة  
والاخلاص (٢) :

والله لا يرجي الخلاص وأمركم      فوضى وشمل العاملين ممزق  
أين الصفوف تنسقت فكأتما      هي حائط دون الهوان وخذق  
أين القلوب تألفت فتدافعت      تعشى الهميم وكل قلب يخفق  
أين الأكف تصافحت وتساجلت      تبني وتصنع للخلاص وتنفق

فالشاعر يفتقد التمام الشمل وتوق الى رسله المرفوع في كثير من  
اللوحة والحسرة . وإنه لما يدي القلب أن يرى شاعر مرهف الحس يلاذ بها  
مقسماً بين الاستعمار والصهونية وقومه سادرون في عيهم ماضون في تناحرهم .

وفي سورية ولبنان كانت الانقسامات تزداد استفحالاً في ظل الحكم



الفرنسي نتيجة ظروف طائفية معينة تطفئ في كثير من الأحيان على الخلافات السياسية . وقد ابتلي السوريون كسائر العرب في هذه الفترة على حياتهم القومية ببدء التفرقة ، وانقسم حكامهم منذ انتهاء الحرب الاولى بين مدعن لانذار ( غورو ) باحتلال البلاد وعازم على القتال حتى النهاية . كما ذر الخلاف بعد ذلك قرنه في حياة البلاد السياسية واستحكمت التعصب الاعمى بين الافراد والأحزاب وكانت الحال على ما وصفها خير الدين الزركلي بقوله (١) :

وما لاثنين حولك من وئام	ترى كلاً له أمل ومسعى
تدور بها الامور على التئام	وأحزاباً إن التأمت فليست
فتفتق القلوب على خصام	وتجتمع الجسوم على تراض
ولكن الجمع بلا إمام	لكل جماعة فنا إمام

وأما سبب التفرقة والاشكراك في سوريا وسببها في قوله على الأنة  
 كتابه وشعرائه . و إنما نظم في هذا الشأن كان مفعماً بروح المرارة على  
 ما تردى فيه العرب من تخاذل وتفكك ، من نحو ما نظمه خليل مردم بك في  
 قصيدته « لوجه الوحدة » (٢) :

لقد أضعنا تراث السالفين سوى	نار من الحقد والاضغان تضطرم
أكلها قام داع للوائم بنا	إذا بأسماعنا عن قوله صمم
من مبلغ الحمس من قيس ومن يمن	أنا على كل أمر دق نختصم

ومن الطبيعي أن تكون نظرة شعراء المهجر الى هذا الامر متسمة  
 بالشمول وألا يقتصر في كثير من الأحيان على ما يعاينه قطر بعينه . فقد  
 كانوا في تلك البلاد القصية شديدي الاحساس بحالة قومهم ، دائمي الترقب لما

(٢) ديوانه ١٦٦

(١) ديوانه ٣٩

يحدث في وطنهم . وكم كان يجز في أنفسهم أن تلهو أمتهم عن عدوها ، وتنام  
عن ثعالب الاحتلال في أرضها . وهذا إلياس قنصل يناجى قومه من وراء البحار  
ويهيب بهم أن يتمسكوا بجبال الوحدة الوطنية (١) :

يا آل يعرب هل تتسون أنكم      بالاتحاد بلغتم في العلا الاربا  
لئن تفرقم فالدهر يغلبكم      ولا نجاح لمن بين الوري انغلبا

كما يصدر إلياس فرحات عن مثل هذه النظرة الشاملة نحو العرب  
فيسخط على ما كانوا عليه حين اعتبر الساسة والمتزعمين أصل البلاء (٢) :

عليكم سلام الله يا آل يعرب      متى ينتهي مسعاكم المتنافر  
لقد وحد العلم العبيد وأنتم      قبائل تقني بعضها وعشائر  
أليس لكم يا قوم بعد محمد      نبي لأصنام السياسة كاسر

وهكذا كان الشعراء ، وهم من الطلائع الواعية في الأمم ، رسل  
الاتحاد والوئام ، كما كانوا في شعرهم حرباً على الشقاق والانقسام يدفعهم الى  
ذلك إيمان عميق برسالتهم السامية .

## ٢

وإذ ننتهي من استجلاء هذا الجانب من حياة العرب القومية الحديثة يجدر  
بنا أن نحاول استجلاء أمر التصعب الديني ، والدعوة الى التسامح والوئام بين  
ملك الأمة وطوائفها ...

(٢) ديوانه ٣٢

(١) على مذبح الوطنية ه

ان القول لم يكثر في الشرق حول التضامن والاخاء إلا عند ما استفحل خطر التفرقة والتعصب . وإذا كان الشعراء قد أولوا هذا الموضوع اهتماماً بائناً في هذا العصر ومنذ فجر النهضة العربية الحديثة فان شاعراً عربياً كبيراً هو أبو العلاء المعري كان رائدهم الى ذلك قبل نحو ألف من السنين ، وبدا في شعره حر الفكر رحيب النفس متسامحاً في عقيدته . وقد وضع في الميزان دين أحمد والمسيح ، وسلط نور العقل على الدين وجرده من قشوره ، كما فضح تجار العقائد ودعاة التفرقة .

وأبرز من فطن في عصرنا الى هذه العلة المزمنة وخطرها على الاممة الشيخ محمد عبده رائد هذا الاتجاه في التفكير الشرقي الحديث ، ومن مشهور قوله في هذا الصدد بيتاه السائران على ندرة قرضه للشعر :

ولست أبالي أن يقال محمد      أبل أو اكتظت عليه العاهم  
ولكن ديناً قد أردت فلاحه      أحاذر أن تقضي عليه العاهم

والحق إن آفة الشرق في عصوره الحديثة كانت في تعصب أبنائه واشتداد الخلف بين أهله ، والى ذلك يشير حافظ ابراهيم وكأنه يعتبر زوال هذا الداء الويل حلاً بعيد المنال (١) :

متى أرى الشرق ادناه وأبعده      عن مطمع الغرب فيه غير وسنان  
لا فرق ما بين بوذي يعيش به      ومسلم ويهودي ونصراني

وبدافع من هذا الشعور اشتدت دعوة الأقلام الحرة في العهد الاستعماري الى نبذ التعصب والخلاف اللذين كانا يزدادان اشتعالاً بسبب

(١) ديوانه ١ : ١٢٤

تفشي الجهل من جهة وبتشجيع من المحتلين من جهة أخرى . ولم يكن الاستعمار في سبيل تهيئة أقدامه في البلاد يحدد عن بذر الشقاق والتعصب في النفوس بعد أن اتخذ من مبدأ « فرق تسد » محوراً لسياسته .

وكان من الطبيعي ألا يطمئن المسيحيون في بلاد العرب بصورة عامة الى كل نظام من شأنه أن يجعلهم أقلية ضئيلة في ظل دولة إسلامية كبرى بعد ما عانوه من أهوال التعصب الديني خلال عهد العثمانيين . ومن هنا كان كثير منهم ينظر بعين الريب الى فكرة الجامعة الاسلامية ، ويتهدف على إقامة دولة حديثة على أسس قومية تجمع بين أبنائها رابطة العروبة على اختلاف عقائدهم ، وينتفي فيها التعصب الطائفي وتسلط رجال الدين على الحكم .

وقد رأى بعض الشعراء بحق أن تفشي التعصب الطائفي بين العرب كان في طبيعة الأسباب التي اطمعت فيهم العدو ، ومما بادروا الى نظمه منذ وطئت أقدام المحتل أرض الشام والعراق قصيدة لمحبوب الخوري الشرتوني أسماها « دمة على العرب » وأشار فيها الى العلة التي كانت تنخر في كياناتهم (١) :

يا أمة العرب استباحك معشر ما إن عليهم بل عليك سلام  
لم تحن أسيفهم عليك وإنما العيسوية فيك والاسلام  
هايتك تبسط للفرنجية باعها هرباً وذاك جواره إيلا

فالشرتوني وقد حز في نفسه ما كان عليه قومه ينحني بالأمّة على عنصر الأمة معاً حين ارتقى أحدهما في أحضان الغرب ولاذ الثاني بالتعصب ضد إخوانه فكان كل فريق حرباً على الآخر .

والحق إن المسلمين والنصارى عاشوا معاً بسلام ووثام طوال العهود

العربية المدينة « والاسلام نفسه فسح المجال للنصرانية لتعيش معه والى جنبه ، وحمى مقدساتها ومعتقداتها وصان معابدها وجعل بينه وبينها صعيداً مشتركاً يتلخص في اعتبارها ديناً سهاوياً مصدره وحي إلهي ، وفي أن المسيح كلمة الله وروح منه . وأنه ولد من أم عذراء طاهرة بتول من غير أب ، وأن أقرب الناس مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » (١) وما المسيحية والاسلام سوى موجتين روحيتين متلاحقتين ظهرتا في الشرق العربي ، والخطأ الفادح في العهد العثماني والعهد الاستعماري على السواء أن السلطات الحاكمة كانت تدأب على وضع الاسلام في مقابل المسيحية وتبرزهما في صورة خصمين متقابلين . وما فتئت دول الاحتلال منذ دخلت بلاد العرب تثير نيران الحقد والتعصب وتستفز النفوس بطيشها وحماتها . من ذلك ما صدر عن الجنرال غورو أحد زبانية الاستعمار بعد أن اقتحمت جيوشه سورية ولبنان ؛ فقد ألقى خطبة في بيروت تشدق فيها بالحملات الصليبية واعتبر نصره متمماً لها ، وكان الصلف والزهو يملآن نفسه والحقد والكراهية يسيلان من فمه . وقد أثارت هذه الخطبة مشاعر العرب وتصدى لصاحبها الشعراء والكتاب ، نذكر من بينهم الرصافي الذي نظم بهذه المناسبة قصيدة أسماها « مظاهر التعصب في عصر المدينة » وكان منها قوله (٢) :

ذكرت لنا الحرب الصليبية التي	بها اليوم قد تمت لقومك آمال
وتلك لعمرى قرحة قد نكأتها	بما قلته فاهتاج بالشرق بلبال
فيا عجباً من امة قدت جيشها	تشابه كردينالها والجنيرال
ولو أننا قلنا كما أنت قائل	لأنحج، علينا بالتعصب عدال

(١) محمد المبارك : الامة العربية ٦٩

(٢) ديوانه ٤٣٣

وقد استغل المستعمرون الاحقاد الماضية التي كانت دفينّة في النفوس  
وبخاصة في لبنان منذ مذبحه الستين فبعثوها ذميمة وعملوا على إشعال فتن طائفية  
عمياء وتضاحن رهيب بين عناصر الامة الواحدة ، وعمدوا في سبيل هذه  
الغاية الى استقدام البعثات العلمية والدينية وبخاصة وفود المبشرين ، ثم تسخيرها  
لمآربهم الاستعمارية إمعاناً منهم في تحدي مشاعر الطوائف الاخرى والكيدها وفي  
بث الاحقاد والضغائن في نفوس العرب .

ومن دواعي التقدير أن يكون عدد من الشعراء المسيحيين المنصفين قد  
سموا بمنازعهم القومية وتصدوا لهذه السياسة الخطيرة ونددوا بها ، وفي مقدمتهم  
الشاعر القروي وإلياس قنصل و خليل مطران والاخلط الصغير ، ومن  
هذا القبيل ما نظمه إلياس فرحات في قصيدته « أيها العرب » منهدداً  
بزبانية الغرب (١) :

غرست بنا التعصب من قديم	فأمر لوعة وأسى وضرا
بعثت لنا الوفود فزقتنا	كما علمتها شطراً فشطرا
وفود ان تحمل بأرض قوم	تحيل عرا وفاق القوم مكرا
ولو دخلت جنان الخلد يوماً	لادخلت الخلاف بهن قسرا
ثياب البر والارشاد صارت	لجسم الشر والأحقاد سترا
خذوا بعثاتكم عنا فأنتم	بها من كل أهل الارض أحرى
ولا تدعوا الى الايمان شعباً	يرى الاكراه في الايمان كفرا

وشبيه بما كان في نفوس نفر من المسلمين العرب من تعصب ديني  
في العهد العثماني كان أيضاً ما يماثل ذلك في نفوس بعض المسيحيين العرب الذين

وجدوا في الفرنسيين والانجليز حماة لهم وضماناً لحرية عقائدهم ، حتى بلغ الامر بفتنة منهم في لبنان مثلاً حد طلب الانتداب وتحييد الاحتلال فكانوا حرباً على قومهم .

إلا أن الشعور القومي السليم لدى كثير من العرب - مسلمين ومسيحيين - هو الذي نهض بكل قواه على السنة الشعراء والكتاب من أجل استئصال هذه الشائفة . وبذلك حمل الشعر الحديث رسالته السامية بايمان وراح يبشر بالاخاء والتضامن ، معلناً حرباً لا هوادة فيها على التفرقة البغيضة والتعصب الذميم .

لقد كان هذا الشعور بوطأة التعصب حاداً في سورية ولبنان بحيث غدا منى النفوس أن يهل على العرب عهد جديد ينعمون في ظله بالوائام والتسامح والسلام . وكان عهد فيصل في أعقاب الحكم التركي عهداً ذهبياً رفل فيه الناس بالتححر السياسي والفكري والديني ، كما كان فيصل رائداً في الشعارات السائرة التي كان يطلقها من خلال خطبه القومية الملتبته يومئذ من مثل قوله « الدين لله والوطن للجميع » أو « نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد » و « أن محمداً لعربي قبل أن يكون مساماً » (١) . فقد كان لهذه الاقوال صدى بعيد في قرائح الشعراء تجل على ألسنتهم صافياً صادقاً على نحو قول اسكندر الخوري البيتجالي معتزلاً برابطة العروبة التي وسعت مختلف النحل (٢) :

قبل المسيح وأحمد  
كنا وما زلنا عرب

وكان بطل الثورة العربية يومذاك معقد آمال العرب في بناء مجتمعهم الجديد فلا غرو أن يتجه إليه فرحات كما يتجه العليل الى الآسي (٣) :

(١) انظر كتاب : فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله ١٧٥ و ١٨٤

(٢) العنقود ٦٢

(٣) ديوانه ٧٣

طب بحمكتك الشام فانها كادت تموت بعلة الاديان

وفي هذه الفترة من الحكم العربي المستقل طاب للشعراء ان يعزفوا ألحانهم على أوتار التسامح والوطنية بعد عهود مديدة من التعصب والاستبداد والتبعية ، ومن ذلك ما نظمه حلیم دموس (١) :

لك دين وله دين ولي آخر والكل دين محترم  
فاحسبوا أدياننا واحدة واجملوا قبلتكم هذا العلم

وقد دأب أدباء المهجر في مغتربهم على التبشير بالتسامح والدعوة الي الاخاء برغم ما صدر عن بعضهم خلال فترات وظروف معينة من نزوات ونعرات تبين لهم بعدها أن ما أملوه في الاجنبي من خير لبلادهم وما ارتسم في أذهانهم حوله من هالة باهرة وألوان زاهية لم يكن في حقيقته إلا وهمماً وسراباً . وتعد (الرابطة القلمية ) موئل هذه الدعوة السامية حيث كان لقطبيها جبران خليل جبران ومخائيل نعيمة أدب إنساني مفعم بالاخلاص والتبل ، وهل أثلج للصدر من قول جبران (٢) « أنت أخي وأنا أحبك . أحبك ساجداً في جامعك وراكماً في هيكلك ومصلياً في كنيستك ، فأنت وأنا أبناء دين واحد هو الروح ، وزعماء هذا الدين أصابع متلاحقة في يد الالوهية المشيرة إلى كمال النفس » . أو قوله « أنا مسيحي ولي فخر بذلك ، ولكنني أهوى النبي العربي وأكبر اسمه ، وأحب مجد الاسلام وأخشى زواله » (٣) وهل أصفى من نظرة (نعيمة) الى جوهر الاديان حين يعتبر (٤) « يسوع وموسى ومحمداً على السواء في العالم إلهماً واحداً وهو إله الجميع ليس مسيحياً ولا مسلماً ولا يهودياً » . ولقد كان لثل هذه الآراء الرائدة صدى بعيد في سائر كتاب الرابطة بل تعداه الى المهاجر كلها .

(٢) مجموعة المؤلفات ، دعة وابتسامة ٢: ٢٣١

(١) ديوان حلیم ٢٧٧

(٣) من مقالته ( الى المسلمين من شاعر مسيحي ) مجلة الفنون سنة ١٩١٣ العدد ٨

(٤) الآباء والبنون ٣٠



والحق إن شعراء المهجر ومنهم إيليا أبو ماضي وإلياس فرحات ورشيد  
سليم الخوري ومحبوب الشرتوني وأبو الفضل الوليد وجورج صيدح وغيرهم كانوا  
رواد هذا الاتجاه السامي في الشعر الحديث منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى .  
ولعل سبقهم الى ذلك يعود الى ما كانت عليه بيئتهم الاجتماعية المتفتحة من إكبار  
للحرية وإنكار للتعصب . ومن هذا القبيل ما نظمه أبو ماضي مخاطباً قومه (١) :

اتباع أحمد والمسيح هوادة      ما العهد أن يتنكر الأخوان  
الله رب الشرعتين وربكم      فإلى متى في الدين تحتصان  
مها يكن من فارق فكلارك      ينمى الى قحطان أو غسان

ويعد إلياس فرحات بحق فارس هذا الميدان في المهجر غير مدافع . إذ  
أنه من الشعراء القلائل الذين التزموا في شعرهم بالدعوة الى التحرر القومي  
والتسامح الديني . ومما قاله في هذا الصدد مشفقاً على وقوع بلاده في براثن التعصب  
الطائفي (٢) :

يعز علينا أن نرى الشرق هاوياً      الى القعر ما بين ناب ومخلب  
تثير به الأديان هوج عواصف      فيركب من أهوالها شمر مركب  
سلام على قطر الشام بأسره      سلام على أهليه من كل مذهب

وقد جعل فرحات دأبه التنديد بتلك الفئة الضالة التي استشرى التعصب  
في نفوسها ، فعقت آباءها العرب وتنكرت لاصولها حتى ارتمت في أحضان فرنسا  
ووجدت فيها أمماً حنوناً (٣) :

قتلت أباكم وحوالتهم      الى نعشه نظراً جاحدا  
وقلت فرنسا أم حنون      فلا بأس أن تقتل الوالدا

(١) زهير ميزنا : إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر ١٩١

(٢) ديوانه ١١١ (٣) ديوانه ١٢١

وقلتم نجيء بشكل الوصي فتجعل هابطننا صاعدا  
ولكنها أوقدت للتعصّب ب ما كان من حجره خامدا

ومن جهة أخرى يمكن القول إن تدخل بعض رجال الدين في شؤون السياسة وتسلطهم على الحكم بالإضافة الى ما عرفوا به من تزمّت ، كل ذلك كان له أسوأ الأثر في نفوس أحرار الفكر وأولي النزعة القومية المتحررة . ولهذا كانت الحملة عليهم شديدة سواء في الشعر أم في النثر وبخاصة في المهجر حيث امحى التعصّب الديني وتسلطه على الحكم ، وفي ذلك يقول شكر الله الجر (١) :

وطن تدعى المهائم فيه الـ فضل دعوى القلائس الكذابه  
إن شعبا قواده رؤساء اللـ ين شعب لا شك ناح خرابه  
ولهذا وجدنا إلياس فرحات يثير عليهم الحرب العوان بقوله (٢) :

لا يفهمون الدين إلا جبة وعمامة وتنطما وهراء  
ان يخر الوطن (اللواء) وأخته وسواهما فالأمر ليس بلاء  
أما إذا نقض الوضوء فنكبة تدرى الجبال وتغمر الأوداء

والواقع أن نار التعصّب الطائفي في لبنان بلغت خلال بعض العهود إبان الانتداب حداً خطيراً ضج منه العقلاء واستنكره الكتاب والشعراء ؛ حتى بدا للجميع أن عودة الوثام والتسامح الى النفوس أمنية بعيدة المنال . وهذا نقولاً فياض ينطق بأنبال المشاعر وأسمى العواطف من بلد استحكمت في أهله الطائفية الذميمة ، فهو يتطلع الى ذلك اليوم المنشود ويناجيه بقوله (٣) :

(١) الروافد ١٨

(٢) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر ٧٠

(٣) رفيف الاقحوان ١٠٣

يا فجر يوم إليه منتهى أملي  
 وغداة يجمع داعي الحب شملكم  
 وفي القلوب وفي الآذان قاطبة  
 غداة تمحى حزازات الصدور فلا  
 ولا يفضل مخلوق لمذهبه  
 هذا دمي ان تتادوني وذا قلبي  
 وثوره مالىء قلبي ووجداني  
 على تساييح إنجيل وقرآن  
 صوت المؤذن والناقوس سيان  
 يثيرها الدين حربا بين إخوان  
 من مسلم ويهودي ونصراني  
 كلاهما عربي الأصل لبناني

### ٣

أما الظاهرة السامية التي تجلت في الشعر القومي في هذا المجال فهي أن ظلمات التعصب الذميمة والفرقة والشقاق كانت تضمحل أو تتوارى إبان الأزمات الوطنية والمحرف القومية التي تعصف بالبلاد. وكان اندلاع الثورات القومية في أنحاء الوطن العربي خير ما يبعث على التضامن والاتحاد ويشيع الألفة والوئام. ولعل أبرز ما اتسمت به ثورة ١٩١٩ التي قام بها المصريون ضد الاحتلال الانكليزي ذلك الالتفاف الرائع حول الوطن وحول زعيمه سعد زغلول. فقد صهرت تلك الثورة جميع عناصر الأمة بلهيب الوطنية فحل التسامح محل التعصب وطفى الشعور القومي على المنغرات الطائفية وتعانق الصليب والهلال في معركة الكفاح بأسمى معاني الاخاء. وقد تجلّى هذا الشعور الفامر على ألسنة الشعراء الذين انتشوا بهذا المظهر الرائع في وحدة صفوف الأمة، على نحو ما قاله محمد عبد المطلب آنذاك (١):

(١) ديوانه ١٠٥.

بئينا على آداب عيسى وأحمد	منازل عز دونها يقع النسر
فتحن على الانجيل والذكر أمة	يؤيدها الانجيل بالحق والذكر
كلانا على دين به هو مؤمن	ولكن خذلان البلاد هو الكفر
إذامادعت مصر ابنها نهض ابنها	لنجدها سيان مرقس أو عمرو

ويعد أحمد شوقي في رأس من بشر بالتسامح ودعا الى نبذ التعصب والفرقة ، وقد أوتى براعة فائقة في تناول الأمور الدينية في شعره ، وكان حريصاً على كسب ثقة المسلمين والمسيحيين على السواء ، ولذلك نراه كثيراً ما يعزف ألحانه الشعرية على أوتار المحبة والوئام ونبذ التعصب والخصام . وهو في الأبيات التالية يزهي بذلك التضامن الرائع بين الطوائف الدينية في مصر ويقول (١) :

إنما نحن مسلمين وقبطا	أمة وحدت على الاجيال
سبق النيل بالابوة فينا	فهو أصل وآدم الجد تالي
والى الله من مشى بصليب	في يديه ومن مشى بهلال

وزاه يستعذب هذه النغمة في شعره كلما سنحت له فرص القول ، حتى إنه يسمو الى مستوى إنساني رفيع في بعض أبياته ، على نحو ما يتسم به رثاء بطرس غالي الذي كاد اغتياله يودي بوحدة الامة (٢) :

نعلي تعاليم المسيح لأجلهم	ويوقرون لأجلنا الاسلاما
الدين للديان جل جلاله	لو شاء ربك وحد الاقواما
هذى قبوركم وتلك قبورنا	متجاورين جماجماً وعظاما

(١) الشوقيات ١ : ٢٢٨

(٢) الشوقيات ٣ : ١٤٤

وهكذا دأب شوقي على التنديد بالتمصب في حضه المصريين على  
الوئام ومناشدة مسلميهم وأقباطهم التعايش بسلام على الصعيد القومي .

ولقد ارتبط اسم سعد زغلول بالاتحاد والتضامن والاخاء . وأكثر  
من توجه إليه بالقول من الشعراء في حياته أو بعد مماته ألح على هذا الامر ،  
وفي ذلك خاطبه علي الجارم في أعقاب ثورته وشعبه على الانكليز بقوله (١) :

ألفت بين المنصرين وكنت للرحمن حزبا  
نبذوا الشجار وأبدلوه لمصر إخلاصا وجبا  
وسعى الهلال الى الصليب وأقبلا جنبا فجنبا

ومن هذا القبيل ما نظمه محمد الاسمر آنذاك مشيراً الى التفاف الشعب من  
جميع عناصره حول هذا الزعيم المصري إذ قال (٢) :

أرى الشعب آلى أن تكون زعيمه      وأعطى لك الميثاق دير ومسجد  
وأنت الذي لا يعرف الشعب غيره      وأنت الذي حياه عيسى وأحمد

ولم يكن اندلاع الثورة في سورية عام ١٩٢٥ مغايراً في تأثيره لما حدث  
في مصر من تناس للأحقاد ونبذ للتمصب ، إذ أن حمم المستعمرين فوق  
دمشق لم تكن لتمييز بين المسلم والمسيحي ، وقد لقي الجميع من كيد الطفأة  
أهوالاً . والحق إن ائتلاف عنصري الشعب في سورية كان خير عزاء للبلاد في  
محتها القاسية إبان تلك الثورة لان هذه الظاهرة التي انبثقت قوية لدى الجماهير  
آنذاك كانت كسباً كبيراً لدفع الوعي القومي الى الامام وتعميق جذوره

---

(١) الشوقيات ٤ : ٥٥

(١) ديوانه ٢ : ٨٣

في النفوس . وقد أشار الى ذلك خليل مردم في صدد رثائه دمشق  
المنكوبة فقال (١) :

بلت دمشق بنها يوم محتها      فلم تجد غير من صحت عقائده  
ترى الحنيني يوم الروع مبتدرا      الى المسيحي في البلوى يساعده  
الحمد لله أني في حمي وطن      تحمي كنائسه فيه مساجده

ولم يقتصر هذا التجاوب مع وحدة الطوائف على شعراء دمشق أوسورية  
يوهناك بل رن صدها لدى كثير من شعراء العرب في مصر والعراق والمهجر .  
وقد أشار شوقي في قصيدته النونية التي ناجى فيها دمشق الى أهمية التقاء عناصر  
الشعب على صعيد الثورة الوطنية فقال (٢) :

الملك أن تتلاقوا في هوى وطن      تفرقت فيه أجناس وأديان

إلا أن معروف الرصافي كان أكثر تفهماً لمعضلة الطائفية في الشام ولهذا  
جاءت قصيدته التي نظمها - إثر نكبة دمشق بقذائف الفرنسيين رائعة من حيث  
روحها القومية ودعوتها الصادقة الى التسامح والوئام فيما قاله فيها يومذاك (٣) :

إذا القوم عمتهم أمور ثلاثة      لسان وأوطان وبلله إيمان  
فأي اعتقاد مانع من أخوة      بها قال إنجيل كما قال قرآن  
كتابان لم ينزلهما الله ربنا      على رسله إلا ليسعد إنسان

(١) ديوان الثورة ١٢٤

(٢) الشوقيات ٢ : ١١٦

(٣) ديوان الثورة ٥٣ ، ديوان الرصافي ١٣١

فمن قام باسم الدين يدعو مفرقا      فدعواه في أصل الديانة بهتان  
 أنشق بأمر الدين وهو سعادة      إذن فاتباع الدين يا قوم خسران  
 متمك إلى المجد المؤثل (تغلب)      كما قد متمكم للمكارم (غسان)

والحق إنه بنتيجة التجارب المريرة التي عاناها العرب وبلوا فيها أخطار  
 الشقاق والتعصب السياسي والطائفي أخذ يقر في الأذهان أن الصراع مع المحتلين  
 لم يكن مجدياً إلا حين تضافرت الجهود وتضافحت القلوب . وقد تجلى هذا  
 الاتجاه أوضح ما يكون في الشعر القومي الذي كان ينطق عن ضمير الأمة  
 ومشاعرها القومية ؛ فقد راح الشعراء يحضون على الوثام ويدعون إلى  
 التسامح ويعلون قضية الوطن والتحرر على كل النعرات والحزبات . وهذا  
 عباس محمود العقاد يأسي على ما فيه السوريون من صراع طائفي فيناجهم  
 بقوله (١) :

ما في الدامع من شعار كنيسة      يوم الحنين ولا شعار هلال  
 أمنازعون على السماء وأرضكم      نهب لكل منازع ومووال  
 من بعلبك خذوا المثال لرأيكم      يوم الخلاف وتلك خير مثال  
 فيها لموسى والمسيح وأحمد      أثر ، واللوثن القديم البالي

بهذه الروح السمحة صدر الشعراء قاطبة وأخذوا يبشرون برسالة المحبة  
 والسلام بين عناصر الأمة وطوائفها برفق على نحو ما وجدناه لدى أمير الشعراء  
 أحمد شوقي أو ما نجد في أبيات نخير الدين الزركلي تتضوع من ثنياه فحة  
 إنسانية تذكرنا بروح أبي العلاء في لزومياته (١) :

يُكفر فينا معشر معشراً على الحق، والانساق قد يتبصر  
دع الناس لا تبغ الذين تهودوا بشر ولا تبغ الذين تنصروا  
عجبت لأمر الناس أبناء واحد يفرقهم دين وجنس وعنصر

وقد رأى فؤاد الخطيب شاعر الثورة العربية أن العاطفة القومية تسع  
الناس على اختلاف معتقداتهم فقال (١) :

إن العروبة لا يفرق بينها بعد التآلف قبلة أو هيكل  
أينالهم ضيم وبين صفوفهم عيسي المخلص والنبي المرسل

كما تجلت هذه الروح السامية التي تتفهم جوهر الاديان بعمق في قول إلياس  
قنصل واصماً بالمروق ومخالفة الدين نفسه كل من يفرق باسم الدين (٢) :

ولا الانجيل يأمر بالتقالى ولا القرآن بالفضاء أغرى  
وعيسى عن تنافرنا تناءى وأحمد من تنازعنا تبرأ

وفي ذلك يقول أيضاً جورج صيدح الشاعر المهجري (٣) :

قل لمن دس في الصفوف شفاقاً بين طه وبين عيسى بن مريم  
جحد الدين جاحد الوطن الغا لي سواء مقلنس أو معمم

وقد بشر حسن الجيري من شعراء فلسطين بوحدة طوائف الامة ودعا  
الى إبعاد المعتقدات الدينية عن المجال القومي ، أو بعبارة أدق نادى بانصهار معتنقيها  
من المذهبين في بوتقة القومية فقال (٤) :

(٢) ديوانه ٣٧  
(٤) ابتسام الضحى ٧١

(١) ديوانه ٢٨٦  
(٣) النوافل ١٤٥



وإذا تنادينا لدفع كريهة      عن مهبط الانجيل والفرقان  
سرنا لها وهلالنا وصلينا      في سيد الأعلام يعنتقان  
ما بيننا عند التنادي مسلم      كلا وما في جمعنا نصراني  
فالشرق موطننا ونحن حماه      بنفوسنا ، والدين للديان

ومن هنا استنكر كل شاعر قومي بل كل مواطن حر تفاني الشعوب  
فيما بينها واتخاذ الدين ذريعة لزيادة الشقاق وبث الاحقاد بين أبناء الوطن الواحد على  
نحو ما نرى في قول خليل مردم (١) :

فيم التقاطع والارحام واشجة      والدار جامعة والملتقى أمم  
الله في قطع أرحام وفصم عرى      عهدي بها وهي وثقى ليس تنفصم  
قالوا في الدين بون دون وحدتنا      الى متى باسم هذا الدين نققسم

## ٤

وبنتيجة تتبع جوانب وجدان الامة المشترك ورصد مشاعرها الجماعية  
يمكن القول تبعاً لاطراد نحو الوعي القومي في النفوس إن حدة الصراع الطائفي  
قد خفت وأخذت تسير نحو الثلاثي أمام نور الوعي القومي كما تطرد النار الخبث  
من الحديد ، وجر السنين وتعاقب الايام بسط التسامح جناحيه على الامة واشتدت  
أواصر الاخاء وازدادت المحبة والالفة . وكان ما فاضت به قرائح الشعراء في هذا  
المجال يعبر عن أسمى المشاعر وأنبيل العواطف . فمن لبنان هذا البلد الصغير الذي  
عاني من وطأة أدواء التفرقة والتعصب الطائفي ما لم يعاناه وطن كانت تنطلق

(١) جريدة ألف باء الدمشقية ، السنة الاولى ، العدد ١٧٧

نداءات المحبة والوئام ويقفني الشعراء بالتسامح والسلام على نحو ما انطلق به نقولا  
فياض إذ قال (١) :

لي في هوى وطني كتاب خالد      يبقى على المكتوب من أيامي  
سجلت نصرانيتي في متنه      ونشرت فوق سطورهِ إسلامي  
وقال (٢) :

شمس العروبة في لبنان ما غربت      يوماً ولا غاب عنها نورها القاني  
الطائفية يا رباهِ مغفرة      بلية الشرق هذى منذ أزمان

والجدير بالذكر أن الشاعر ألقى هذه الايات في مهرجان منظمة (الكتائب)  
وهي ذات طابع طائفي ، ولا تقيم في مبادئها كبير وزن للقومية العربية وهذا  
دليل على تغفل الاتجاه القومي العربي الى أبعد مدى محمولا على أجنحة الوئام  
والسلام . وكذلك نجد شاعراً مسيحياً آخر أبي إلا أن يفتنم فرصة زيارة حافظ  
إبراهيم لربوع لبنان عام ١٩٢٩ ليحييه تلك التحية القومية الخالصة ، ويعبر من  
خلال ترحيبه به عن ذلك الفجر الجديد الذي أخذ يلوح في أفق الوطن العربي  
مبشراً بوحدة طوائفه وتحرره القومي ، وقد آثر لقصيدته عنواناً هو « وحدة  
إنجيل وقرآن » إنه ( حلیم دموس ) الذي قال (٣) :

دمشق يا جنة الدنيا وبهجتها      إلمك قلبي وفيه سر إيماني  
وما رضيت بأن ألقاك زاهية      بشاعر بل تجلي عندك اثنان  
(بحافظ) و(خليل) من إذا ذكرنا      نادى بنو الضاد يا نعم الاميران  
هما الشقيقان في أوطاننا وهما      عنوان وحدة إنجيل وقرآن

وهذا أيضاً شاعر مسيحي هو اسكندر الخوري البيتجالي من الديار  
المقدسة في فلسطين أرض النبوات ومهد المسيح ومسرى محمد يعلن تمسكه بالعروبة  
ووحدة عناصر الامة بثقة وطيدة (٤) :

(٢) رفيف الاقحوان ١٣٣

(٤) العقود ٦٢

(١) رفيف الاقحوان ١٠٣

(٣) الثالث والثاني ٢ : ٣٤٧

لا لن تنال من اتحاد الملتين يد الفتن  
كلا ولن تصدع ما بينهما هذى الحن

وذلك وديع البستاني يتغنى منتشياً بما كان من تماسك أهل فلسطين في  
الأزمات ويقول (١) :

المسدون مع النصاري كبروا ومهللون مع النصاري رحبوا  
والهدد للأقصى انثى وتعانقا وانظر فحولك بيت لحم ويثرب  
ولعل تحول أحمد شوقي الى الاتجاه الوطني الصرف إثر عودته من منفاه  
في الاندلس وهو شاعر الجامعة الاسلامية أبرز مثال على تدفق المشاعر القومية في  
نفوس الامة وشعرائها، وطقيانها على كل نزعة أخرى قد تحد من انطلاق العرب  
نحو تحررهم المنشود، فما قاله يومئذ مناجياً وطنه (٢) :

أدير إليك قبل البيت وجهي إذا فته الشهادة والثابا  
ولو أني دعيت لكنت ديني عليه أقابل الحنّ الهجابا  
أو حين قال (٣) :

وجه الكفانة ليس يفضب ربكم أن تجملوه كوجهه معبوداً  
فقد عدا الوطن في منزلة أسمى من البيت الحرام عند أمير الشعراء، كما  
عدت عبادة الوطن تضارع عبادة الله .

تم تملك هذا الهوى نفوس الشعراء حتى جعلوا العروبة دينهم والوطن  
معبودهم، وعدا الشاعر القروي أبرز هؤلاء إذ يقول (٤) :

إنني على دين العروبة واقف قلبي على سبحاتها ولساني  
إنجيلي الحب المقيم لأهلها والذود عن حرمتها فرقاني

(٢) الشوقيات ١ : ٦٨

(٤) ديوانه ٢١ : ٤

(١) الفلسطينية ١٨٦

(٣) الشوقيات ١ : ١٣١

وما كان أحلى قوله في التعبير عن هذه المنازع السامية حين نظم قصيدته  
تمجيداً لذكري مولد محمد الرسول العربي وقال (١) :

أكرم هذا العيد تكريم شاعر      يتيه بآيات النبي العظيم  
هبوني عيداً يجعل العرب أمة      وسيروا بجثماني على دين برهم  
سلام على كفر يوحد بيننا      وأهلاً وسهلاً بعده بجهم  
وعلى هذا المنوال من اعتناق العقيدة الوطنية واتخاذها ديناً نسج سائر  
الشعراء قصائدهم فقال إلياس فرحات (٢) :

أنا العربي خلقاً وانتساباً      وإن أك لست بالعربي ديناً  
ولو أوصي بكره العرب دين      لكنت إمام للملحدينا

حتى ان إلياس فنصل الذي أسمى ديوانه « على مذبح الوطنية » أثر أن  
يفتحه بقوله :

إذا كان ديني عن تحرر موطني      يعيق فقد طلقت ديني وإيماني

وسرت هذه الروح السمحة التي بلغت لدى طائفة من شعراء المهجر أوج  
سموها الى سائر الشعر الحديث وأصبحت تشكل ظاهرة بارزة من ظواهره ، وقد  
زُهي بدوي الجبل بالدين الجديد الذي يجمع شمل المسلمين والمسيحيين على الصعيد  
القومي فراح يدين به ويردد (٣) :

تنبه هذا الشرق حتى تصافحت      فلانسه محمودة والعمائم  
ندين بدين الحب شيئاً وفتية      وأنف الذي يهوى التفرق راغم  
لقد ألفت ما بين عيسى وأحمد      مغنم نلقاها معاً ومغارم

كما يقول بلهفة المتصوفة :

(٢) ديوانه ١٧١

(١) ديوانه ٣١٥

(٣) ديوانه ١٣٢

الدين دين الحب فهو عقيدتي      ولو انه في الشرق قل دعائه  
بيت العروبة قبلي ومحجتي      لا (طوره) قصدي ولا (عرفاته)

وإذا كان كثير من الشعراء العرب مسلمين ومسيحيين قد آثروا البعد عن كل ما يشير الى المسيحية أو الاسلام إلا في معرض سلمي في غالب الاحيان ، فان شاعراً مسيحياً كرشيد الخوري ذهب الى أبعد من ذلك وكأنه يضمن بـتراث الاسلام أن يهدر في المجال القومي لمجرد تهذئة الخواطر ومجاملة ذوي الحساسية المفرطة والنفوس المعقدة :

عش للعروبة هاتفاً      بحياتها ودوامها  
انظر الي آثارها      تنبئك عن أيامها  
هذا التراث يت مع      ظمه الى إسلامها

ويقول :

أنا العروبة لي في كل مملكة      إنجيل حب ولى قرآن إنعام  
شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت      عروتي مثل الأعلى وإسلامي

فالشاعر يرى في الاسلام خير دخر للعرب ولقوميتهم على اختلاف مللهم ونحلهم . وما من ريب في أن كثيرين من الشعراء لم يبلغوا هذا الشأو في فهم العلاقة بين العروبة والاسلام فلم يكن بوسعهم دائماً التمييز بين الاسلام من حيث أنه دين من الاديان أو أنه تراث قومي للعرب أجمعين .

وهكذا رسخت العقيدة القومية في النفوس ونافست في منزلتها العقيدة الدينية بل طغت عليها وغشتها برداء التسامح والاخاء .

ومن الملاحظ أخيراً أن شعراء المهجر - كما اتضح لنا من أشعار صيدح والقروي وفرحات وأبي ماضي وقنصل والشرتوني وسواهم - قد أولوا عناية بالغة موضوع التضامن والوئام بين عناصر الامة العربية ، وهذا أمر طبيعي نتوقعه من شعراء يمكن اعتبارهم أدرى الناس بأخطار التعصب الطائفي الذميمة الذي عانوا منه الاهوال في وطنهم قبل رحيلهم عنه الى العالم الجديد ، بل كانوا هم أنفسهم من

ضحايه ، وفي مقدمة العوامل التي دفعت بهم الى الهجرة ، وثمة سبب آخر لا يمكن إنكاره وهو أن بروز هذا الاتجاه في أدب المهجرين شعره وثره كان في الواقع نتيجة تأثرهم بتحرر الفكر الغربي الحديث وما وجدوه في بيئتهم الجديدة من احترام للعقائد الفردية وشيوع التسامح الديني في المجتمعات الغربية وعلمانية الدول الحديثة .

ومن جهة أخرى فان شعراء لبنان الذين عاشوا في حمأة الاحداث كانوا أسبق من بشروا بالتسامح الطائفي على نطاق واسع . وإن انبثاق مثل تلك الاشعار التي مرت بنا عن شعراء مسيحيين بالدرجة الاولى ، مفعمة بالنفحات النبيلة الصادقة لما يبعث على الفخار في حياة العرب الحديثة . ويتضمن من جهة أخرى مغزى هاماً ودلالة كبرى على إشراق النفس العربية وتحررها من بقايا التعصب والهوى .

لقد كان الشعر العربي الحديث - بصورة عامة - عامل خير ووثام ورائداً للعرب في نزوعهم الاصيل الى التسامح والتضامن والسلام .

## الفصل الخامس

### البطولة والفداء

ليس شعر البطولة والفداء بالفرض المستحدث في أدبنا الحديث ، فهو من أعرق الموضوعات التي عرفها الأدب العربي وسائر الآداب الأخرى ، كما كان محور شعر الملاحم في العصور الغابرة . ولم يكن شعر الحماسة عند العرب في أروع آياته سوى شعر البطولة والفداء والتضحية والاقدام مستوحاة من صميم حياتهم وواقع مجتمهم . ولعل أبرز ما قيل في هذا الموضوع صدر أول الأمر عن عدد من الشعراء الجاهليين ثم تجلى بأسمى معانيه على ألسنة شعراء الخوارج .

وقد ورث العرب اليوم عن أجدادهم حب البطولة وتقديس التضحية وراح شعراؤهم يتغنون بأعمال البسالة والاقدام التي أكبروها في معاصريهم وفي أجدادهم على السواء .

وإذا كان الجود بالنفس أقصى غاية الجود كما قال شاعرنا العربي ، فمن الطبيعي أن يهز سقوط الشهداء في ساحات الجهاد وجدان الأمة ويلهب قرائح شعرائها . ومن هنا لم يكذب ديوان شعر أو مجموعة شعرية خلال هذه الفترة الحافلة بالأحداث من قصائد تجدد بطولات الشهداء وتخلد مواقفهم الرائعة .

وتبعاً لارتباط الأدب المتزايد بواقع الأمة العربية فإن جانباً كبيراً من شعر الرثاء أخذ يشكل ظاهرة قومية بارزة في الشعر الحديث . ولعل أكبر حدث قدمت فيه الضحايا على مذبح القومية منذ قامت الحرب العالمية الأولى كان إعدام جمال باشا التركي على إعدام عدد كبير من أحرار الشام في ساحات دمشق وبيروت فقد تركت تلك المجزرة الأليمة جرحاً بليغاً في نفوس العرب ظل يدمي على كر السنين ويهيج قرائح الشعراء حتى يومنا هذا ، ففي تلك القصائد امتزجت صيحات الثأر والثورة بدموع الحزن والأسى .

وقد احتفظ لنا رجال الرعيل الأول ومؤرخو الثورة العربية بشذور قليلة من الشعر الحماسي الذي نظمه أو تمثل به أولئك الشهداء في لحظاتهم الأخيرة ، من ذلك ما تمثل به ( باترو باولي ) وهو يعتلي منصة الإعدام :

ومن لم يمت بالسيف مات ( بجملة ) تنوعت الأسباب والموت واحد

وفي الطريق من سجن ( عالية ) حين سيق الأحرار الى ساحة الإعدام كان الشهداء يرددون هذين البيتين من سيارتهم المقفلة (٢) :

نحن أبناء الألى شادوا مجداً وعلا  
نسل قحطان الأبي جد كل العرب

كما رددوهما أيضاً امام أعواد الموت بصوت جماعي (٣) ، والمرجح أنهما يشكلان المطلع أو اللازمة من أنشودة حماسية قدر لها أن تصحب المجاهدين حتى لحظاتهم الأخيرة . وقد ذكر مؤرخ الثورة العربية أمين سعيد أن الشاعر عمر

(١) أمين سعيد الثورة العربية الكبرى ١ : ٨٧ (٢) المصدر السابق ١ : ٨٦

(٣) الدكتور أحمد قدرى : مذاكراتي عن الثورة العربية ٥٥



حمد كتب على الطاولة قبل خروجه من دائرة البوليس ثلاثة أبيات حماسية من الشعر جعل يرددها وهو صاعد الى المشنقة (١)؛ وما يؤسف له أن المؤرخ لم يذكر لنا تلك الأبيات .

ولكن هل نجد من الشعر العربي في تلك الفترة ما يتناسب مع هول هذا الحدث الكبير ويشفي الغليل؟ الواقع أنه من الصعب كما يقول الأستاذ أنيس المقدسي (٢) « أن يصف كاتب ما خالج قلوب السكان يومئذ من الملح والنقمة ، وها نحن نعيد ذكرى تلك الأيام المؤلمة فيعود الى نفوسنا ما كنا نشعر به من الضغط والرهبة ، شعور مخيف كان يخيم على البلاد حتى لم يكن أحد يجسر على التكلم أو البحث في الشؤون السياسية وإظهار الأسف على شهداء العربية . ومن الطبيعي أن يظل الشعر في هذه الفترة حبيساً في النفوس وأن يطأطأ الناس هاماتهم تحت سيف الارهاب المصلت وقوانين الحرب الصارمة ، وأن يلجم الشعراء ألسنتهم على مضض وهم يتميزون من الغيظ . وعلى هذا فان علينا أن نلتمس ما قيل في شهداء العرب من تخليد لذكراهم وتمجيد لبطولتهم بعد أن انجابت الكربة عن الوطن العربي وداعت نساء الحرية وجوه الأحرار . وبعد أن استؤصلت شأفة الترك من البلاد .

وتعد القصيدة المطولة « النائحة » التي نظمها شاعر العراق جميل صدقي الزهاوي في شهداء أيار وتفجع فيها عليهم من أهم ما يسجل مواقف الشهداء الرائعة ويصور بطولتهم الفذة وهم يعتلون أعواد المشانق (٣) :

دنوا فرقوها واحداً بعد واحد      وقالوا وجيزاً ليس فيه فضول  
فمن سابق كيلا يقال محاذر      ومستعجل كيلا يقال كسول

وقد أشار الزهاوي في قصيدته هذه التي عرفت بمعلقه الشهداء الى

---

(١) الثورة العربية الكبرى ٨٨  
(٢) الاتجاهات الأدبية ١ : ١٠٨  
(٣) انظر القصيدة كاملة في رفايل بطي : الادب العصري في العراق ١٨ ، والشهداء المشار إليهم عبد الغني العريسي وعارف الشهابي وعبدالكريم الخليل .

كثير من أولئك الشهداء بأسمائهم وأشاد برابطة جأشهم تجاه الموت الزؤام فقال :

وهل (العريسي) الجريء و(عارف) إذا عد أقطاب اليراع عديل  
(وعبدالكريم) الندب ماضع رشده إذ الدهر يسقيه الردي ويفول  
تمثل فوق العود قبل وفاته بيت يؤسي الشعب وهو يقول  
« إذا مات منا سيد قام سيد قؤول بما قال الكرام فعول »

أما الشاعر المهجري أبو الفضل الوليد فقد عمد بأسلوبه الحماسي وألفاظه  
الجزلة الى تخليد ذلك الموقف في قصائده دون أن تبدو منه بادرة ضعف أمام القدر  
أو استسلام للدموع ، فهو يناجي أرواح أولئك الشهداء بقوله (١) ،

مشيم باسليين الي المنايا وكان لكم على النطع ابتسام  
ليحيي العرب قد صحتهم وتم فصيحتم نخطتكم دوام  
على أعواد مرقية رفعت منارات بها يهدى الأنام  
ورب ضحية أحييت شعوباً فكان لها انعتاق واقتحام

وقد تناول شاعر دمشق خليل مردم بك موضوع شهداء أيار في جملة من  
تناولوه من الشعراء وحرص على إبراز معنى تضحياتهم وأثرها في تشييد صرح الحرية في  
بلادهم فقال (٢) :

وطني ، تقدس في الورى استقلاله شهداؤنا ودماءؤهم قربانه  
فتعطرت بنفوسهم أجوائه وتخصبت بنجيعهم قيعانه  
ولقد عجت لمن يحاول هدمه وعلى الجماجم وطدت أركانـه

وعلى هذا المنوال كان سائر الشعراء ينسجون قصائدهم من نحو قول شاعر  
العراق محمد رضا الشيبني مناجياً أولئك الضحايا (٣) :

(٢) ديوانه ١١٨

(١) الانفاس الملهبة ٧٢

(٣) ديوانه ١٨٣

قالوا تكون فداءهم أوطانهم فتجاوبوا كلا نكون فداءها  
إن الضائر والقلوب إذا دجت دخل الأسي أعماقها فأضاءها

وفيما نظمه خير الدين الزركلي وإبراهيم طوقان ومصطفى الغلاييني وشفيق  
جبري وعمر يحيى وحليم دموس ومحمد العدناني ونصرة سعيد وعشرات الشعراء  
سواهم خير مثل علي ما قدمه الشهداء الاوّل الى أدبنا الحديث من أسمى معاني البطولة  
وأروع آيات الفداء مما كان خير زاد قومي للجيل العربي الصاعد .

ولعل أول ما يبدو للباحث من خلال هذه المقطوعات أن هذا الحدث الذي  
شهدته ساحات دمشق وبيروت في ذلك اليوم الرهيب لم يكن حدثاً محلياً انحصر  
صداه في هذين البلدين فحسب بل كان مصاب العرب قاطبة آثار قرائح الشعراء  
إثارة حادة فتناوله - كما تبين لنا آنفاً - من في العراق ومن في الشام واهتز له من  
كان في مهجره القصي . والظاهرة الاخرى التي تتجلى أمامنا من خلال هذا  
الشعر وما يمثله في موضوعه أن أكثر من رثوا هذه القافلة من شهداء العرب  
حرصوا على إبراز عظم التضحية التي قدموها ، وروعة البطولة التي تحلوا بها ، فلم  
تكن قصائدهم مرثي دامعة ، ولم تجد نغمات اليأس إليها سبيلاً ، وربما كان  
مرد ذلك الى أن أكثر ما قيل في هذا الشأن لم ينظم في إبان المجزرة الرهيبة وإنما  
صدر بعد حين - كما سبق لنا القول - ولذلك لم تعل في تلك القصائد رنة  
الحزن ولم تبلل قوافيها بدموع التفجع بقدر ما دوت صيحة اليأس وصرخة الثأر .  
والحق إن اندلاع الثورة العربية الكبرى بعد تعليق أولئك الاحرار على الاعواد  
بنحو شهر واحد ، وما طفحت به قصائد الشعراء آنئذ من روح التمرد والاباء  
يعد دليلاً ساطعاً على ما بلغت نفسية المجتمع العربي يومذاك من نقمة على الاستبداد والظلمين .

وما شهداء أيار الذين توجوا سفر البطولة والفداء بدمائهم الزكية وأرواحهم  
الطاهرة إلا طليعة القرابين المقدسة فوق أديم هذا الوطن . إذ ما كاد المستعمر  
الاجنبي يطأ مسأراً أرض العرب حتى أخذ الاحرار يتساقطون صرعى أمام

قوات البغي . وكانت معركة ميسلون واستبسال حاميتها مع قائدهم حتى الرمق  
 الاخير مثلاً أعلى للبطولة خلد أصحابها في سفر نضال الشعوب وجعل منهم مناراً  
 للنفوس المتحفزة نحو التحرر . وإن ما قيل من شعر في بطل ميسلون وصحبه  
 كان شعراً متمرداً تعبق قوافيه برائحة الكفاح وتهب من ثناياه نفحات البسالة  
 والاقدام . وكم حفز ذلك اليوم من عزائم وخلف من شجون وأثار من  
 قرائح . لقد اهتز الياس فرحات لبناتك البطولات فراح ينشد (١) :

كأن الحق أسكرهم فثاروا وساروا بالعصي يقاتلون  
 كأنهم راوا في الفر عاراً فكروا بالنية يهتمونا  
 رأوا في ميسلون الموت مجدداً فأتوا دونها مستبسلينا

أما (يوسف العظمة) وزير الحربية السورية وقائد المدافعين عن دمشق  
 ضد جحافل (غورو) الفرنسية فقد غدا في نظر الشعراء وسائر الناس بطلاً  
 خالداً فتحت له القلوب وانطلقت بتمجيده الحناجر ، فهو أول سد أقيم في وجه  
 الاستعمار ، كما أنه رائد الشهداء في ساحة الجهاد . وما أكثر تلك القصائد التي  
 تصور وقتته الملحمية الخالدة من مثل قصيدة أمير الشعراء شوقي التي يناجي  
 فيها « بطل ميسلون » بقوله (٢) :

شيد الحق في ثبج الصحارى تخاف العاصمات له ذبالا  
 مقيم ما أقامت ميسلون يذكر مصرع الاسد الشبالا  
 مشى ومشت فيالق من فرنسا تجر مطارف الظفر اختيالا  
 فكفن بالصوارم والموالى وغيب حيث جال وحيث صالا

(١) ديوانه ١٧١

(٢) الشوقيات ٣ : ٢٢٧

كما أشار خليل مردم بك الى أن ذلك القائد كان فائحة شهداء سورية ضد  
الاحتلال فقال يناجيه (١) :

أيوسف والضحايا اليوم كثر      ليهنك كنت أول من بداها  
غضبت لامة منها معد      فأرضيت العروبة والالاها

ومما يشير الى المدى الذي أثاره استشهاد بطل ميسلون في قرائح الشعراء  
أن أبا الفضل الوليد وهو في مهجره القصي صعق بالتبأ فور سماعه بالفاجعة، فانكب  
على نظم قصيدته المطولة التي أسماها « الشهادية » في جلسة واحدة لم يدع خلالها  
القلم من يده إلا بعد أن أنجزها وكانت قد بلغت ١٦٨ بيتاً (٢) ومما قاله فيها (٣) :

هو القائد الاعلى في العرب الذي      حكى أنجد القواد بل كان أمهرا  
وما بسقت حرية وتأصلت      بغير الذي يجري من القلب مهذرا  
تمنيت مع فتيان قومي شهادتي      ولكنني أهوى الحياة لأثارا

وهكذا غدا شهيد ميسلون موضوعاً بطولياً سامياً نسج حوله الشعراء  
هالة مدحجية من آيات التضحية والفداء والخلود .

## ٢

ولم ينجل غبار الثورات القومية المتعددة في الشرق العربي الا عن  
أشلاء الضحايا الممزقة وجثث الشهداء المبعثرة في مصر والعراق وسورية وفلسطين  
وفي كل شبر من الوطن العربي . وقد تجلى ذلك في أروع الشعر وأصدق . من  
ذلك ما نظمه محمد مهدي الجواهري في إحدى البطولات التي تكشف عنها الثورة  
العراقية الاولى التي شبت ضد الانكليز عام ١٩٢٠ اذ قال (٤) :

(١) ديوانه ١٣١

(٢) روى هذا الخبر الدكتور إسحق موسى الحسيني عن أسعد طعمة أحد أقارب الشاعر

(٣) نغحات الصور ١٢٢ (٤) ديوانه ٣ : ٢١٦

كهي مشى بين السكاة وحوله  
هم استسلموا الموت والموت جازف  
نجوم بليل من عجاج طوالع  
وهم عرضوا للسيف والسيف قاطع

كما وصف محمد جواد العماري بطولة نفر من العراقيين إبان تلك الثورة  
الدامية في موقعة (الرميثة) حيث أبادوا فيلقاً انكليزياً بعد أن أحكموا محاصرته (١):

وتألفت حول الرميثة فتية  
خاضوا المعارك ثأرين وما بهم  
مثل البذور يزينهم ابراق  
إلا الجسور الى الردى سباق  
قتلا لأت في الرافدين رماحهم  
حتى استقل وبنده خفاق

وربما كان موضوع أبطال الثورة السورية وشهادتها من أهم الموضوعات  
التي حظيت بعناية الشعراء سواء ما كان منهم في الشام نفسها أو في سائر أقطار  
العرب. وما «ديوان الثورة» الذي ضم كثيراً من هذه القصائد إلا جزء يسير  
مما قيل في هذا الصدد، فقد تكشفت الثورة السورية عام ١٩٢٥ عن بطولات  
فذة اذهلت الاعداء وكانت خير وقود للشعور القومي النازع نحو التحرر. ومما  
انتزع الاعجاب آنذاك تصدي سلطان الاطرش وجماعته من الدروز لمصفحات  
الفرنسيين بوثة جريئة شلت حركتها، وكان ذلك في وقعة (ميشو) المظفرة التي  
تغنى بها الشعراء. وقد صور إلياس قنصل في مہجره وثبة سلطان العبقرية بقوله (٢):

وأرعد تنك الغاصبين مهدداً  
وقابلته والنار فيه مكافحاً  
فما زدت الا جرأة حين أرعدا  
الى ان غدا سبط الحديد مجمعدا.

وتناول الشاعر القروي الموقف البطولي الذي وصفه قنصل فاستطاع ان  
يسمو به الى جو ملحمي رائع ارتسمت حوله هالة من البطولة الخارقة لم يستوح  
روعتها من خياله وإنما أمدته بها الواقع ذاته فراح يخلد موقف «فتى المہجاء» في

معركة ( ميسو ) بوصف رائع يذكر بقصائد المتنبي في معارك سيف  
الدولة (١) :

خففت لنجدة العاني سريعاً	غضوباً لو رآك الليث ريباً
ألم يلبس عدك التنك درعاً	فسلمهم هل وقى لهم ضلوعاً
أغرّت عليه تلقى النار برداً	ويرميها الذي يرمي هلوفاً
فطاشت عنك جازعة ولو لم	تهش لها لحاولت الرجوعاً
ولما صرت من مهج الاعادي	بحيث تذيقيها السم النقيعاً
وثبت الى سنام التنك وثباً	عجيباً علم النسر الوقوعاً
فخروا فوق ظهر التنك صرعى	وخر التنك تحتهم صريعاً

ثم تعددت الوقعات وتساقط معها الشهداء وكان مصرع كل شهيد حافزاً  
على قول أصدق الشعر وأشدّه حماسة . وحين سقط ( فؤاد سليم ) شهيداً في  
يوم ( مجدل شمس ) إبان ثورة السوريين على فرنسا أيضاً ، رثاه عدد من الشعراء  
بينهم خير الدين الزركلي إذ قال (٢) :

آليت ميتة حـر	وقد تحمل بنـدك
قضيت حق العوالي	وأنت تقناد جندك
عملت للمجد حتى	أدركت بلموت مجدك

كما أشاد ببسالته شاعر العراق عبد المحسن الكاظمي في قوله (٣) :

مشى الى الموت لا يبالي	رأى صباً أم رأى سموما
جاهد دون الاوطان حتى	أصبح شلوأً بها حطوما

(٢) ديوان الثورة ٦٧

(١) ديوان الثورة ٨١

(٣) ديوان الثورة ٥٦

ومن آيات البطولة التي أنبثقت من صميم الجماهير في سورية من خلال جمرات تلك الثورة رجل لم يعرفه الناس إلا باستشهاده وهو (حسن الخراط) الذي ضرب لقومه مثلاً خالداً في الأقدام ، وقد خصه شاعر دمشق محمد البرزم بمطولة قال فيها (١):

يا مؤثر الموت في إنقاذ موطنه      ركبت صعباً فلا لاقيت خذلانا  
سيرت ذكرك في الآفاق تحمله      جوانب الجوا فرحاً وأحزاناً  
وليس عندك من مال ولا عدد      إلا العزائم قد مثلن إيماناً

وكان استشهاد أحمد مريود باعثاً على نظم قصائد كثيرة نسجت من واقع ملحمة ، إذ أنه حين بوغت بالجند من حوله وقد احتفى في أحد بيوت القرية (٢) من جبل الدروز العربي أنى أهلها أن يسلموه ، فما كان من جيش الاحتلال إلا أن هدد القرية كلها بالتدمير فوق أهلها ، وحينئذ لم يجد الأسد بداً من أن يخرج من عربته مع نفر ضئيل ليلقوا وجه ربهم . ومن عجب أن الفرنسيين ازدهاهم هذا النصر فجعلوا يعرضون جثة الشهيد في دمشق ليرهبوا أهلها . وفي ذلك يقول خير الدين الزركلي (٣) :

أقبلوا يحملون أحمد وضاح الحيا مضرج السربال  
شهد الله أنهم حملوا موثلاً مستصرخ وليث صيال

ثم يشير الى خروجه لملاقاة الفرنسيين :

شق جنح الظلام يمشي إليهم      رابط الجأش مشية الرئبال  
قائلاً للحياة غيري غرسي      قائلاً للنعم غيري وال

ومن هذا القليل ما نجده لعمر يحيى في شهيد (حمزة) صالح قنباز كنانجد لمحمد الفراتي وبدر الدين الحامد وبدوي الجبل وعمر أبي ريشة قصائد مماثلة

(٢) إحدى قرى الدروز في جبل العرب

(١) ديوان الثورة ٣٠

(٣) ديوان الثورة ٨٥



في كثير من الشهداء الذين ضربوا أمثلة البسالة والتضحية في دمشق وحلب  
وحماة ودير الزور ونذروا أنفسهم لطردهم الغزاة . وبهذه البطولات التي قام بها  
السوريون إبان ثورتهم والضحايا الغالية التي قدموها على مذبح الوطنية أشاد شوقي  
أمير الشعراء في قصيدته الرائعة إذ قال (١) :

دم الثوار تعرفه فرنسا	وتعلم أنه نور وحق
جرى في أرضها فيه حياة	كمنهل السماء وفيه رزق
بلاد ماتت فتيها لتحيها	وزالوا دون قومهم ليقوا
وللاء وطنان في دم كل حر	يد سلفت ودين مستحق

وما زالت أبيات شوقي التي تصور آيات التضحية والبطولة في مقاومة  
المستعمرين على لسان كل سوري وفي طبيعة الشعر القومي الحديث .

أما فلسطين مهد عيسى ومسرى محمد ومبعث سائر النبوات فقد كانت أرضها  
الطاهرة موئل الجهاد الدائب والعراع الدامي . وكما سقط في آتون معاركها من  
شهداء ، ونبت في ثراها المقدس من بطولات . من ذلك ما شهدته تلك الديار  
في احد ايام حزيران (يونيو) ١٩٣٠ الذي كان يوماً أغر في سفر التضحية  
والفداء ، إذ صدر حكم الاعدام على ثلاثة من احرار فلسطين على اثر  
ثورة ١٩٢٩ « فكان التكبير على المآذن وقرع النواقيس في الكنائس يتجاوب  
صداهما في ارجاء فلسطين قاطبة . إذ في ذلك النهار نفذ حكم الاعدام بالشهداء  
الثلاثة في ثلاث ساعات متوالية ، وكان من المقرر رسمياً ان يكون الشهيد  
( عطا الزير ) ثانيهم ولكن ( مجموعاً ) حطم قيده وزاحم رفيقيه على الدور  
حتى فاز بغيته .. وهنا يأخذ الشاعر ابراهيم طوقان ريشته ليصور هذا اليوم  
المخضب بالدماء اروع تصوير وليسجل في شعره الوطني الخالد مصارع اولئك الشهداء ،  
فتكون قصيدة ( الثلاثة الحمراء ) التي القاها في حفل حاشد ، فذهل عن الجمهور ،

وشعر كأنما خرج من لجه ودمه فكان يلقي بروحه واعصابه ، وما انتهى حتى كان  
بسكاء الناس يعلو نسيجه» (١) . وقد انطق الشاعر عن طريق الرمز الساعات الثلاث  
الرهيبة التي نفذ خلالها اعدام الابطال متتابعين ، فكان مما قالته الساعة الاولى (٢) :

انا ساعة النفس الالية ، الفضل لي بالاسبقية  
اودعت في مهج الشبية نفحة الروح الوفية  
لا بد من يوم لهم ، يسقي العدا كأس المنية  
عاشت نفوس في سبيل بلادها ذهبت ضحية

اما الساعة الثانية ساعة إعدام محمد جمجوم فقد قالت :

أنا ساعة الرجل العتيد ، أنا ساعة البأس الشديد  
بطلي يحطم قيده رمزاً لتحطيم القيود  
زاحت من قبلي لأسبقها الى شرف الخلود  
وقدحت في مهج الشباب شرارة العزم الوطيد

وأما الساعة الثالثة فقد قالت عن بطلمها :

أنا ساعة الرجل الصبور ، أنا ساعة القلب الكبير  
رمز الثبات الى النهاية في الخطير من الامور  
بطلي أشد على لقاء الموت من صم الصخور  
جدلان يرتقب الردى فاعجب لسوت في سرور

لم تكن قصيدة « الثلاثة الحمراء » هذه سوى اثر رائع احكم طوقان  
تخطيطه فجعله في مقدمة وثلاث مراحل ثم خاتمة . إنها من الشعر القصصي  
الملحمي ، عمد فيها الشاعر الى نوع من الرمز الجلي الموحى ، وهي لم تكن قصيدة

(١) انظر مقدمة الديوان بقلم فدوى طوقان ، شقيقة الشاعر ، ص ٢١

رثاء وبكاء ، وتفجع ونواح كعهدنا بمألوف الشعر في هذه المناسبات في كثير من الشعر التقليدي ، فالساعات الثلاث رمز الحمية ، اودعت في مهج الشباب نفحة الروح الوفية وجزمت بأنه لا بد من يوم يسقي العدا المنية . وفي القصيدة نلص روح البأس ونزى البطل يحطم القيد ، ويلهب في مهج الشباب شرارة العزم الوطيد ، ونجده تجاه الموت اشد من صم الصخور يستقبله في جذل وسرور . وهكذا كانت الثلاثاء الحمراء صيحة البطولة المدوية وصرخة الحق المبين وصوت الاحرار الخالد.

ثم يسقط سعيد العاص في تلك الارض الطاهرة ، ويفدو استشهاده وقوداً جديداً للعزمت والقرائح في مختلف ديار العرب فاذا هي آية أخرى من آيات البطولة في فلسطين عبر عنها عمر أبو ريشة بقوله (١) :

يا دماء النصور تجري سخاء بفرام البطولة الفصاح  
أي برد خلعتيه احمر اللون على كاهل الجهاد الصراح  
وكأنني اراك في زحمة الهول على سرج ضامر طواح  
واخوك الجسور في القمم السود مطل على الروابي الفساح  
لوحث كفه بمنديله الأحمر شوقاً الى اللقاء المتاح  
فحسبت الأجيال تهتف يا (خالد) جاهد في فيلق الجراح

كما يهتز احمد محرم من ضفاف النيل لمصرع هذا البطل فيقول فيه (٢) :

نظم المجد لا بطال الحمى	ونظمت الشعر ناراً ودما
بطل ابصرت مجرى دمه	في جبين الشرق لما وجما
صخرة صماء تحمي صخرة	علمتها كيف تشفي الصما

ولم يكن شعراء الشرق العربي بمعزل عن نضال اخوانهم في المغرب

(١) ديوانه ١٩٩

(٢) الدكتور محمد حسين : الأنتجاهات الوطنية ٢ : ١٥٥ عن ديوان مخطوط للشاعر

الذي كان يقاوم شر انواع الاستعمار بصراوة ؛ وحين وقع عبدالكريم الربيعي في  
قبضة الغزاة وكان ممن ملأوا الاسماع ببساتنه ، ناجاه محمد الفراتي بقوله (١) :

ان يأسروك فانهم لم يأسروا      الا الهزبر الاغلب المرهوبا  
ما كنت أول نائر متظلم      بالعسف قيد مكبلاً محروبا  
لا تأس فالتاريخ يحلف جاهداً      بالله انك لم تكن مغلوبا

ويقع عمر المختار في قبضة الطليان الفاشيين وكان شيخ السنوسيين ورأس  
المجاهدين في طرابلس الغرب ، فلم يكن من اعدائه التمدنين الا ان بادروا الى  
شنقه بعد تعذيب مرير ، وقد هز مصرعه القاضي والداني وهاج الشعراء في كل  
مكان ، وكانت قصيدة احمد شوقي فيه درة تلك القصائد ، فهو لم يذرف الدموع  
عليه ، وانما وجد فيه مثلاً اعلى للبطولة ومناراً هادياً للشعوب (٢) :

ركز وارفاتك في الرمال لواء      يستنهض الوادي صباح مساء  
يا ويجهم نصبوا مناراً من دم      يوحى الى جيل الغد البغضاء  
جرح يصيح على المدى وضحية      تتأس الحرية الحمراء  
بطل البداوة لم يكن يغزو على      ( تنك ) ولم يك يركب الأجواء  
لكن اخو خيل حمى صواتها      وادار من اعرافها الهيجاء

ومصر التي كانت تغلي كالبركان تنور حيناً وتمهداً حيناً آخر انتفضت  
عام ١٩٣٥ في جملة انتفاضاتها وسقط بعض ابنائها شهداء برصاصات زبانية  
الطغيان ، وقد لقي محمد عبدالكريم الجراحي وجه ربه فاذا هو رمز التضحية  
والفداء في نظر الشعب . وتهم جماعة ( ابوالو ) من الشعراء بهذا الحدث فقيم

(٢) الشوقيات ٣ : ٧١

(١) ديوانه ١٥١

لذكراه احتفالا تجلت فيه أصدق المشاعر عبرت عنها قصيدة « الشاعر الشهيد »  
لحسن كامل الصيرفي (١) ، وأخرى لآبراهيم ناجي وغيرهما لسائر الشعراء  
وكان ذلك منهم التفاتة قومية قل أن حفل بها بعضهم بعد أن طغى عليهم تيار  
الرومانسية وغلبهم شعر الوجدان الذاتي .

وهكذا كانت روح المقاومة قد استشرت في نفوس العرب وأخذت  
تفجر الثورات العاتية ضد المستعمر من كل فج ، فقد انتشرت عصا بلاتهم في  
الجبال يعمثون الرعب في فرائص المستعمرين ويتقضون عليهم كالموت من فوق  
الاشجار ومن تحت الاحجار حتى حرموهم النوم وأشربوهم الغصص ، وما  
كان الجبل يسكت الا ليتحرك السهل وتثور المدينة ويهدر المتظاهرون ويعم  
الاضراب ، فيسقط الضحايا بالعشرات مع مغرب كل شمس ، وتتخضب أرض الوطن  
بدماء الشهداء ، إنه ثمن الحرية .

### ٣

على أن شعر البطولة والفداء لم يكن يبقى دائماً في نطاق شهيد بعينه ،  
أو بطولة فرد في ذاته ، فهناك قصائد كثيرة كان ينزع فيها أصحابها الى التعميم ،  
كأن يبرزوا ملامح الافدام وعناصر التضحية في جملة الشهداء المجهولين الذين  
سقطوا في فلسطين أو سورية أو مصر أو العراق أو المغرب أو في شهداء العرب  
كافة ، وطبيعي أن تغلب على هذا النمط من القصائد الروح القومية المتمردة  
وأن تخفت فيها رنة البكاء والاسى ، لان الشاعر يمنح فيها بصورة عامة للتعبير عن  
عواطف الجماعة قبل عواطفه أو عن عاطفته من خلال عواطف مجتمعه ، وعلى  
هذا الصعيد الشامل يصور أجد الطرابلسي بأس قومه وصمودهم كالطود تجاه

---

(١) انظر ديوانه ، الشروق ٩٢

جور الفرنسيين أثناء الاضراب الخمسيني في سورية (١) :

وقد استعد لأن يعود شبيدا	كل يسير الى الامام مشمرا
إيمانه ما يصدع الجمودا	وعتاده قطع الصفا لكن في
حرى تشع عزبة ووقودا	وفؤاده بين الأضالع شعلة
كانوا على ظلم القوي شهودا	شهداء مثل الزهر في أكامه
صرعى فمأحفوا لظي وحديدا	سقطوا أمام بيوتهم وسط الحمى

فمع أن المناسبة خاصة في حدود الزمان والمكان استطاع الشاعر أن يرتفع بها الى هذا الصعيد الحماسي السامي ويتخذ منها منطلقا الى تمجيد البطولة الفذة التي انبعثت من نفوس اوائك الابطال المحبولين . وثمة أبيات رائعة لشفيق جبري تصور فيها دور الشهداء وأثر تضحياتهم في بناء مجد الأمة فيقول (٢) :

دراً على تاج الحمى منضودا	وطن كأن به على أشلائه
فتقحموا فيه المنايا السودا	القي الى سود المنايا ربه
واليوم قد ملأوا العراء لودا	ملأت مهادهم الربوع مكارما
ضمن الزمان لأهلها التخليدا	صحف بأحمر قانيء مكتوبة
درجت مع الصبح المبين عمودا	عظة الشعوب على ظلال لودهم
تحيى الدفين وتبعث الموءودا	ذكرى الدفين وإن تقادم عهده

فمن العسير ان تعرف شيئاً من خلال هذه القصيدة عن ظروف نظمها ومناسبتها إن لم يقدم لنا الشاعر نفسه ذلك . ومن الطبيعي أن ترجع بواعث نظم هذه الأبيات الى مناسبة خاصة واحداث محددة ولكن الشاعر استطاع ان يسمو الى آفاق ابعد واجواء أرحب حين جرد من أحداث طارئة وبسالات فردية نموذجاً للكفاح والبطولة متمثلين في ضمير الامة كلها .

(١) مجلة الرسالة سنة ١٩٣٦ ص ٥٥٠

(٢) صبري الأشر : المختار من الشعر في سورية ٢٢

وهذه الظاهرة في الشعر القومي الحديث تشير الى أن الشاعر العربي اخذ  
يحنج للتجريد والنظر الى موضوع البطل أو الشهيد من زاوية شاملة ، وذلك  
نتيجة ازدياد شأن الجماهير ودور الشعوب الفعال في صنع التاريخ ، ولهذا لم  
يعد الشاعر يكتب بما كان يكتب به قديماً من تفجع على الفقيده وعد المناقبة وتحميد  
لذكره ، فقد ارتبط الفرد بمجتمعه ارتباطاً لا انفصام له ، وغدت بسالته  
جزءاً من بسالة شعبه ورمزاً لها . ولعل قصيدة « الشهيد » لابراهيم طوقان  
فريدة في هذا الموضوع فقد حظيت بمكانة لا تداني في الشعر القومي الحديث ،  
ومن مقاطعها الملتهمية (١) :

عبس الخطب فابتسم	وطغى الهول فاقبحهم
رابط الجأش والنهى	ثابت القلب والقدم
نفسه طوع هممة	وجت دونها الهمم
وهي من عنصر الفدا	ء ومن جوهر الكرم
ومن الحق جذوة	لفحها حرر الامم
سار في منهج العلا	يطرق الخلد منزلا
لا يبالي مكبلا	ناله أم مجدلا
فهو رهن بما عزم	

ربما غاله الردى	وهو بالسجن مرتهن
لم يشيع بدمعة	من حيب ولا سكن
ربما أدرج الترا	ب سلبيا من الكفن
لا تقل أين جسمه	واسمه في فم الزمن
إنه كوكب الهدى	لاح في غيب الخن

أي وجه تهللا      يرد الموت مقبلا  
صعد الروح مرسلا      لحنه ينشد الملا

أنا لله والوطن

فالقصيدرة رائعة قل أن تجود بمثلها قريحة شاعر . وقد عاش إبراهيم تجربتها حية حارة في فلسطين فكانت كالجدوة الملتببة قبسها من نضال قومه الدامي ، ومع أن الديوان يشير الى مناسبة نظمها وأنها كانت بصدد الذكرى الرابعة للشهداء الثلاثة ( حجازي وجمجوم والوزير ) فان القصيدة بنصها لا تشير الى ذلك من قريب أو بعيد . وكل من أعجب بهذه الابيات ، وترنم بنبراتها القومية لم يحرص كثيراً على ربطها بأصل مناسبتها واكتفى منها بأن تعالج موضوع الشهيد اي شهيد بهذا الابداع ، وبخاصة إذا كان الشاعر نفسه لم يأبه لهذا الربط في نظمه لابياتها . فهذا النمط من الشعر الذي يرتفع من الخصاص الضيق الى الجو العام الشامل ليرفرف في عالم المثل الرحيب يذكرنا بدالية ( المعري ) المشهورة التي نظمها في رثاء ( ابي حمزة الفقيه ) وتخطى فيها نطاق الفرد ليحلق في جو إنساني رفيع قوامه فكرة الوجود والعدم وفلسفة الحياة والموت في الكون . اما ابو حمزة نفسه فلم يكن الا منطلق المعري نحو هذا الافق البعيد كما كان شأن شهداء فلسطين الثلاثة بالنسبة الى طوقان .

ولا يضارع هذه القصيدة في مضمار البطولة والفداء الا قصيدة أخرى للشاعر نفسه تعتبر صنوألها ، وبلغت من الشهرة ما بلغتها ، تلك هي قصيدة «الفدائي» وفيها يقول (١) :

لا تسل عن سلامته      روحه فوق راحته  
بدلته همومه      كفتاً من وسادته

(١) ديوانه ٦٥



يرقب الساعة التي	بعدها هول ساعته
شاغل فكر من يرا	ه باطراق هامته
بين جنبه خافق	يتلظى بغايته
من رأى فحمة الدجى	أضمرت من شرارته
حمتته جهنم	طرفاً من رسالته
هو بالباب واقف	والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف	خجلا من شجاعته
صامت لو تكلمنا	لفظ النار والدمنا
قل لمن عاب صمته	خلق الحزم ابكنا
وأخو الحزم لم يزل	يده تسبق الفمنا
لا تلوموه قد رأى	منهج الحق مظالمنا
وبلاداً احبها	ركننا قد تهدمنا
وخصوما يغيهم	ضجت الارض والسما
مرحين فكاد يقتله	اليأس إذنا
هو بالباب واقف	والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف	خجلا من شجاعته

وربما تعود مكانة هذه القصيدة المرموقة في الشعر الحديث الى اسباب كثيرة ، في رأسها طرافة موضوعها ، إذ قلما عثرنا على قصائد أخرى عالجت موضوع الفدائي ، ولا ريب ان الشاعر استمد هذا الموضوع ايضاً من بيئة فلسطين ومن واقع احداثها ، فكانت تجربته اصيلة عميقة حية . ومن جهة أخرى نلمس في الفدائي ما لمسنه في الشهيد ايضاً من انطلاق الى الجو البطولي الشامل برغم ان المناسبة نفسها شديدة التخصيص والتفرد ، فهي تركز الى أن أحـد

أحرار فلسطين المتحمسين آلي على نفسه اغتيال يهودي بريطاني سام العرب الأهوال،  
فكمن له وأطلق النار عليه . فمن ثانيا هذا الحدث الطارئ الذي يقع ما يشابهه  
في كل حين استمد طوقان جوهر البطولة والفداء .

وهكذا كانت قوافل الشهداء ومواكب الأبطال تتدافع في كل أرض عربية  
حيث تنطلق ألسنة الشعراء مع تدفق الدماء الزكية وخفقات القلوب المتحفزة  
ورفرفة الأرواح الطاهرة لتسجيل آيات البطولة والاقدام في سفر التحرر  
والخلود، وأصبح تساقط الأحرار صرعى في كل يوم موضوعاً يهز مشاعر  
الأمة ويفرض نفسه على الأدب . ومن هنا كثرت مرثي الشهداء كثرة تفوق  
الحصر ، كما أضيفت إليها موضوعات البطولة والتضحية عامة منطلقاً من نطاق  
الأحداث ومن حدود الزمان والمكان لتكون رمزاً شاملاً ونبهياً وهاجماً  
للأجيال المتطلعة الى الحرية . ولسنا نطالب الشاعر في هذا الشأن أن يتم  
في قصيدته بالاحاطة والتقصي وأن يعرف دائماً اسم الشهيد أو البطل وكيف  
ومتى كان مصرعه وفي أي أرض سقط ، ولكن عليه ان يستشعر استشهاد  
وينفعل به ويعيش مغزاه ثم يشيد به على أنه الشهيد المجهول الذي احتسب دمه من  
أجل تحرير وطنه .

## ٤

وثمة مظهر آخر لشعر البطولة والفداء في أدبنا الحديث نجده في عدد قليل  
من القصائد ولكنه يدل على ظاهرة إيجابية إنسانية . فمع أن حياة العرب في  
حاضرهم وماضيها حافلة بالبطولات الفذة والامجاد الخضية بدماء الضحايا ،  
فان استغراقهم فيها لم يقعد بهم عن تعشق البطولة واستجلاء آياتها أينما وجدت ولو  
كانت في قوم غير قومهم وأرض غير أرضهم . فقد لجأ خير الدين الزركلي الى  
تعريب قصيدة عن الفرنسية تحت اسم ( الديدبان ) أي الحارس وصور فيها

بطولة جندي يضحى بنفسه خلال الحرب الاولى لينقذ جيش قومه . والقصيدة  
طويلة تمتاز بطابع قصصي شيق ومنها قوله (١) :

حاضر القلب مصغياً يتفكر	بات يرعى الدجى وحيداً فريداً
وقع أقدام داهم يتحدر	لم يره في ظلمة الليل إلا
في ظلام الليل البهيم تنكر	فيلق إثر فيلق جاء يسعى
صاح فيهم فاستقبلوه فأنذر	نه القوم فاستطاروا خفافا
نى فان العدو إن حل دمر	قال يا قوم يموا النهر الاد
وإذا الديدبان لم يتقهقر	فاذا بالخيام لا حى فيها
ثم قادتته صاغراً فتصبر	ويد كالديد حلت عليه
فأضل القوم السبيل وحير	سألوه عن جمعه أين ولى
لوا عليه ضرباً وجلداً فأنكر	كذبوه وأبصروا النهر فانها
انزل إليه فالغور بالخوض يسبر	حاولوا خوضه فقالوا هلم -
هـ وإلا فتحن بالعود أجدر	همسوا بينهم لئن فاز خضناه
في أمر قومه وتدبر	وقف الحارس الامين وقد فكر -
م بأن السبوح في النهر يغمر	ثم ألقى بنفسه يوهم القو
س وظلت آثار كفيه تبصر	فاختفى عنهم وقد خفض الرأس
ء وفي قلبه اللظى يتسعر :	خاطب النفس وهو في لجج الما
وابتغوا معشرى بكل مضمّر	« إن أردت البقاء خاضوا إلينا
ء فكفوا وتابعوا المسير في البر	أو أردت الفناء هالهم الما
إنما المرء من يموت فيذكر »	حبذا الموت في سبيل قبيلي

وشبيه بهذا الموقف الايجابي من بطولة سائر الشعوب وتطلع الشعراء

العرب الى المثل الاعلى للفداء ما نظمه كل من الشعارين خليل مردم وبدوي الجبل حول شهيد القدس (إرلندا) وقد أشرتنا إليهما من قبل، وكتاتهما تحكي قصة فتى إرلندي مكافح آلى على نفسه ألا يذوق طعاماً أو شرباً ما دام في وطنه احتلال أجنبي ، وقد صور بطولته خليل مردم فقال (١) :

أبي رق الحياة فمات حراً      وأبلغ نفسه في ذلك عذرا  
وأقسم لا يكون حماة نهياً      مباحاً أو يموت طوى ، فبراً  
بميتته رأى إحياء شعب      فأيقن أن بعد العسر يسرا  
إذا كلحت له زرق المنايا      تهلل وجهه وازداد بشرا

كما صور بطولة هذا الارلندي أيضاً بدوي الجبل إذ قال (٢) :

بسطت يديك بسطة أريحي      فكانت من عطاياك الحياة  
ولم تبخل بنفسك وهي علق      متى بخلت بأنفسها الكفاة  
علوت بها عن الاعراض حتى      تساوى الموت عندك والحياة

وفي قصيدة عمر أبي ريشة « جان دارك » تصوير أخذ آيات البطولة التي رفعت تلك الفتاة الفرنسية الى مصاف القديسين ، وجعلت من قصة حرقها ورباطة جأشها وإيمانها بحق وطنها في الحرية أسطورة خالدة بين الشعوب .

وحين وقف البشر يرقبون ما يكون من أمر تلك الحرب الاخيرة الطاحنة وقلوبهم واجفة من الملح كانت معركة ( ستالغراد ) نموذجاً رائعاً لبطولة الشعوب وصمودها ضد الطغيان ، وقد اهترت نفوس الجماهير من جميع الشعوب أيما اهتزاز لما انبثق من ارض البلاشفة من ضروب البسالة والاقدام ؛ حتى إن شاعراً مثل علي محمود طه عرف بعزوفه عن كل ما لا يتصل بالغزل ينظم قصيدة في هذا الحدث البطولي ويجعلها في ديوانه « زهر وخمر » وفيها يخاطب « المدينة الباسلة » بقوله (٣) :

كم من ( أخيل ) فيهم لكنه      رد المغير به وفك حصار  
لم تخر ملحمة بوصف كفاحه      لكن جرت بدماؤه الانهار

(١) جريدة البرق البيروتية عدد ١١٢٧ وانظر ديوانة ١٥٩

(٢) ديوانه ١٨٥ (٣) زهر وخمر ٦٣

هو مهجة فنيت بأرض معادها	ليت غرس أو يطيب ثمار
هو موجة ذابت ببحر وجودها	كما يثور بروحها التيار
لاني رفعت بكم مثالا رائعا	يؤما اليه في العلا ويشار
لشباب مصر وهم بناء حياتها	وحماها ان حانت الاخطار
هذي مدينتكم وذاك صراعها	رمز لكل بطولة وشعار

ونحن نقع على ما يماثل هذه الروح في عدد آخر من القصائد المشابهة وفي اشادة خليل مطران ببسالة ( فتاة الجبل الاسود ) . وكل هذه القصائد التي أوردناها للزركلي ومردم والجبل وعلي طه انما عبرت عن مضمون البطولة والفداء الذي استمدته هؤلاء الشعراء من معين ناء عن الوطن العربي . ولهذا الامر دلالاته اذ أن معالجة هذا الموضوع في ذاته تم عن نزوع ملح في ضمير الشعراء نحو استجلاء آيات البطولة وتصويرها مما يصادف هوى في نفوس الشعوب العربية المتطلعة في معركة المصير نحو البطولات المثلى . ومن المرجح أن الزركلي لم يعرّب قصيدته تلك « الديدبان » لمجرد التلميح أو لقصد وجه الفن فحسب ، وأكثر ديوانه في الشعر القومي . كما أنه ليس من قبيل الصدفة أن يقع شاعران معاً على موضوع جزئي واحد ناء عن حياتهما وبيئتهما - وهو شهيد ايرلندا - لولا عامل القصد والاختيار ، بل إن في ابياتهما ما يشير الى الربط والتجاوب بين كفاح الايرلندي وكفاح العربي . ومن جهة أخرى فان « علي محمود طه » حرص على عرض بطولة ( ستالغراد ) وتغنى على قومه التحلي بمثلها ، ولم يفته أن يكبر ببسالة فتيان ( الفولغا ) ليجعل منهم مثلاً حياً لشبان النيل ، وليس للبطولة وطن .

أما مفهوم الاستشهاد فهو يتسم في الاصل بطابع ديني كأن يستحقه المرء بجهاده في سبيل الله . . ولكنه اكتسب طابعاً قومياً في العصور الحديثة وأخذ يستحقه كل حر يقضي في سبيل وطنه ، ومن هنا رأينا كالا الشعارين مردم والبدوي يكبر بطولة ذلك الفتى الايرلندي ويعتبره شهيداً ، وكأنها يريان في تضحيته الرائعة إرضاء لله والوطن والضمير ، وهذا الامر يشير الى أن

النظرة الجديدة التي غلبت على الشعراء المعاصرين إنما هي نظرة القومية الصحيحة المتفتحة التي ترى في كل قومية مناضلة حليفة لها ، وفي كل بطولة أو تضحية تصدر عنها انتصاراً لها وشدأ لأزرها .

## ٥

ولكن هل اقتصر الشعراء في تصويرهم آيات البطولة والفداء على أولئك الأبطال المجهولين والشهداء الأبرار الذين لقوا ربهم أو من كانوا يسعون إلى لقاءه ؟

الواقع أن ثمة جانباً آخر من الشعر الحديث برزت فيه الروح القومية وتضوعت منه رائحة البطولة ، ذلك هو ما نظمه الشعراء من قصائد الرثاء في عدد من زعماء العرب الذين ماتوا على فراشهم وكان لهم في حياتهم أثر كبير في حياة شعوبهم من أمثال الشريف حسين والملك فيصل وغازي وسعد زغلول وإبراهيم هنانو .. وسواهم ممن وجد فيهم الشعراء أبطالاً كباراً .

وقد شغلت مرثي الرعماء والعظماء حيزاً كبيراً من دواوين الشعراء . « وإذا كان الشاعر القديم يرثي الفقيد مرة أو مرتين إثر وفاته فإن الشاعر الحديث قد اتخذ لنفسه سنة جديدة وهي رثاء الفقيد في يوم ذكراه من كل عام وإنما جاءت هذه السنة من محاضراته للصحف ، فقد كانت الحركة الوطنية بحاجة دائماً إلى من يلقي في أوتونها الوقود بين الحين والحين ليزداد الأتون لهباً فتزداد المشاعر قوة . وكان موت عظيم أو زعيم يقع من النفوس موقعاً أليماً ويزيدها بالوطن تعلقاً ، وإليه تلهفاً وحنيناً » (١) .

ولهذا كثرت قصائد الرثاء كثرة بالغة لدى الشعراء المعاصرين ذوي النزعة الاجتماعية وفيهم حافظ إبراهيم الذي قال :

إذا تصفحت ديواني لتقرأه      وجدت شعر المرثي نصف ديواني

(١) عبد اللطيف حمزة : الصحافة والادب في مصر ٩٢

وما ازاد شأن هذا النمط من الرثاء إلا نتيجة لارتباط الادب المتزايد بحياة العرب الحديثة ، بحيث أن جانباً كبيراً منه أخذ يشكل ظاهرة قومية بارزة في أدبنا الحديث . وطبعي أن يبقى كثير من شعر الرثاء الطافح بالنواح بعيداً عن هذا الطابع القومي ، وأن يتحلى أيضاً بهذه الروح القومية كثير من الشعر الذي قيل تمجيداً للمآثر الاحياء و بطولاتهم .

وهكذا فان صور الفداء وآيات البطولة لم تلتصق في نضال العرب الحديث الا من ظلال مآساتهم القائمة .

ومما يلاحظ في هذا المجال أن عامل الزمان المتقادم باطراد على أعمال أولئك الأفاضل كان يساعد على ارتسام هالة واسعة حولهم من البطولة والاجلال والتضحية ربما كان مبعثها الوفاء لذكراهم والاعتراف بفضلهم ، وقد يكون الباعث على ذلك أيضاً ميل الفنان بصورة عامة الى إكمال الصورة الواقعية التي يسمي الى رسم ملاحظها من فيض قريحته وذوب مشاعره ، ولعل الشعر من أكثر الفنون قبولا لهذه الظاهرة واتساما بها . كل هذا بالإضافة الى الباعث الأصيل في النفوس على تصوير هذه المناذج المثلى في التضحية والفداء .

## ٦

وإذا حاولنا أخيراً أن نستقري ما نظمه الشعراء المعاصرون من قصائد في موضوع البطولة والاقدام فاننا نلمس عنايتهم باستيحاء البطولات الخالدة من خلال تاريخ العرب الحافل . ومثلما وجدوا في الشهداء والابطال المعاصرين مادة غزيرة يغذون بها الشعر القومي وجدوا أيضاً في عظمة الأجداد من خلفاء وقواد وفاتحين .. معيناً لا ينضب . فقد نظمت قصائد كثيرة في عظمة الرسول العربي برزت من خلالها ملامح شخصيته الفذة وخصاله المحيية وبخاصة في ذكرى

مولده الشريف أو هجرته المباركة ، وقد نظم محمد عبد المطلب قصيدة مطولة في علي بن أبي طالب أسماها « العلوية » كما نظم حافظ ابراهيم من قبله قصيدة في ابن الخطاب وأسماها « العمرية » . وثمة قصائد أخرى كثيرة قيلت في عطاء العرب والمسلمين وتمجيدهم من نحو قصيدة أنور العطار في أسامة بن زيد وجيشه المظفر ، وقصيدة أحمد شوقي في صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، ومثلتها في الموضوع نفسه لخير الدين الزركلي ، وكقصيدة « طارق بن زياد » لعلي محمود طه وقصيدة عمر أبي ريشة في خالد بن الوليد ، وسوى ذلك مما نظمه الشعراء المعاصرون في تمجيد بطولات أبي عبيدة وقتيبة وابن القاسم وصلاح الدين . هذه الخصال العظيمة والبطولات العريقة التي لاح وميضها من جديد في قوافي شعرنا الحديث كانت تبدو وسط هالة كبرى من ملامح الجو الملحمي الذي تبعته في النفوس عظمة الأجداد ، وروعة أعمالهم . لقد كانت سير أعلام التاريخ العربي وأمجادهم أبداً رائد المجاهدين العرب ، ونبراسهم الذي يهتدون بهديه، ومثلهم الأعلى في نضالهم المرير ضد الطغيان والاستعمار ، كما كانت الشعراء يجدون فيما حولهم من طارف البطولات صورة رائعة من جهاد العرب التليد الذي عدا أعلامه رمزاً خالداً في ضمير كل عربي ، فاذا لامست أسماع شاعر عربي معاصر كالشاعر القروي أبناء ضروب البسالة التي أبداها أهل فلسطين استشف وراء كل فتاة من نساءها بنت الأزور ، ولاح له كل مناضل ابن شداد (١) :

فكل فتاة في فلسطين (خولة) وكل غلام في فلسطين (عنتر)

إن مثل هذا التطلع نحو الاجداد واستيحاء بطولاتهم مغزى بعيد الدلالة في نفسية المجتمع العربي الحديث ؛ فهو يشير بقوة الى أن الجيل العربي ما زال الى اليوم يعي ماضيه وعياً كاملاً على بعد العهد بينه وبين جدوده ، وما زال ماثلاً في ذهنه كرم حاتم وشجاعة عنترة وحزم عمر وبأس علي وبسالة خالد وجهاد صلاح الدين وعظمة الرشيد ونبوغ المغربي .



إن المفاهيم العربية الأولى التي كانت المروءة رائدها والشرف مقياسها  
والوفاء والكرم والتجدة والشجاعة أجنحتها ، وما أعقبا بظهور الاسلام من مزايا  
جديدة كقائمة العدل بين عباد الله والمساواة بينهم وحماية الضعيف وتحريرهم من  
ظلم القوى (١) .. كلها ما زالت ماثلة حتى اليوم في الجيل العربي أصيلة في نفسه ،  
راسخة في حياته . وإن قولة أبي الطيب قبل ألف عام :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم  
لا تكاد تختلف عن قولة شوقي في هذا العصر :

والحرية الحمراء باب بكل يد مضرحة يدق

فالعربي باق على إبانته للضم وتعشقه للحرية وذوده عن الشرف ، يعتم  
بمثله العليا ويقدها ، وهو بعد ذلك يحيا لها ويفنى في سبيلها .

ولكن هل في نزوع الفرد العربي الى المثل العليا ، وسعيه نحوها واستعداده  
للفناء في سبيلها ما يعده عن طبيعة الحياة ؟ وهل في تصوير الشاعر الحديث لسجايا  
هذا الفرد والدعوة لما يؤمن به ما يتأى به عن الواقع ؟ أما الحياة فليست حياة  
الدعة ورخي العيش والرضى بالهوان ، وأما الواقع فليس مجرد تقل  
مألوف لسلك الناس وما هم فيه من أكل وشرب ونوم ويقظة وغدو ورواح .  
عندما كان شاعرنا القديم يعجب بممدوحه ويصفيه أشعاره كان يسبغ عليه الخصال  
التي يؤمن بها العربي ويقدها ويسعى جاهداً الى التحلي بها من مروءة وشهامة ،  
وبأس وتضحية ، وكرم وشجاعة . وحين ينقم عليه كان يسلبه إياها ويجرده  
منها ، وحين يرثيه كان يفقدها بعده ويندبها فيه ، ولم تكن هذه الخصال سوى  
المثل العليا التي طمع العربي الي بلوغها وذاب في حبها . البطولة ثورة والثورة قلب  
لواقع الفاسد ، وتمرد على حياة الذل، ونشيدان لغد أفضل ، وتطلع الى قيم أسمى .  
على أن شاعرنا الحديث لم يكن يسبغ على المناضل العربي ما ليس فيه ،

(١) انظر محمد المبارك ، الامة العربية ١٨٧

ويشيد بما لم يبلغه ؛ فلقد كتب العرب تاريخهم الحديث بدمائهم ، وفرش أبطالهم وشهداؤهم درب الحرية بجماجهم ، ولم يكن من الشعر بعد ذلك إلا أن انقلع بأعمالهم ، وباهى بآثارهم . ومن هنا حرص كثير من الشعراء على تصدير دواوينهم باهداء حار صادق يزجونه الى تلك الدماء الزكية والارواح الطاهرة والبطولات الرائعة ، وكانهم في ذلك إنما كانوا يردون ذوب مشاعرهم وزبدة قرائحهم الى من أوحى إليهم أسمى العواطف النبيلة ، ومن أهمهم آيات الفن الرفيع . ولقد كان وجدان الجيل العربي في فترة ما بين الحربين العالميتين أشد ما يكون تعطشاً الى مثل هذا الوقود الروحي لمشاعره القومية المتنامية ، وتطلعاً في طريقه الوعر ونضاله العائر الى أروع آيات التضحية والبطولة . والفكرة - كما يقول أوغست كونت - هي التي تدفع الى العمل .



وبعد فتلک هي فصول متعددة حاولنا من خلالها في هذا الباب الاخير استجلاء الموضوعات الرئيسية التي كانت مدار الشعر القومي الحديث في فترة ما بين الحربين العالميتين . ولا ريب أن ثمة موضوعات أخرى كانت مدار اهتمام الشعراء ، ولكن يمكن أن تدرج في هذا الباب وتتناول بالبحث والتحليل . إلا أنها لا تعدو أن تكون فرعية جزئية تنحصر في نطاق ضيق ولا تغني في رصد الاتجاه العام ، وجلاء التيار السائد .

أما هذه الموضوعات البارزة في الشعر القومي التي عرضنا لها خلال الفصول المنصرمة فقد كانت تتنوع وتختلف بتنوع واختلاف المناسبات والأحداث التي تستدعيها وتبعثها . وربما اختلط عدد من هذه الموضوعات اوكلها في قصيدة واحدة لأن الشعر القومي لا يخرج عن كونه نفثة وجدانية لا تتقيد بوحدة موضوعية

وهذه الموضوعات في الحقيقة لا تعبر عن فنون شعرية كما هو المؤلف بين الفنون ،  
لكنها موضوعات تنصب من منحدر واحد وإن تفرعت بعد ذلك شعابه .

لقد حمل الشعر العربي الحديث رسالته بدأب حين لبي حاجات المجتمع  
العربي ورغائبه ، وعبر عن اهتماماته ونواذعه ، فكان الصوت المدوي في وجه  
الغزاة المستعمرين ، والشوكة الواخزة في جنب الطغاة المستبدين . كما كان الحافز  
الفعال على النهوض والثورة والتحرر ، وخير بشير بالآخاء والتسامح ، وداعية  
الى الاتحاد والتضامن . وهو الى ذلك سفر آيات البطولة والفسداء الرائعة خلدها  
للأجيال ، ومرة صادقة لنضال العرب المرير في سبيل انتزاع الحق السليب الذي  
آمنوا به ولم يجيدوا قيد شعرة عن المطالبة به .

# الخاتمة

## رسالة الشعر القومي

انتمق الشعر القومي بانثاق فجر النهضة القومية في القرن التاسع عشر . ولكنه لم يكن إلا كأول الغيث . ثم أخذ ينهمر منذ اليقظة الدستورية . حتى إذا وقعت بلاد الشرق العربي في قبضة الاستعمار في الحرب العالمية الأولى دخل الشعر في طور جديد حين أخذ يواكب قضية التحرر القومي والمصير العربي . وقد اتسم منذ ذلك الحين بطواهر بارزة عامة نجملها فيما يلي :

### ١ - المضمون

١ - اتسم المفهوم القومي بالعموض والاضطراب شأن كل مفهوم اجتماعي في طور نشوئه ، ولم ينبجس صافياً أول الامر . فقد صحبته منذ ولادته في نفوس العرب منازع أخرى ذات جذور تاريخية عميقة أخذت تضفي عليه ألوانها حتى بات من العسير التمييز بينها وبينه في بعض الاحيان .

فالعروبة كانت تعني الاسلام لدى شطر كبير من الشعراء ، وكان هذا الاختلاط طبيعياً في تلك المرحلة حين كانت الدولة العثمانية في تكوينها الامبراطوري تضم شطراً كبيراً من المسلمين على اختلاف قومياتهم ، وكان العامل الديني يطغى على الأفكار القومية .

وكذلك كان المفهوم القومي العربي مغشى بالنزعة الشرقية التي انبثقت أيضاً تجاه أطماع الغرب في بلاد الشرق عامة . إلا أن هذا المفهوم الشرقي كان مترجماً في أذهان الشعراء يتسع حيناً ليشمل الشرق بجموع أممه وينحسر حيناً ليعني المسالين أو يضيق حيناً آخر ليقصر على العرب وحدهم .

ثم أخذ المفهوم القومي الصحيح يتسم بالصفاء ويشق طريقه الى أذهان الشعراء، إثر تعاقب الأحداث الجسام في الوطن العربي بعد أن اضمحلت النزعة الشرقية وخفت صوت الجامعة الاسلامية . ومع ذلك استمر المفهوم الشرقي في الشعر الحديث تبعاً لاستمرار المستعمر في تحكمه بالشرق ، كما استمر المفهوم الاسلامي معانقاً للفكرة العربية وداعماً لها .

ومن جهة أخرى تجلت في الشعر القومي خلال فترة عارضة من السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى - وبخاصة في مصر ولبنان - نزعات وطنية محلية اتسمت بالحرص على إبراز كيان خاص بها نتيجة دوافع سياسية واجتماعية ونفسية ، كانت برغم تطرفها في بعض الاحيان ذات أثر في تعميق المشاعر الوطنية ورفد الاتجاه القومي .

كذلك كانت النزعة الانسانية الحقة التي تجلت في عدد ضئيل من القصائد - بسبب الظروف السياسية والاجتماعية التي كان يمر بها العرب - تتضمن تعاطفاً شاملاً مع آلام الشعوب الاخرى وسمواً بالأحداث القومية الطارئة الى أجواء الانسانية الرحيمة .

وهكذا فإن الجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية والنزعات الوطنية المحلية والماطنة الانسانية كانت جميعاً روافد مختلفة الألوان انصبت على التيار القومي فأكسبته قوة وتدقاً ومضاء .

٢ - وقد تجلت عناصر القومية العربية في الشعر الحديث بالحاح الشعراء على وحدة الأصل العربي ووحدة اللغة وماضي العرب المجيد وتاريخهم الحافل ، وعلى آلامهم وآمالهم المشتركة ونزوعهم الشديد نحو وحدة أقطارهم وشعوبهم . فمن حيث وحدة الاصل تجلّى في الشعر حرص العرب على اتصال نسبهم المادي أو المعنوي بأجدادهم والباهاة بقحطان وعدنان وكندة وربيعة واعتبار العروبة رابطة قرابة وشيخة وأن أفراد الشعوب العربية ليسوا إلا أبناء عم أو أشقاء .

وكانت رابطة اللغة العربية أقوى هذه الروابط القومية تبعاً لكونها لغة التراث العريق ولسان القرآن المبين وأداة التفاهم بين شعوب العرب على اختلاف أقطارهم . وقد اتسم شطر من القصائد التي قيلت في هذا الشأن بطابع الجدل بسبب تعرض لغة الضاد لهجمات كثيرة من المتفرنجين ودعاة العالمية وبخاصة في مصر والمهجر ، كما اتسم الشطر الآخر بكثير من روح الزهو والافتخار .

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يلوذ الناس وفي مقدمتهم الشعراء بماضيهم الحافل في مثل هذه الفترات من البعث القومي وأن يطمحوا الى استعادة أمجادهم السالفة والاعتداد بتاريخهم المجيد جاعلين من ذلك كله حافزاً لتقدمهم ونهوضهم . والعرب بطبيعتهم أمة محافظة شديدة الوعي لماضيها . وكم أعرب الشعراء في قصائدهم عن اعتزاز لا حد له بوقائع العرب وانتصاراتهم الحاسمة ، وكم تغنوا بعظمة الأمويين والعباسيين معتبرين إياهم مثلهم الأعلى الذي يطمحون الى بعثه . لقد كان هذا الماضي الحافل والتاريخ المجيد بمثابة النسغ الذي حفظ للعرب ثقمتهم بأنفسهم وضمن لدوحة العروبة البقاء .

أما حاضر العرب وواقعهم الذي حوّل بالآلام والآمال في تلك الفترة من حياتهم بين الحربين العالميتين فتردّ كان أشبه بأنون مشتعل تلهب فيه النفوس وتضطرب الاحداث . وبلغت الحياة السياسية والفوقية مرحلة من الاضطراب لم يعد يوسع الاديب العربي معها أن يكرن بمزحل عما حوله . وتبين لكل ذي عينين ان

مصاب العرب واحد في ابتلائهم بعدو واحد هو الاستعمار . فقد أُلّف الجرح بينهم ولم المصاب شعئهم فازدادوا تقارباً وشعروا بقوتهم مجتممين . وكان شعراء كل قطر يهتمون بأحداث القطر الشقيق الآخر ويجملون من قضيته قضيتهم . ولم يكن هذا الحاضر المشترك باينطوي عايه من آلام وآمل إلا رافداً كبيراً يعزز ماضي العرب العريق .

وأما الوحدة العربية فقد كانت أمل العرب عزف الشعراء على قيئسارتها أصفى أألنهم بعد أن أدركوا أن أزهى أيام تاريخهم كانت إبان اتحادهم . وكانت الثورة العربية الكبرى أجراً محاولة في هذا السبيل وقد قيل فيها شعر كثير ظل يفقد الوحدة العربية ويدعو إليها باستمرار . ومع أن الحدود بين أقطار العرب اكتسبت الصفة الدولية وغدت أمراً واقعاً إلا أن الشعراء كانوا بالأجمال في طليعة من أنكروها وتجاهلوا أمرها . وبرغم أن قضية التحرر القومي كانت القضية الأولى التي استأثرت باهتمام العرب فإن الشعراء مع ذلك لم يجسدوا عن تعلقهم بالوحدة المنشودة .

٣ - وقد تبين لنا من خلال استقراء الشعر القومي أنه كان ينطوي على موضوعات كبرى انبثقت من واقع العرب القومي وحياتهم السياسية ، من مثل ما صدر عنه الشعراء من مناضلة للاستعمار وتنديد بالاحتلين وكشف زيف معاهداتهم وعودهم والتشهير بفظائهم ودسائسهم والتهمك بديقراطيتهم ومدنيتهم . وكان لهذا الشعر دور فعال في معركة التحرر التي خاضتها العرب بقوة خلال تلك للرحلة من حياتهم .

وكان التنديد بالاستبداد وفساد الحكم وجهاً آخر من وجره النضال الذي خاضه الشعر القومي أيضاً . فقد تصدى الكثيرون من الشعراء بلا هوادة للمتزعمين والحكام وكشفوا عن خبيثة نفوسهم وفضحوا أمر تواطئهم مع الاجني . لقد نددوا بالملوك والطفاة والحكام الفاسدين وسخروا بالحكومات التي كانت ظلا للاحتلال والمجالس النيابية المصطنعة والانتخابات الزورة . وبكلمة واحدة

كان الشعر القومي من هذه الزاوية شوكة في جنب الطغاة والمستبدين ومن لاذوا بالاجني ورضوا أن يكونوا له أذناناً.

وانصب كثير من الشعر القومي أيضاً على استنهاض الهمم وتنبيه النفوس؛ إذ اتخذ الشعراء مواقف الريادة في الحض على الثورة وقيادة الرأي العام العربي ضد الفساد الداخلي والطفيلان الاجني ، وكان العنفوان والتمرد والجرأة الطابع الاول في هذا الشعر .

كما كان الحث على التضامن والتبشير بالتسامح موضوعاً رئيسياً في الشرق العربي الذي استشرى فيه التعصب الطائفي والتفرقة الحزبية مما كان يفتت في عضد العرب . وقد كثر القول حول هذه الادواء وبخاصة في مصر ولبنان . وتغنى الشعراء من جهة أخرى في كل مناسبة بالوئام والاتحاد بين عناصر الشعب وكانوا بحق رسل الاخاء والمحبة والسلام .

وكان طبيعياً في مثل هذه المرحلة من حياة العرب الحافلة بالاحداث والمليئة بالنضال أن يستأثر موضوع البطولات والتضحيات باهتمام الشعراء الى حد كبير وأن يهز مشاعرهم ويلهب قرائحهم استبسال الاحرار وسقوطهم صرعى برصاص الاعداء ذوداً عن كرامتهم واستقلال وطنهم ، وقد استطاع بعض القصائد في هذا الشأن أن يسمو الى منزلة رفيعة بفضل الجو الملحمي الذي اتسم به . وكان هذا الشعر خير حافظ لمشاعر الامة وهاد لها في طريق الكفاح المرير . وطبيعي أن يكون الرثاء مظهر كثير من هذا الشعر إلا أنه رثاء بعيد عن النوح والبكاء فيه إباء وتجلد ، وفيه ثورة وعزم على الثأر .

وبالاجمال فان الشاعر في معالجته هذه الموضوعات لم يكن يقتصر على شؤون قطره فحسب بل كان يهتم بسائر أجزاء الوطن العربي ، فقد صهرت وحدة القضية مشاعر الشعراء بحيث لم يعد من اليسير التمييز بين ما يقوله شاعر في العراق وما يقوله شاعر في مصر أو آخر في لبنان . وكان هذا الامر أسمي مظاهر الوحدة الفكرية والثقافية بين الشعوب العربية .



## ب - الشكل

أما من حيث صياغة الشعر القومي وطابع أدائه الفني فقد اتمم بأكثر ما اتمم به الشعر العربي القديم من خصائص من حيث عبارته وتناوله الفني وعناصر مبناه وأوزانه وقوافيه . وكان الشعراء في فترة ما بين الحريين يحرصون على أن يسيروا في الطريق الذي سار فيه أجدادهم من قبل ولم يكادوا يحدثون في الشعر حدثاً جديداً .

لقد كانت مرحلة البعث التي عاشوها والحن التي لا قوها تشدهم بقوة الى كل ما يتصل بتراثهم وما يذكرهم بأجدادهم . والاسلوب التقليدي بلغته الفصحى لغة القرآن ولغة نبي العرب كان في ذاته ظاهرة قومية اتسمت بالاجلال والتقديس ، فلم يكن من الممكن أن يصدر عن الشعراء أي نزوع جاد نحو قطع الصلة أو إضعافها بذلك التراث العريق في مثل هذه المرحلة من حياة العرب .

ومن هنا كانت لغة الشعر والخطابة فصيحة بالاجمال حتى في مخاطبة الجماهير مع أن العامية أقرب الى أذهانهم ، فقد أعرض الشعراء والخطباء في الموضوعات القومية عن اللهجات المحلية ولم يكن للزجل والشعر الشعبي دور كبير في بث المشاعر القومية في حين كان له شأن في مجال الوصف والغزل والوجدان الذاتي .. وهكذا كان بعث الاساليب العربية الصافية والنسج على منوال الاجداد جزءاً من حركة البعث الشاملة .

لقد ظل التيار التقليدي إطاراً حياً للمضمون القومي الجديد لانه يرمز لقومية أصيلة ويمثل ثقافة تقليدية راسخة وذلك بالرغم من اختفاء عمالقه أمثال البارودي وشوقي وحافظ والرافعي والزهاوي . والتقاليد أطول المعنويات عمراً وأشدها مراساً .

وإن التجديد على أساس من القديم أو التعبير عن موضوعات جديدة بعبارة قديمة أو كالفديحة كان خطوة محدودة وممتدة لكنها منسجمة مع حال العرب في تلك الفترة من حياتهم القومية فترة البعث والتكوين .

ومن الملاحظ ان اكثر الشعراء الذين عاشوا بين الحربين وعالجوا الشعر القومي ينتسبون في الغالب الى مدرسة بلاغية واحدة هي مدرسة الفصاحة والعبارة المشرقة واللغظ الجزل والموسيقى الواضحة . وكان أكثرهم أيضاً بعيدين عن الاتصال المباشر بثقافة الغرب وآدابه وتياراته الفكرية باستثناء ما اطلعوا عليه منقولا في العربية ، أما الثروات الادبية الحقيقية في اللغات الاجنبية فقد كانت مغلقة عليهم .

لقد كان سلطان القديم على الشعراء قوياً في العبارات وفي الصورة وفي هيكل التصيدة وسهات أسلوبها ، وكان يزداد قوة كلما كانت المرحلة قريبة من فجر البعث والنهوض القومي . ومما تجدر ملاحظته تبعاً لذلك أن العتصمين بالنهج التقليدي من الشعراء كانوا بالاجمال اقوى عروبة وكانهم يؤكدون بذلك من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون تعلقهم بهذه الانماط الادبية الاصلية التي هي في الواقع من أهم مقومات القومية العربية ويحرصون على دوام الصلة بالتراث العربي وبعثه من جديد .

وثمة سبب جوهرى آخر حد من تأثر الشعر القومي بالآداب الغربية وهو أن هذه الآداب في الغالب لم تعرف أصلا الشعر القومي من حيث أنه موضوع بارز من موضوعات الادب ، ولم يكن لمثل هذا اللون من الشعر حيز واضح لدى معظم الاوربيين لانهم لم يبتلوا بالاستعمار . إن الشعر القومي نمط من الأدب اقتضته طبيعة الحياة العربية الحديثة وظروفها في فترة معينة من الزمان . وهو نابع من اعماق الذات العربية ومعبر عن المنازع الاصلية للمجتمع العربي .

على أن المضمون في الشعر القومي كان متسقاً مع مشاعر العرب بل رائداً لها في كثير من الأحيان . إلا أن العبارات القديمة التي آثرها الشعراء للتعبير عن أفكارهم ومنازعتهم الجديدة لم تكن في الغالب لتستطيع أن تطابق حقيقة تجاربهم وبالتالي نقلها . وإذا كان بعض الشعراء الكبار قد ورثوا ثورة لغوية كبرى واستطاعوا أن ينموها وأوتوا موهبة وافتناناً ، فإن كثيرين غيرهم لم يكن في طاقتهم ذلك فبقوا في حدود ما توارثوه من زاد لغوي يدورون في فلكه ، وهكذا توارت الاصاله تحت ركام التقليد وتضائل الابداع وافتقد كثير من الشعر القومي الحرارة والصدق الشعوري وقوة الايجاء حتى آل بعضه الى العقم واران عليه جفاف النظم والرتابة والنثرية والتقريرية . وهذه الظاهرة نتيجة طبيعية إذا طالت فترة البعث وغدت حالة مستمرة لا مجرد مرحلة .

ولكن الأمر أخذ يتجه سريعاً نحو التبدل في أعقاب الحرب العالمية الثانية بعد أن خفت وطأة السلبية في أدب العرب وفي حياتهم إثر انحسار الاستعمار عن جزء كبير من أرضهم . وغدا من اليسير بعد ذلك أن تهب رياح التجديد قوية على الشرق العربي الذي أخذ يطل على العالم ويفترق من مختلف ينابيع النشاط الانساني . (١)



هل لنا بعد ذلك أن نطرح في خاتمة المطاف على أنفسنا هذا السؤال فنقول : هل أدى الشعر العربي رسالته في هذه المرحلة من حياة العرب الحديثة ؟

لا شك أن الجواب على ذلك أصبح يسيراً بعد كل ما تقدم ، إلا أنه لن يتكون على كل حال قطعاً بنعم أو بلا ، وإنما هو في الواقع بين بين . والحق

(١) سنتبع هذا الكتاب كتاباً آخر « شعرنا القومي في الميزان » نعرض فيه بالتفصيل لجانب الشكل والأسلوب في قصائدنا القومية .

أننا نظلم الشعراء إن قلنا إنهم لم يستطيعوا حمل الرسالة ولم يؤدوا واجبهم ثجا  
أمتهم . كما أننا نظلم هذا المجتمع العربي إذا ذهبنا الى أن الشعراء فيه قاموا بواجبهم  
نحوه على أتمه .

وما من شك في أن ما مر بنا خلال هذا البحث يسمح لنا بأن نقول إنه  
كان للشعر دور فعال في تفتيح النفس العربية وإضاءة زواياها بنور الوعي  
القومي الصحيح .

لقد كان لتطورات السياسة التي هزت العالم العربي أثر بعيد في حياته  
الأدبية بل إن الشعر القومي نفسه كان وليد تلك المرحلة الحاسمة من حياة العرب ،  
كما أنه أثر من جهة أخرى في هذه التطورات وأسهم في خلقها . ولكن علينا  
أن نعترف أيضاً بأن أحداثاً كبرى ألمت بالشرق العربي كالثورة العربية  
إبان الحرب الأولى ثم ثورة مصر في أعقابها ثم ثورات فلسطين بعد ذلك ، ولكن  
ما قيل من شعر في هذه الأحداث التي هزت أعماق المجتمع العربي لم يكن  
في مستواها .

ولعل السر في أن الشعر العربي لم يستطع أن يؤدي رسالته القومية كاملة  
نحو المجتمع العربي أنه كان بالأجمال شعراً منفصلاً قبل أن يكون فاعلاً ، يستوحي  
ولا يوحي . صحيح أن التأثير كان متبادلاً بحيث أثر الشعر في سير الأحداث  
وأثرت الأحداث بدورها في طبيعة الشعر ، إلا أنه من الملاحظ أن القصيدة  
القومية التي تفجرت في نفس الشاعر العربي في هذه الفترة الصاخبة من حياة أمته  
كانت قصيدة صاخبة أيضاً وتأثرت بصخب تلك الأحداث نفسها ، وهذا طبيعي  
في مرحلة مضطربة اتسمت بكثير من سمات التوتر والحماسة والانفعال وكان  
مصير العرب خلالها في كفة القدر . ومن هنا كان الشاعر العربي منفصلاً في أكثر  
الأحيان يتأثر قبل أن يؤثر ، وكانت الأحداث والوقائع هي التي تنبسط الشعر من  
نفوس الشعراء ، وبالتالي هي التي تخلق الأدباء وتنضجهم بنارها وتجعلهم ثمرة لها .

وقد يكون في سرعة تتابع الاحداث التي مرت بالشرق العربي في هذه الفترة الوجيزة الواقعة بين الحربين العالميتين ما استبق مبادرة الشعراء الى الاسهام في خلقها والتأثير في مجراها ، فلم يبق آخر الأمر في نفوسهم سوى رد ودفع لتجاهها .

وتبعاً لانجراف الشعراء في تيار السياسة انحرف رهط منهم في مضمونه عن وجدان أمته وخرج عن محور مشاعرهما وأمانيتها وكان شعرهم كالبقعة السوداء في الثوب الناصع . كما وجد شعراء ( امّعات ) اتخذوا من الشعر سلعة وجعلوه بوقاً لأولي الامر ، فاذا هو صورة شائئة للحياة القومية . كما اتسم كثير من هذا الشعر أيضاً بسهات شعر البلاط القديم وانطوي على استخذاء مججوج تأباه روح العصر . وقد شاع نظم القصيدة السياسية حتى غدت أشبه بالمقالة الصحفية .

وطبعي من جهة أخرى أن تكون السلبية طابع أكثر ما مر بنا من شعر قومي إذا لاحظنا أن حياة العرب السياسية كانت كلها مطبوعة بهذا الطابع من مثل مناضلة الاستعمار والتتديد بالاستبداد والحض على الثورة وشجب التفرقة والظلم على الطائفية . فقد كان على الشاعر العربي في تلك المرحلة أن يجعل من قوافيه سهاماً يصوبها نحو كل ما يراه من فساد ، وأن يتخذ من شعره معولاً يهدم به أعشاش الشر . والهدم ضروري للبناء وهو أيضاً طبيعي في معركة التحرر القومي . ومع ذلك كانت الى جانب السلبية الحادة إيجابية بناءة لم تقتصر على وصف البلاء وتشخيص الداء بل تجلت فيها الدعوة الى الوحدة العربية وإشادة صرح الوطن العربي والتبشير بالاخاء والسلام والاتصال بكثير من قيم الحياة المشرقة .

ولكن ما مدى ارتباط الشاعر العربي الحديث بوجدان قومه الجماعي ؟ لا شك أن عدداً متزايداً من الشعراء أخذ يربو على مر السنين ويبشر برسالة التحرر القومي نحو أمته ، ومع ذلك كان ثمة شعراء أشبه بالزهاد والرهبان هم في

واد وأمتهم في واد ، لا يعرفون من أمر رساله الحياة سوى محراب الفن المجرد .  
ومنهم أيضاً من كانوا (لا أبايين) تتراقص السنة اليب في بيوتهم وكأن الامر لا  
يعنيهم . ومنهم من كانوا انهمايين تواروا عن المعتك وآثروا السلامة في أشد  
ساعات الخطر على قومهم ، ومنهم أخيراً من كانوا انتهازيين آثروا الجمعية والمتاجرة  
بشاعر قومهم وتطفلوا على الفن الصحيح فكانوا كخضراء الدمن .

أما شخصية الشاعر العربي ومذهبه في شعره فلم يبد فيها الوضوح  
والاستقرار دائماً . ومع أن عدداً من الشعراء اهتموا الى الطريق السوي الذي  
اختاروه فساروا فيه قدماً ، فان الى جانبهم أيضاً فئة أخرى وقفت على مفترق  
الطرق لا تدري الى أين المسير ، أو أنها كانت تحاول السير من هنا حيناً ومن  
هناك حيناً آخر . وهذا ما أدى الى توزع الشخصية الفنية لبعض الشعراء وتبدد  
اتجاهاتهم المتباينة حتى إن بعضهم كان في دواوينه الكثيرة أشبه بدائرة معارف  
شعرية ، فتارة يهوّم في أرجاء الطبيعة والسماء معتلياً جبال الاولب ، وحيناً  
يتجه اتجاهها اجتماعياً أو قومياً وينغمس في حمأة الاضطراع السياسي .

وكما تعايشت هذه الموضوعات المتباينة في قرائح بعض الشعراء تعايشت في  
حياة العرب الادبية أيضاً مذاهب ومفاهيم شتى ؛ فكان الشعر الوجداني الحالم  
المسرف في ذاتيته ، وكان الى جانبه الشعر القومي والاجتماعي المفرق في جماعيته .  
وكما عاش المحزون والزهد والمزمل والجد في أدب العصر العباسي عاشت في عصرنا  
هذا الرومانسية الى جانب الواقعية . وقد تبقى هذه الظاهرة الادبية في حياة العرب  
دون أن تكتب الغلبة لاحدهما لان كلا منها إنما تلبى حاجات نفسية غالبة في  
ضمير الفرد والجماعة وتستند الى فلسفة راسخة في الحياة .

وليس معنى الشعر أن تقتصر مادته على الدماء والجثث والمدافع والسيوف  
والثورة والعنفوان لان الشاعر إنسان قبل كل شيء وهو لا يستطيع أن ينسلخ  
عن أحلام الانسان وأهوائه وميوله ومخاوفه ورغائبه .

قد لا يستسيغ ذوق العصر شطحات الرومانسيين ومع ذلك ليس من  
حقنا أن ننكر عليهم حريتهم في فنهم لأن « الشعر - كما يقول إمرسن - عقيدة ،  
وأبعد الناس عن الشعر من ينظّمون في موضوع ما عن غير عقيدة » ومن  
الخطأ أن نطلب إلى أديب أن يفعل كذا وأن نقول له كن شاعراً قومياً أو كن  
عاطفياً ذاتياً . لأن الحياة هي التي تفرض عليه ذلك . وهو إن لم يعبر عن المنازع  
الحية المتجددة تخلف عن التطور وانعزل عن الحياة .

لندع الازهار جميعاً تفتتح ولندع أمرها بعد ذلك للوجود والعدم ؛  
فمنها ما يذبل ويعود إلى التراب ومنها ما ينفجنا بعاطر شذاه ويؤدي رسالته التي  
خلقته من أجلها الحياة .



وبعد ما مستقبل الشعر القومي في أدبنا العربي ...؟

قد يكون هذا الشعر طوراً من أطوار حياتنا الأدبية ينتهي بانتهاء  
الظروف التي أسهمت في خلقه ، ولكن الذي لا ريب فيه أنه في ماضيه وحاضره  
كان خطأ من الأدب اقتضته حياة العرب وواقعهم ، إنه فن أصيل انبثق من  
صميم وجدان العرب وطبيعة حياتهم ، وأخذ مكان الرائد في كفاحهم  
ومعركة مصيرهم .

ولقد آمن الشعر القومي بمستقبل الحياة العربية وسار في طريق الواقعية  
ولم يكن ليؤمن في ذلك بأن الاستعمار والاستبداد حكم الاقدار على الشعوب  
وإنما هو بلاء ينبغي أن يجتث ويجب أن يستأصل ، كما لم يعد يؤمن بأن الشعوب  
رعية يتصرف بمقدراتها الرعاة وإنما هي سيادة الوجود عليها أن تخط تاريخ حياتها  
بدمائها لتقرر بنفسها مصيرها وتصنع بيدها قدرها .

إن أمة تسير في طريق التكوين وتشق لنفسها دروب الحياة لتخلق  
وجودها القومي الصحيح وتبني كيانها الانساني الوطيد لا بد أن يكون

لها أدب ينبثق عن تطورها واضطرابها ويتجاوب مع رغباتها وأمانها ويكون هو أبرز مظاهر تفتحها وانطلاقها .

وأني للحياة القومية أن تومض اذا لم يتغن الشعراء بأنداء فجرها ، ويغمس الكتاب أقلامهم بعرق نضالها ، ويستلمهم ذوو الفكر والفن مقومات نتاجهم من صميم طبيعتها .

وإن الشعراء ، هذه الصفوة الرائدة في الامة بما حباها الله من إرهاف الحس وصدق الحدس ، أقدر على استبطان ضمير المجتمع والوقوف على دوائل وجدانه وتفهم ما يعتلج في أعماقه من اتجاهات ومنازعات . وهي بعد جديرة إذا اتسمت بذلك كله أن تقف على مكامن الداء ومواطن العجز في مجتمعيها التوثب ثم تصدر في نتاجها عن كل ما يحمل اليه من عناصر الخير والفلاح وعوامل التقدم والازدهار .

والاتجاه القومي في الشعر الحديث يدور أيضاً في مساره ضمن فلك أرحب ليسهم إسهاماً فعالاً في بناء عالم متحرر من آفات الاستعمار ومآثم العدوان وزعات الطفيلان ، وفي حماية الحضارة الانسانية وتنميتها .

فهذا الشعر إذن يبريء نفسه من كل ما يشوبه أو يعلق به من وصمة التعصب ولوثة الطائفية وآفة الاقليمية وبدعة العنصرية . إنه في قوميته ينطوي في جوهره على رسالة إنسانية تؤكد وجود العرب وحقهم في الحياة والحرية . وهو إذ يبشر بهذه الرسالة في أمة من الامم انما يجتريء ذلك من الرسالة الكبرى التي تتكاتف أمم الارض لحملها . وبذلك ينير بشعلته الوهاجة بعض الزوايا المظلمة في المجتمع الانساني الواسع .

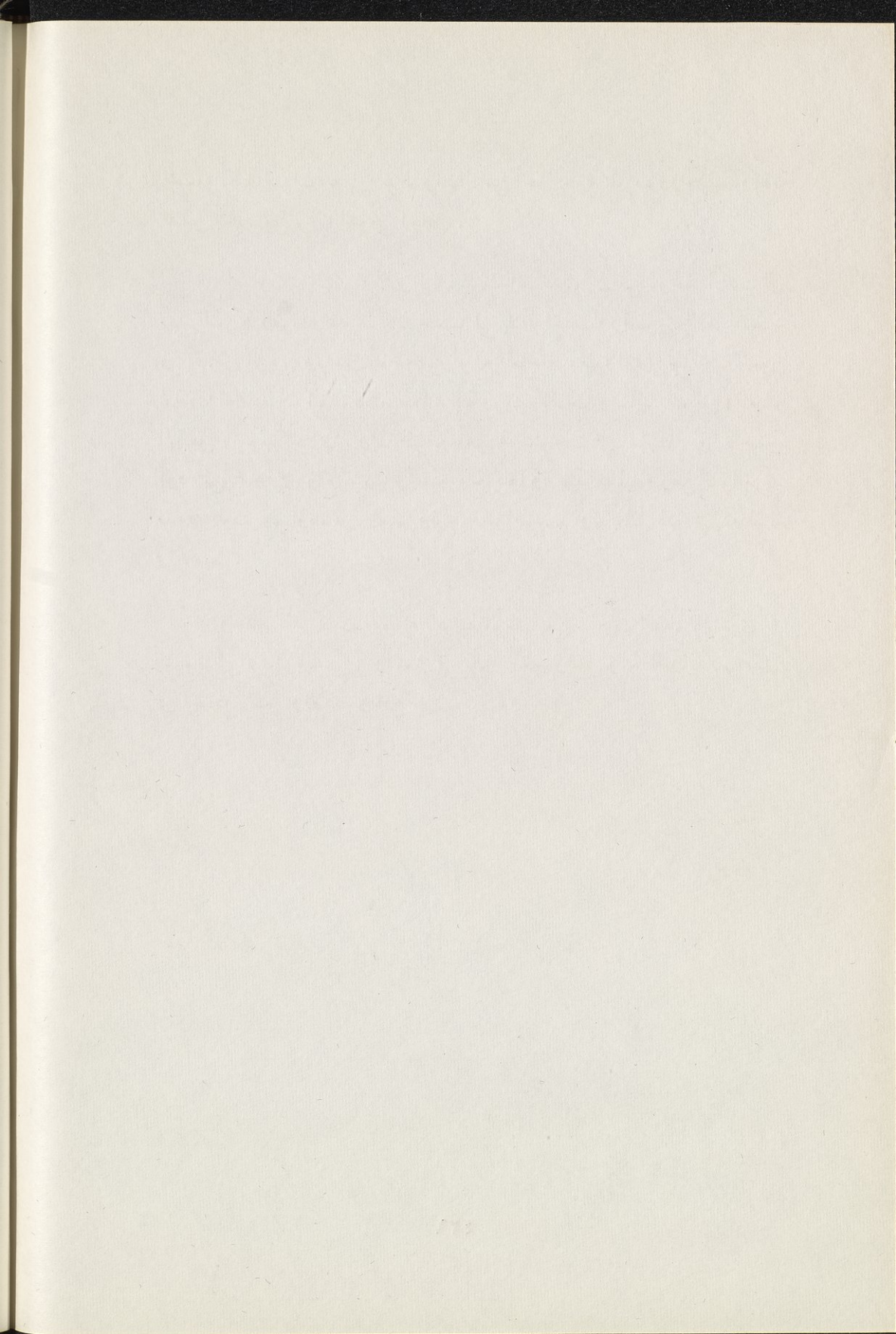
وما الشعر القومي الذي كنا بصدد دراسته ورصد مساره الاتعبير جميل وموح عن تجارب الشاعر العربي ممتزجة بتجارب أمته ومستمدة من حياة



مجتمعه . انه اعراب عن عزم ونضال من أجل حرية العرب ووحدتهم، وقطعة  
تنبض بالحياة من تراثنا القومي الحافل .

أما أولئك الشعراء الذين نزلوا بذلك الفرع المورق من دوحة الادب الى  
صميم المعركة القومية بعد أن كان حبيساً في بلاط الخلفاء وقصور الامراء يفرد  
في أفقاص الذهب ويرسل أنغامه من أبراج العاج فقد طووا بين جوانحهم شعور  
امة وكانوا عنوان نضال الشعوب العربية ورمز كفاحها ولسانها الناطق وقلبها  
النابض وصوتها المدوي . وان القومية العربية تستوجب على ابنائها البررة حق  
الوفاء لمن عملوا على رفع شأنها وتحقيق وجودها وتوطيد دعائمها ، ومن كانوا مرآة  
صادقة لعصرهم ومصدر الهام وتوجيه لمواطنيهم وترجماناً لهم في آمالهم  
وآلامهم .

وبعد . لقد كانت القومية العربية موجة من موجات التقدم البشري ،  
ودعوة الى الايمان بالنفس ، والعمل في سبيل الخير والحق والحرية والسلام حملت  
على اجنحة الشعر والادب والفن .



## آراء واصدء

### حول الطبعة الأولى من هذا الكتاب

« في المعهد العالي للدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ناقشت لجنة مكونة من الاساتذة الدكتور اسحق موسى الحسيني والدكتور محمد خلف الله احمد والدكتورة سهير القلماوي الاستاذ عمر الدقاق عضو البعثة الدراسية السورية في المعهد في رسالته المقدمة للماجستير عن ( الاتجاه القومي في الشعر المعاصر ) . وفي النهاية أجازت اللجنة رسالته وأثنت عليه ومنحته الماجستير بدرجة ممتاز وأوصت بنشر رسالته .

ولاهمية هذه الدراسة سجلت ( صوت الشرق ) تلخيصاً وجيزاً للرسالة لتقريب موضوعها الى القارئ العربي المعنى بشؤون الادب ...»

مجلة «صوت الشرق» القاهرة: (مايو) أيار ١٩٦٠



« صدرت دراسة جامعية جديفة عن ( الاتجاه القومي في الشعر المعاصر ) بقلم عمر الدقاق مفتش اللغة العربية . والدراسة بحث جامعي نال به صاحبه درجة الماجستير من معهد الدراسات

العربية العالية ، وطبع في مجلة مطبوعات المعهد تقديراً لما في  
البحث من إحاطة وجهد علمي «

مجلة « الجندي » - دمشق : ٧ آب ١٩٦٠

★ ★ ★

« صديقي ...

فرغت اليوم من مطالعة كتابك القيم ( الاتجاه القومي في  
الشعر المعاصر ) معجباً بجلدك واحاطتك ، مستمتعاً بكثير من  
الاطايب الشعرية التي دلت باختيارها على رهافة حسك وسلامة  
ذوقك . ولم يفتني - ولساني ينثر الثناء على قلمك الصنّاع -  
ما رصعت به أبحاثك الشائقة من فقرات ، عدا عن إصابتك  
بها كبد الحقيقة فهي آية في البساطة والمعنى الجميع بيد أني  
أسف أن كتابك النفيس لم يسلم من أخطاء مطبعية غير قليلة ،  
مما يدل على ضعف المسؤولية عند المنضد والطابع واستصغارها  
الانتم الأدبي الذي يقترفانه بحق المؤلف ؛ فان تشويه العبارة  
الجميلة لا يكاد يختلف عن تشويه الوجه الحسن ، أو هو ضرب  
من تجريم البريء واعدامه الحياة ...

أدعو لك الله تعالى بأن يمنحك الفرص الطويلة السعيدة  
لتخرج العديد من مثل هذا المصنف المفيد ... والسلام عليك  
من صديقك المخلص :

الشاعر الفروي « رشيد سليم الخوري »  
جبيل ٥ تشرين الثاني ١٩٦٢

★ ★ ★

« ... لا أظن أن عصرًا من العصور الشعرية في الادب العربي كان أوفر غنىً ، وأكثر قولاً من هذا العصر الذي ترك في خزانة الشعر قصائد كثيرة ، ودواوين عدة تسجل هذه الفترة الملأى بالاحداث والوعي القومي والتفتح العربي .

وكما قال في المقدمة صاحب هذه الدراسة ( لم يعد المجتمع الحديث بجيله الثائر يرضى للشعر ان يكون كالآنية المرصعة تسحر الناظرين برونقها . فالعربي اليوم بما اتسم به ذوقه وتفكيره من معالم الاصالة والوعي يطمح الى أن يجد في الادب صدى وجدانه وحياته وواقعه . كما لم يعد بوسع الادب العربي أن يستمر في عزله المديدة عن المجتمع وما يضطرب فيه ، دون ان يساير الحياة وأن يؤثر فيها ويتأثر بها .. )

حقاً ، ان في هذه الدراسة الوافية جهداً مشكوراً عانى فيه المؤلف كثيراً من عناء جمع الشواهد المتفرقة ، وعناية الدراسة ، حتى غدت هذه الدراسة بحق مرجعاً أميناً وافياً ، تتجاوب فيه خفقات الشعر القومي ، وضرباً أميناً من ضروب الدراسة الموضوعية التي تنأى عن التحيز والعصبية ، وهي بذلك تبقى مثلاً من أمثلة الدراسة المتجردة الامن الحقيقة »

من مقالة نقدية : خليل الهنداوي

مجلة « المعرفة » دمشق : أيار ١٩٦٢

## آ - المصادر (الدواوين)

١٩٣٦	حلب	المصر الجديد	ديوانه	ابو ريثة - عمر
١٩٤٧	بيروت	الكشاف	ديوانه	ابو ريثة - عمر
١٩٢٤	القاهرة	السلفية	(مصريات)	ابو شادي - احمدزكي
١٩٢٦	القاهرة	السلفية	(مفخرة رشيد)	ابو شادي - احمدزكي
١٩٢٦	القاهرة	السلفية	(وطن الفراغة)	ابو شادي - احمدزكي
؟	النجف	الزهراء	(الجداول)	ابو ماضي - ايليا
؟	بيروت		(الحمائل)	ابو ماضي - ايليا
١٩٤١	القاهرة	مصر	(اشواق)	ابو الوفا - محمود
١٩٥٣	القاهرة	المعارف	(المهوى والشباب)	الاخطل الصغير
١٩٣٥	القاهرة	النار	ديوانه	ارسلان - شكيب
	القاهرة		ديوانه	الاسمر - محمد
١٩٤٦	القاهرة	دار المعارف	(تغريدات الصباح)	الاسمر - محمد
			(في بلادي)، (رجال واشباه) مخطوطان	الاميري - عمر بهاء
١٩٥٣-٥٢	القاهرة	جزءان	ديوانه	البارودي - محمود سامي
؟	طرابلس	الحضارة	(ليني وبين الغواني)	البارودي - وجيه
١٩٣٧	النجف	الراعي		بجر العلوم محمد صالح
١٩٤٦	القاهرة		(ابن سام الضحى)	البحيري - حسن
١٩٤٦	بيروت		(الفلسطينيات)	البنستاني - وديع
١٩٢٥	صيدا	العرفان	ديوانه	بدوي الجبل - (محمد سليمان الاحمد)
١٩٣٢	دمشق	ط ابن زيدون	ديوانه	التقى - اديب
١٩٥٤	عمان		(عشيات وادي اليباس)	الثل - مصطفى وهي
١٩٤٧-٣٩	القاهرة	٤ أجزاء	ديوانه	الجارم - علي
١٩٣٤	ريودوجانيرو		(الروافد)	الجر - شكر الله
؟	القاهرة		(اغاريد السحر)	الجندي - علي

١٩٥٠	القاهرة	(الحان الاصيل) الاعتماد	علي	الجندي
١٩٥٣ و ٥٠ و ٤٩	بغداد	٣ اجزاء	ديوانه	الجواهري - محمد مهدي
١٩٣٧	القاهرة	جزءان دار الكتب المصرية	ديوانه	حافظ ابراهيم
١٩٢٨	حماه	ط الاصلاح	ديوانه	الحامد - بدر الدين
١٩٤٨	النجف		ديوانه	الجبوي - محمود
١٩٠٥	الاسكندرية	٢ (تذكار الصبا)	ط	الحداد - نجيب
١٩٢٩	بيروت	طيارة	(من نبع الحياة)	حسن - محمد عبد الغني
١٩٢٩	بيروت	طيارة	ديوانه	حمد - عمر
١٩٣٩	حلب	المارونية	ديوانه	المحصي - قسطنطين
١٩٢٧	صيدا	العرفان	ديوانه	الحوماني - محمد علي
١٩٤٨	النجف		ديوانه	الخصري - عبد الغني
١٩٥٩	القاهرة		ديوانه	الخطيب - فؤاد
١٩٣٦	القدس	(العنقود)		الخوري - اسكندر
١٩٣٦	القدس	(العلوم والمجهول)		الخوري - اسكندر
١٩٢٠	القدس		ديوانه	دموس - حليم
١٩٢٦	صيدا	(الثالث والثاني)		دموس - حليم
	القاهرة			الرافعي - مصطفى صادق
١٩٥٣	القاهرة	ط ٤ الاعتماد	ديوانه	الرصافي - معروف
١٩٢٥	القاهرة	العربية	ديوانه	الزركلي - خير الدين
١٩٣٤	بغداد		(الاول والاشغال)	الزهاوي - جميل صدقي
١٩٢٤	بيروت		(الرباعيات)	الزهاوي - جميل صدقي
١٩٢٨	بغداد	الفرات	(اللباب)	الزهاوي - جميل صدقي
١٩٣٨	بروكلين	السمير	ديوانه	سماحة - مسعود
١٩٤٠	بغداد		(نمات الفيحاء)	سماحة - محمد باقر
١٩٤٠	القاهرة	الترجمة والتأليف والنشر	ديوانه	الشبيبي - محمد رضا
١٩٣٨	بروكلين			الشرقوني - محبوب الخوري

١٩٥٣	بغداد	المعارف	(عواطف وعواصف)	الشرقي - علي
١٩٥١	٤٨٠٠٠٠٠٠٠٠	أجزاء الاستقامة	(الثوقيات)	شوقي - أحمد
١٩٣٣	القاهرة	مصر	(دول العرب وعظاء الاسلام)	شوقي - أحمد
١٩٤٦	دمشق	اليقظة	(ألحان الالهيبة)	الصافي النجفي - أحمد
			(المواجس)	الصافي النجفي - أحمد
١٩٤٧	بونس ايرس		(النوافل)	صيدح - جورج
١٩٤٨	القاهرة	المعارف	(الشروق)	الصيرفي - حسن كامل
١٩٤٣	القاهرة	ط ٣	(زهر وخنمر)	طه - علي محمود
١٩٥٥	بيروت	دار الكشاف	ديوانه	طوقان - ابراهيم
١٩٤٣	صيدا		(الحماسيات)	العاملي - محمد كامل شعيب
؟	القاهرة	الاعتماد	ديوانه	عبد المطلب - محمد
١٩٤٦	نيويورك		(الارواح الخائرة)	عريضة - نسيب
١٩٥٤	صيدا		(الالهيبة)	العدناني - محمد
١٩٤٨	دمشق	البرهاني	(ظلال الايام)	الطارق - أنور
١٩٤٢	القاهرة		(أعاصير مغرب)	العقاد - عباس محمود
١٩٣٧	القاهرة		(عابر سبيل)	العقاد - عباس محمود
١٩٣٣	مصر		(وحي الاربعين)	العقاد - عباس محمود
١٩٤٩	مصر	ط شبرا	ديوانه	عماد - محمود
١٩٢٥	حيفا	العباسية	ديوانه	الغلاييني - مصطفى
١٩٤٧	مصر		(صرخة في واد)	غنيم - محمود
١٩٣١	دمشق	باييل	ديوانه	الفراتي - محمد
١٩٣٢	سان باولو	ط مجلة الشرق	ديوانه	فرحات - إلياس
	مصر	دار المعارف	ديوانه	فهمي - عزيز
١٩٥٤	بيروت	دار الثقافة	ديوانه	فياض - إلياس
١٩٥٠	بيروت	الكاثوليكية	(رفيف الاقحوان)	فياض - نقولا
	سان باولو	ط مجلة الشرق	(الاعاصير)	القروي - رشيد سليم الخوري



القروي-رشيد سليم الخوري	ديوانه	ط صفدي	سان باولو	١٩٥٢
قنصل-إلياس	(السهام)	ط ٣	بيونس ايرس	١٩٣٥
قنصل-إلياس	(على مذبج الوطنية)		د د	١٩٣٣
الكاظمي-عبد المحسن	ديوانه ج١	ابن زيدون	دمشق	؟
الكاظمي-عبد المحسن	ديوانه ج٢		القاهرة	١٩٤٨
محرم - أحمد	ديوانه ج٢	الفتوح	دمههور	١٩٢٠
مردم بك - خليل	ديوانه		دمشق	١٩٦٠
مطران - خليل	ديوانه ٢ أجزاء	ط	القاهرة	١٩٠٩
المعلوف-رشدي	(أول الربيع)	الكشاف	بيروت	١٩٤٤
المعلوف-فوزي	ديوانه	دار الريحاني	بيروت	١٩٥٧
المنصور - حسين	(الشاطيء الصخري)	الانجلو المصرية	القاهرة	
ناصر الدين-أمين	(صدى الخاطر)			
ناصر الدين-أمين	(الالهام)	الصفاء	لبنان	١٩٣١
نعيمة-مخائيل	(همس الجفون)	ط ٢ صادر	بيروت	١٩٥٣
الهاشمي-محمد	(عبرات الغريب)			٥ ١٣٣٨
الوليد-أبو الفضل	(الانفاس الملهبة)	ط ٢ الوفاء	بيروت	١٩٣٤
الوليد-أبو الفضل	(نفحات الصور)		بيروت	١٩٣٤
ويردى-مخائيل	(زهر الربى)	الهاشمية	دمشق	١٩٥٤
اليازجي-إبراهيم	(العقد)			؟
يحيى - عمر	(البراعم)	العلمية	حلب	١٩٣٦
اليعقوبي-أبو الاقبال	(النظرات السبع)	الهلال	دمشق	
اليعقوبي-محمد علي	ديوانه	النعمان	النجف	
يكن - ولي الدين	ديوانه	المقطم	مصر	١٩٢٤

## ب - المراجع ( المؤلفات )

- أبو سعد - أحمد ( الشعر والشعراء في العراق ) المعارف بيروت ١٩٥٩  
 أرسلان - شكيب ( حاضر العالم الاسلامي ) أجزاء مصر  
 أرمنازي - نجيب ( سورية من الاحتلال حتى الجلاء ) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٤  
 أمده - ناصر الدين ( الاتجاهات الادبية الحديثة في فلسطين والاردن ) القاهرة ١٩٥٧  
 الاشر - صبري ( المختار من الشعر في سورية ) ملحق برسالة جامعية، مخطوط  
 الاشر - عبدالكريم ( النثر المهجري ) جزءان معهد الدراسات القاهرة ١٩٦١  
 انطون نيوس - جورج ( بقظة العرب ) ترجمة حيدر الركابي اليقظة دمشق ١٩٤٦  
 البدوي - الملام ( عرار : عبدالله وهبي التل ) الوطنية عمان ١٩٥٨  
 بهلي - رفائيل ( الشعر العصري في العراق العربي ) مصر ١٩٢٣  
 جبران - جبران خليل ( المجموعة الكاملة لمؤلفاته ) بيروت ١٩٥٥  
 جبري - شفيق ( أنا والشعر ) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٩  
 جمعة - ابراهيم ( القومية المصرية الاسلامية ) القاهرة ١٩٤٤  
 جمعية الرابطة العلمية الادبية بالنجف ( الفلسطينيين ) بغداد ١٩٣٩  
 الجندي - أدهم ( أعلام الادب والفن ) دمشق ١٩٥٤  
 الجندي - أنور ( زعات التجديد في الادب المعاصر ) القاهرة ١٩٥٧  
 الحاني - ناصر ( جميل صدقي الزهاوي ) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٤  
 حسين - محمد ( الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ) جزءان القاهرة ١٩٥٤  
 الحسيني - اسحق موسى ( الاخوان المسلمون ) بيروت  
 الحصري - ساطع ( نشوء الفكرة القومية ) ط ٢ القاهرة ١٩٥٥  
 الحصري - ساطع ( آراء وأحاديث في القومية العربية ) ط ٢ بيروت ١٩٥٦  
 حمزة - عبداللطيف ( الصحافة والادب في مصر ) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٥  
 الحوفي - أحمد محمد ( وطنية شوقي ) القاهرة ١٩٥٥

التجف	( شعراء الغري )	الخالقاني-علي
بيروت ١٩٤٣	( الفكر العربي الحديث )	الخورى-رئيف
مصر ١٩١٦	المقطم ( ثورة العرب )	داغر-أسعد
القاهرة ١٩٥٩	معهد الدراسات ( الشعر العراقي الحديث )	الدجيلي-عبدالكريم
القاهرة ١٩٥٨	معهد الدراسات ( شكيب أرسلان )	الدهان-سامي
القاهرة ١٩٥٥	جزءان ( في الادب الحديث )	الدسوقي-عمر
بيروت ١٩٥٠	( الشعر العربي في المهجر الامريكي )	ديب-وديع
القاهرة ١٩٥٤	النهضة المصرية شعراء الوطنية	الرافعي-عبدالرحمن
القاهرة ١٩٤٦	جزءان ( ثورة ١٩١٩ )	الرافعي-عبدالرحمن
بيروت ١٩٥٦	دار العلم للملايين ( معالم الحياة العربية الجديدة )	الرزاز-محمد منيف
دمشق ١٩٦٠	جامعة دمشق ط ٢ ( تاريخ القرن العشرين )	رونوفن
بيروت ١٩٤٠	( الوعي القومي )	زريق-قسطنطين
القاهرة ١٩٥٧	دار الهلال ( تاريخ آداب اللغة العربية )	زيدان-جرجي
القاهرة ١٩٣٢	( تراجم مشاهير الشرق )	زيدان-جرجي
بيروت ١٩٤٧	ط ٢ ( الصراع الفكري في الادب السوري )	سعادة-أنطون
مصر ؟	( الثورة العربية الكبرى ) الباب الحلي	سعيد-أمين
مصر ١٩٥٤	( التيارات الادبية في العراق ) معهد الدراسات	سعيد-جميل
القاهرة ١٩٥٩	المعارف ( حافظ ابراهيم )	سندالجندي-عبدالجيد
القاهرة ١٩٥٨	معهد الدراسات ( محاضرات في القومية العربية )	شهابي-مصطفى
بيروت ١٩٢٦	ط ٢ ( الآداب العربية في القرن التاسع عشر )	شيوخو-لويس
القاهرة ١٩٥٨	معهد الدراسات ( الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام )	صليبا-جميل
بيروت ١٩٥٧	ط ٢ ( أدبنا وأدبنا في المهاجر الامريكية )	صيدح-جورج
القاهرة ١٩٥٧	المعارف ( الادب العربي المعاصر )	ضيف-شوقي
القاهرة ١٩٥٣	المعارف ( شوقي شاعر العصر الحديث )	ضيف-شوقي
القاهرة ١٩٥٤	معهد الدراسات ( حافظ ابراهيم )	الطاهر-أحمد
القاهرة ١٩٥٤	معهد الدراسات ( معروف الرصافي )	طبانة-بدوي

- الطرابلسي - أمجد (شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٧  
عباس - احسان
- نجم - محمد يوسف (الشعر العربي في المهجر) بيروت ١٩٥٧
- عبيد - أحمد (ذكرى الشعراء) دمشق ١٣٥١ هـ
- عرفة - ياسين (ديوان الثورة العربية) القاهرة ١٩٢٦
- عزام - عبد الرحمن (الرسالة الخالدة) التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٦
- عز الدين - نجلاء (العالم العربي) القاهرة ١٩٥٠
- عقل - سعيد (قدموس) ط ٢ بيروت ١٩٤٧
- علي - مصطفى (معروف الرصافي) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٤
- العمرى - خير الدين (شخصيات عراقية) بغداد ١٩٥٥
- فارس - نبيه أمين و محمد توفيق حسين (هذا العالم العربي) دمشق
- فروخ - عمر (شاعران معاصران) بيروت ١٩٥٤
- قديري - أحمد (مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى) ابن زيدون دمشق ١٩٥٦
- الكيالي - سامي (الحركة الادبية في حلب) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٦
- ماهر حسن فهمي (شوقي: شعره الاسلامي) المعارف القاهرة ١٩٥٩
- البارك - محمد (الامة العربية في معركة تحقيق الذات) دمشق ١٩٥٩
- المقدسي - أنيس الخوري (الاتجاهات الادبية) جزءان بيروت ١٩٥٠
- المقدسي - أنيس الخوري (العواطف القومية في الادب العربي) مخطوط
- مندور - محمد (الشعر المصري بعد شوقي) ٣ أجزاء معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٨
- مندور - محمد (في الميزان الجديد) ط ٢ نهضة مصر القاهرة
- مندور - محمد (خليل مطران) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٤
- مندور - محمد (ولي الدين يكن) معهد الدراسات القاهرة ١٩٥٦
- ميرزا زهير (إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الاكبر) اليقظة دمشق ١٩٥٤
- نحاس - عبدالله يوسف (الفينيقيون) ط جريدة البصير ؟ ١٩٤٣
- مدير الدعاية ببغداد (فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله) بغداد ١٩٤٥
- هلال - محمد غنيمي (الرومانتيكية) ط نهضة مصر القاهرة ؟

## ج - المحاضرات

- مجموعة محاضرات دار الكتب الوطنية بحلب ( حلب ١٩٥٢ )  
( محاضرات الموسم الثقافي ) مطبعة حكومة الكويت  
( محاضرات في الشعر المعاصر ) آمال مخطوطة الدكتور إسحق موسى الحسيني

## د - الدوريات

مجلة بيروتية	الآداب
جريدة - دمشقية	ألف باء
جريدة - مصرية	الأهرام
جريدة - بيروتية	البرق
مجلة كلية دار العلوم - مصرية	دار العلوم
مجلة - دمشقية	الرابطة الادبية
مجلة - مصرية	الرسالة
مجلة - مصرية	السياسة الاسبوعية
مجلة - برازيلية	العصبة
جريدة - دمشقية	القبس
مجلة - دمشقية	المجمع العالمي العربي
مجلة - مصرية	المشير
مجلة - مصرية	المقتطف
مجلة - مصرية	الهملا

(١) أشرنا الى المحاضرة وصاحبها والى أعداد الدوريات في هوامش البحث .

## فهرس الشعراء

فصرنا هذا الجدول على الشعراء فأشرنا الى مواضع ورود اسمائهم في الكتاب ، وحرصنا على ذكر موطن الشاعر أو بلده ، وعلى اثبات تاريخ ولادته ووفاته ان تيسر لنا ذلك .

٢

اسطفان ، حبيب ( سورية ) ٢٣٢	ابن زيدون ، أحمد أبو الوليد ( ٣٩٤ ، ٤٦٣ هـ )
اسماعيل ، محمود حسن ( مصر ) ٢٣٠	٢٢٧ ، ٢٢٥
الأسمر ، محمد ( مصر )	ابن الصباغ ( العراق ) ١٨
٨٠ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٤٠ ، ٢٦٣ ،	ابن المعتز ، عبدالله ( ٢٩٦ ، ٣٤٩ هـ ) ١٨
٣٠٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٧٧	أبو تمام ، حبيب بن أوس ( ١٨٠ - ٢٣١ هـ ) ١٨١
إقبال ، محمد ( باكستان ) ٥٦	أبو ريشة ، عمر ( سورية ١٩٠٩ - ... )
الألوسي ، محمود شكري ( العراق ) ١٨	١٤٦ ، ١٥٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٩١ ، ٢٢٩
الالوسي ، الشهاب ( العراق ١٨٠٣ - ١٥٣ )	٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩
١٨	٤١٢ ، ٤٠٨
الاميري ، عمر بهاء ( سورية )	أبو شادي ، أحمد زكي ( مصر ١٨٩٢ - ١٩٥٥ )
٣٣٥ ، ٣٣١ ، ٦١	٥٨ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٦
ب	٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٤٥ ، ٣٢٠ ، ٣٣٤
البارودي ، فخري ( سورية )	أبو ماضي ، إيليا ( المهجر ١٨٩١ - ١٩٥٧ )
٢٧٣ ، ٢١٩	٣٨ ، ٤٧ ، ١٢٤ ، ١٣٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩
البارودي ، محمد سامي ( مصر ١٨٣٨ - ١٩٠٤ )	١٦٩ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ، ٢٩٣ ، ٣٤٢
١٨ ، ٢٤٤ ، ٢٥٤ ، ٣٧٤ ، ١٠٨	٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣ ، ٣٨٥
١٨٢ ، ٢٣٠	أبو الوفاء ، محمود ( مصر ) ٣٠٣ ، ٣٥٥ ، ٦٤
البارودي ، وجيه ( سورية ) ٢٣٢	الاحدب ، ابراهيم ( لبنان ١٨٢٦ - ١٨٩٠ )
البازي ، علي ( العراق ) ٣٥٢ ، ٨٥	١٨
باولي ، باترو ( سورية ) ٣٨٨	الأخرس ، عبدالغفار ( العراق ١٨٠٥ - ١٨٧٣ )
باكثير ، علي احمد ( مصر ) ١٢٦	ارسلان ، شكيب ( لبنان ١٨٦٩ - ١٩٤٦ )
بايرون ، جورج ( انكلترا ١٧٨٨ - ١٨٢٤ )	٣٠ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٩٠
١٤٣ ، ١٠٩	الازري ، عبد الحسين ( العراق ) ٥٧
البحقري ( ٢٢١ - ٢٨٣ هـ )	اسحق - أدب ( سورية ١٨٥٦ - ١٨٨٥ )
	٢٤ ، ٢٩٣ ، ٣٣٨

الجر ، عقل ( المهجر ١٨٨٦-١٩٤٦ )  
١٤٠ ، ١٣٩  
الجندي ، امين ( سورية ١٧٥٦-١٨٤١ )  
١٩٤٨  
الجندي ، علي . ( مصر )  
١٩٤ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ٧٧ ، ٦٥  
٣٦٣ ، ٣٣٠ ، ٢٩٨  
الجواهري ، محمد مهدي ( العراق )  
٢٦٩ ، ٢٦١ ، ٢٥٠ ، ١٤٧  
٣٢٤ ، ٣٢١ ، ٢٩٩ ، ٢٩٢  
٣٩٣ ، ٣٥٧ ، ٣٤٨ ، ٣٣٩ ، ٣٢٥

### ح

حافظ ابراهيم ( مصر ١٨٧١-١٩٣٢ )  
٦٣ ، ٤٨ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٢٧  
١١٤ ، ١١٣ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٢ ، ٨١  
١٨٩ ، ١٧٢ ، ١٤٠ ، ١٢٦ ، ١٢٤  
٢١٧ ، ٢١٥ ، ٢٠٩ ، ٢٠٣ ، ١٩٥  
٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٤٧ ، ٢٣٠ ، ٢٢٨  
٢٧٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٣ ، ٢٥٣  
٣١٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٢٨٩ ، ٢٧٨  
٣٨٢ ، ٣٦٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٤ ، ٣٢٦  
٤١٢ ، ٤١٠

الجبوي ، محمد سعيد ( العراق ) ٥٧  
الجبوي ، محمود ( العراق )  
٣٥٢ ، ٢٥٩ ، ٢٥٠

الحداد ، نجيب ( لبنان ١٨٦٧-١٨٩٩ )  
٢٣ ، ١٨

حسن ، محمد عبدالغني ( مصر )  
٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٤٢ ، ١٦٣ ، ٦١

حسون ، رزق الله ( سورية ١٨٢٥-١٨٨٠ )  
٢٢

الخلي ، جعفر ( العراق ) ١٥٠  
الحمصي ، قسطنطين ( سورية ١٨٥٨-١٩٤١ )  
٣٢٨ ، ٢١٠ ، ٢٠٩

البيبري ، حسن ( فلسطين )

٣٨٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٦ ، ٢٤٢ ، ١٠٠ ، ٧٦  
اليزم ، محمد ( سورية ١٨٨٤-١٩٥٥ )  
٢٩٦

البيستاني ، وديع ( فلسطين )

٣٨٣ ، ٢٩٦ ، ١٩٨

البيصير ، محمد مهدي ( العراق ١٨٩٦-١٠٠٠ )  
١٥٠ ، ٥٧

بيلاك ، اولانو ( البرازيل ١٨٩٥-٩٤٥ )  
١٤٤ ، ١٤٣ ، ١٤٢

### ت

التي ، ادب ( سورية ١٨٩٥-١٩٤٥ )  
٣١٦ ، ١٥٣ ، ٧٥

الطل ، مصطفى وهي ( الاردن ١٨٩٩-١٩٤٩ )  
٣٢٥ ، ٣١٦

التونخي ، عز الدين ( سورية ) ٣٥٠

### ث

ثاكري ( انكلترا ) ١٤٣ ، ١٠٩

### ج

الجارم ، علي ( مصر ١٨٨١-١٩٤٩ )  
٢٧٤ ، ٢٥١ ، ٢٠٦ ، ١٠١ ، ٩٦

٣٧٧ ، ٢٧٨

جبري ، شفيق ( سورية )

٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢١٢ ، ١٢٣ ، ٧٩

٤٠٢ ، ٣٩١ ، ٣٤٧

الجيل ، بدوي ( سورية )

٢٩٣ ، ٢٦١ ، ٢٣١ ، ٢١٩ ، ١٦٦

٤٠٩ ، ٤٠٨ ، ٣٩٦ ، ٣٨٤ ،

الجر ، شكر الله ( المهجر ؟ - ٠٠٠ )

٣٧٤ ، ٢٦٧ ، ١٨٨ ، ١٣٩ ، ١٣٨

١٤٧ ، ١٣٠ ، ١٢٣ ، ١٢٢  
٢١٧ ، ٢١٦ ، ١٩٠ ، ١٦٧  
٣٠٣ ، ٢٤١ ، ٢٣١ ، ٢٣٠  
٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥  
٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢١ ، ٣١٤  
٣٤٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٤  
٢٧٨ ، ٣٦٩ ، ٣٤٦

ز

الزركلي ، خير الدين (سورية ١٨٩٣-...)  
١٩٦ ، ١٥٦ ، ١٤٦ ، ١٣١ ، ٥٤  
٢٨٧ ، ٢٦٤ ، ٢٥٨ ، ٢٢٩  
٣١٦ ، ٣١٥ ، ٣١٢ ، ٢٩٥  
٣٧٩ ، ٣٦٥ ، ٣٥٣ ، ٣٤٧  
٤٠٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٥ ، ٣٩١  
٤١٢ ، ٤٠٩

الزهاوي ، جميل صدقي (العراق ١٨٦٣-١٩٣٦)  
٨٣ ، ٨٢ ، ٧٧ ، ٣٨ ، ٣٠ ، ٤٥  
٢١٧ ، ١٨٨ ، ١٥٨ ، ١٤٧  
٣١١ ، ٢٩٩ ، ٢٩٠ ، ٢٥٤  
٣٨٩ ، ٣٦٤ ، ٣٤٤ ، ٣٢١

س

الساعاتي ، محمود صفوة (مصر ١٨٢٥-١٨٨٠)  
١٨  
سر كيس ، سليم (لبنان ١٨٦٧-١٩٢٦)  
٢٢  
سعيد ، نصره (سورية)  
١٩٨  
سماحة ، مسعود (المهجر ١٨٨٢-١٩٤٦)  
٣٢٥ ، ٢٨٧  
سماكة ، محمد باقر (العراق)  
٣٥٢

حمد ، عمر (لبنان ؟ - ١٩١٦)

٣٨٩ ، ٣٤٤ ، ١٨٧

الجوماني ، محمد علي (لبنان) ١٩٥ ، ٥٨ ، ٤٧

خ

الخطري ، عبدالغني (العراق)

٣٥٢ ، ٣٤٨ ، ٥٧

الخطيب ، فؤاد (لبنان ؟ - ١٩٥٩)

٢٧٢ ، ٢٠٧ ، ٧٨ ، ٤٠ ، ٣٨ ، ٢٨

٣٨٧ ، ٣٣٢ ، ٢٨٧

الهوري ، اسكندر (فلسطين)

٣٨٢ ، ٣٧١ ، ٢٩١ ، ١٩٨ ، ١٦٧

الهوري ، بشارة (الاختل الصغير . لبنان

(١٨٨٩ - ٠٠٠)

٣٧٠ ، ٢٨٦ ، ٣٤٠ ، ١٩٨

الهوري ، رشيد سليم . انظر القروي

د

الدجيلي ، عبدالكريم (العراق) ٣٢٧

دعل بن علي الخزاعي (١٤٨ - ٥٢٤٦)

١٨١

دلال ، جبرائيل (سورية ١٨٣٦-١٨٩٢)

٢٣ ، ١٨

دموس ، حلیم (لبنان)

٣٧٢ ، ٢٦٧ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٨١

٣٩١ ، ٣٨٢

ر

الرافعي ، عبد الحميد (لبنان ١٨٥٩-١٩٣٢)

٢٠٧ ، ٢٠١ ، ٤٥ ، ٤٠ ، ٣٨ ، ٣٠

٣٤٤

الرافعي ، مصطفى صادق (مصر ١٨٨٠-١٩٣٧)

٣٧٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ١٠٠ ، ٨٧

الرصافي ، معروف (العراق ١٨٧٥-١٩٤٥)

٤٤ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٢٩ ، ٢٦ ، ٢٥

١١٧ ، ٩١ ، ٨٣ ، ٨١ ، ٧٧ ، ٥٠



## ص

- الصافي النجفي أحمد، (العراق)  
٣٢٨، ١٩٦، ٨٨، ٧٥
- صبري، اسماعيل (مصر ١٨٥٤-١٩٣٣)  
٢٧
- صيدح، جورج (المهجر)  
٣٨٥، ٣٨٠، ٣٧٣
- الصيرفي، حسن كامل (مصر ١٩٠٨-٠٠)  
٤٠١، ٣٥٦، ٣٥٥

## ط

- طاغور، رابندرانات (الهند ١٨٦١-١٩٤١)  
١٥٥، ١٥٣، ١٥٥
- الطرابلسي، أمجد (سورية)  
١٧٤، ١٧٣، ٣٠، ٢٦، ١٣
- ١٦٤، ٢٥٢، ٢٣٧، ١٨٣
- ٤٠١، ٣٥٣، ٢٦٩
- طه، علي محمود (مصر ١٩٠٢-١٩٤٩)  
٤٠٨، ٢٣٠، ١٦٧، ١٦٤
- ٤١٥، ٤٠٩
- طوقان، ابراهيم (فلسطين ١٩٠٥-١٩٤١)  
٣٠٤، ٣٠٣، ٣٠١، ٣٠٠
- ٣٩١، ٣٦٤، ٣٣٤، ٣٠٥
- ٤٠٥، ٤٠٤، ٤٠٣، ٣٩٨، ٣٩٧
- ٤٠٦

## ع

- العالمي، محمد كامل شعيب (لبنان)  
٨٧، ٥٣
- العامودي، محمد سعيد (العراق)  
٨٤

## ش

- الشبيبي، محمد باقر (العراق)  
٣٢٤، ٣٢١، ٥٧
- الشبيبي، محمدرضا (العراق ١٨٨٧-٠٠٠)  
٢٤٢، ٢٣٤، ١٤٧، ٩٩، ٥٧
- ٣٩٠، ٣٢١، ٢٦٢
- الشرتوني، محبوب (المهجر ١٨٨٥-١٩٣١)  
١٩٨، ١٩١، ١٩٠، ١٦٠
- ٣٨٥، ٣٧٣، ٣٦٨، ٢٨٥
- الشرقي، علي (العراق)  
٣٥٢، ١٤٨، ٥٧
- الشرقي، محمد (سورية)  
٢٦٤، ٢٢٤، ٢١٢، ١٨٨، ٨٤
- ٢٩٤، ٢٦٥
- شلي (انكلترا ١٧٩٧-١٨٥١)  
١٤٣، ١٠٩
- شوقي، أحمد (مصر ١٨٦٨-١٩٣٢)  
٥٨، ٥١، ٤٢، ٣٨، ٣٠، ٢٧
- ٩٤، ٨٤، ٨٢، ٦٧، ٦٢، ٥٩
- ١٠٣، ٩٨، ٩٧، ٩٦، ٩٥
- ١١٢، ١١١، ١١٠، ١٠٩
- ١٢٢، ١١٧، ١١٤، ١١٣
- ٢٠١، ١٨٣، ١٦٦، ١٢٦
- ٢٣٠، ٢٢٧، ٢٢٥، ١١٦
- ٢٥٠، ٢٤٩، ٢٤٨، ٢٤٧
- ٢٩٠، ٢٦٤، ٢٦٣، ٢٥٣
- ٣٦٢، ٣٦١، ٣٥٥، ٣٥٤
- ٢٧٩، ٢٧٨، ٢٧٧، ٢٧٦
- ٤٠٠، ٣٩٧، ٣٩٢، ٣٨٣
- ٤١٢

ف

الفراتني، محمد (سورية)  
 ٢٦٥،٢٦٤، ٢٣٧،٢٣٥،٨١  
 ٣١٣، ٣٠١، ٢٩٥، ٢٨٩  
 ٤٠٠،٣٩٦  
 فرحات إلياس (الهجر ١٨٩٣ - ١٠٠٠)  
 ١٩٧،١٣٣، ١٣٢، ٩٢،٨٢  
 ٢٧٢، ٢٦٧، ٢١٤، ١٩٨  
 ٣٥٠، ٣٠٣، ٢٩٢، ٢٨٧  
 ٣٧٣، ٣٧١، ٣٧٠، ٣٦٦  
 ٣٩٢،٣٨٥،٣٨٤  
 الفرطوسي، عبدالمعتم (العراق)  
 ٣٥٢  
 فكري، عبدالله (مصر ١٨٣٤ - ١٨٩٠)  
 ١٨  
 فلوبيير، غوستاف (فرنسة ١٨٢١ - ١٨٨٠)  
 ١٤٣،١٠٩  
 فهمي، عزيز (مصر)  
 ٢٦٢،٢٥٠  
 فياض - هولا (لبنان)  
 ٣٨٢،٣٧٤،١٩٨

ق

الهرودي، رشيد سليم الخوري (الهجر ١٨٨٧ - ١٠٠٠)  
 ١٤٥، ١٣٢، ٩١، ٨٩، ٦٧  
 ١٩١، ١٧٠، ١٦٩، ١٦٢  
 ٢٣٥، ٢١٤، ١٩٨، ١٩٢  
 ٣٠٣، ٢٩٥، ٢٨٩، ٢٦٨  
 ٣٥٠، ٣٤٥، ٣٣٠، ٣٢٩  
 ٣٨٤، ٣٨٣، ٣٧٣، ٣٧٠  
 ٤١٢،٣٩٤، ٣٨٥

عبدالمطلب، محمد (مصر ؟ - ١٩٣١)

٧٠،٥٠،٤٤، ٣٨، ٣٠، ٢٧  
 ٢٣٨،٢٢٨، ١٩٤،١٢٥،٨٧  
 ٣٥٤، ٢٨٨، ٢٧٨، ٢٥٤  
 ٤١٢،٣٥٥

عبد، محمد (مصر ١٨٤٩ - ١٩٠٥)  
 ٣٦٧

العبيدي، محمد حبيب (العراق) ٢٣٢  
 العدناني، محمد (فلسطين ١٩٠٤ - ١٠٠٠)  
 ٣٩١،١٩٤

عريضة، نسيب (الهجر ١٨٨٧ - ١٩٤٦)  
 ٣٠٠،٢٩٥،٢٧٢،١٦٧،١٢٩  
 عساف جورج (الهجر ١٨٨٣ - ؟)  
 ٣٤٢

الطار، أنور (سورية)  
 ٤١٢،٣٥٧،٢٢٩

العقاد، عباس محمود (مصر ١٨٨٩ - ١٠٠٠)  
 ٢٥٥، ٢٥٤، ١١٧، ١١٦  
 ٣٧٩،٣٣٤

عقل، سعيد (لبنان)  
 ١٥٠،١٤٢،١٣٦،١٣٥  
 عباد، محمود (مصر)  
 ١١٨،١١٣

الصباري، محمد جواد (العراق) ٣٩٤  
 عنبرة، ابن شداد (٥٢٥ - ٦١٥)  
 ٤١٢، ١٧٣

غ

الغلاييني، مصطفى (لبنان ١٨٨٥ - ١٩٤٤)  
 ٢٥٤، ٢٣١، ٢١٩، ٨٢، ٧٨  
 ٣٩١،٣٥٠،٣٤٩،٢٩٦،٢٩٣

غنيم، محمود (مصر)  
 ١٩٥، ١٢٥، ٩٥، ٦٥، ٦٤  
 ٢٥٣،٢٤٢،٢٣٦،٢١٣،٢٠٥

مجدي، صالح (مصر ١٨٢٦-١٨٨٠)

٢٤، ١٨

محرم، أحمد (مصر ١٨٧٧-١٩٤٥)

٤٣، ٤١، ٣٨، ٣٧، ٣٠، ٢٧

٨٠، ٧٠، ٦٦، ٦١، ٥٩، ٥٢

٢٣٧، ٢٣٠، ١٨٣، ١٢٥

٢٧٨، ٢٧٣، ٢٥٣، ٢٣٨

٣٩٩، ٣٣٢، ٣٦٠، ٣٢٦

المراش، فرنسيس (سورية ١٨٢٦-١٨٧٣)

١٨

مردم، خليل (سورية ١٨٩٥-١٩٥٩)

١٣١، ١٣٠، ٦٦، ٥٨، ٤٠

٢٣٣، ٢١٢، ٢٠٩، ١٦٦

٢٥٩، ٢٥٥، ٢٣٩، ٢٣٤

٢٦٥، ٢٦٤، ٢٦٠، ٢٥٩

٣٢٨، ٣١٣، ٢٩٧، ٢٨٥

٣٨١، ٣٧٨، ٣٦٥، ٣٥٣

٤٠٩، ٤٠٨، ٣٩٣، ٣٩٠

المصري، عبد الحليم (مصر ١٨٨٧-١٩٢٢)

٤٢، ٤١

مطران، خليل (لبنان ١٨٧١-١٩٤٩)

٢٢٠، ٢٢٠، ٢١٥، ١٢١، ٣٠

٣٣٨، ٣٣٣، ٢٨٥، ٢٣٠

٤٠٩، ٣٧٠

المعري، ابو العلاء (٣٦٣-٤٤٩ هـ)

٢٣٠، ١٥٧، ١٥٤، ١٥٣

٤٠٤، ٣٧٩، ٣٦٧

المعروف رشدي (لبنان)

١٤٢، ١٤١

المعروف، فوزي (المهجر ١٨٩٩-١٩٣٠)

٢٤٠، ٢١٨، ١٨٩، ١٤٢

القرظيني، محمد (العراق) ٥٧

القشطيني، ناجي (العراق) ٣٢٨

قنصل، الياس (المهجر ١٩١٤-٠٠)

٤٢٨٦، ٢٥٩، ٨٩، ٧٩، ٧٨

٤٣٨٤، ٣٠٨، ٣٧٠، ٣٦٦

٣٩٢، ٣٨٥

ك

الكاشف، أحمد (مصر)

٤١، ٣٨

كاشف الغطاء، محمد حسين (العراق) ٣١٦، ٥٧

الكاطمي، عبد المحسن (العراق ١٨٦٥-١٩٣٥)

١٦٥، ١٤٧، ٩٣، ٣٨، ٢٥

٢٥٤، ٢٤٩، ٢٣٠، ٢١٧

٣٤٧، ٢٩٧، ٢٨٧، ٢٧٠

٣٩٥، ٣٤٨

كيبينغ، رديارد (انكلترا ١٨٦٥-١٩٣٦)

١٠٣، ٧٦، ٧٤

كيتس، جون (انكلترا ١٧٩٥-١٨٢١)

١٤٣، ١٠٩

ل

لامارتين، الفونس (فرنسة ١٧٩٠-١٨٦٩)

١٤٣

الليبي، علي (مصر ١٨٢١-١٨٩٦)

١٨

لي هنت (انكلترا)

١٤٣، ١٠٩

م

المأمون، ابراهيم (مصر) ١١٨

المتني، أحمد ابو الطيب (٣٠٣-٣٥٤ هـ)

١٨١، ١٥٨، ١٥٤، ١١٩

٣٩٥، ٢٥٧، ٢٣٠

هوميروس (اليونان القرن ٩ ق.م)

١٧٣

و

الوليد، أبو الفضل « الياس طعمة »

( المهجر ١٨٧٤-١٩١٧ )

٩١ ، ٨٧ ، ٦١ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٦

٢١٨ ، ٢٠٢ ، ١٩٦ ، ١٩١ ، ١٤٩

٢٧٠ ، ٢٦٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥٤ ، ٢٣٣

٣٠٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٢٨٦ ، ٢٧١

٣٩٣ ، ٣٩٠ ، ٣٧٣ ، ٣٥٠ ، ٣٤٢

ويردي، مختايل خليل الله (سورية)

١٧٢

ي

اليازجي، ابراهيم (لبنان ١٨٤٧-١٩٠٦)

٣٤١ ، ٢١٢ ، ٢٠٤ ، ١٨

اليازجي، ناصيف (لبنان ١٨٠٠-١٨٧١)

١٨

يحيى، عمر (سورية ١٩٠١)

٣٩١ ، ٣٥١ ، ٣٣٠ ، ٢٣٥ ، ٩٠

٣٩٦

اليعقوبي ، أبو الاقبال (فلسطين) ٨٢

اليعقوبي، محمد علي (العراق)

٣٢٨ ، ١٥٠ ، ١٤٧ ، ٨٥ ، ٦٠

يكن، ولي الدين (مصر ١٨٧٣-١٩٢١)

٣١٠ ، ٢٧٨ ، ٢٧ ، ٢٦

٢١٨ المقدسي ، أنيس (لبنان)

٣٠ الملاط، شبلي (لبنان)

المنصور، حسين (السوان)

١٢٢ ، ٩٩ ، ٩٨

ن

٤٠١ ناجي، ابراهيم (مصر)

ناصر الدين، أمين (لبنان)

٢٨٥ ، ٢٣١ ، ١٨٣ ، ٨٧ ، ٣٠

٣٤٥ ، ٣١٠

نسيم، أحمد (مصر ١٨٨٧-١٩٣٨)

٧٧

النعساني، بدر الدين (سورية ١٨٨١-١٩٤٣)

٤٣ ، ٤١ ، ٣٠

نعيمة، مختايل (المهجر ١٨٨٩-...)

١٦٩ ، ١٦٨ ، ١٦١ ، ١٢٩ ، ٧٤

٣٧٢

ه

الهاشمي، محمد (العراق)

٣٥٢ ، ٢٩٠ ، ٤٥

الهندي ، خيرى (العراق)

٣٣١ ، ٣٢١ ، ١٤٧ ، ٨٣

الهنداوي، احمد رضا (العراق)

٣٥٢ ، ١٩٦

هوجو، فكتور (فرنسة ١٨٠٢-١٨٨٥)

٣٣٧

# المحتوى

١٤ - ٥

تقديم

٣١ - ١٥

المدخل : بواكير الشعر القومي

ملامح النهضة العربية في القرن التاسع عشر ١٥ - بوادر اليقظة  
القومية في مصر والشام ١٧ - شذرات مبكرة من شعر التحرر ١٩ -  
قصائد أثرية من الشعر الحماسي ٢٤ - اليقظة الدستورية والشعر القومي ٢٦

## الباب الاول

روافد التيار القومي

٧٢ - ٣٥

الفصل الاول : الجامعة الاسلامية

ترابط عاملي الدين والقومية في الشعر العربي ٣٥ - التداخل بين الجامعة  
الاسلامية والجامعة العثمانية واختلاط مفهومي العروبة والاسلام ٣٧ -  
بدء الانشطار بين عنصري الامبراطورية العثمانية وانبثاق القوميتين  
الطورانية والعربية ٤٤ - انهيار نظام الخلافة وتحول الشعراء عنه ٤٩ -  
تميز النزعة العربية وبدء استقلالها عن النزعة الاسلامية ٦٣

١٠٤ - ٧٣

الفصل الثاني : الرابطة الشرقية

الجذور البعيدة للرابطة الشرقية ٧٣ - انصار المشاعر الوطنية في  
الروح الشرقية الشاملة ٧٦ - خفوت النزعة الشرقية في الشعر  
بقيام الحرب العالمية الاولى ٧٩ - اشتداد العاطفة الشرقية اثر غدر  
الحلفاء بالعرب ٨٠ - اختلاف مفهوم الشرق ضيقاً واتساعاً وتأثيره  
بمجرى الأحداث القومية ٨٦ - اضطراب مفهوم الشرق واختلاطه  
بمفهوم الاسلام ومفهوم العروبة ٩٣

## الفصل الثالث : النزعات الوطنية الاقليمية « الفرعونية ، الفينيقية ،

١٠٥-١٥٢

الآشورية »

ازدهار النزعات الوطنية المحلية في الشعر على انقاض الجامعة  
الاسلامية ١٠٥ - النزعة الفرعونية تنطلق من أساس وطني ونفسي  
١٠٦ - طرف الشعراء في التعلق بأمجاد الفراعنة ١١٤ - التنديد  
بالنمرة الفرعونية ١٢٢ - النزعة الفينيقية لدى شعراء لبنان ١٢٧ -  
التنديد بالفينيقية ١٣٠ - الفينيقية تقف عند حدود التفاخر بالماضي  
السحيق ١٣٢ - النزعة الآشورية تلد هزيمة في العراق وصادها  
خافت في الشعر ١٤٥

١٥٣-١٧٦

## الفصل الرابع : العاطفة الانسانية

الأواصر بين العاطفة الانسانية والقومية ١٥٣ - العاطفة الانسانية  
تشدد إبان الحروب والنكبات الكبرى ١٥٧ - تعانق النزعتين  
الانسانية والقومية ١٦٣ - الصيحات القومية في الشعر تعلو على  
الانعام الانسانية ١٧١

## الباب الثاني

### تيار القومية العربية

١٧٩-١٩٢

تمهيد : نشوء الفكرة القومية

أصول المشاعر القومية عند العرب ١٧٩ - تميز مشاعر العروبة في  
التاريخ الحديث ١٨٢ - التناحر بين العروبة والطورانية ١٨٤

١٩٣-١٩٨

الفصل الاول : وحدة الاصل

تمسك العربي بنسبه واعتزازه بأصله ١٩٣ - الوشائج الدموية والمنوية  
مع الأسلاف ١٩٧

## الفصل الثاني : اللغة العربية

١٩٩-٢٢٠

آثر اللغة في دعم الكيان القومي ١٩٩-اعتزاز الشعراء بلغة انضاد ٢٠٠ -  
الفصحى تحوض معركة القومية ضد التفرنج والعامية والشعوية ٢٠٢

## الفصل الثالث : الماضي المشترك

٢٢١-٢٤٥

الشاعر القومي الحديث ظل وثيق الارتباط بمجد آباءه ٢٢٤-الاعتزاز بالماضي  
التليديفدوعاملا سلبيا معوقا ٣٣٨- رد فعل تجاه النزوع الى الماضي ٢٤١

## الفصل الرابع: المطامح والآلام المشتركة

٢٤٦-٢٥٦

انصهار مشاعر العرب في بوتقة نضالهم العاثر ٢٤٧- انبثاق الأمل  
المشترك من خلل الكفاح المرير، والتطلع الى وحدة المصير العربي ٢٥١

## الفصل الخامس: الوحدة العربية

٢٥٧-٢٧٩

وحدة الوطن العربي منذ القدم ٢٥٧- سحق الشعراء على التجزئة وتنديم  
بالحدود المصطنعة ٢٦٠- تعلق الشعراء بالوحدة الشاملة ٢٦٦- تبشير  
الشعراء بالدولة العربية الموحدة ٢٧٠

## الباب الثالث

### موضوعات الشعر القومي

## الفصل الاول : مناضلة الاستعمار

٢٨٣-٣٠٧

انفجار مشاعر النقمة ضد الحلفاء إثر احتلالهم بلاد العرب ونكثهم  
العهود ٢٨٤-التنديد برسالة التمدن الزائفة ومبادئ الحرية المزعومة ٢٩٢  
كشف الشعراء اقنعة الاستعمار من انتداب ووصاية وحماية ٢٩٦- التبصير  
بأساليب المستعمرين ٣٠٠- التهكم والسخرية طابع كثير من الشعر  
القومي ٣٠٣

## الفصل الثاني: التنديد بالاستبداد وفساد الحكم

٣٣٩-٣٠٨

النثر والشعر في فترة الاستبداد الحميدي ٣٠٩ - خيبة الأمل تجاه الملوك والحكام العرب ٣١١ - تجرؤ الشعراء على الطغاة ٣١٤ - التنديد بالبرلمانات المصطنعة والحكومات السورية ٣٢٦

## الفصل الثالث: استنهاض الهمم والحض على الثورة

٣٥٨-٣٤٠

الشعر يحمل رسالة التنبيه والتبصير ٣٤٠ - سرعان روح الثورة والتمرد إثر الاحتلال ٣٤٦ - الشعريواكب الثورات القومية في الشرق العربي ٣٤٨

## الفصل الرابع: التضامن والاخاء

٣٨٦-٣٥٩

الشقاق السياسي وتفرق أهواء الأمة وأثر ذلك في الشعر القومي ٣٦٠ - التعصب الديني والنزاع الطائفي وأثر ذلك في الشعر القومي ٣٦٦ - الشعر يحمل رسالة الوثام ويبشر بالتسامح والاخاء ٣٧٥

## الفصل الخامس: البطولة والفداء

٤١٥-٣٨٧

الشعريواكب آيات البطولة في نضال العرب الحديث ٣٨٨ - الشعراء يخلدون أبطال الأمة وشهداءها ٣٩٣ - تجاوب الشعراء العرب مع بطولات الشعوب الأخرى ٤٠٦ - موضوع البطولة والفداء ومنزلته في الأدب الحديث ٤١٠

## الخاتمة : رسالة الشعر القومي

٤٢٩-٤١٦

المضمون ٤١٦ - الشكل ٤٢١ - رسالة الشاعر العربي ٤٢٣ - مستقبل الشعر القومي ٤٢٧

٤٣١

آراء وأصداء

٤٣٤

المصادر

٤٣٨

المراجع

٤٤٢

فهرس الشعراء

٤٤٩

المحتوى







